سيرة
الملك الظاهر بيبرس



الملك الظاهر بيبرس

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق بغداد (١٣٧٨) لسنة ١٩٨٩



سِيرَة

المَلِكُ الظَّاهِر بَيبَرس

الناشر
مكتبة الشرق الجديد - بغداد

قال الراوي : وهو الديناري رحمه الله تعالى ، انه كان من قديم الزمان وسالف العصر والاوان خليفة في بغداد يدعى شعبان المقتدر بالله، وله ولدان احدهما يقال له ابراهيم والاخر يقال له احمد ، وكان احمد يهوى الحمام وكان للخليفة وزير يقال له محمد العلقمي وكان له ولد اسمه ابراهيم وكان يهوى الحمام وله ولع كثير فيه فلما كان يوم من الايام تراهنوا مع بعضهم بالحمام ووقعت بينهم شروط على ان كل من غلب يأخذ حمام الاخر ، ومن الامر المقدر ربح الرهان ابراهيم العلقمي ابن الوزير فقال هذا الحمام قد صار من حقي ، فقال احمد بن المقتدر هذا لا يكون ، وما انت الا مجنون ، ثم تشاجرا ووقع بينهما الشر فقال احمد المقتدر لا بد ان اسير الى ابي واخبره بذلك ، ثم ترك الحمام ومضى الى ابيه واطلعه على الخبر فقال هذا الامر يا ولد لا دخل للحكومة فيه ثم صاح على الغلمان الذين حوله وقال لهم :

امضوا الان واذبحوا حمام الاثنين ، فلما سمع الغلمان ذلك ذهبوا وذبحوا حمام ابن الوزير جميعه وحمام ابن الخليفة ذبحوا منه البعض وتركوا له البعض ، لما راوه يبكي فلما نظر ذلك ابن الوزير صعب عليه وكبر لديه وسار الى ابيه الوزير ، وقال له : يا ابي امر الملك بذبح حمامنا وقد جرى من الامر ما هو كذا وكذا . فلما سمع العلقمي ذلك اغتاظ غيظا شديدا وقال في نفسه ان الملك يهين ولدي ويكرم ولده ، ولكن لا بد ان اعمل له شيئا بملكه ، وسوف احرض عليه الملوك فهذا ما جرى ، واما ما كان من شعبان المقتدر فانه في الصباح نزل الى الديوان وجلس والوزير محمد العلقمي الى جانبه ثم ان الخليفة نظر الى الوزير فراى منه عين الغدر

فالتفت اليه وقال له ما لي اراك معبس الوجه ايها الوزير أظن انه صعب عليك حيث أمرنا بذبح الحمام فقال يا امير المؤمنين أمرك مطاع ثم شكره ودعا له واثنى عليه فأمر له الخليفة بخلعة تسره وتطيب خاطره ، كل هذا والوزير لا يزداد الا غيظا وحقدا ، فلما نظر الخليفة ذلك خاف من شره وقال انه غدار وربما يحرض عليّ احد الملوك وانا لا آمن من مكره ثم انه صبر الى الليل وجمع قواد الامن وقال لهم امسكوا ابواب بغداد وفتشوا كل من يخرج منها بكتاب والداخل فما لكم عليه سبيل . هذا وقد نزل المفتشون بأمر امير المؤمنين المقتدر ، فهذا ما كان من الخليفة ، وأما ما كان من الوزير العلقمي فانه صار يدبر الحيل الى ان اعياه الامر ولم يقدر ان يرسل مكاتبة الى احد من الملوك لاجل الحراس الذين على الابواب ، فلما كان في بعض الليالي دعا مملوكا له يقال له جابر وقال له يا جابر انا لي عندك حاجة واريد منك قضاءها فقال له يا سيدي مهما تكن اقضيها لك . قال له أريد ان ارسل معك رسالة الى الملك منكتم ولك مني مائة دينار وخلعة سنية وانت بعد ذلك حر لوجه الله فقال له جابر يا سيدي روحي لك الفدا ولكن لم اقدر اخرج من بغداد برسالة لانك تعلم ان الحرس شديد فقال له الوزير الامر اقرب من ذلك . ثم انه اخذ موسا وحلق به راس المملـــوك وكتب على راسه كتابا سنذكره ، ثم انه صبر الى ان إنكست رأســـه بالشعر وخضبت الكتابة فقال له الوزير اذهب الان الى بلاد العجم . ثم انه خرج من بغداد وفتشه الحراس فما وجدوا معه شيئا فتركوه فسار الغلام يقطع البراري والآكام الى ان وصل الى بلاد العجم ودخل على الملك منكتم وسلم عليه فقال له من انت ومن اين اتيت ؟ فقال يا مولاي انا من مدينة بغداد من عند الوزير محمد العلقمي وزير الخليفة المقتدر . فقال له ما معك من الاخبار ؟ فقال له معي سر أريد ان اطلعك عليه . فأخذه ودخل به الى مكان منعزل وقال له ارني ما معك . قال معي رسالة وهـــي مكتوبة علـــى راسي . فعند ذلك حلق له راسه فظهرت الكتابة فقراها ووجد فيها خطابا من الوزير محمد العلقمي الى بين ايادي الملك منكتم الذي نعلمك به ان امير المؤمنين جار علينا وتكبر وظلم وانت أحق منه بالسلطنة فحال وصـــول المملوك اليك اركب بجيوشك ويكون وجهتك بغداد وأنا املكك الارض والبلاد واقتل حامل الرسالة من غير اطالة ليكون السر بيننا والسلام .

قال الراوي : فلما فهم الملك منكتم ذلك الامر فرح واستبشر وجرد سيفه وضرب به راس المملوك واطاحه وكان هذا اللعين منكتم فارسا شديدا وجبارا عنيدا يعبد النار وكان له ولدان احدهما يقال له هلاوون والاخر

عبد النار ، فأمر باحضارهما بين يديه وقال لهما اعلموا انه قد جرى من الامر ما هو كذا ، فلما سمع اولاده منه هذا الكلام فرحوا وسجدوا شكرا للنار ، ثم تقرر الامر بينهم على انهم يملكون البلاد ثم ان الملك منكتم أمـــر بتجهيز العساكر والجنود فركبت العساكر وكان عددهم ستين الف فارس وقال لولديه خذوا هؤلاء العساكر وامضوا بهم الى ارض بغداد وانزلوا عليها وانا لاحق بكم فسار الملاعين هلاوون اخوه عبد النار اما الملك منكتم فانه بعد مسير ولديه بعشرة ايام جهز جيشا ثانيا وتبع اثرهم فهذا ما كان من هؤلاء واما ما كان من امير المؤمنين شعبان المقتدر بالله فانه بينما هو جالس في يوم من الايام واذا بغبار قد ثار وعلا وسد الاقطار فأرسل الخليفة من يكشف له الاخبار وعادوا اليه وقالوا يا امير المؤمنين قد اقبلت جيوش عباد النار وفي اولهم هلاوون واخوه اولاد الملك منكتم وهم يطلبون بغداد ويعولون على الحرب والجلاد . فلما سمع الخليفة ذلك قال لا حول ولا قوة ولا بالله العلي العظيم ولكن لاي شيء اتوا وما الذي يريدون من الامر والشأن يـا وزير ؟ فقال لا ادري شيئا من ذلك يا امير المؤمنين فعند ذلك جمع الخليفة ارباب دولته واطلعهم على هذا الامر وشاورهم فيما يفعل فقالوا يا امـــير المؤمنين الان لم يكن عندنا عساكر كثيرة والراي الصواب ما لنا غير الحصار على الاسوار الى ان يأتينا الفرج من العزيز الجبار فقال الخليفة هذا هو الصواب . ثم انه امر بغلق ابواب بغداد فأغلقوها وصعدت الرجال على الاسوار واقبل هلاوون وحط على بغداد ونزلت حولها عباد النار واحتاطوا بها فصاحت الابرار ورموهم بالاحجار والنبال ودام الحصار ذلك النهار حتى اقبل الليل التفت الخليفة الى وزيره العلقمي وقال والله اني متعجب من قدوم هؤلاء الملاعين الينا وتجرئهم على بلادنا واني اريد منك في غد ان تنزل وتنظر ما هم طالبون فقال له الوزير يا خليفة المؤمنين هذا ليس بصواب والراي عندي ان تنزل انت في عساكرك ومن عندك من الرجال بالسلاح وانا اكون من خلفك اعين العساكر الذين معك وبهذا يكون اهيب لنا وارهب لاعدائنا اذا راوك قد خرجت اليهم . فلما سمع الخليفة ذلك الخطاب ظن انه صواب ولم يعلم ان الوزير اراد اهلاكه ثم انهم باتوا تلك الليلة ولما كان الغد نهض الخليفة ونزل برجاله واهل دولته وفتحت ابواب بغداد وخرج الخليفة طالب اهل العناد اما الوزير العلقمي بعد ان خرج الخليفة من بغداد امر بغلق ابواب المدينة فلما عاين الخليفة ذلك علم ان الحيلة قد تمت وان كل ما قد صار من الامور بأمر الوزير فقال اسلمت امري الى اللطيــــف

الخبير . ثم انه صاح بملء راسه يا عصبة الاسلام احملوا على القوم اللئام وابذلوا فيهم الحسام فمن عاش منكم ، عاش سعيداً ومن قتل مات شهيداً وتبعه اثنا عشر الف من الابرار وعمل البتار وطلع الغبار وقصرت الاعمار ولم يزل السيف يعمل ونار الحرب تشعل الى ان ولى النهار واقبل الليل بالانسدال وقد كلت سواعد امير المؤمنين ومن معه من الرجال المجاهدين وكان القوم اللئام في ستين الف كما ذكرنا فأحاطوا جميعا بالمسلمين وأسروا اربعة آلاف فارس ثم انفصلت الطائفتان وتحارس الفريقان الى ان اصبح الصباح فركب امير المؤمنين ومن معه من العساكر وركبت ايضا عباد النار واختلطت الطائفتان وعمل القتال ولم تزل نار الحرب دائرة والقيامة قائمة الى وقت العصر فتغلبت الكفار على المؤمنين واخذوهم اسرى عن بكرة ابيهم وفي الجملة امير المؤمنين شعبان المقتدر واوثقوا الجميع ودقت الطبول والمزامير وصاحت الكفار يا للنار ذات الشرار فلما سمع الوزير العلقمي بذلك النداء علم ان المسلمين كسروا ، والكفار نصروا ، فأمر بفتح ابواب المدينة وخرج في جماعة من رجاله وتلقى هلاوون واخيه وهنأهم بالنصر فشكروه واثنوا عليه ودخل هلاوون واخوه عبد النار وبعض رجالهم الى بغداد وفي صحبتهم الوزير العلقمي واجلسهم على كرسي بغداد وقال لهم انتم احق بهذا من شعبان المقتدر . فلما سمع هلاوون التفت اليه وقال له يا علقمي اما انت مسلم ؟ قال نعم ، قال له والخليفة ما هو مسلم ؟ قال نعم وما السبب الذي حملك على ما فعلت وكيف دبرت هلاكه ؟ فعند ذلك اعاد عليهم ما جرى من قصة الحمام وابنه والخليفة وما فعل معه فلما سمع هلاوون ذلك قال له ويلك اذا كنت انت فعلت ذلك في من هو من دينك وولي نعمتك من اجل حمامة فنحن تهلكنا من اجل ذبابة وانت لم يكن فيك خير لدينك فكيف يكون فيك خير لنا ولا بد ان نجازيك على فعالك . ثم ان هلاوون أمر رجاله وقال لهم خذوا هذا واصلبوه على باب مدينة بغداد وبعد ذلك دعي الملك هلاوون بالأسرى فحضروا وكان من جملتهم امير المؤمنين فلما وصل الخليفة الى باب المدينة راى الوزير مصلوبا فتعجب من ذلك وقال الحمد لله الذي اوقعك في بغيك وجازاك على فعلك ، ثم سار هو ومن معه حتى وقف بين يدي اللعين هلاوون وأخيه فلما رآه هلاوون ارتعدت فرائصه وذلك هيبة من الله تعالى ولم يكلمه وقال خذوهم الى السجن هو ومن معه ثم جلس على الكرسي وصار يحكم واذ داخل عليه قدر سبعين رجلا من الاكراد وعليهم آثار العبادة وهم متقلدون بسيوف من خشب وينادون لا اله الا الله محمد رسول الله فلما رآهم اللعين هلاوون قال لمن

حوله ما هؤلاء فقالوا ان هؤلاء من فقراء المسلمين واظنهم ما اتوا الى هنا الا ليهنئوك ويطلبوا احسانك وهم يذكرون الله . فلما سمع ذلك قال أريد ان انظر الى ذكرهم فعند ذلك امروهم بالذكر فقام المقدم عليهم ونصب حلقة الذكر فلما راى اللعين هلاوون ذلك قال وحق النار ما هذا الا جنون، ثم صاح على من حوله ويلكم اخرجوهم من هذا المكان فعند ذلك صاحت الاكراد بعلو اصواتهم ونادوا الله أكبر فتح الله ونصر وخذل من كفر فأجابهم من خارج القصر سبعون الفا من الاكراد وهم ينادون الله اكبر وكان المقدم على الاكراد الامير نجم الدين الايوبي وهجموا وقصدوا السجن الذي فيه الخليفة والأسرى وكسروا الباب وفكوا قيودهم فخرجوا وبأيديهم السيوف وصاحوا على عباد النار و سقوهم شر الوبال وما كانت الا برهة حتى شرب الكفار كأس البوار وما نجا منهم الا قليل وهرب هلاوون وأخوه وهم لا يصدقون بالنجاة .

قال الراوي : وكان السبب في مجيء نجم الدين والاكراد الايوبية انه كان بين وادي بكر وبغداد قبيلة من قبائل العربان تسمى قبيلة الاكراد وكانوا من نسل أشراف يقال لهم الاكراد الايوبية فجاءهم قحط امات مواشيهم واخرب الارض فأعياهم الامر في ذلك ، فذهبوا الى كبيرهم نجم الدين وقالوا له يا سيدنا قد خربت الارض ولم يبق لنا فيها معاش فانظر لنا ارضا خصبة غير هذه الارض ، فقال لهم هذا هو الصواب ثم انه احضر رؤساء عشيرته وقال لهم سيروا بنا الى امير المؤمنين لنشكي له ما قد حل بنا فلعله يعطينا ارضا خصبة نقيم بها ، وساروا يقطعون القفار وبينما هم سائرون واذأبشخص سائح في البرية فتقدم نجم الدين وقبَّل يده هو والذين معه فقال لهم الشيخ الى اين تريدون يا كرام فقالوا نريد مدينة بغداد لان ارضنا أجدبت علينا ونطلب من الخليفة يعطينا ارضا غيرها فقال لهم الشيخ نعم ما رايتم وما به اشرتم ، ولكن ارجعوا الى ارضكم وجهزوا رجالكم واسرعوا الى بغداد وخلصوا امير المؤمنين ومن معه من المسلمين فانهم في القيود والاغلال ، فاذا وصلتم الى هناك فجردوا سيوفكم ونادوا بالتكبير والتهليل وانكم ان شاء الله من المؤيدين بنصره وانصرف عنهم بعدما دعا لهم ، وكان هذا الشيخ حبيب النجار قدس الله سره ، واما ما كان من الاكراد فانهم رجعوا الى ارضهم وجيشنوا رجالهم ثم عادوا وجدوا المسير الى ان دخلوا بغداد وجرى ما جرى من الامر والشان وقتلوا الكفار، اما الخليفة شعبان المقتدر لما قتلت عباد النار وانهزموا ، اقبل على الاكراد

وصار يشكرهم ويثني على اميرهم نجم الدين الايوبي ويرحب به ثم جلس على كرسي بغداد وقد على مراتب الاكراد واجزل لهم العطايا وافرد لهم مكانات ودور وقصور .

قال الراوي : بينما جيش اللعين الملك منكتم سائر واذا بفلول جيش اولاده وصحبتهم هلاوون واخوه فلما رآهم قال ما دهاكم وما الذي جرى عليكم ، فقالوا يا ابانا قتلت الرجال وهلكت الابطال وجرى علينا من الامر ما هو كذا ، فلما سمع اللعين ما حل بهم اخذه الغيظ وقال لهم سيروا معي حتى اريكم العجب ، ثم انهم ساروا حتى اشرفوا على مدينة بغداد فوصل الخبر الى الخليفة فقال يا قوم اغلقوا ابواب البلد كفانا الله شر اهل النكد فقال له الامير نجم الدين لا تفعل ذلك ياامير المؤمنين فنحن لهم كفاية فعند ذلك نهض الامير نجم الدين وعشيرته وكل من اتى من العربان لاجل الجهاد في سبيل الله وخرج الخليفة ودولته لملاقاة الاعداء فلم يلحق الاعداء ان ينصبوا الخيام حتى لعب السيف فيهم من سائر الجهات وصاح المسلمون عن لسان واحد الله اكبر فخيل لعبدة النار ان السماء قد وقعت عليهم والارض خسفت من تحت ارجلهم ولم يزل القتال يعمل الى ان ولى النهار بالارتحال واقبل الليل بالانسدال واراد القوم اللئام الانفصال فما مكنتهم من ذلك عصبة الاسلام بل حملوا عليهم ومكنوا السيوف في اعناقهم وكثر النزال وبطل القيل والقال وعمل البتار وقصرت الاعمار الى ان ولى الليل واقبل النهار فقصد الامير نجم الدين جهة ملكهم منكتم وهجم عليه وضربه بالحسام اطاح راسه بالحال ولما انرات عباد النار ملكهم قتيلا والعلم انهار الى الحضيض انحلت عزائمهم فولوا الادبار وركنوا الى الهرب ولا نجا منهم الا من بقي له عمر ونصر الله المؤمنين الابرار على عباد النار وبعد ذلك امر الخليفة بجمع ما خلفوه فكانت غنيمة عظيمة وقد شكر الخليفة المقتدر بالله الامير نجم الدين على فعاله وقربه وادناه واوهبه واعطاه وكذلك رفقاه ثم انهم دخلوا بغداد وكان يوماً كالاعياد وجلس الخليفة على كرسي مملكته ولما استقر امر باحضار الاسرى بين يديه وكان في اولهم اولاد الملك منكتم هلاوون واخوه عبد النار فلما رآهم الخليفة امر بضرب رقابهم فانتدب السياف على رؤوسهم وهم يصيحون نحن في جيرتك يا امير نجم الدين فعند ذلك نهض الامير نجم الدين وقال ايها الملك المهاب اعلم ان اعمار الارض خير من الخراب ونحن نبيع هؤلاء انفسهم بالمال فقال الخليفة شأنك وما تريد فعند ذلك قال الامير الى هلاوون واخيه عليكم ثمن ارواحكم خزنة مال وكل سنة خراج خزنة من المال فقالوا علينا ما تحب وتختار فقال الامير

نجم الدين الخليفة ان القوم قبلوا ان يدفعوا الخراج والمال فقال الخليفة ضعوهم في السجن حتى يأتي المال فقال الامير وعزة الله المتعال انا الضامن لك جميع الاموال فدعهم يمضوا وما يغيب عنك المال الا بقدر وصولهم وانا قادر ان آخذ رؤوسهم وهم في ارضهم بقدرة الله ، فامر الخليفة باطلاقهم وردوا لهم خيولهم وسلاحهم وانصرفوا طالبين بلادهم ، ثم ان الخليفة جلس على كرسي بغداد وأطاعته البلاد وأتى اهل القرى والامصار يهنئونه وهو يخلع ويهب فدعوا له بدوام العز والنعم وبينما هو جالس واذا حضر رجل يقبّل الارض بين يديه فقال له الخليفة ما تريد فقال له يا سيدي نجاب وحامل كتاب ، ثم اعطى الكتاب الى الخليفة فأخذه وقراه واذا مكتوب به من هلاوون واخيه عبد النار الى بين أيادي الخليفة امير المؤمنين الواصل لكم خزنة مال فديتنا وخزنة مال خراج هذا العام فلما قراه الخليفة ارسل جماعة يتلقون المال وأمر القوم الذين اتوا مع المال بالضيافة واكرمهم وصرفهم سالمين ، ثم انه تفرغ بعد ذلك الى ضيافة الاكراد الايوبية وزاد في اكرامهم وقرب الامير نجم الدين وباسطه وقال له ايها الامير ان لك علينا منة وفضل لنصرتك لنا ، والان لنوفيك معروفك فتمنى علي اي شيء تريده أبلغك ما تتمناه فقال له انا أتمنى على الله ثم على امير المؤمنين ارضا غير ارضنا التي نحن فيها لانها أجدبت علينا ارضنا وهلكت مواشينا فقال الخليفة ايها الامير الهمام اني اعطيتك انت وقومك ارض مصر والشام ، فلما سمع الامير نجم الدين ذلك دعا للخليفة بطول العمر ودوام العز والنصر ، ثم أمر الخليفة ان يخلعوا عليه وعلى قومه الخلع السنية واعطاهم أوفى عطية وقد كتبت الحجج بما قرر الخليفة وبعد ذلك ودع الامير نجم الدين الخليفة ونزل من الديوان وصحبته قومه وعولوا على الارتحال وعند وصولهم الى ديارهم مرض الامير نجم الدين وتوفي وقبل وفاته أوصاهم ان ينصبوا عليهم اميرا ولده يوسف ويلقبوه بصلاح الدين ويسيروا الى ارض الشام ومصر ويخلصوها من أيدي الاعداء ثم انهم بعد مواراته التراب نصبوا عليهم الامير يوسف ولقبوه بصلاح الدين الايوبي .

قال الراوي : اما البلاد السورية والفلسطينية عندما اقبل السلطان صلاح الدين الايوبي كانت في فوضى وانهيار كبير فكان موجود في البلاد ثلاثة ممالك للافرنج الصليبيين وهي مملكة القدس ومملكة طرابلس الشام ومملكة الرها وماردين وما تبقى من البلاد مثل دمشق وحمص وحماه وحلب فكانت امارات بين أمراء اقطاعيين وكل واحد منهم مسؤول على مدينة

ومستبد بها ، ولا يهمه الا اشباع نهمه وكان هؤلاء الامراء غير متعاونين وكانوا لا يقدرون ان يدفعوا الطامعين من الافرنج عن البلاد فكانوا يدفعون الجزية الى ملوك الافرنج وهم صاغرون وكانوا مهددين دوما بالاحتلال وكان الشعب في ضنك عظيم مما يجبي منه الامراء مع ضريبة الجزية التي عليه الى الافرنج وانه غير مستقر على مصيره من تهديدات الاعداء المستمرة فلما سمع الشعب بقدوم السلطان صلاح الدين الايوبي للبلاد هلل له وفـــرح واستبشر به ليخلصه من هذه الفوضى التي هو فيها وكان كلما اقبل الى مدينة او امارة ينهض الشعب لملاقاته ويساعده على امتلاك البلاد وطرد امرائه الفاسقين الى ان دانت له البلاد والعباد في مدة لا تتجاوز الثلاثة اشهر فصار السلطان صلاح الدين يحصن البلاد ويكثر من الجنود ويناجز الاعداء في الداخل ويغزو الافرنج الى ان ازاحهم عن مواقعهم وخلص منهم سبعة عشر قلعة في جبل العلويين في مدة ستة اسابيع وخلص منهم الرها وماردين وبعد ان استقر له الحكم في البلاد وهابته ملوك الافرنج وصلته اخبار عن مصر انها في ضعف وانهيار وكانت بها دولة الفاطميين وهــم بآخر عهدهم والافرنج الصليبيون مرادهم الاستيلاء على مصر فاهتم لهذا الامر كثيرا فوجد في طريقه الافرنج المستولين على القدس وما جاورها من البلاد فصار يستعد لمنازلتهم وزيحهم عن طريقه حتى يصل الــى مصر فأكثر من الجنود وحشد الجيوش وصار يجهزها ويدربها الى ان صــار جيشه على أتم الاستعداد ثم سار وتوجه الى البلاد المستولي عليها الافرنج وتخطى حدودهم واحتل مدينة طبريا فلما رات الافرنج هذه المفاجأة جمعوا جموعهم وتلاقوا مع السلطان صلاح الدين الايوبي في ارض حطين التي موقعها ما بين الناصرة وطبرية وجرى القتال بينهم مدة خمسة ايام وكان نهر الشريعة وبحيرة طبرية وراء جيشه والاعداء في عطش شديد امـــا العربان فأشعلوا النار في الزروع والاعشاب اليابسة التي وراء جيـــوش الاعداء فتراخت مقاومة الاعداء فصارت جيوش السلطان صلاح الدين تقتل وتأسر منهم بالجملة بما فيهم ملوكهم ثم انهم القوا اسلحتهم ونادوا الامان فلما انتهت المعركة بانتصار جيوش السلطان صلاح الدين الايوبي بعث سرايا من الجيش واحتل جميع البلاد التي كانت بيد الاعداء ثم انه سار بجيشه الى القدس وحاصرها ، ثم جرت المفاوضة على ان يخرج الافرنج من القدس ويرحلوا الى بلادهم وعلى كل نفس جزية ثلاثة دنانير ثم راجعته نصارى العرب بأمرهم وقالوا له نحن سكان البلاد دعنا نكون تحت حكمك فسمح لهم في الاسكان وامنهم ، ثم انه بعدما استقر له الامر في البلاد توجه وسار

طالبا اراضي مصر وصار يستلم البلاد من نوابها بدون قتال ويضع فيها نوابا من رجاله الى ان وصل الى مصر ودخل على مليكها الفاطمي فوجده ضعيف الحال والارادة وحاشيته في تفسخ عظيم ومتفشية فيهم الرشوة وحب الذات ، والانانيات على أشدها فيما بينهم والملك الفاطمي عاجز عن مكافحتهم فلما راى الملك الفاطمي صلاح الدين الايوبي مقبلا عليه وهو مؤيد منصور راى من الاصوب ان يوليه على المملكة فولاه فصار السلطان صلاح الدين يولي على الأحكام من رجاله ويعزل رجال الملك الفاطمي عن الحكم والولاية وصار يستولي على ما هو في ايديهم . اما الملك الفاطمي فقد توفي الى رحمة الله ، وبعد وفاته وضع صلاح الدين الايوبي يده على خزائنه وأماكنه وصار يحصن البلاد ويبني القلاع ويكثر من الجنود ويوجه السرايا من العساكر الى أطراف البلاد وجعل ينفق في سخاء على العساكر ويكرم الابطال ثم انه صار يتفقد الحرمين الشريفين ويؤمن الحجاج الى بيت الله الحرام الى يوم من الايام وردت عليه الاخبار بأنه مقبل عليه من البحار اربعة ملوك كبار بجيوش جرارة وهم ملك الانكليز ريكاردوس وملك فرنسا وملك جرمانيا وملك النمسا ووجهتهم سواحل الشام قاصدين بيت المقدس لفتحها وأخذها منه فحالا سار السلطان صلاح الدين بجيشه والتقاهم وصار القتال على ضفاف شواطىء مياه البحر وكان نزولهم على عرض الشواطىء ولما أعياهم الامر بالمسير في البر الى القدس نزلوا على ميناء يافا ووجهتهم القدس اما صلاح الدين فحصن القدس بالجيوش حولها فلما صارت الافرنج على مقربة منها فاجأتهم جيوشه بضرب البتار وطعن الرماح وحملوا عليهم حملة صادقة بهمة عالية .وكان في اوائلهم السلطان صلاح الدين الايوبي فتراجع الاعداء وولوا الادبار فتبعتهم جيوش الابرار وصارت تضرب في أقفيتهم والخيول غائرة وراءهم وكلّ من قصر راح قتيلاً او اسيراً الى ان أوصلوهم الى مدينة الرملة ففقد الاعداء كثيرا من فرسانهم ثم انهم جددوا الحملات وحشدوا كثيرا من الجيوش ومرادهم بذلك القضاء على صلاح الدين وجيشه .

قال الراوي : ودامت هذه الحرب بين السلطان صلاح الدين الايوبي وملوك الافرنج ثلاث سنوات وهلك فيها خلق كثير من الفريقين ولكن هلك من الافرنج اكثر ، لانه فتكت بهم الاوبئة والامراض وغرق منهم كثير في البحر وقلّت عليهم المؤن ثم اختلفت الملوك فيما بينهم وملئت نفوسهم من هذه الحرب فطلبوا المفاوضة بالصلح مع السلطان صلاح الدين الايوبي

ودامت هذه المفاوضة بينهم مدة ثلاثة اشهر ثم بت الصلح بينهم على ان تكون السواحل في أيدي الافرنج والداخل بما فيه القدس يكون في يد السلطان صلاح الدين ووقعوا المواثيق والعهود على هذا الشكل وارتحلوا طالبين بلادهم ، اما السلطان صلاح الدين بعدما ارتحل الافرنج عن البلاد رحل طالبا دمشق الشام وأقام بها وأرسل اخاه الملك العادل الى مصر وجعله حاكما عليها وعلى اقطارها ، ثم ان السلطان صلاح الدين الايوبي بعد رحيل الافرنج بستة شهور مرض مدة عشرين يوما واعياه المرض فتوفي رحمه الله تعالى ودفن في دمشق جانب جامع بني امية وقبره مشهور يزار من قبل اهل البلاد ، وبالاخص من السواح الافرنج بما له من الشهرة عندهم في هذه الحروب وما ابداه من النبل والفروسية ومن وفاء العهود والمواثيق . ثم بعد وفاة السلطان صلاح الدين الايوبي تولى على السلطنة اخوه الملك العادل فأطاعته البلاد والعباد وحكم بين الناس بالعدل والانصاف واتاه الخراج من نواب البلاد الى ان توفي الى رحمة الله فتولى بعده ولده الكامل على السلطنة ودام بها مدة ست عشرة سنة ثم بعد وفاته تولى بعده ولده نجم الدين ايوب مدة احدى عشرة سنة وانتقل الى رحمة الله فتولى بعده ولده الصالح نجم الدين أيوب وكان صغير السن فبايعوه على السلطنة واقاموا له وكيلا من عشيرته الى ان بلغ مبلغ الرجال فاستلم السلطنة وجددوا له المبايعة وجلس على كرسي المملكة واطاعته العباد واتته الجزية والخراج من سائر البلاد الى يوم كان جالساً قال غدا ان شاء الله نصلي الجمعة في جامع الحسين ونطلب عنده الدعاء وثاني يوم الجمعة ركب الاكراد واهل لديوان وأمير المؤمنين يتوسطهم فبينما هم سائرون اذ اقبل موكب عظيم والمقدم عليهم رجل جليل القدر كبير الهمة فلما نظر مقدم القوم الى الخليفة والاكراد اراد ان يترجل ويمشي في موكب الخليفة فقال له الخليفة لا تكلف نفسك بالنزول ايها الامير وسر بجوادك جنب الشاهية فسار الآغا شاهين جانبه وهو يقول في نفسه الله يهون علي ان اترك بلادي واخدم عند هذا الرجل ولا اخالفه .

قال الراوي : وكان السبب في مجيء الآغا شاهين الى الديار المصرية انه كان في سابق الزمان مدينة تسمى بورصة وكان الحاكم عليها يقال له عثمان بك وكان له من الاولاد اثنان الواحد اسمه مسعود بك والثاني اسمه شاهين فلما كبر الولدان طلع شاهين فارساً صاحب راي وتدبير وكان عاقلا لبيباً فبعد مدة توفي والدهم عثمان بك الى رحمة الله فتقاسم الاثنان ملك بورصة وصارا يحكمان فيها وكثرت عساكرهم

وقويت شوكتهم فلما كان يوم والآغا شاهين جالس واخوه الى جانبه واذا بغبار قد ثار وسد الاقطار وبعد ساعة انكشف الغبار وبان من تحته عساكر قد سدت البر والفدافد وكان الجيش المقبل من الافرنج فعند ذلك جمع الآغا شاهين أرباب دولته وقال لهم لنركب في هذه الساعة ونكون ثلاث فرق ونحمل عليهم ونصدمهم صدمة صادقة ونسأل الله ان ينصرنا عليهم ثم قال انت يا مسعود بك تكون حافظا لبورصة فعند ذلك ركب الآغا شاهين وركب حوله من قومه واهله مائة الف فارس والآغا شاهين في اولهم والى جانبه رجل يقال له حسان الوزير وكان الإخر بطلاً نحريراً ولما ان خرجوا من بورصة قال الآغا شاهين الى الوزير خذ معـــك خمسين الف فارس واحمل على اليسار وانا آخذ معي خمسين الف واحمل على اليمين فقال له سمعا وطاعة ثم انهم حملوا على اللئام وصاحوا صيحة واحدة الله اكبر فتح ونصر هذا وقد حملت الابطال على بعضها وتدكدكت من ركض خيلهم الارض ولم يزل السيف يعمل والدم يبذل الى ان ولى النهار واقبل الليل بالاعتكار وانفصلت الطائفتان عن الصدام ورجعت كل طائفة الى خيامها .

اما ما كان من القوم الاعداء فانهم رجعوا الى خيامهم وشكوا الى ملكهم ما لاقوه من الآغا شاهين والوزير حسان لانهم قتلوا الفرسان وابادوا الشجعان فقال لهم الملك لا بد لي ان اخرج غدا اليهم وآخذ روحهم من بين جنبيهم وكان ذلك الملك جباراً لا يصطلى له بنار وهو آفة من الآفات يقبض الاسد بيده من الغابات فلما سمع قومه كلامه اطمأنت قلوبهم وباتوا تلك الليلة الى ان اصبح الصباح فعندها ركبت الطائفتان واصطفت الصفـوف وتعدلت المئات والالوف فكان اول من برز الى الحرب الآغا شاهين وهو راكب على جواد اشقر عالٍ من الخيل مضمر كأنه الطير في الجريان ثم انه صال وجال ونادى وقال يا لئام انا الآغا شاهين ملك بورصة هل من مبارز هل من مناجز فلما نظر ملك الاعداء ذلك أيقن انه يسقيه كأس الحمام فخرج اليه وهو راكب على جواد ادهم ثم انه حمل على الآغا شاهين فتلقاه كما تتلقى الارض العطشانة وابلا من المطر وقلب اقوى من الحجر وطلع عليهما الغبار وغابا عن الابصار وتطاولت اليهما الاعناق وايقن كل منهما بشرب كأس الحمام واخذ الاثنان في اخذ ورد وقرب وبعد الى ان صارت الشمس في قبة الفلك وخرج منهما طعنتان قاتلتان فكان السابق بالطعنة الآغا شاهين فوقعت في صدر عدو الله خرجت من ظهره فلما رات الافرنج ان ملكها قتيل وفي دمه جديل حملوا على الآغا شاهين من كل مكان وحملت المسلمون في جميع المواكب

وتكدرت المشارق والمغارب وما كانت الا ثلاث ساعات على ذلك العيار حتى ولى الكفار وركنوا الى الهرب والفرار وتركوا خيامهم واحمالهم ثم ان شاهين تبع الكفار في تسعين الف فارس وترك الباقين يلمون الاسلاب وما خلفوه وما زال المسلمون تابعين اللئام الى ان أوصلوهم الى ارضهم والديار وعمل فيهم البتار وهجموا على بلادهم واسقوهم كأس التلف فعند ذلك صاحت الكفار وطلبت الامان وقالوا نحن مستجيرون بالآغا شاهين فلما سمع الآغا شاهين استغاثتهم أمر برفع السيف عنهم بعدما اخذ اموالهم وذخائرهم وما تحويه أيديهم وولى عليهم من يصلح من دولتهم ورتب عليهم الخراج والجزية وهي مائة الف دينار في كل عام فأجابوا بالسمع والطاعة وكتب عليهم بذلك كتابا وتعاهدوا على ذلك وعاد الآغا شاهين فرحا بالنصر والظفر من رب العباد الى ان اقبل الى بورصة فلما وصلت اخبار المبشرين الى اخيه مسعود بك ان اخاك قد اقبل ومعه اموال تسد الفضاء اخذه الفرح والابتسام وامر ان تزين البلد لقدومه فعملت اهل المدينة المهرجانات والزين وخرج الى ملاقاة اخيه وسلم عليه وهنأه بالسلامة وفرقوا على الرجال والارامل والايتام شيئاً كثيراً من تلك الاموال والباقي دخل الخزينة وجلس الآغا شاهين والى جانبه اخوه هذا وقد تعجب الناس من فعال الآغا شاهين وحسدوه وقيل ان الحسد يورث النكد فبالامر المقدر انه مرض شاهين مرضا شديدا واشرف منه على الهلاك وسوء الارتباك وتوافدت عليه الحكماء فلم يعرفوا له دواء وايقن الآغا شاهين بشرب كأس الردى فلما كان يوم من الايام وهو في أشد مرضه اذ دخل عليه رجل وسلم عليه وقال له يا سيدي انا أدلك على ما فيه الصلاح فقال له الآغا شاهين قل واخبرني بما تريد قال اعلم يا سيدي اني عرفت مرضك وبأي شيء تبرا باذن الله وذلك ان هواء بورصة لم يوافقك ومناخها يضرك وانه لا يوافقك الا هواء مصر ومناخها واذا وصلت الى هناك فأقم في بقعة يقال لها البساتين تبرا باذن الله تعالى فقال الآغا شاهين اذا كان الامر على ما ذكرت فان هذا سهل باذن الله فعند ذلك جهز نفسه وركب فيمن شاء من دولته وسار طالبا ارض مصر بعد ان اجلس اخاه مسعود بك على كرسي بورصة وقال له اذا انتهى العام ارسل واطلب الجزية من الاعداء ثم سار الآغا شاهين الى ان اقبل الى ارض مصر ودخل بها ووصل الى تلك البقعة واقام الى ان كان بعض الايام وكان يوم الجمعة اراد ان يصلي في جامع سيدنا الحسين فركب فيمن عنده وسار الى ان وصل الى الرميلة فالتقى بموكب الملك الصالح ايوب فدخلوا المسجد وصلوا الجمعة وبعد رجوعهم الى الديوان اجلس

الخليفة الامير شاهين بجانبه وقال له هل لك ان تكون عندي وزيرا اعظم يا شاهين تأخذ حق المظلوم ممن ظلمه وتحكم بالعدل والله عليك من الشاهدين قال رضيت يا امير المؤمنين قال اوليتك وزيرا اعظم وصدرا افخم ففرح الآغا شاهين ولما انفض الديوان سار الى منزله وهو منشرح الصدر مسرور فلما اصبح الصباح ركب الوزير شاهين الافرم وسار الى الديوان وكان الملك الصالح قد نزل الى الديوان وحوله الامراء والفرسان والوزير شاهين دخل وسلم على الملك فرد عليه السلام بأحسن التحية واجلسه الى جانبه الايمن وتكامل الديوان وحكم ذلك اليوم شاهين وعدل فشكره الملك على ذلك وتداولت الايام فبينما كان الملك جالساً واذا بأربعة رجال يدخلـــون الديوان ويلقون السلام فقال الملك الصالح ما الخبر فقالوا يا امير المؤمنين اننا رسل السيدة فاطمة شجرة الدر بنت الخليفة المقتدر بالله وقد أمرتنا ان نقول لكم الارض ارضها ومصر مصرها وهي لها الحق ان تولي من تريد من السادات .

قال الراوي : فلما سمع الملك ذلك الكلام وما قالوه من المرام اخذه الغضب والعجب فلما رآه الوزير على ذلك الامر الخطير قال يا امير المؤمنين ان ما ذكره الرسل فهو حق لاسيما وقد ورثت الارض عن ابيها واني اقول لك ان هذا الامر ما له غير ان نستقبلها ونحسن وفادتها ونسر خاطرها فلما سمع الملك من الوزير ذلك الكلام قال له لقد تكلمت بالصواب فانزل اليها وسلم عليها ودبر هذا الامر برايك فأجابه الوزير بالسمع والطاعة ونزل من عند الملك .

قال الراوي : وكان سبب مجيء السيدة فاطمة انها اشتاقت نفسها الى الحج ذلك العام والى زيارة قبر النبي المختار فأخذت مالها وخدامها وطلبت ارض الحجاز وكان مرادها الاقامة هناك وكلما اتت على واد او قطر مــن الاقطار يتلقونها ويكرمونها غاية الاكـــرام الى ان وصلت الى ارض مصر السعيدة وأمرت بنصب الخيم الى ثاني الايام فلم تجد احدا يستقبلها ولا يكرم مثواها قالت واعجباه كيف ان جميع البلاد يكرمونني ويهادنونني وكيف ان هؤلاء القوم لا يكرمونني ولا يستقبلونني فوالله لا كان ذلك ابدا ولو سقيت كأس الردى فقال لها بعض جلاسها يا سيدتي لا تعجلي فربما كان هناك مانع والصبر أولى من الاستعجال فكاتبيهم وانظري رد الجواب ليظهر لـــك السؤال والخطاب فلما سمعت ذلك ارسلت هؤلاء الأربعة الرجال وقالت لهم جميع ما ذكروه للخليفة ونزل الآغا شاهين كما قدمنا ولم يزل سائرا

الى ان مثل بين يدي السيدة فاطمة شجرة الدر وقد راته السيدة بهي المنظر حسن المخبر والشجاعة لائحة بين عينيه ، فصارت تنظر الى اخر مرامه وما ينتهي اليه كلامه وسألته من انت وما الذي تريد فقال لها يا سيدتي انا وزير الملك الصالح ايوب وقد ارسلني اليك ويثني بالسلام عليك فقالت له وما اسمك قال لها اسمي شاهين الافرم فتعجبت غاية العجب وقالت له لعلك من بورصة فقال لها نعم هي بلدي فقالت له وما السبب في مجيئك الى هذه الديار واقامتك بأرض الامصار فأعاد عليها القصة من اولها لآخرها فلما سمعت منه ذلك صدقته لانها كانت تسمع أخباره من ابيها فلما علمت حاله عطفت عليه وقالت له ولاي شيء ما نزلت وانت والملك الى لقائي مثل ما فعل غيركم من الناس فقال لها يا سيدتي اننا لم يبلغنا الخبر بحضورك الى هذا المكان الا بالامس او لم يأت رسلك الينا والان فما بقي لك الا العزومة الملكية والاقامة الهنيئة وكل ما امرت به مطاع ثم ان الوزير ما زال يباسطها ويمدحها بحسن معرفته وفطنته الى ان لان جانبها وطاب قلبها ثم قبلت الضيافة فعند ذلك امر الرجال بنقل الامتعة والخيام وسار مع السيدة يجاذبها الحديث الى ان رات القلعة وعلم الملك الصالح بمجيئها فتهيأ الى لقائها ثم قابلها وسلم عليها فردت عليه السلام وطاب بينهما الكلام وهي داخل الستار فلما تكلمت مع الصالح ايوب أوقع الله حبه في قلبها ثم أنزلها بأعز مكان وقامت على ذلك المرام وهي في أعز مقام مدة ثلاثة ايام اما الملك الصالح فقد احب هذه السيدة وطلب الى الوزير شاهين ان يخطبها له فقال امرك يا مولاي ثم نزل الآغا شاهين وتوجه اليها واستأذن في الدخول عليها فأذنت له فدنى خلف الستار وسلم عليها فأمرت له بالجلوس فلما استقر به الجلوس قالت ان مجيئك الى عندي له سبب فقل ما تريد فقال يا سيدتي ما على الرسول الا البلاغ ان الملك يريد ان يتشرف بقربك ويحظى بطلعتك فماذا انت قائلة في ذلك كفاك الله شر المهالك .

قال الراوي : فلما سمعت السيدة فاطمة ذلك الكلام تبسمت وقالت له قضى الله وساطتك وبلغك امنيتك انت وصاحبك ومن الان ها انا بين يديه ولا ابخل بروحي عليه واكون له اهلا وهو يكون لي بعلا ولا حياء في كتاب الله وسنة رسوله وانت وكيلي فعند ذلك فرح الوزير واستبشر ثم انها خلعت على الوزير خلعة سنية واوهبته اجزل العطية وامرته بالمسير الى الملك الصالح فعاد الوزير الى الملك وبشره بقبولها فسر الملك وقال له هكذا يا وزير الزمان شأن الوزراء اهل العرفان ثم ان الملك امر بتجهيز الولائم وحضرت الوزراء والامراء وارباب الدولة والقاضي ونهض الملك الصالح

ايوب وقعد امام شيخ الاسلام وقال له يا مولاي اعلم ان السيدة فاطمة بنت المقتدر بالله قد اقبلت تريد الحج وزيارة النبي عليه الصلاة والسلام فوصلت الى الديار المصرية فطلبتها للزواج فأجابت بالقبول فاسألوها فقام شيخ الاسلام ومعه اثنان ووقفوا خلف الستار وسأل الشيخ السيدة عن ذلك الإمر فأخبرته بأن الوزير شاهين وكيلها في كل الامور فرجعوا واعلموا السادات بما قالته السيدة فاطمة من الخطاب ثم انعقد عليها بحضرة الجميع وقدمت الشرابات وتفرقت العطايا ثم استأذنت السيدة فاطمة من الملك برواحها الى الحج فأذن لها في ذلك ثم امر الآغا شاهين ان يتوجه معها الى الاقطار الحجازية وزيارة خير البرية ثم شرعت السيدة في المحمل المصري وكسوة الكعبة الشريفة وأخذت معها العوايد الى العربان ثم جعلت الآغا شاهين امير الحج وسارت السيدة فاطمة بالركب وبين يديها جنود الملك بالنوبة والمزامير الملكية وسار الموكب والمحمل الى جهة الحصوة ونزلت السيدة هناك وصارت الناس تتأهب الى الرحيل ، ثم سافرت السيدة والآغا شاهين وهي تفعل الخيرات والمبرات التي يطول الشرح فيها الى ان وقفت على عرفات وطلبت من الله نوال الحاجات وقضت الفريضة وتوجهت الى المدينة وزارت ودعت عند النبي الكريم ثم عادوا راجعين الى مصر متأهبين ولم يزالوا سائرين الى ان اتوا الى العديلة ، ووصلت البشائر وكان الملك الصالح ايوب منتظرا قدومهم ففرح بوصولهم وأمر الناس بالزينة وقابلوا الحجاج وركبت السيدة فاطمة مع الآغا شاهين في موكب عظيم ووهبوا واعطوا ولم يزالوا كذلك الى ان وصلوا الى قلعة الجبل وطلعت الملكة الى السرايا وعملت مولد الى خير البرية ، ثم ان الملك طلبها وشرع لها في الافراح والليالي الملاح فأعطى ووهب فلما كانت ليلة الزفاف نزل الملك مع السادات والاشراف وطلع الى السرايا ودخل على زوجته واقام في عز وهناء وجلس يتعاطى الاحكام فهذا ما كان .

قال الراوي : وكان ملك بأرض الموصل يقال له ايبك التركماني فكانت تأتي اليه الاخبار بما يجري في كل الامصار فبلغه ان مصر يحكم عليها ملك من الاكراد يقال له الملك الصالح وانه لا يعرف احكام ولا يدري حرب ولا قتال فلما سمع ايبك بذلك الكلام امر بتجهيز العساكر وقال لا بد ان املك مصر فأنا احق بها وسار بمن معه حتى وصل الى حلب حط عليها فأغلق نائبها الابواب واقام الحصار ، اما ايبك فأبلاه الله تعالى بمرض شديد فيئس من الدنيا وقد ازداد مرضه ولم يملك غرضه فأقبلت اليه الاطباء

والحكماء وصاروا يداووه ويعالجوه فلم يفده شيء بل زاد عياه وكثر شكواه وقد التهت رجاله بمرض سيدهم فانحلت عزائمهم وقلت همتهم ، اما ما كان من امر نائب حلب فانه سطر كتاب وارسله مع السيار وقال له عليك بمصر فأخذ الكتاب وسار ، فيوم جالس الملك الصالح واذا بباب الديوان داخل سيار قال الملك من اين قال من حلب الشهباء واخرج كتاب سلمه الى الملك فأعطاه الى القاضي فقراه وجد خطابا من نائب حلب الى بين ايادي امير المؤمنين اننا مقيمون يوم تاريخه ، واذ بملك يقال له أيبك التركماني من ارض الموصل حط على حلب فأغلقنا الابواب في وجهه واقمنا الحصار فارسلنا جواسيس يكشفوا لنا الاخبار فعادوا وقالوا انه يريد ارض مصر والشام ومرامه اخذ السلطنة فما استقر به النزول حتى ابتلاه الله بداء مهول ومرض لا يعرف له دواء وانه الان على حياض الموت . ثم سطرنا لك هذا الكتاب واعلمناك بما كان والامر اوليه سيذي . فلما سمع الملك ما في الكتاب قال اكتبوا الى نائب حلب ان يفتح له ابواب حلب واذا مر برجاله الى جهة الشام ومصر فلا يمنعه والله يفعل ما يشاء ، فكتبوا له ما امر به السلطان ورد الكتاب ، اما أيبك فانه زاد عليه المرض فبينما هو كذلك واذ مر به رجل متشبه بالعلماء الاعلام فسلم عليه فرد السلام فجلس الى جانبه وجعل يحادثه حتى انه احتوى على قلبه ثم قال له يا ملك الزمان ما بك فقال كما ترى بالعيان قال الم يأتك حكماء يعالجوك ومن هذا المرض ينقذوك فقال جاءني كثير وما زادني الا تحسير فقال له انا أداويك ومن هذا المرض اشفيك فقال له جزاك الله كل خير فتقدم اليه وجعل يداويه بأدوية يخبرها واعشاب يعرفها ثلاثة اسابيع حتى شفي وطاب من كل مصاب فلما شفي من مرضه اقبل على ذلك الشيخ وقبل يده وقال له ما اسمك يا مولاي قال له اسمي الشيخ صلاح الدين قال له من اي ارض قال له من العراق فظن أيبك انه ولي من أولياء الله فاعتقد به وقربه ولم يدر من هو !.

قال الراوي : وكان السبب في مجيء هذا القرنان اليه انه كان بسواحل الشام دير يعرف بدير نشوان ، ونشوان خلف ولدين الاول يقال له كرسيمول والاخر يقال له اصفوط فلما نشأوا وتعلموا خرج كرسيمول على اثر آبائه وخرج اصفوط من اهل الشر والفساد ، فأما كرسيمول فانه اقام بالدير مقام ابيه وصار يعلم الاولاد الانجيل ويعلمهم التحريم والتحليل وقد هرعت اليه الناس بأولادها وصارت تقرأ عليه كتابها . واما اصفوط المقوت فانه صار يجمع الاولاد ويفسدهم ويعلمهم الشر والضلال وقد اجتمع عليه اربعون شقيا فصار هو كبيرهم وهذا ما كان منه ، واما ما كان

من كرسيمول فانه مقيم بالدير واذ حضر اليه ملك جزر البرتغال ومعه ابنته يقال لها فتنة فلما اقبل بها قبّل يديه وقال يا أبانا انا كنت قليل الخلف والذرية فلما جاء عيد الشعانين نذرت للمسيح ان رزقني الله بغلام او بفتاة وهبتها للتعليم فقبل نذري ورزقني الله بهذه الفتاة ، وقد كبرت ونشأت واني اريد منك ان تعلمها لي لتكون من اهل العرفان فقال له سمعا وطاعة ، ثم استلم البنت وما معها وعاد ابوها راجعا الى بلاده ، اما كرسيمول صار يقرىء تلك البنت ويعلمها مدة اربع سنوات حتى صارت تعرف جميع العلوم فيوم بينما جالس واذ بأخيه اصفوط داخل عليه ومعه رجاله فسلم عليه وجلس بجانبه فنظر البنت قال من هذه قال له هي من اولاد الملوك قال انها جميلة الصورة حسنة الطلعة ثم ان اصفوط قال لاخيه اعلم اني قد تولعت بهذه الفتاة وشغفت بها فقال له كرسيمول اعلم يا اصفوط ان هذه بنت ملك البرتغال وقد اوصاني عليها ابوها فلا امكن احدا منها حتى تخرج روحي دونها ثم صاح به فتركه وسار الى الفلا وتبعه رجاله فقال لهم لا بد لي من اخذ هذه الفتاة فقالوا له افعل ما بدا لك فصبر الى الليل ودخل الدير فرأى اخاه نائما في مخدع فأقفل عليه واخذ البنت وازال بكارتها ثم اخذ رفقاه وسار ، هذا ما كان من اصفوط.

اما كرسيمول فانه استيقظ من نومه فرأى الباب مقفلا عليه وصاح على البنت ففتحت له واعلمته بما جرى عليها من المصاب فاغتم غما شديدا ، ثم قال في نفسه ان هذا اللعين قد علم بتلك البنت وربما يعود اليها ثانيا وان منعته عن ذلك قتلني وما لي الا ان ارسلها الى ابيها ثم كتب كتابا وارسل البنت بصحبة عشرة رهبان واعطاهم الجواب فساروا حتى اتوا الى ابوها الملك واعطوه الكتاب فقراه وعلم ما فيه وهو خطابا من كرسيمول الى بين ايادي الملك اعلم اننا اقمنا نعلم البنت هذه المدة حتى تعلمت كل شيء وكان مرادنا اقامتها عندنا بالدير غير انه حضر لعندنا اصفوط اللعين وفعل كذا وكذا وقد ارجعته عن ذلك فما ارتجع فأرسلت البنت اليك خوفا عليها منه والسلام ، فلما قرا الملك الكتاب وفهم ما فيه صعب عليه ذلك وكبر لديه ثم قال الى وزرائه اريد ان اركب وادور على هذا الملعون واقتله شر قتلة فقال له الوزير ايها الملك اترك لي هذا الامر وانا ادبر لك تدبير تقتل به هذا الخنزير فقال له وكيف ذلك فقال له ارسل له الف دينار وهدية سنية مع اربعة من رجالك راكبين على الخيول وتأمرهم ان يدوروا على خصمك فاذا راوه يقولون له وصل جميلك وقد وصل الخبر الى ابيها الملك ففرح بذلك وارسل لك هذه الهدية والف دينار ثم يدفعونهم اليه وينظرون

ماذا يجري فقال له الملك وكيف يكون ذلك اذا اخذهم وراح في سبيله فلم يفدنا من ذلك الا فقد الاموال فقال له اعلم اني اقول ان صح هذا التدبير فان فيه هلاكه فلا تخالفني في ذلك فما هي الا هدية في الظاهر ومكيدة في الباطن فقال الملك طيب ثم انه فعل ما اشار به الوزير وارسل مع المال اربعة فوارس وكتب له كتاب يشكره على فعله وقال لهم اذا رايتموه سلموه الكتاب والهدية والمال وانظروا ماذا يجري فأجابوه بالسمع والطاعة وساروا اما الملك فانه انعم على العشرة رهبان وردهم الى كرسيمول وجعل يشكره على ما فعل من ارسال ابنته اليه وأما الفوارس الاربعة فانهم ما زالـــــوا سائرين وهم يدورون على اصفوط مدة شهر وبينما هم سائرين واذ قد لاح لهم غبار ذلك اللعين ورجاله فلما وقعت العين على العين ترجلوا عـــــن خيولهم وقدموا لاصفوط الكتاب فقراه وضحك واستبشر وقال لرفقائه أرايتم ما فعل سيدكم من الفعال وكيف تشكره الملوك فقالوا له ما السبب فأعاد عليهم قراءة الكتاب خطابا من ماك البرتغال يقول فيه اشكرك على هذا الفعل وقد ارسلت لك هدية وألف دينار فلما قرأ اللعين الكتاب اعجبه غاية العجب وأخذ الهدية والمال وقال سلموا على الملك كثير فرجعوا الـــى ورائهم وجعلوا ينظرون ما يكون من امرهم فقال له رفقاؤه نحن كنا معك ولنا في ذلك حصة فقال لهم انظروا الى هذا الكتاب فانه لي من دونكم وانا ما اعطي لكم شيء فقالوا له نحن نأخذ المال وانت الهدية او انت المال ونحن الهدية فقال لهم هذا لا يكون ابدا ثم وقعت المشاجرة بينهم وزادوا فـــــي الكلام مع بعضهم واشتعلت الفتنة بينهم لانه احتوى على المال والهدية دون الجميع فلما يئسوا هجموا عليه وطعنوه بالسيوف حتى جعلوه كالقطـــــن المندوف ثم قالوا لبعضهم نقسم المال سوية فقال بعضهم نأخذ نصف المال ونعطي كرسيمول النصف فامتنع بعضهم وقالوا ان كرسيمول ما له دخل في هذا المال ولا رافقنا ونحن لا نعطيه شيئا منه فقال بعضهم لا يكون ذلك ولو سقينا كؤوس المهالك ثم وقع العناد بينهم فتضاربوا بالسيوف ولم تكن الا ساعة حتى ما بقي منهم الا خمسة انفار فعند ذلك عاد اليهم رجال الملك واهلكوهم عن آخرهم واخذوا المال والهدية وساروا راجعين الى ملكهـــم واعلموه بما جرى فلما سمع الملك ذلك فرح وانشرح وشكر الوزير على ذلك التدبير واما ما كان من امر بنت الملك فانها حبلت وظهر عليها الحمل فوضعت غلام ذكر وهو عبرة لكل البشر وليلة وضعه انكسف القمر واظلمت الدنيا ونزل المطر وزادت الرعود وكانت ليلة منحوسة وقد خرج رفيع العنق كبير الراس شنيع المنظر ومن جملة قباحته ان امه بعد ان وضعته انقلبت ميتة

فلما عاين ذلك الملك بكى على ابنته ولبس ملابس الحزن وذم الولد وقال هذا مشؤوم ولولا وصية المسيح بالاطفال لكنت قتلته وارتاح قلبي منه ثم امر له بمرضعة فأتوا اليه بها فأبى ان يرضع فأتوا بغيرها فكانت كمثلها ولم يقبل المراضع فأتوا له بالمعز والغزلان فأبى فلما عاين ذلك الوزير قال للملك اعلم ان هذا الولد منحوس وطالعه معكوس فان طاوعتني ترسله الى الدير خارج البلد ، فيه كلبة ترضع اولادها فاجعله معهم فان عاش فبرزقه وان مات فبأجله فقال له هذا هو الصواب ثم انه امر بحمله الى الدير فحملوه ووضعوه في دهليز الدير مع اولاد الكلبة فمسك ثديها ورضع وقد حننها الله عليه فصارت ترضعه فلما علم الملك تعجب من هذا المولود ثم انه جعل يتفقد الكلبة بالمآكل والمشارب الى ان كبر الولد وانتشى ومشى فطلع آفة رقطاء ومؤذي لا يطاق كثير النفاق لا يرى شخصا الا ويضربه ولا يجلس مع قوم الا ويفسدهم وقد زاد ظلمه على العباد وعم جوره وشاع امره بذلك فشكت منه العباد الى الملك فنهاه فلم ينته عن افعاله ولا رجع فشكوا ثانيا الى الملك وثالثا فلما اعياه الامر وتزايد عليه الشكوى والضرر ارسله الى عمه كرسيمول في الدير مع عشرة رجال فلما وصلوا به الى الدير قبّلوا يد كرسيمول وقال له خذ هذا ابن اخيك وهذا كتاب من الملك واذ به الى بين ايادي كرسيمول الواصل لك ابن اخيك وقد سميته جوان وجرى له من الامر ما هو كذا وكيف ان امه ماتت عند ولادتها واعاد عليه جميع ما جرى لاخيه اصفوط ورفقاءه ثم ان كرسيمول اخذ الغلام وجعل يعلمه الاحكام مدة من الايام وتصاحب بالدير مع بعض اولاد الملوك الذين يقراون عند كرسيمول وكان اكثر صحبته مع ولد يقال له سيف الروم وكان جوان صاحب مكر وخداع وحيل ولم يزالوا على ذلك حتى قراوا غوامض العلوم.
اما ما كان من اهل الدير فانهم طلعوا في عيد لهم الى جهة البحر وركبوا المراكب وكانت هذه عوائدهم في كل عام يطلعون الى البحار ويأخذون ما جاء اليهم من المسافرين فبينما هم كذلك واذ اقبل عليهم مركب حجاج فدار به اهل الدير واستأسروا كل من كان فيها فكان من جملة ما اخذوه رجل عراقي صاحب فضل وعلم يقال له الشيخ صلاح الدين وكان يقرا علوماً كثيرة ويروي الاحاديث ويفسر المعاني ويفهم علم الادب والعروض والمنطق والصرف والفلك والهندسة والحكمة وقد نظروا الى ذلك الشيخ المهاب وهو بهذه الشيبة قالوا له انت رجل كبير وما لكعندنا منفعة خذوه الى السجن وكان هذا من لطف الله عليه فلما جلس في السجن حمد الله ورضي بالقضاء والقدر ثم جعل يقرا القرآن وقد تداولت الايام واذ مر جوان على

باب السجن وسمع الاستاذ يقرا القرآن فالقى اذنه وتأمل كلام الاستاذ فأعجبه فرجع لرفقائه وقال لهم ان هذا الرجل الذي في السجن مقيم هو من رهبان المسلمين والراي عندي اننا ننزل اليه ونقبل يديه ونحتال عليه ونسلم اسلاماً باطلاً ونخليه يعلمنا كلام المسلمين لنكون بجميع العلوم عارفين فقالوا له افعل ما تريد فأخذهم وسار الى السجن وفتح الباب ونزل اليه ، فبينما الشيخ جالس واذ بجوان مقبل عليه وجعل يقبّل يديه وكذلك من كانوا حواليه فقال لهم الاستاذ من انتم فقالوا له يا مولانا اننا من هذا الدير وقد سمعنا منك هذا البيان فأعجبنا البرهان وانا نريد ان تعلمنا اياه فقال يا اولادي هذا كلام لا يتعلمه الا المسلمون فان شئتم فأسلموا فقالوا ماذا نفعل فقال لهم تقولوا اشهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله حقا وصدقا فأسلموا ولكن اسلاما باطلا وقبّلوا يدي الاستاذ ظاهرا وفكوا عنه الاغلال فجعل يعلمهم العلوم واقاموا معه في مخدع بأعلى الدير وصاروا يقدمون له المآكل والمشارب ويخدمونه وما زالوا كذلك حتى صار جوان مثل الشيخ صلاح الدين ثم ان جوان قال لسيف الروم اني تعلمت جميع ما مع الشيخ من العلوم واريد ان اجازيه على فعله فقال له سيف الروم تطلق سبيله وتدفع له مالا يوصله الى ما يريد فقال له كلا بل مرادي ان اقتله فقال له ولاي شيء تقتله مع انه فعل معك كل جميل وتعلمت منه جميع العلوم فقال له انا الذي لا اعترف بجميل ولا بتفضيل وليس لي عزيز ثم انه وضع له البنج في الطعام وقدمه اليه وصبر حتى تبنج فنهض وعراه من ثيابه واخذ ما معه من ملابس وكتب وقتله فمات شهيدا رحمة الله عليه ثم ان اللعين جوان قال ادفنه يا سيف الروم لئلا يعلم ذلك كرسيمول فاذا علم بذلك سقانا شراب المهالك فدفنه سيف الروم في جانب الدير وقال اذا سألنا كرسيمول عنه نقول له هرب . فيوم من الايام استفقد كرسيمول الشيخ ما وجده فسأل جوان وسيف الروم وقال لهم اين الاسير الذي تعلمتم منه كلام المسلمين فقالوا له هرب فقال لهم علمت بأنكم قتلتموه والى جانب الدير دفنتموه واخذتم ما معه من الحوائج فاخرجوا عني وان اقمتم بهذا الدير قتلتكم فعند ذلك خرج جوان وسيف الروم واخذ جوان مصالح الشيخ صاحب العلوم ولبس ملابسه وهيأ سيف الروم في صفة طالب وسماه منصور وساروا يطلبون لهم ارضا ينزلون بها فبينما هم سائرين اذ بلغهم الخبر بأن ملك الموصل راكب على حلب وانه طالب ارض مصر يريد ان يملكها فاعتراه المرض الشديد فقال يا منصور سر بنا الى ذلك الملك حتى ننظر كيف نصنع وما زالوا الى ان وصلوا الى ارض حلب ودخل اللعين على

ايبك كما ذكرنا وداواه كما وصفنا وقد اعتقد فيه ايبك وجعله امامه وعظمه وصار يقبّل يديه فهذا كان سبب مجيئه ولما اراد ايبك الرحيل من حلب طلب من الشيخ المسير معه فقال له سر انت الى مصر وانا اكون لاحقا بك بعد ان ازور مقامات الانبياء والاولياء وبعد ذلك اتوجه الى مصر فقال له ايبك مثل ما تريد ونسألك الدعاء في جميع الاماكن الطاهرات فقال له ان شاء الله ثم تودع منه وسار ايبك طالب مصر من حلب الى غزة والى قطية ومعه جيوشه وقد ضلوا بأمر الله عن الطريق فقال ايبك نذرا عليّ لله تعالى ان اخذ بيدي واهتدينا الى الطريق ودخلنا مصر لا بد ان اطيع هذا الملك واقبّل يديه وان دعاني للخدمة عنده خدمته وقد صفى قلب ايبك وترك ما كان عازما عليه وغيّر نيته التي اتى لاجلها وساروا باقي ليلتهم فلما اصبح الصباح اهتدوا الى الطريق وعرفوه ففرحوا واقاموا ثلاثة ايام لاجل الراحة وبعدها ركب برجاله وطلب الدخول الى مصر فهذا ما كان من امره اما الملك بينما كان جالس في ديوانه واذا بأيبك داخل فسلم على الملك ودعا له بدوام العز والنعيم وقال له الملك اهلا وسهلا بالمعز ايبك ملك الموصل الذي اراد ان يأخذ مصر ويملكها ويجعلها تحت حكمه فلما سمع ايبك هذا الكلام قال له يا مولانا السلطان انا اتيت من بلادي وقصدي حماك وكل ذلك في طلب رضاك قال الملك الصالح اخبرني على ما جرى لك في طريقك الى مصر فحدثه ايبك ما جرى له فلما سمع الملك منه ذلك قال له هل تريد الخدمة بديواني وتكون من رجالي قال له اخدمك يا مولاي فقال له اوليتك وزيرا في ديواني واجلسه في مرتبته وامر له بسرايا ومنازل لرجاله فلما اقام ايبك عند السلطان ارسل كتابا الى نائبه بالموصل اعلمه بما جرى فبينما ايبك جالسا في السرايا واذ بالشيخ صلاح الدين العراقي داخل عليه فنهض ايبك وتلقاه وسلم عليه واجلسه الى جانبه وجعل يحدثه ويسأله عن احواله فقال له يا ولدي طلعت الى بيت المقدس وزرت نبي الله موسى وابراهيم الخليل وباقي الانبياء الصالحين ودعيت لك وسألت الله ان يعطيك المناصب الجسيمة وبعد ذلك اقبلت اليك فقال له ايبك مرحبا بك يا مولاي عسى ان يكون دعاؤك لي مستجابا ثم اعاد عليه ايبك ما جرى له فلما سمع الشيخ كلامه فرح بخدمته في الديوان وجلس يتعبد في داره واما ما كان من امر الملك الصالح قال يا آغا شاهين اين قاضي الديوان فقال له الوزير انه مريض من مدة ثلاثة ايام فبينما الملك جالس واذا بالاخبار تقول يعيش راس مولانا السلطان في قاضي الديوان السيد محمد نور الدين فلما سمع الملك وفاة قاضي الديوان قال انا لله

وانا اليه راجعون ثم امر الآغا شاهين ان ينزل بأرباب الدولة ويمشي في جنازة القاضي ثم بعد ان واروه التراب عادوا راجعين قال الملك يا آغـــا شاهين انظر لنا رجلا اهل صلاح وديانة ومعرفة يستلم القضاء فقال الوزير شاهين يا سادتنا يا علماء الاسلام هل عندكم من يصلح للقضاء بالديـــوان فقالوا له موجود فعند ذلك نهض الوزير ايبك ووقف في محل الطلب بين يدي السلطان وقال يا امير المؤمنين عندي رجل ذو صلاح ومعرفة ونجاح وقد اجتمع بي وانا في حلب وكنت مريضا فببركته شفاني الله على يده وقد جعلته أمامي وهو مقيم في منزلي واسمه الشيخ صلاح الدين العراقي فلما سمع الملك الصالح ذلك قال له يا ايبك اصبر حتى أسأل الآغا شاهين في ذلك والتفت الى الوزير شاهين وقال ما تقول في ذلك قال وما اقول يا امير المؤمنين في اهل العلم والفضل فقال الملك انزل يا ايبك وائتنى بالرجل يتولى رتبة القضاء فسار ايبك الى منزله وقال للشيخ سر معي الى الديوان فقد صدر امر من السلطان ان تكون قاضي القضاة بالديوان ثم ان العالم لبس جبته وسار الى ان اقبل الى الديوان ودعا للملك بدوام العز والنعم وازالة البؤس والنقم فلما فرغ الشيخ صلاح الدين من كلامه قال له الملك اهلا وسهلا بالعالم العراقي ثم أجلسه على كرسي القضاء فصار قاضيا الى يوم من الايام قال الملك يا سادتنا يا علماء الاسلام رايت فـــي الليلة الماضية منام فهل يصح فيها منام قالت العلماء نعم يا امير المؤمنين ان الليلة الماضية رؤياها صادقة لانها السابعة من الشهر العربي والقمر بازدياد وهو غير منحوس فما رايت يا امير المؤمنين فقال رايت كأني في بر اقفـر متسع الجنبات فبينما انا كذلك اذ نظرت الى واد فرايته قد امتلأ ضباعا وكنت في وسطهم فريدا ولم يكن لي مساعد وحصل لي غاية الكرب والكدر فبينما انا كذلك واذ بغبار قد ثار وعلى وانكشف واذ بخمسة وسبعين سبعا اقبلوا وهم في اعظم همة وفي أولهم سبع مليح الوجه وقد هجم ذلك الاسد على الضباع وتبعه رفقاؤه وما زالوا في حرب شديد وطعن اكيد الى ان افترسوا الضباع وجعلوا الارض منهم خالية فمن شدة ما اعتراني انـــي استيقظت من منامي . فلما سمعت العلماء قالوا يا امير المؤمنين اما الضباع التي رايتها فهذه اهل الكفر والضلال ولا بد انهم يطلبون اذاك واما السباع فهم اهل الايمان يقطعون من الاعادي الرقاب وتستقيم بهم كامل الاحكام فينبغي يا مولانا ان تشتري لنا جلبة مماليك من مال السلطنة ليكونـــوا نصرة للمسلمين فلما سمع الملك ذلك الكلام قال يا حاج شاهين انت وكيلي

لتشتري لي ما يلزم فنزل شاهين من الديوان الى سرايته وقال لاحد اتباعه خذ هذا الكتاب وسر به الى الشيخ تجار الرقيق فأوصله فلما اوصله قرا فيه من الوزير شاهين الى شيخ تجار الرقيق يلزم حضورك الى عندنـــا سريعا والحذر من المخالفة والسلام فأجاب بالسمع والطاعة وسار من ساعته طالب سراية الوزير فلما وصل الى بين ايادي الوزير سلم فرد عليه السلام واجلسه لجانبه واكرمه وقال له ان الملك يطلب منك جلبة مماليك يليقوا الى السلطنة وهم خمسة وسبعون مملوكا وخمسة وعشرون شركسيـــة وخمسة وعشرون اباظية وخمسة وعشرون جرجية فماذا انت قائل فقال له يا حضرة الوزير ان هذا شيء لا يوجد هنا مثل ما ذكرت فقال له وما الراي عندك قال يوجد رجل بالحسينية تاجر يسافر ويعرف اين يوجد طلبـــك ويدعى علي الوراقة فعليك به فلما سمع منه الوزير أنعم عليه وقال له خذ معك خادمي وعرفه عليه وهو يدعوه الى عندي قال سمعا وطاعة وسار معه الخادم فعرفه عليه فقال له الخادم أجب الوزير شاهين حالا له شغل عندك فقال حاضر وسار مع الخادم الى ان وصل الى سراية الوزير فدخل وسلم عليه فأجلسه وباسطه ثم قال له ما اسمك قال علي بن الوراقة قال اعلم اني ما طلبتك الا لحاجة ومقصودي قضاؤها وهي مطلوبة الى السلطان فقال وما هي يا وزير الزمان فقال خمسة وسبعون مملوكا يكونـــون مراهقين ويكونون ثلاثة اجناس سركسية وجرجية واباظية فقال له وزير اني افهم الاشارات وافهم الالسن واللغات ولكني اذا سافرت في طلب تلك الحاجة يتحرك عليّ اهل اللجاجة لاجل ما لهم عندي من الديون ثم قال وحق راسك منذ ثلاثة ايام ما ادخلت فيها على عيالي طعام وقد صارت عليّ ديون كثيرة وبقيت في اعظم حيرة وكنت تاجر شهير فغرق مالي في البحار وانتهب باقيه في القفار وربما اصحاب الديون يأخذوا مني ثمن المماليك فأرجع مغبون فلما سمع الوزير ما قاله قال لا تخف فالامر قريب ولكن اخبرني حيث انك تعرف الالسن فهل تعرف اصلي بما سمعت من لغتي فقال له نعم اعرفك يا وزير الزمان ابوك تركي وامك مغربية فقال نعم هو كما ذكرت والان اذهب الى منزلك واذا كان الغد احضر الى عندي في الديوان فقال له السمع والطاعة فخلع عليه الوزير خلعة وامر له بمائة دينار واما علي فانه فرح بما اعطاه الوزير وزال عنه الهم والترح وسار الى داره واخبر زوجته بما جرى ففرحت . اما علي فقد صرف واطعم عياله وتبحبح وثاني يوم توجه الـــى الديوان ودخل ودعا للملك بالنصر وبدوام العز والنعم فلما رآه الملك الصالح قال له ما تريد ومن انت قال يا امير المؤمنين خادمك علي بن الوراقة قال

اهلا وسهلا يا علي فقال له الآغا شاهين يا مولانا السلطان هذا الذي يجيب المماليك فقال يا علي انت تفعل ذلك قال نعم يا امير المؤمنين فقال اعلم اني طالب منك حاجة اخرى وذلك مملوكا خاصة لنفسي يكون فيه الشروط التي اذكرها لك انه يكون فهيم وقوي وفطين ويحفظ القرآن ويكون وجهه حسن واسمه محمود ويكون له سبع جدريات في وجهه وشعرة الاسد بين عينيه فماذا تقول في ذلك يا علي فقال يا مولاي ان وجدت هذه الشروط اتيتك بالمطلوب فقال له الملك خذ هذه الصرة وهذه البدلة فاذا وجدت هـــذه الصفة اشتر لي ثم قال الملك للوزير اعطه ثمن المماليك واعطه خمســة وسبعين بدلة ملكية واعطه خلعة سنية واكتب له حجة بأن يكون شيخ تجار الرقيق فقال الوزير شاهين يا امير المؤمنين هذا رجل مديون وربما يقبضوا عليه اصحاب الديون فيأخذوا منه المماليك والتجارة ولا ينالــه منا الا الخسارة فقال الملك اكتب له امر سلطاني بعدم المعارضة له في البلــدان واذكر فيه ان جميع ما على علي من الديون يحسبهم من الخراج فكتب له ذلك ونزل من الديوان بعد ما اخذ الدراهم والعطايا والبدلات اما علي بن الوراقة فترك ما اخذه من الانعام الى عياله وحزم له متجرا عظيما وسافر من البلد ولم يزل سائرا حتى وصل الى مدينة بورصة وكان بها حاكم يقال له مسعود بك فنزل في الخان يريد الراحة وقد بلغت الاخبار الى الامير مسعود بأن علي بن الوراقة قد اقبل بتجارة فأرسل اليه خادما وقال له اجب الامير فقال سمعا وطاعة وسار معه اليه وسلم عليه فأجلسه الــى جانبه وقال له يا علي ما سبب مجيئك ؟ فقال يا مولاي اريد ان اشتري مماليك الى السلطان فقال الامير اذن انت ضيفي ثلاثة ايام فأقام عند الامير وشكر فضله وثاني يوم استيقظ علي من نومه وصلى فريضته واذا به يسمع شيئا يدوي كدوي النحل فتبع ذلك الى ان انتهى الى فسحة بها بركة ماء واربعة لواوين بكل ليوان قاعة متسعة وبها مماليك كأنهم الاقمار فلما نظر الى اولئك المماليك تعجب وقد رآهم يقرأون القرآن وصاح به مملوك وقال له لاي شيء تأتي الى هنا فعاد عنه وطلب جهة اليمين فراى طائفة اخرى واذ به مملوك يقال له ايدمر فلما اقبل اليه علي سلم فرد عليه السلام ، ثم قال له من انت يا سيدي وما تريد وما سبب قدومك علينا فقال له انــا ضيف عند الامير مسعود بك وقد انتبهت من منامي فسمعت القراءة فتبعتها حتى اتيت الى هنا ومن انتم فأخبرني فقال له نحن مماليك الامير مسعود صاحب الكرم والجود ونحن اباظية وشركسية وجرجية وكلنا مسلمون وما

منا الا من هو ابن ملك او بطل مشهور أو امير ، ولكن هكذا حكمت التقادير فلما سمع علي ذلك قال في نفسه والله لا يصلح للملك الا هؤلاء المماليك ثم سار من عند المماليك ودخل على الامير فاستقبله واجلسه وراق الديوان قال علي يا امير رايت عجبا واسأل الله ان يكون لي فيه نصيب فقال وما رايت ؟ قال له اعلم اني سألتك بالامس عن المماليك فأخبرتني بأن ذلك لم يوجد ، وقد رايته عندك من دون زيادة ولا نقصان وان هذه البضاعـــة وجدتها في هذه القاعة فماذا انت قائل ! فلما سمع مسعود بك الكلام صار الضياء في وجهه ظلام وقد صعب عليه وكبر لديه ثم قال يا علي انا قلت لك لا يوجد عندي برسم البيع وان هؤلاء المماليك الذين رأيتهم لا ابيعهم لاحد لاني محتفظ بهم لمساعدتي يوما ما واذا كان مرادك تشتري مماليك فدونك والاسواق فيها كثير فسكت علي وما عاد يقدر ان يعارضه ومن عجب هذه السيرة ما جرى في تلك الليلة من الكرامات وذلك انه عندما أوى ونام الامير مسعود بك واذ بيد وقعت على صدره مثل الطاحون وكادت روحه تفر من جسده ، وسمع قائلا يقول انا الملك الصالح ايوب يا مسعود اعط المماليك الى علي لاننا عاوزينهم وان ما اعطيته اياهم والا نفذت هذه الحربة من ظهرك ثم صاح فيه فانتبه من نومه مرعوبا وهو على علي ملهوف ، اما علي فانه نام وهو يفكر في نفسه فما يشعر الا ويد على صدره كأنها ريش نعام ، وقائل يقول له يا علي اعلم اني انا الملك الصالح يا ولدي غدا يأتي اليك مسعود ويعطيك المماليك فاشترهم منه فاستيقظ من نومه فرحـــا مستبشرا .

اما مسعود فانه لما اصبح وانتبه وهو مرعوب مما رأى في منامه من التهديد فسار طالبا علي في مكانه واجتمع به وقال وحق رأس سيدك الملك الصالح الا ما مضيت معي واخذت المماليك فلما سمع علي من الامير ذلك الكلام صافحه وعلم ان هذا كله من بركات الصالح واسراره ثم انه سار مع الامير الى قاعة المماليك وقال لهم يا اولاد اعلموا انكم قد انتقلتم من خدمتي الى ذمة سيدكم المعلم علي بن الوراقة ، فلما سمع المماليك ذلك بكـــوا وقالوا يا سيدنا ان هذا الرجل يشتتنا ويبيعنا في البلاد ويفرقنا على العباد فقال لهم علي يا اولادي وحق الملك المتعال انكم مطلوبون الى السلطان بمصر وتكونون كلكم في مكان واحد وامر علي احد غلمانه بحضور المال والملابس فجاء بما طلب سيده فقال علي لمسعود بك يا سيدي هذه الصرة فيهـــا خمسة وسبعون الف دينار وهم ثمن المماليك وبعد ما اخذ الامير المـــال وذهب ، أمر علي المماليك بالرواح الى الحمام وجعل هذا النهار برسمهم

واخذ البدلات لهم وهم زائدين بدلة فعند دخول المماليك الى الحمام واذا فبهم غلام مريض وهو مملوك لرجل عجمي تركه في دهليز الحمام فأقبل احد المماليك وهو ايدمر الى المملوك المريض وقال له هل انت بحاجة الى خدمة فقال له المملوك بنفس هادئة يا اخي خذ بيدي حتى اقعد فأخذ بيده حتى أسنده فجعل يبكي على نفسه ومرضه ويشكو لأيدمر ثم تركه وطلب المعلم علي بن الوراقة وباس يده وبكى فقال علي وما الذي يبكيك يا ولدي فقال له يا سيدي اني وجدت شيئا آلمني وقد اتيت اليك استشيرك فقال ما هو؟ قا له رايت غلاما مملوكا وانه من اولاد الملوك وها هو في دهليز الحمام ثم اخذه بيده واوقفه عنده فقال له السلام عليك يا غلام فقال وعليك السلام فقال له ما اسمك قال اسمي محمود فلما سمع بذلك قال في نفسه واللههذا يوجد به صفة كما طلب الملك الصالح ثم تقدم اليه وقال له هل تعرف شيئا من كتاب الله ؟ قال نعم يا سيدي احفظ القرآن وادري معناه واقرا كثيرا من العلوم فقال علي في نفسه هذه صفة اخرى وهذا هو المطلوب ، ثم ان علي قال له قد طال بك المرض وكان موتك أولى . فلما سمع منه ذلك محمود تغير كيانهوقال انا راض بمرضي فلأي شيء تعترضانت علي؟! ثم انه زاد به الغضب وظهرت في وجهه سبع جدريات وعقدة الاسد بين عينيه ثم تقدم اليه وصافحه وسأله السماح فسامحه ثم قال انت تابع من ؟ فقال له انا تابع رجل من الاعجام فلما سمع علي منه ذلك قال للمعلم الحمامي ائتني بهذا العجمي صاحب هذا المملوك فغاب وعاد به اليه فلما رآه قال له هذا مملوكك ؟ قال نعم فقال تبيعه ؟ قال نعم فقال له علي معي صرة مصرورة ولم أدر ما فيها فهل لك ان تبيعني اياه قال نعم ابيعك اياه فعند ذلك ناوله الصرة واشهد عليه كل من حضر وكتب له حجة بذلك واشهد على نفسه، وأما علي فانه التفت الى ايدمر وقال له خذ اخاك حممه والبسه هـذه البدلة التي كانت زائدة فقال سمعا وطاعة ، ثم اخذ البدلة واخذ محمود المريض وسار به الى داخل الحمام وجرده من الملابس التـي كانت عليه واحتمله بين يديه الى ان اجلسه بعيدا عن المماليك وحممه والبسه البدلة، ثم ان المعلم علي باع تجارته وأمر بحضور الجمال وشد الجحف عليها فصار يضع على كل جمل اثنين ثم انه تودع من الامير مسعود بك وطلب البر وارتحل بالمماليك وسار ولم يزل سائرا الى ان اقبل الى حلب فنزل لاجل الراحة فبلغ نائب حلب بأن علي قد أقبل بالمماليك فنزل وسلم عليه فقال وما معك قال جلبة مماليك للسلطان قال دعني أتفرج عليها وانظرها فقال

دونك وما تريد فتقدم وتفرج ثم ان علي قال له معي مملوك ضعيف ولكن فطين ظريف فقال له ارني اياه فقال ها هو فلما رآه تبسم وقال وعزة ربي ان طاب هذا الغلام وزالت عنه الاسقام ليكونن احسن من هؤلاء الغلمان ولكن يا علي اعطني اياه فقال له كيف اعطيك اياه وهو مملوك الملك الصالح.

وفي اليوم الثاني ساروا يجدون المسير فوصلوا الى ارض الشام وقد بلغ خبر علي الى عيسى الناصر نائب الشام فنزل وسلم عليه وقال له ما معك فقال له جلبة مماليك للسلطان ها هي قدامك فأقبل على الشراكسة فقال هؤلاء ما هم رجال ولا يشبهوا الا النساء ثم نظر الى الباقين فقال هؤلاء احسن حالا فأتى الى عند محمود الضعيف فلما رآه قال يا علي هذا المريض قليل المنفعة لاي شيء ما رميته في الطريق لتستريح منه فقال له دعه فان عاش فبرزقه وان مات فبأجله ثم رجع عيسى الى مكانه ، واما ما كان من امر محمود فأخذه علي وسار به الى المارستان وكان به رجل يسمى دحروج فدخل عليه بمحمود وقال له خذ هذا الغلام المريض واعتن به وخذ هذه العشرة دنانير انفقهم عليه حتى اعود وآخذه من عندك . هذا ومحمود لا يعي على شيء وقد تركه علي في الشام وأخذ المماليك وطلب ارض مصر .

اما محمود فوعى على نفسه وزال عنه المرض ، اما علي بن الوراقة فانه بعد ان قطع مسافة اربع مراحل عن الشام واذ راى في منامه الملك الصالح وهو يقول له تركت محمود بالشام واتيت بدونه وعزة ربي ان لم تعد الى الشام وتأت بالمملوك ، لم تدخل بلدي . فانتبه مرعوبا من منامه وترك المماليك مع أتباعه وقال لهم انتظروا حتى ارجع اليكم ، وعاد الى الشام وذهب الى المارستان وجد محمود معافى فقال له الحمد لله الذي عافاك ثم انهم باتوا تلك الليلة ولما جاء الصباح واراد علي ان يسلك البر واذ أقبل عليه انسان له دَين عنده وهي مائة دينار ويدعى عبده الاقواسي فلما رآه قال له الان حل الوفا فأعطني المائة دينار بالحال فقال له يا اخي دعني هذه المرة واصنع معي معروفا فقال له وحق ربي لا اتركك حتى تدفع ما عليك من الدَين فقال له والله لا املك الان على دينار فقال اعطني هـــذا الغلام فقال له هذا مال السلطان فقال انا لا اعرف سلطان ولا وزيرا انا آخذ هذا رهين على ما لي عليك من الدَين . فلما أعياه الامر ترك له محمود وسار طالب مصر .

اما عبده الاقواسي فانه اخذ محمود وسار به الى داره وكان له زوجة يقال لها وسيلة وكانت اشقى اهل الارض فلما طرق الباب قالت من بالباب

فقال افتحي قد اتيتك بغلام فلما دخل محمود عليها تأملته وقالت له من انت ؟ قال لها انا مملوك يا سيدتي فقالت له تشرفنا ، وصارت تستخدمه وتظلمه فهرب منها الى ان خرج من الشام الى الجبانة فبينما هو كذلك واذ اقبل عليه ثلاثة رجال هاربون الى ان اقبلوا الى محمود وسلموا عليه قال لهم من تكونون من الانام ؟ فقال الاول انا الموكل بالطيور التي عند عيسى الناصر علفت الطيور واذ فر طائر عزيز عليه فخفت ان يقتلني فهربت . قال الثاني وانا الهجان هربت مني الهجين الذي لعيسى النّاصر . قالت الثالث وانا السايس هرب مني الحصان فهربت الى هذا المكان . قال محمود وانا الاخر دعوتي مثل دعوتكم وقصتي تشابه قصتكم فأقيموا هنا حتى يأتي الفرج القريب من الملك المجيب . ثم انهم جلسوا يتحدثون حتى ولى النهار واقبل الليل وكانت ليلة سبعة وعشرين من شهر رمضان فنام الثلاثة رجال ومحمود لا ينام حتى مضى من الليل الثلثان فبينما محمود متفكر في امره واذا بأبواب السماء قد فتحت بقدرة الله وظهرت من السماء طاقة قدر القبة وهي صافية البياض والنور يسطع منها ورأى كل شيء على الارض ساجدا ولا احد متنبه من الانام ولا حس ولا ديك يصيح ولا كلب ينبح الا الدنيا ساجدة واشجارها راقدة فقال محمود في نفسه هذه ليلة القدر التي هي خير من الف شهر ثم نهض على الاقدام وسأل الله الغفران ودعا رب الانام وقال اللهم بحرمة هذه الليلة المباركة عندك ان تجعلني ملكا على مصر والشام وسائر بلاد الاسلام وأن ترزقني النصر على الاعداء بحق المصطفى المظلل بالغمام اللهم اجعل لي من امري فرجا ومخرجا اللهم اجعل لي بين أكتافي عزم اربعين وليا من أوليائك الصالحين اللهم استجب دعوتي انك على كل شيء قدير برحمتك يا نعم المولى ونعم النصير . ولما انتهى محمود من دعائه نزل الى التربة وايقظ رفقاءه الثلاثة الهاربين وقال لهم: قوموا واطلبوا النصر من رب العالمين فان ليلة القدر قد فتحت والدعاء فيها مستجاب فنهضوا وقال الحميماتي : أسألك يا الله يا مسبب الاسباب ان تجعلني قطبا من الاقطاب ويكون مسكني في الركن الخراب فاستجاب الله دعاءه انه كريم خفي الالطاف وقال الهجان اللهم اجعلني لهذا وزيرا ولا تحرمني من رفقته فاستجاب دعاءه واما السائس فكان قد مل من سياسة الخيل ومن الحياة فطلب من الله ان يعجل بوفاته على الايمان فاستجاب الله دعاءه وتوفاه وعاد كل واحد الى مأواه فلما اصبح الله بالصباح توجه الهجان والحميماتي الى حال سبيلهم في القفار وقد اعطاهم الله الولاية

وكانوا من اهل السعادة واما ما كان من امر محمود فانه لما اصبح الصباح سار ولم يعرف الى اين يسير فراى احد جيران عبده الاقواسي وقبّل يديه وقال له انا في جيرتك تصالحني مع سيدي فأخذه الرجل وسار به الى عند عبده وقال له ان المملوك الذي هرب منك قد عاد وهو سايقني عليك فلأجل خاطري تسامحه فقال له واين هو ؟ قال له ها هو فنهض وقبضه وقال سر معي فقال له المتشفع اكرمه اكراما الى الله قال له : لك علي ذلك . ثم سار به حتى أوصله الى البيت ثم صاح لزوجته وقال : خذي هذا المملوك وعذبيه فنهضت وأخذته وبعاجل الحال كتفته وفي عامود ربطته ثم انها اوقدت النار واخرجت حطبة من النار مشتعلة وارادت ان تضربه وهو يستغيث ويستجير فبينما هو بهذا الحال واذ بالباب يطرق ففتحت الباب فدخلت أخت عبده الاقواسي فوجدت الغلام يستغيث فلا يغاث فلما رآها محمود صاح بأعلى صوته : انا في جيرتك يا سيدتي فقالت له : لا تخف يا بني ثم اقبلت الى وسيلة وقالت لها : اعفي عن هذا الغلام لاجل خاطري فقالت لها : لا أقبله ولا اكرمه ولو اجتمعت عليّ الدنيا واهلها وانت ما دخلك في أموري . فلما سمعت منها السيدة فاطمة الاقواسية غضبت وقالت لها : يا ظالمة تقابليني بمثل هذا الكلام ثم انها هجمت على محمود وخلصته مما هو فيه وأخذته في يدها وسارت الى بيتها وهي غاضبة في نفسها فلما استقر بها الجلوس ارسلت الى القضاة والعلماء والاشراف فحضروا عندها فأجلستهم بأعز مكان ثم ارسلت الى اخيها عبده احضرته فلما استقر به الجلوس قالت له يا عبده هذا الغلام اليك وهل اشتريته ؟ فقال : لا ، ولكنه مرتهن عندي على مائة دينار وهو لعلي بن الوراقة فقالت له : اعلم انه عندي ولا أطلعه من يدي حتى يأتي صاحبه وأسلمه له وهذا ما عليه من الدراهم . ثم انها اخرجت له المائة دينار وسلمتهم الى القاضي فأخذهم وسلمهم الى عبده الاقواسي ثم ان السيدة قالت للعلماء : اسألوا عبده هذا اخي هل له شيء عندي من متاع امه وابيه فسألوه عن ذلك فأجاب بأنه لم يكن له عندها شيء فقالت : إكتبوا بيننا حجة بذلك فكتبوا وشهد العلماء وختموها من عبده اخيها وبعد ان اخذتها قالت للعلماء : اكتبوا حجة شرعية متممة بأن جميع مالي ونوالي وما تملكه يدي ملك لهذا الغلام يفعل به ما يريد واذا توفاني الله واخرجني بقطعة من قماش يكون فضلا منه لانني اتخذته ولدا لي وأنتم على ذلك من الشاهدين .

قال الراوي : وكانت السيدة فاطمة لها ولد اسمه بيبرس فتوفاه الله

فانكسر قلبها لاجله فمن الله عليها بهذا الغلام وحنن قلبها عليه وكان محمود اشبه الناس بولدها بيبرس وهذا الذي حملها على ما تقدم ثم ان العلماء كتبوا لها مثل ما ارادت بعد قالوا ما تقول يا محمود في ذلك فقال انا لها خادم ثم انه قام وقبّل يد السيدة فاطمة وراسها وسمته بيبرس على اسم ولدها ، فهذا ما كان من امرها ثم ان السيدة اكرمت العلماء والاشراف وأرضت خاطرهم ودعوا لها وانصرفوا .

اما بيبرس فانه اقام عند السيدة وصار امير بيتها ، واما عبده اخو السيدة اخذ المائة دينار ومضى الى بيته وسأل زوجته عما جرى فقالت له: جرى من الامر كذا وكذا واخبرته بالقصة فاغتم لذلك واخبرها بما كان من امر اخته وبما فعلت وكيف انها كتبت مالها للغلام وما تملك فصاروا يلومون بعضهما ، واما بيبرس فانه مقيم على باب الدار في بعض الايام واذ اقبل دلال وبيده قوس وهو يدلل عليه ، فلما عاين ذلك بيبرس نادى الدلال وقال ما هذا ؟ قال قوس اريد بيعه فقال له وكم يساوي ؟ قال خمسة دنانير ، فتأمله بيبرس فأعجبه فأجلسه على باب الدار واخذ القوس وطلع به الى امه وقال لها يا امي اني اريد ان اشتري هذا القوس قالت له هو لمن ؟ قال هو بيد الدلال يريد بيعه ، قالت وما يكون ثمنه ؟ قال لها : خمسة دنانير فلما سمعت امه ضحكت وقالت : اعلم ان عندي اعظم من هذا القوس . ثم انها نهضت وأخذت بيبرس الى قاعة وفتحت له الباب فرآها مليانة اقواس ونشاب فلما عاين ذلك تعجب وقال لها يا امي من اين لك هذا ؟ قالت له يا ولدي اما تعلم اني فاطمة الاقواسية وما سميت بذلك الا لانه كان والدي يصنع الاقواس وسمينا بيت الاقواسي ثم قالت له : يا ولدي هذه القاعة لديك وكل ما فيها هبة مني اليك فعند ذلك فرح بيبرس وقبّل يد امه وعاد بالقوس الى الدلال وقال لمن هذا القوس ؟ قال لرجل من بني اسماعيل قال له ائتني به فغاب واتى بصاحبه فقال له ما اسمك ايها المقدم قال اسمي المقدم عاصف بن بحر المرقبي قال له : ولاي شيء تبيع هذا القوس ؟ فقال احتجت لثمنه . فقال له بيبرس : خذ هذه عشرة دنانير والقوس هدية مني اليك ، واعطى الدلال دينارا فشكره عاصف على فعله وقال له : غمرتني بفضلك ، الله يقدرني على مكافاتك وانصرف .

اما بيبرس فانه بات واصبح يتمشى في الدار واذ به يرى خادما يدلي حبلا من طاقة من سطح مكان فقال له ما هذا ؟ قال له اعلم ان هذا المكان فيه جواد وهو لابي السيدة فاطمة سيدي حسن الاقواسي وان ذلك الجواد لا يقدر احد يركبه من عهد ما توفي صاحبه ومن شدة جبره قتل

سائسه ولم يقدر احد يدخل عليه ونحن كل يوم ننزل له اكله وشربه من هذه الطاقة وهذا السبب الموجب لذلك فلما سمع بيبرس ذلك قال له : واين المفتاح ؟ قال له : ها هو ، فأخذ بيبرس المفتاح ونزل وفتح الباب عليه وتأمل الجواد فوجده مليح وقد احمرت عيناه وضرب الارض برجليه ويديه وهمهم عليه فعلم بيبرس بأنه جواد كريم قال للسائس : اين السرج؟ فأتاه به ، قال : ائتني بجريدة فأتى له بها فأخذ الجريدة وهجم عليه وضربه وصاح به وشد عليه السرج والجمه واخذه بيده بعد ان فك قيده وخرج به ثم اعتلى على ظهره وكأنه الاسد وقال للسائس لا يتبعني منكم احد حتى اعود فخافوا عاقبة هذا الامر فأخبروا السيدة بما جرى من ولدها وما فعل بالجواد وكيف انه اخذه وركبه ولم يبال له ، فهذا ما كان من هؤلاء ، وأما بيبرس فانه ركب الجواد وسار به وقد تبطن في القفار ولم يزل سائرا الى ان انتهى الى مغارة في ذيل جبل فلما وصل الى هناك وقف الجواد فوكزه فلم يتحرك من مكانه فتعجب بيبرس بشأنه ، ثم انه نزل عنه ودخل الى تلك المغارة فرأى في داخلها سراجا يضيء بالنهار فتعجب ولم يدر لهذه الامور من سبب ثم انه اقبل الى داخل المغارة فوجد فيها بابا من الحجر وفي وسطه حلقة فقبض على تلك الحلقة بقصد الفرجة عليها فلما رفعها وتأملها بنظرة تركها فسقطت على الباب فكان لها دوي فلم يشعر بيبرس الا وخدام تصايحت من داخل المكان وقالوا : من الضارب لهذا الباب من غير اذن الاصحاب فمن انت حتى طرقت كنوز الكهنا ، ارجع ايها الضارب لئلا تحل بك المصائب واعلم ان هذا المكان ما لاحد عليه سبيل من جميع الانام الا غلام يقال له بيبرس فهو مسموح له بالدخول والحصول على المأمول . فلما سمع بيبرس ذلك صاح : انا صاحب هذا الاسم ، فناداه الخادم من داخل ذلك المكان : ادخل لا بأس عليك ، وفتح له الباب ودخل فلما صار من داخله رآه شخص قال له : انت بيبرس ؟ قال : نعم ، قال له : انت صاحب الامارة وقد دلت عليك الاشارة لانك موعود وان لك عندنا حاجة ضع هذا الذي بيدك عند راسي ليكون علامة بيني وبينك ، ثم انه وضع الجريدة فقال له الخادم : افتح هذا الدولاب ترى شيئا من العجائب فلا تأخذ شيئا غير الدبوس الدمشقي وزنه عشرة أرطال ما حازه قط غيرك لانه ما لك عندنا الا هذا ، فلا تطمع في الاموال وان خالفت حل بك الانتقام فذهب بيبرس الى الدولاب ومد يده اليه فانفتح وتأمل فراى ما يحير الناظرين من جواهر وأموال فترك ما فيه واخذ الدبوس الدمشقي وعاد

واغلق الباب وخرج من المغارة فراى الجواد بمكانه فركبه وسار في البراري والآكام وهو طالب الشام فبينما هو سائر في الطريق واذ طلع عليه فارس فصبر حتى تقرب اليه وناداه هات الغفارة فقال له بيبرس : يا هذا على اي شيء أعطيك الغفارة وانا ليس معي بضاعة ولا تجارة فقال له : على راسك وجوادك ، فقال له : والذي لا يعطي غفارة ماذا يجري عليه ؟ قال له: آخذ روحه او أسره رهينة على الغفارة وما ينفذ من يدي الا ان كان بطل. قال بيبرس : رضيت بذلك فخذ حذرك ، ثم انطبقوا الاثنين على بعضهما وخرج من أيديهما ضربتان كان السابق بالطعنة الخيال ، فزاغ عنها بيبرس واعتدل وضرب الخيال بالدبوس فرماه الى الارض ونزل عن جواده واوثقه كتاف واذ بثلاثة اقبلوا من كبد البر عليه وقالوا له : حيد عن اخينا ، فهجم على الاول رماه والثاني ألحقه بأخاه والثالث كاد يعدمه الحياة ثم شد الجميع كتاف وقوي منهم السواعد والاطراف وركب جواده وقادهم اسارى بين يديه فقالوا له : يا فتى اصنع المعروف والجميل فانه لا يضيع عندنا، فقال لهم : اني أريد ان ادخل الشام بكم واذيقكم العذاب والآلام ، قالوا له: ان من أفعال الكرام اطعام الطعام ووفي الذمام والتعطف على الارامل والايتام فتعطف علينا واعطنا زمامك فما منا الا من يكون خدامك ، فقال لهم : من تكونون من العربان ؟ فقالوا له : نحن يقال لنا القباتية ونحن خفراء الدروب وعددنا اربعة وستون نفرا ونحن رؤوس قبيلتنا وتحت يد كل واحد منا المائة والمائتان ولنا على عيسى الناصر بالشام كل سنة أجرة الغفر عشرة آلاف درهم نأخذهم وننفقهم على عيالنا ولم نؤذ احدا في طريق ولم يحصل منا تفريط وهذه عادتنا في كل عام يا زين المجالس فلما كان هذا العام توجهنا الى عيسى الناصر وطلبنا ما لنا عليه فأبى ان يدفع لنا وتكلم معنا بما لا يليق وقال لا ادفع لكم شيئا فقلنا له تدفع الغفر والا حل بك الضرر وننهب في البر كل من اتى الينا فقال لنا افعلوا ما بدا لكم فعند ذلك وقفنا في الطرقات وذلك لانه ليس لنا اكتساب الا من هذا الباب وهذه قضيتنا فلما سمع الامير بيبرس من الاربعة هذا المقال قال لهم تريدون ان تخدموا عندي وتأخذوا ما لكم من الاموال من يدي قالوا نعم واننا رضينا بما قلت فعند ذلك حل كتافهم واعطاهم الامان والزمام فقبّلوا يده ورضوا بالخدمة عنده وسار واحد منهم وعاد بباقي رفقائهم ثم اخذهم الامير بيبرس وساروا طالبين الشام ولم يزالوا سائرين معه الى ان اقبل الى بيت امه فطرق الباب وكانت امه بالها مشغول عليه فلما راته اطمأن قلبها وفرحت بمجيئه فحدثها بما جرى له فقالت له ان شاء الله فتوح خير يا ولدي ثم هيأ مكانا

الى العرب واقاموا عنده ورتب لهم معاشهم وهو مقيم عند امه فبينما هو جالس واذ اقبل عليه اربعة فلاحين فسألهم عن حالهم وما جاءوا به فقالوا اعلم ايها السيد اننا فلاحون سرجويل المهري شريك السيدة فاطمة في الارض وقد ارسلنا اليها واعطانا كتابا فأخذ الكتاب منهم وقراه خطابا من عند سرجويل المهري ملك صفد الى بين ايادي السيدة فاطمة الاقواسي الذي نعلمك به اننا نريد ان نشرع بالافراح ومرادي ان آخذ القمح هذا العام كله والسنة المقبلة تأخذين الانتاج كله من القمح فلما فهم بيبرس ما في الكتاب من المرام قال لهم : هذا شيء لا يكون ثم سطر له جوابا يقول: الذي نعلم به سرجويل ان هذا شيء مخادعة وتحويل ولا بد من انقسام الغلال وكل من له شيء يأخذه ولا يتم غير ما ذكرناه . ثم ختم الكتاب واعطاه للقصاد وأمرهم بالذهاب وقال لهم ان شاء الله انا لاحق بكم غدا وهذا ما عندي من الامر والشأن . فأخذوا الجواب وساروا اما بيبرس اعلم امه بما جرى فشكرته على عمله وقالت له : فاذا كان الغد تركب وتسير الى صفد وتأتي بقبسمنا من الغلال اما الفلاحين ما زالوا سائرين حتى دخلوا على سرجويل واعطوه رد الجواب فلما قراه فهم ما فيه غضب فقال له الوزير ظنيط : لا تغضب فالامر سهل اعلم انه اذا جاء وكيل السيدة ليأخذ الغلال اعمل انا كيال وادبر هذا الامر . ثم صاح على الفلاحين وقال لهم : ائتوني بالاكياس واجعلوها صنفين اسود وابيض فالاسود لنا . ثم جعل ينتظر قدوم بيبرس اما بيبرس فانه ركب هو ورجاله وساروا بهمة حتى وصلوا الى صفد وجاوزوا البلد وقصدوا البيدر واذ بظنيط الكيال سلم على الامير بيبرس فرد عليه وقال له : انت الكيال ؟ قال : نعم ، قال له : اقسم هذه الغلال . فصاح ظنيط على الفلاحين وقال : ائتوني بالاكياس فأتوه بهم فقال لبيبرس : يا سيدي الابيض لكم والاسود لنا ، فصار ظنيط يكيل ثلاثة في الكيس الابيض واربعة في الكيس الاسود كل هذا يجري وبيبرس ينظر ويرى فلما فرغ من الكيل قال : يا سيدي خذ الاكياس البيض حصتكم فقال له بيبرس : يا معلم خذ انت الابيض وانا آخذ الاسود فقال ظنيط : انا ما اعطيك الا الابيض وانحمق فقال بيبرس : ان لم تطاوعني والا لا اعطيك لا ابيض ولا اسود ، فعندها زمجر اللعين وشخر وعثر بلسانه فلما شاهد الامير بيبرس فعاله صاح على رجاله العرب وقال لهم : حملوا الغلة ولا تتركوا في هذا المكان شيء ، فعندها مالت الرجال على الاحمال ورفعوها على ظهور الجمال وقال لهم : سيروا ولا تخشوا

سطوة هؤلاء الكلاب اما ظنيط فانه لما راى هذا العمل رجع وهو يصيح ويقول : اخذوا الغلة والجمال ولا تركوا لنا شيئا من الغلال ، وذهب الى سرجويل وشكى له وبالغ في الكلام فلما سمع سرجويل المهري هذا الكلام التفت بحمق الى اخيه فيليب وقال له : خذ لك سرية من الخيل وسر على اثر هذا الغلام واقتله وارجع ما معه قبل وصوله الى الشام وخذ معك ظنيط يعرفك عليه ، ثم ركب وسار بمن معه في طلب بيبرس حتى ادركه فقال : اين تنجون بالهرب ونحن وراءكم في الطلب ، فلما سمع بيبرس ذلك صاح على العرب وقال لهم : اليوم يومكم اروني فعالكم وفروسيتكم في هؤلاء اللئام ، وهجم في مقدمتهم وثار الغبار فلله در العرب وما فعلت واين هؤلاء من هذه العلوج وسطا غراب البين ونادى على اللئام بالبوار ولم تكن الا ساعة من النهار حتى ولوا الادبار وركنوا الى الفرار ونظر الامير بيبرس فيليب اخا سرجويل هربان فلحقه وضربه فأرداه قتيلا وعندما راوا رئيسهم قتيلا ما عاد لهم اثر فلحقتهم العرب فأدركوا ظنيط فطعنوه في ظهره ، واخرجوا الرمح من صدره .

اما بيبرس امر رفقاءه بلم الاسلاب والخيول من الفلاة ثم سار طالب الشام حتى دخل على امه وسلم عليها وحكى لها على ما جرى فدعت له ، اما ما كان من المنهزمين فانهم ما زالوا في هزيمتهم الى ان وصلوا الى سرجويل وهم يصيحون ولما راى سرجويل ذلك قال من فعل بكم هذه الفعال واين اخي فيليب وظنيط ؟ فقالوا له : قتلهم هذا الشيطان بيبرس وصحبته رجال رؤياهم تقرب الآجال . ثم انه صاح على كامل رجاله وما عنده من عساكر وكانت عدتهم عشرة آلاف فارس وركب سرجويل في أولهم وسار طالب ارض الشام حتى وصل فبلغ الخبر نائب الشام عيسى الناصر بركوبهم خاف على البلد ولم يدر ما السبب ثم انه اغلق الابواب وحصن البلد خوفا على اهلها ، ولما رأى سرجويل هذا كتب كتابا واعطاه لسيار وقال له : سر الى نائب الشام واعطه هذا الكتاب وهات منه رد الجواب، فسار بالكتاب حتى وصل الى الابواب قالوا له : من انت وماذا تريد ؟ فقال لهم: سيار وحامل كتاب ، فاستأذنوا له من عيسى الناصر فأذن له فدخل حتى وقف بين يدي النائب وناوله الكتاب فقراه ، فوجده من سرجويل الى بين أيادي نائب الشام ، اعلم اني ما لي عندك حاجة وما حاجتي الا بيبرس الذي قتل اخي وابن اختي واني لا أرحل عن ارض الشام حتى آخذ بثأري من الاخصام ولو اقمت عشرة أعوام فسلمني اياه وما لي طلب عندك الا هو ، فانظر في عاقبة امرك والسلام .

فلما سمع عيسى الناصر بذلك قال : وما لي لا اريح نفسي واخرج لهم خصمهم ، ثم انه انعم على السيار واعطى له رد الجواب فسار الى ان وصل الى سرجويل واعطاه الجواب فقرأه ، واذ فيه من نائب الشام الى سرجويل اعلم انني ليس لي خبر بما جرى واني ساخرج لك خصمك من الديار فدونك واياه وهذا ما عندي والسلام .

فلما قرأ الكتاب فرح بما قال له نائب الشام وجعل ينتظـــر خروج بيبرس من الشام ، اما الامير بيبرس فانه جالس ولم يفكر في مثل ذلك واذ برجل قال له : اجب نائب الشام ، فركب من ساعته هو وجماعته العرب وترجلوا عن الخيول ودخلوا الى الديوان فلما رآه عيسى الناصر قام له وتلقاه ثم اجلسه الى جانبه وبعد ان باسطه قال له : يا ولدي الـذي أعلمك ان هذا اللعين سرجويل ما اتى الى هنا الا بسببك وما ركب علينا الا لاجلك لما فعلت به من الفعال واني أريد ان القي الهيبة في قلوبهم وارد كيدهم في نحرهم وقد نظرت في امرهم ودبرت حيلة اقولها لك ، فقال له بيبرس : وما هي ؟ قال : اعلم يا ولدي انني اريد ان تركب جوادك وتخرج انت ورجالك وانا وعساكري على اثرك غير اني اصبر بعد خروجك حتى يصلوا اليك فأحتاط بهم ويصيروا في أوساطنا من غير محال فنفنيهم عن آخرهم فماذا تقول في ذلك ؟ فقال بيبرس وقد ظن ان ذلك حقا : كما تريد ، ثم نهض بيبرس وركب هو ورجاله وساروا الى ان وصلوا ابواب البلد وخرج بيبرس ورجاله وابعدوا عن الابواب فنظر الامير بيبرس الى خلفه فوجد ابواب الشام قد اغلقت وراءه ولا احد خرج منها فعلم انها حيلة عليه فسلم امره الى الله والتفت الى من معه من الاصحاب وقال لهم : يـــا اخواني قد تمت المكيدة والراي عندي اننا نموت كراما فكونوا على الحملة عازمين ، فقالوا له : ما منا الا من رام هذا المرام وقد عزمنا على الثبات حتى تفنى أرواحنا ، فعندها دبت النخوة في رؤوسهم ونظر اللعين سرجويل الى بيبرس وقد خرج من الابواب وصاح في عسكره ، وقال : دونكم واياه خذوا بالثأر وجلي العار ، اما الامير بيبرس فصف رجاله ، فلمـــا راى سرجويل أعماله صاح على الفرسان ان يبرزوا الى الميدان ، فبرز فارس يلعب بالسنان فخرج اليه الامير بيبرس فلما رآه اللعين صوب حربته اليه فسبقه بيبرس بالحسام اطاح راسه فلما رات اللئام تلك الضربة اهابـوه وتأخروا عنه فصار يطلب الفرسان للمبارزة وسرجويل متحير يريد ان يخرج اليه ولكنه يخشى الفشل ثم امر فارسا اخر ان يبارزه فما تركه ان يكر

في الميدان ولا يلعب بسنان حتى ضربه ضربة جبار رمى رأسه على الاحجار ولم يزل كل من برز اليه يقتله حتى قتل ثلاثة عشر فارسا ، فلما نظر سرجويل الى ذلك صاح على الرجال وقال : احملوا بكليتكم عليه واهلكوه ورفقاءه واعدموهم الحياة وداروا بالجميع ولم يزل السيف يعمل والدم يبذل ونار الحرب تشعل حتى ولى النهار وارتحل وقتل من الاعداء مقتلة عظيمة ، وقد مات الرجال القبائية الا القليل ولم يبق غير الامير بيبرس فانسحب من الميدان ، اما سرجويل فتفقد بيبرس فلم يجده ، فقال لمن حوله : كل من اتى لي ببيبرس او براسه اعطيته ثقلها ذهب ، فعند ذلك قال رجل له : انا آتيك به وآخذ ما ذكرت من العطية ، ثم خرج من عند سرجويل وطلب بيبرس .

اما بيبرس فانه لما عاد من الميدان نزل من على الجواد واكل شيئا من الزاد وغلب عليه التعب والنعاس فأتى الى منعطف وربط الجواد بيده ونام، اما الرجل فصار يتفقده فراى بيبرس راقدا على الاحجار فأخذه الفرح والاستبشار منديل مطبق بالبنج والقاه على انفه فصار معه نوم على نوم ثم حمله ووضعه على جواده وسار به الى ان اقبل الى عند سرجويل وقال له : ها هو غريمك ، فلما راى سرجويل خصمه بيبرس فرح وقال : انزلوه من على الجواد ونشقوه الخل ليفيق من رقاده ، ففعلوا ذلك فأفاق الامير بيبرس ، فلما افاق قال : اين انا ؟ قال له سرجويل : انت عندي ولا بد لي ان اقطع راسك وآخذ بالثأر منك ، فقال له بيبرس : اعلم ان الفرج قريب والله ينجيني من يدك ولكن اخبرني عن هذا الصيوان لمن قال له هو لي وقد انفقت عليه مالا كثيرا ، فقال : ان قدر الله واحسن خلاصي واوقعك في قبضتي ما يكون فداك الا هذا الصيوان ، فقال : اذا اتى الفرج لك ووقعت انا في يدك افعل ما بدا لك ، ثم قال اللعين : خذوه الى السجن وعند الصباح نقتله شر قتلة على مراى من الناس ، فأخذوه وفي السجن وضعوه .

اما ما كان من سرجويل فانه اصبح ، قال : صفوا الرجال والعساكر دائرة وضعوا نطاع الدم ، ففعلوا ، فقال : ائتوني بهذا الشقي بيبرس ، فذهبوا الى السجن فما وجدوه ، فأخبروا بذلك سرجويل فطار عقله وشتم حراسه وجازاهم وقال : يا ترى من خلصه ؟.

قال الراوي : اما سبب خلاص بيبرس من السجن فقد كان احد الفداوية واقف يسمع ويرى عندما قال الرجل انا آتيك ببيبرس فصبر حتى نام حراسه انقض على خيمة السجن فأخذه وخرج من المعسكر حتى

عرف انه بمامن وقف وكسر قيد بيبرس من يديه ورجليه ، فقال له بيبرس : احسنت غاية الاحسان فمن تكون ؟ قال له : لقد نسيتني ، اما انا ما نسيتك، وانا شاكر جميلك انا المقدم عاصم بن بحر المرقبي الذي بعت لك القوس ورديته لي مع ضعف ثمنه وقد سألت الله ان يعينني على مكافئتك فاستجاب دعائي وخلصتك من ايدي اعدائك ، ثم ان بيبرس والفداوي عاصم توجهوا الى سور الشام وتخطوه وصاروا داخل مدينة الشام وقصد بيبرس بيت والدته وبصحبته الفداوي ، فلما راته امه فرحت به كثيرا ، لانه رجع اليها سالما وسألت ولدها فأخبرها بما جرى له وثاني يوم تودع الفداوي من بيبرس فقال له : الى اين تريد ؟ قال له: لي اشغال كثيرة ، فأعطاه مائة دينار فشكره المقدم وانصرف .

اما الامير بيبرس فانه اقام عند امه ستة ايام وقد ارتاح من الآلام وسابع يوم عندما اصبح ، ركب جواده واعتد ولبس سلاحه وسار طالب الابواب وصاح على البواب وامره بفتح الباب ففتحه له وسار حتى قارب اللئام وصاح ميدان فلما عاين سرجويل ذلك قال : ابرزوا اليه ، فبرز اليه فارس فقتله والثاني جندله ، والثالث ما امهله ولم يزل على ذلك حتى قتل منهم خمسة عشر فارسا فعند ذلك تضايق منه سرجويل وقال : احتاطوا به واقتلوه ، فهجمت الاعداء عليه من كل صوب فبينما هو يطلب الفرج ويستجير بربه واذا بالغبار علا وسد الاقطار وتمزق واذا بخيول غائرة وأعلام خافقة وهم ينادون : لعينيك يا امير بيبرس ، ونزلوا على الاعداء نزول السيل وقد أوقع الله الرعب في قلوب الاعداء فتأخروا الى ورائهم فوجدوا الخيام قد اندلعت فيها النيران لانه عندما راى اهل البلاد والفلاحون هذه الغارة على الاعداء طمعوا فيهم وهاجموهم من الوراء ، عندها قويت سواعد الامير وصار يضرب بهم وقتل صاحب العلم وقصد سرجويل حتى وصل اليه ضربه بالدبوس فرماه الى الارض وأوثقه كتاف ، فلما رات اللئام ما حصل بملكهم وما لحق بهم ركنوا الى الفرار وولوا الادبار وتركوا الخيام والنعم الكبار ، ولم يقدروا يأخذوا شيئا خوفا من المنية ومن جملة ما تركوه الصيوان الممدود الذي هو على ماية عامود وكان لهذه الغارة سبب وهو عندما حارب العرب القباتية مع بيبرس سلم منهم قليل وراحوا الى قبيلتهم وعشائرهم وخبروهم بما جرى على رفقائهم من الاعداء فجيشوا وأتوا يأخذون بالثأر من الاعداء وعندما انتهت المعركة لصالح الامير بيبرس جلس على كرسي سرجويل وامر باحضاره بين يديه فلما رآه قال له : انا

قلت لك فرج الله قريب ضحكت علي والان ما بقي لك الا ان تشتري نفسك بالمال ، فقال له : كل ما املك صار اليك ، قال له : اعطني هذا الصيوان ثمن راسك ، فقال له : خذه ودعني براسي ، ثم اعطاه جوادا من غير عدة وقال له : امض الى حال سبيلك ، ثم استقبل العربان ورئيسهم واكرمهم غاية الاكرام واعطاهم من الاسلاب شيئا كثيراً كما ارسل معهم مالا ونعما وامتعة الى ارامل وايتام اتباعه الذين قتلوا من القباتية وشكرهم على فعالهم ونجدتهم له .

اما الامير بيبرس فانه بعدما اكرم العربان وصرفهم فرق ما بقي من الاسلاب على الفقراء والارامل والايتام وما ابقى له الا الصيوان وما شاء من الخيول ، ثم توجه الى بيت امه وهذه النعم قدامه الى ان وصل فاستقبلته وفرحت بسلامته .

اما نائب الشام عيسى الناصر بينما هو جالس وقد دخلت عليه الاخبار بما فعل بيبرس مع الاعداء وبما انعم الله عليه من الاموال وبما انفقه على الفقراء والارامل ، فلما سمع ذلك الكلام صار الضياء في وجهه ظلاماً ، ثم انه عاد الى مكره وخداعه واخفى الكمد واظهر الجلد وقال لاربعة من اعيان رجاله : ائتوني بولدي الامير بيبرس ، فذهبوا اليه وسلموا عليه وقالوا له: ان سيدنا عيسى شرف الدين فرح بانتصارك على الاعداء وهو يدعوك الى الديوان ليهنئك بالسلامة ، فسار معهم الى ان وصل فلما رآه عيسى الناصر وثب على الاقدام وهنأه بالسلامة وقال له : الحمد لله يا ولدي قد زاد فرحي حيث نصرك الله على الاعداء ولكنك تكرمت على الناس ونحن ما خطرنا لك على بال فلأي شيء هذه الفعال فقال له : بعدما عرضتني للاعداء وتخليت عني فتعود وتطلب مني اسلاباً فوالله انك لا تستحق عندي عقال والان عندك العلماء اهل العرفان نقص عليهم هذا الامر والشأن ، قال بيبرس : يا علماء الاسلام ما قولكم في رجل اباح دمي للاعداء واخرجني اليهم بسوء مكره واغلق خلفي ابواب الشام ولم يجاهد معي في سبيل الله ولقد نصرني الله الكريم المتعال ويريد الان قسمة من الغنائم والاسلاب ، فقالوا : ليس له حق بذلك فلزم الصمت واضمر في نفسه الغدر وقال له: يا ولدي انا امزح معك ولا اريد الا سلامتك ، ثم جعل يضاحكه ويتحدث معه بلين الكلام ولم يعلم بالقلوب الا الملك العلام ، ثم نزل كل منهم الى حاله ، اما عيسى الناصر فانه ارسل الى عايق من عياق الشام فلما حضر اليه اجلسه وسلم عليه وقال له : اريد ان تسرق لي بيبرس وتأتي به الى عندي وتكتم هذا السر ولك مني الاكرام فقال له : سمعا وطاعة ، اما

العايق فانه صار يترقب حتى نامت العيون ونزل على بيبرس فرآه نائما فالقى على وجهه منديلا به بنج وصبر حتى ثقلت دماغه فشده كتاف وجعله في كيس وسار به الى عيسى الناصر فوجده في انتظاره فقال له : ها هو غريمك فأخذه منه وقال له : اياك ان تظهر هذا الامر ، ثم أكرمه وصرفه فقال : السمع والطاعة ، ثم اخذ بيبرس وسار به الى داخل سرايته ووضعه في محل بعيد عن الانظار وصحاه فلما أفاق قال : اين انا ؟ قال له عيسى: انت عندي يا أخس الرجال انظر لنفسك فترى عواقب ما فعلت فهذا المكان قبرك حتى تلقى وجه ربك ، فقال له : أتفعل معي هذه الفعال وانت تزعم بين الناس انك والدي ولكن فرج الله قريب . ثم انه ترك بيبرس مكتفا واغلق عليه وذهب وظن انه يسقيه كأس منيته ، اما والدته فاطمة فانها لما اصبح الصباح استفقدت ولدها فما رأته ولا وقفت له على خبر فأسرعت وكتبت كتاب وهو من السيدة فاطمة بنت الاقواسي الى بين أيادي بني اسماعيل اهل الحمية الذي نعلمكم به ان ولدنا بيبرس بات عندنا في مكانه واصبحنا فلم نر له خبر ولا جلية أثر وارسلنا نعلمكم بما حصل ونحن في جيرتكم يا اهل النخوة والمروءة اكشفوا لنا عن خبر اخيكم والسلام ، ثم انها ختمت الكتاب وصاحت على عبد يقال له سعيد الدار قال لها لبيك قالت : خذ هذا الكتاب واركب هذا الجواد وسر به الى القلاع فاذا وصلت الى هناك فاسأل عن المقدم سليمان الجاموس وسلم عليه واعطه هذا الكتاب وهذه حاجتي عندك فان قضيتها فأنت حر لوجه الله . فلما سمع العبد ذلك الكلام اجابها بالعزم والاهتمام ثم ركب الجواد وسار يجد المسير الى ان وصل الى المعرة ثم سأل الاتباع على نقيب الرجال فدلوه عليه فأخرج الكتاب واعطاه اياه فأخذه سليمان الجاموس وقراه وفهم رموزه ومعناه ثم اعاد قراءته على الرجال فلما سمعوا ما فيه من المقال انعموا على العَبد وقالوا له : سر الى سيدتك واقرئها السلام وقال لها انتظري حضور المقدمين عندما يجن الظلام ، فقال العبد : السمع والطاعة ، ثم سار طالب الشام الى ان وصل ودخل الدار وسلم على سيدته واعاد عليها ما جرى من الاخبار فلما سمعت منه تلك الاخبار انعمت عليه واعتقته ، واما بنو اسماعيل فانهم ثاني يوم ركبوا خيولهم وساروا طالبين ارض الشام الى ان وصلوا الى البساتين بالليل فترجلوا عن خيلهم واقبلوا الى السور ورموا مفاردهم وتسلقوا على الاسوار ونزلوا الى داخل البلد وساروا ولم يزالوا الى ان اتوا الى بيت السيدة فاطمة الاقواسية وكانت في انتظارهم فلما

قرعوا الباب امرت الخدم ان يفتحوا لهم فاستقبلتهم السيدة في الحال وصعدت بهم الى قاعة الجلوس واكرمتهم وبكت بين ايديهم وشكت حالها اليهم فقالوا : لا تبكي ايتها السيدة فنحن نفدي اخانا بيبرس بأرواحنا ولكن اخبرينا هل يكون له عدو من الاعداء فقالت لهم : نعم له عدو وهو من اكبر الاعداء ، فقالوا لها : ومن يكون ؟ قالت لهم : عيسى الناصر نائب الشام . فلما سمعوا من السيدة فاطمة تلك الاقوال قالوا : عرفنا الغريم وما يمضي الليل الا واخونا عندك ، ثم شكرتهم واثنت عليهم ، وامـــا الرجال فساروا الى ان اقبلوا الى سراية عيسى فأرموا مفاردهم وصعدوا وانحدروا الى داخل المكان ثم صاروا يدورون على مكان عيسى فاهتدوا اليه فرأوه نائما على سرير فأيقظوه فلما افاق من نومه ليرى من ايقظه واذ بهم بنو اسماعيل فوقع به الخوف والفزع ولكنه اظهر الجلد وقوى قلبه ورجع الى خداعه ومكره وقال لهم : اهلا وسهلا بأهل الجود والكرم . فعند ذلك جرد المقدم سليمان الجاموس الشاكرية وقال له : اذا كنت انت من اهل المكر والخداع فنحن جرثومة الحيل والخداع فاعلم الان انه ما بقي لك من يد القناص وما بقي لك في الدنيا غير هذه الساعة وما عاد ينفعك الا الشهادة . فلما سمع عيسى ذلك الكلام قال لهم : وما الذي فعلت معكم حتى تقتلوني فقالوا : انت تعرف ذنبك فقال لهم : انا ما علمت لي ذنبا ابدا فأعلموني فقالوا له : وحق الاسم الاعظم ان لم تصدقنا في ذلك والا اسقيناك المهالك ، فقال لهم : أصدقكم ، فقالوا له : اين بيبرس . فلما سمع عيسى ذلك تعجب وعلم انه اذا كذب عليهم سقوه العطب فقال لهم : ولاي شيء تدوّرون على هذا الغلام ؟ فقال المقدم : اعلم يا عيسى ان هذا الغلام عدو لسلطاننا وقد امرنا بمجيئه اليه فدلنا عليه والا اخذناك ترد جواب السلطان لاننا لا نطلبه الا منك ، قال لهم : انه ليس هذا ابني ولا انا ابوه وانما هو غلام فاطمة الاقواسية والصواب ان تطلبوه منها . فقالوا له قولا فصلا اما ان تدلنا عليه والا قتلناك وسرنا برأسك الى حاكمنا ، قال لهم : اعلموا ان هذا غريمي واكبر اعدائي اذا دليتكم عليه تأخذون روحه من بين جنبيه حتى يشفى غليلي منه ، فقالوا له : هو كما ذكرت وسوف ترى بعينيك فأين هو؟ قال لهم : عندي ، ونهض قائما وسار بالرجال حتى اقبل الى الطابقة الذي فيها بيبرس وفتح الباب ودخل ولما رأى بيبرس عيسى وهو مقبل ظن انه يريد قتله فقال له عيسى : يا قرنان من انت حتى تعادي السلطان فالان قد حل بك التلف . فارتعد وخاف واذ رأى اخوانه الفداوية مقبلين خلفه اطمأن قلبه اما عيسى صاح : يا رجال هذا خصمكم فخذوه واقتلوه ودعوا

امه تندب عليه ، فما لحق عيسى ان يتم الكلام حتى ضربه سليمـــان الجاموس بالشاكرية صفحا القاه الى الارض واوثقه كتافا فقال لهم : يـا قوم ما ذنبي عندكم ؟ قال له المقدم : يا قرنان ما هي الا حيلة وقد تمت عليك وبها اخذنا اخانا من بين يديك وعلمنا انك عدوه الاكبر ، ثم خلصوا بيبرس من الاغلال فشكرهم على فعلهم ثم التفت الى عيسى وقال له : اي ذنب كان لي عندك حتى جازيتني بالعقاب والان هاتوا راسه يا أعز الاحباب فتقدم اليه سليمان الجاموس وهو مجرد الشاكرية فصاح عيسى : يـا ولدي اعفو عني وسامحني وان عدت لمثلها افعل بي ما تريد ، فاستحى الامير بيبرس ورق قلبه وقال لاخوانه : العفو من شيمكم يا كرام وقد سمعتم اقواله وعرفتم زوره وبهتانه وشهدتم على توبته واني اقول ما لي عدو غيره فان نقض التوبة فاقتلوه ولا تقبلوا فيه شفاعة انسان والان فاطلقوه لاجل خاطري ، فقالوا : دعنا نقطع راسه ونريحك من شره ، فقال عيسى : يا رجال اعلموا بأني تبت على يدكم ومن الان ان جرى عليه امر من الامور فأنا المسؤول عنه . عند ذلك جلوا وثاقه فأخذهم الى المقعد وطلب لهم الطيبات من المآكل والمشارب ثم خلع عليهم الخلع وقال لهم : اكتموا هذه القصة ولا تذكروها لاحد ، ثم نزلوا من عنده والامير بيبرس معهم الى بيت السيدة فاطمة فوجدوها بانتظارهم ففتحت لهم فدخلوا مع الامير وهم فرحون مما نالهم من خلاص اخيهم ثم ان الخدم ادخلوهم الى القاعة واجلسوهـم واوقدوا الشموع واقبلت المآكل والمشارب وهم مغمورون مما نالهم مـن العطايا من عيسى نائب الشام ثم امر لهم الامير بيبرس بالهدايا والعطايـا وشكرتهم السيدة كثيرا ومدحتهم على ما كان منهم ثم تودعوا من اخيهم بيبرس وايضا السيدة ونزلوا من البيت وساروا طالبين ديارهم .

قال الراوي : وسنرجع الى ذكر امير المؤمنين الملك الصالح بينما هو جالس وقد تكامل الديوان قال الوزير شاهين : يا مولانا السلطان المراد ترسل رجلا يجمع لنا الخراج من نواب البلاد ويأتينا به لان اوان الحج قد اقترب فقال له الملك : انظر لنا من نعتمد عليه في قضاء هذا الامر فعند ذلك تقدم الوزير نجم الدين البندقداري وقال : انا آتي بالمال وارجـع سريعا وكان هذا ابن عم الملك الصالح فقال له : يا نجم الدين دع هذا الامر الى غيرك فقال : يا ابن العم ان لي هناك حاجة اخرى اريد قضاءها فقال له : وما هي ؟ فقال : ان زوجتي لها اخت مقيمة بالشام وان هذه السيدة لها غلام وقد توفي وبلغ اختها انها لاجل ولدها لا يقر لها قرار فاعادت عليّ

زوجتي هذه الاخبار فطيبت خاطرها وقلت لها لا بد ان اسير الى الشام وكنت يا امير المؤمنين اريد منك الاذن فأتاني الامر كما أريد ، ثم ان الملك التفت الى الآغا شاهين وقال له : اخلع عليه ووله هذا الامر ثم ان الوزير نجم الدين نزل الى بيته وقال لزوجته اني مسافر الى الشام اجمع خراج الاقاليم بأمر امير المؤمنين فلما سمعت منه ذلك الكلام قالت له اذا انت وصلت الى الشام تقرىء اختي جزيل السلام وتأخذ بخاطرها عني في فقد ولدها وتخبرها بأن قلبي عليها كسير فالله يهون عليك كل امر عسير ويعيدك بالسلامة فقال لها : اعلمي انني ما طلبت السفر الا لاجل هذه الحاجة ثم انه جهز نفسه للسفر الى ان تمت الاشغال ونصب الخيام خارج البلـــد واجتمعت سائر رجاله ثم انه طلع واخذ الاذن من السلطان وتودع منـــه وطلب المسير ولم يزل سائرا حتى وصل الى غزة فأمر بالنزول ووصلت الاخبار الى نائب غزة فنزل وسلم عليه فقال له الوزير : خذ هذا الكتاب واجمع بما فيه وارسله الى الشام سريعا ، فأخذ الكتاب وقال سعيا على الراس ، ثم ان نجم الدين سار طالبا الشام حتى وصل اليها وقد نصبت الخيام ووصلت الاخبار الى نائب الشام وانه ما اتى الا بسبب الخـــراج واستعد لملاقاته ، اما الامير بيبرس بينما هو جالس واذ بعبده الاقواسي أقبل وطلع الى عند اخته ونزل وهو متغير اللون منزعج فلما رآه بيبرس على تلك الحال قال : ما لي اراك دخلت مسرورا وخرجت مقهورا فاخبرني ما السبب ، فقال له : يا سيدي اعلم ان زوج خالتك الوزير نجم الدين البندقداري قد اقبل من مصر وقد بلغ الخبر نائب الشام فنادى بالزينة في غد لاجل المقابلة واننا لازم ان نقابله وندخل الى الشام معه فدخلت الى عند اختي وطلبت منها بذلة تليق بي البسها غدا بين أقراني فما بلغتني مرامي وان البذلة التي عندي لا تصلح الى مقابلته واني وعدت اختي ان اعيدها فما سمعت مني وقالت لي اعلم يا اخي انا لم يكن لي تصرف لا بمال ولا بمكان الا اذا كان باطلاع ولدي بيبرس لانه هو صاحب المال والنوال فان كان مرادك شيئا فاذهب اليه . فلما سمع الامير بيبرس كلامه تبسم وقال له : يا سيدي لا تأخذ على خاطرك فاطلب ما شئت يحضر لك ومـا يزال يتلطف معه حتى زال عنه الغيظ ثم ذهب الامير واتى له ببذلة تليق به وهي غاية ما تكون وقال هذه مني اليك هبة ، فأخذ عبده البذلة وتشكره فقال له الامير بيبرس : غدا أحضر الى هنا لاجل ان اركب انا واياك لاستقبال الوزير فقال له : السمع والطاعة واذ ثاني يوم مقبل عبده الاقواسي ولابس البذلة فاستقبله الامير بالترحيب ثم ان الامير بيبرس قلده بالسلاح ولبس

هو احسن ما عنده وأمر السايس ان يحضر لعبده جوادا مفتخرا وركب الامير على جواد سرجويل وركب الى جانبه عبده وساروا الى ان اقبلوا الى الصيوان فترجلوا عن خيولهم واستقبلهم الرجال ودخلوا الى عند الوزير نجم الدين وسلموا عليه وباس عبده الاقواسي يده وعرفه على ابن اخته الامير بيبرس وهو العزيز عليه من بين الانام ففرح بهم الوزير واستقبلهم بأحسن استقبال فبينما هم كذلك واذ بموكب نائب الشام قد اقبل وكان موكب عظيم قد اجتمعت فيه رؤوس الشام فلما وصل الموكب ترجل عيسى الناصر ودخل على الوزير نجم الدين البندقداري فترحب به واجلسه الى جانبه واقبل بعده نقيب الاشراف والقضاة والاعيان فاستقبلهم الوزير واحتفل بهم فأسر عيسى الناصر الى الوزير نجم الدين بالكلام حيث لا يسمعه احد وقال له يا سيدي ظهر عندنا بالشام غلام يدعى بيبرس وقد تبنته السيدة فاطمة الاقواسية شقيقة زوجتكم وقد فعل افعالا خطيرة وتحرش بملك صفد فركب علينا فنصرنا الله عليه ورديناه مدحورا مكسورا وكل يوم له مشكل ويجلب لي الاتعاب وانا اكراما لخاطرك تحملت منه كثيرا ولكن الان ما عاد لي صبر ولا طاقة على ذلك فاكراما الى الله ان تجد لهذا الامر فصل ولك الفضل فقال له الوزير : اخفها الان وانا عندي لها حل وهو اني أشوقه بمصر وآخذه معي واقنع امه بذلك ويبعد عنك وتستريح منه . فشكره عيسى الناصر على ذلك اما الوزير نجم الدين بعدما استقر بالجلوس وسلمت عليه الوفود ركب وسار بموكب عظيم حتى دخل الشام ووصل الى الديوان ثم سار الى بيت اخت زوجته ومعه ولدها بيبرس واخوها عبده وقد تسابقت الخدم واعلموا السيدة بقدوم صهرها الوزير نجم الدين وولدها بيبرس فنزلت اليهما وسلمت على زوج اختها وسلم عليها وعزاها ثم جلسوا وهم مسرورين وثاني يوم ذهب الوزير طالب ديوان الشام وأمر النائب ان يطلب الخراج من نواب البلاد وان الوزير بانتظارهم بالشام فأجابه بالسمع والطاعة ثم سار الوزير الى بيت اخت زوجته السيدة فاطمة الاقواسية وهو ينتظر قدوم المال فيوم جالس الوزير هو والامير بيبرس جعل يذكر مصر ومحاسنها وانها أم الدنيا ولا يسكنها الا كل لبيب ولا يقيم فيها الا ذو عقل وتأديب فهنيئا يا ولدي لمن سكنها وجعلها داره ويا سعد من قر فيها قراره فلما سمع الامير بيبرس ذلك الكلام تعلق قلبه بها وتمنى ان يطير اليها ثم قال له : يا سيدي سألتك بالله الا ما اخذتني معك الى هذه البلدة الموصوفة فان روحي صارت عليها

ملهوفة فقال له : يا ولدي مرحبا بك ولعل ان تكون اقامتك بمصر خيرا من اقامتك هنا فان شئت ذلك فجهز امرك وخلص شغلك فاني متى جمعت الخراج توجهت الى مصر ولما تقرر الحال بينهما نهض كل منهما الى المنام وعند الصباح طلع بيبرس الى عند امه وقال : يا امي اعلمي ان لي عندك حاجة واروم منك قضاءها فقالت له : وما هي ؟ فقال لها : مرادي ان اسافر مع زوج خالتي الوزير الى مصر واتفرج عليها واعود بعد ذلك اليك في مدة قليلة من الايام فقالت له : يا ولدي لا تذكر على لسانك هذا الكلام فما مصر الا بلد مثل سائر البلدان واني قد عرفت من أغراك وعلى الفراق اغواك وما شوقك بمصر الا نجم الدين فلا كان له الله معين فقال لها : يا امي لا تكثري الملام لا بد من ذلك والسلام فلما تحققت ذلك منه بكت ونهضت قائمة وذهبت الى نجم الدين وقالت له : انت الذي اغويت ابني على السفر الى مصر فلا كانت ساعة جئتني فيها ، ثم رجعت لبيبرس وقالت له : اذا كان لا بد لك من الرواح فخذ جميع الملابس والسلاح وخذ المال لعل ان ينفعك على مر الايام واني اسأل رب الانام ان يريني وجهك وانت تحكم على عساكر تملأ البطاح ، ثم رجعت الى نجم الدين وقالت له : انت تريد ان تأخذ ولدي مني فاياك ان تغمه او تقهره فهو سائر بصحبتك وامواله مقرونة بخزينتك فتوصى به لاجل خاطري وتوصي عليه اختي غاية الوصية فقا لها نجم الدين : سوف يظهر لك ذلك وانا اقول ان اختك اذا نظرته فلا بد ان تفرح وتكرمه وتعزه وانت لا تخافي عليه ما دمت انا في قيـــد الحياة فلا تتفكري في ذلك ابدا ، ثم قالت لبيبرس : اذا لم ترق لك الاقامة يا بني فارجع الى عندي ، قال : نعم يا امي ، ثم ان بيبرس قبَّل يدها ورأسها وقال لها : اريد منك الدعاء والرضا فدعت له ثم قالت : يا ولدي لا تنساني من المكاتبات ثم انها جمعت الاموال التي عندها والاسلحة فــي صناديق ووضعت المفاتيح في صندوق صغير واعطته اياه بعد ان سكرت اقفالها فشكرها بيبرس على فعالها اما ما كان من عيسى الناصر فقد حضرت الاموال والخراج من جميع البلاد بين يديه وضم عليه الخراج الذي علــى الشام وأرسل أعلم الوزير نجم الدين فسار الى الديوان فتلقاه عيســى الناصر وسلمه الاموال فأمر الوزير بنقلها الى بيت السيدة فاطمة الاقواسية وسار الى بيتها فسلم عليها وقال لها : ان شاء الله يكون المسير بعد ثلاثة ايام . ثم التفت الى بيبرس وقال له : جهز نفسك ، فأحضر الامير بيبرس البغال والجمال ثم حمل كل ما في المكان من الاموال وصيوان سرجويل الذي اكتسبه وأمر بالخروج الى ظاهر البلد ثم قال للغلمان والخدم : جهزوا

احوالكم الى السفر ، ثم تسلموا الجمال والبغال والصناديق وجعلوا يتجهزون مدة ثلاثة ايام ، اما ما كان من نائب الشام عيسى الناصر فقد اخبروه بأن بيبرس سائر الى مصر ففرح وقال : الحمد لله الذي رحل ولا ارانا الله وجهه ، ولما كان يوم المسير انعقد الموكب وتودع الوزير من السيدة فاطمة وبيبرس باس يدها وراسها وسألها الدعاء فقبّلته بين عينيه وقالت له : الله يحسن شأنك ويردك عليّ بالخير والسلامة ، وخرج نائب الشام والاعيان الى ظاهر البلد وتودعوا من الوزير وثاني يوم ساروا طالبين مصر مدة عشرة ايام وارادوا ان يعرجوا الى جهة اليسار واذ بالامير بيبرس صاح عليهم قائلا : هذا الطريق مستقيم قدامكم فلأي شيء تتركوه وتسلكوا غيره فقالوا له : ان الوزير هو الذي امرنا بذلك وقال لا تسيروا الا من هنا ، فقال لهم الامير : سيروا على ما انتم عليه من الطريق وانا آخذ لكم الاذن من الوزير فطلب لهم الاذن منه فقال : اسمع يا ولدي ان هذه الطريق قريبة للسالك لكنها صعبة المسالك لان في طريقنا العريش وبها ملك من ملوك الافرنج يقال له فرنجيل يأخذ الغفر ويقتل كل من عبر بغير غفر وينهب امواله ولا يبالي فقال له الامير : يا والدي لا تحمل هم على قلبك ولا يضيق صدرك فأنا اعطيهم الغفر من مالي ولا أدعهم يقربون اليكم فقال له الوزير: اذا كان الامر على ما ذكرت فنحن نسير وانت تدفع الغفر له من مالك وانني يا ولدي ما يمكنني ان ادفع ولا درهم من اموال السلطنة فقال له بيبرس: ما عليك من ذلك نجاك الله من المهالك ، ولما تقرر الحال بينهما على ذلك ساروا على طريق العريش ولما تقربوا من قلعة فرنجيل التفت بيبرس الى الوزير وقال له : يا وزير سر انت ورجالك ومال السلطان قدامي وانا خلفك سائر على اثرك وانا معي هذا الصندوق المحمل على هذا البغل فاذا تعرضوا لك فقل لهم ان صاحب القفل هو في أعقابنا ومعه الاموال وقد أعد لكم كل ما يلزم فحاسبوه على الغفر ، ثم سيروا انتم وانا احاسبهم واتبعكم فظن الوزير ان ذلك حقا فسار كما قال ولم يعلم بما اضمره وتأخر الامير بيبرس الى وراء الركب وصحبته خمسون من الغلمان فأمرهم ان يجمعوا له حصا وحجارة وملأ الصندوق ومكن اقفاله وحمله على البغل وساروا .

قال الراوي : اما ما كان من ملك العريش فانه كان له ولد يسمى قمطة وكان كثير الفساد والخبث والسكر والعربدة وكان كل يوم يطلب من ابيه الاموال فقال له ابوه : انا اعطيك الغفر الذي يأتي الينا من المسافرين فهو يكفيك ، ففرح قمطة ثم اخذ رجاله وامرهم ان يقفوا على الطرقات وجعلوا

يفعلون تلك الامور المنكرات الى ان شاع ذكرهم وبلغ الخبر الى نجم الدين فلذاك السبب امر ان يعرجوا عن الطريق فبينما هم كذلك اذ اقبل الوزير نجم الدين على قمطة فلما نظروه اوقفوه عن المسير وصاح قمطة : حاسبونا على الغفر الذي عليكم وعلى تجارتكم فقال له نجم الدين : اعلم ان هذه التجارة ليست لنا وما نحن الا اتباع صاحبها وهو خلفنا وعلى اثرنا ، ومعه كل ما تحتاجون اليه من مال ، فقال : انا اضع عليكم حرس واكشف صاحبكم فاذا اجتمعت به ابعث لكم خبر بالمسير ، اما اللعين قمطة فسار ليكشف الخبر هو واذ اقبل الامير بيبرس ومعه الصندوق والمماليك من حوله وهو سائر على مهل فلما قاربهم صاحوا عليه : هات الغفر الذي عليك فقال لهم : هل مر عليكم اتباعي ؟ فقال له قمطة : عبروا وهم منتظرين حتى تدفع لنا الغفر فقال لهم : من الذي يأخذ الغفر مني ويحاسبني ؟ فقال له قمطة : انا الذي آخذه ، فقال له بيبرس : ابعث خيال يرفع الحرس عنهم فبعث لهم خيال فقالله بيبرس : مرحبا بك ولكن ليس عندي مهلة حتى اني احاسبك وانت عندي صاحب ذمة فخذ هذا الصندوق وادخل به الى بلدك فمثلك يؤتمن على اكثر منه فاذا فتحته فخذ الغفر منه وابق الباقي عندك على سبيل الوديعة حتى ارجع اليك ولكن لا تخلي احد يقربه غيرك انا ما سلمته الا ليدك . فقال له : لا يكون لك فكرة ، وفرح الغلام وقد انطلت عليه الحيلة وتناول الصندوق وجذبه فما تحرك لثقله فأمر باحضار بغل وجعلوه عليه وقال في نفسه لم ارد له منه شيء ، وقد ساروا به وهم فرحين بأخذ المال واما الامير بيبرس فانه تبطن في البراري والقفار وبعث بخيال الى الوزير نجم الدين يقول له : جد بالمسير ، اما قمطة فانه صار بالصندوق وهو فرحان حتى وصل الى بلده وطلع الى الديوان فلما رآه ابوه قال له : جئت بالغفر ؟ قال : نعم اتيت بغفر مليح وهو صندوق ملآن من الاموال فقال له : ومن اعطاك هذا الصندوق قال له شاب خواجه له قافلة سائر بها وقال لي خذ منه الغفر واجعل الباقي لي عندك امانة الى ان اعود اليك مرة اخرى ، فقال له ابوه : افتحه لنرى ما فيه ، فقال : نسيت ان اطلب المفتاح منه ، فقال الملك : احضروا لنا غالاتي فأتوا له بما طلب فقال له الملك : افتح لنا هذا الصندوق ، فقال الغالاتي : امرك ، ثم عالج به حتى فتحه فنهض الملك ورفع الغطاء وتأمل واذ بالصندوق ملآن حصى وصوان فلما عاين الملك ذلك ضحك من شدة الغيظ فقال له ولده قمطة : ولاي شيء تضحك ؟ فقال له : لقد سرني هذا الذهب الاحمر ، فتأمل قمطة واذ به احجار مجمعة من الآكام فعاد على نفسه بالندامة

والملامة واحمرت عيناه وقال : وحقك لا بد ان اركب خلفه واقطع راسه وآخذ أمواله مثل ما ضحك عليّ ولعب بعقلي ثم انه ركب في مائة فارس وسار خلف الامير بيبرس يجد المسير على اثره اما الامير بيبرس فانه سار ولما جاوز العريش قال لمن معه : ان القوم يتبعون اثرنا فخذوا اهبتكم للاقاتهم وكان عدتهم خمسين فبينما هم سائرون واذ بالغبار قد ثار وتمزق الغبار وبان للنظار عن فوارس وهم يصيحون : اين تنجون منا بالهرب ونحن وراءكم في الطلب ، فلما وصل اليهم قمطة قال لبيبرس : كيف تخدعني وتعطيني صندوقا ملآن حصى وحجار ؟ فقال له : انا بيبرس قاهر سرجويل لا أدفع غفارة لاحد ، فقال : لا بد ان اقطع راسك ، فقال له الامير بيبرس : والله لقد ساقتكم اعماركم لمصرعكم ثم انه جرد الحسام وكل منّ تقرب منه اطاح راسه وغلمانه من ورائه يحمون ظهره فتأخرت عنه الفرسان فقال قمطة : ويلكم ما بالكم رجعتم عنه فقالوا له : تقدم وارنا فروسيتك معه ، فهجم حالا على الامير بيبرس فتلقاه الامير بيبرس بضربة صائبة وكانت قاطعة فوقع الى الارض يخور بدمه فلما رات اللئام ذلك حملوا عليه وعلى غلمانه فاستقبلهم بضرب يقصف الاعمار فولوا الادبار ، اما الوزير نجم الدين فانه ما زال سائرا حتى ادركه المساء فأمر بالنزول لاجل ان يكشف خبر بيبرس فبينما هو كذلك واذ بالامير قد اقبل ومعه الغنائم فاستقبله الوزير وسأله عن غيبته وبما جرى له فأخبره بما جرى له فقال له : الحمد لله الذي نصرك عليه .

اما ما كان من المنهزمين فانهم ما زالوا في هزيمتهم الى ان اقبلوا الى العريش فدخلوا على الملك فرنجيل ومعهم ولده قتيل وهم ينادون بالويل والثبور وعظائم الامور فلما رأى الملك ذلك الحال اخذه الانذهال وقال : ويلكم من فعل بكم هذه الفعال ؟ فقالوا له : بيبرس قاهر سرجويل ، فلما سمع اللعين فرنجيل ذلك صعب عليه وكبر لديه والتفت الى وزيره وقال له : دبر لي في اخذ ثأر ولدي فقال له : اعلم اننا لا نقدر ان نلحق بهم ونأخذ ثأرنا منهم لانهم قاربوا اراضي مصر ويكونوا استنجدوا بحاميتهم التي صارت قريبة منهم فما عاد ينفع اللحاق بهم والراي عندي ان تصبر على ما انت عليه وتترصد قاتل ولدك بيبرس حتى تأتيك عنه الاخبار انه قرب من هذه الديار فتأخذ منه ثأرك وانت مقيم في مكانك ، فلما سمع فرنجيل ذلك الكلام استصوبه اما الامير بيبرس فانه سار هو والوزير نجم الدين الى ان وصلوا الى مصر واقبلوا الى باب النصر ليلا فصاحت عليهم

الحراس وقالوا لهم : من انتم ؟ فقال لهم : انا الوزير نجم الدين ، فعرفوه ففتحوا له الباب وسار الى ان اقبل الى حيه وطرق باب الدار ففتحوا له فدخل هو ومن معه فقال نجم الدين الى بيبرس : هذا مكاننا فاحفظ اموالك فيه واجعل بيدك مفاتيحه فعند ذلك امر الامير بنقل الاموال والصيوان وجميع ما معه من الاثقال الى الحواصل وقفل عليها ، اما الوزير اخذ الخراج وهو مال السلطان واغلق عليه الابواب وصعد هو والامير بيبرس الى اعلى القصر وجلسوا واستراحوا وسلمت زوجة الوزير على بيبرس بعد ما عرفها عليه الوزير وقال لها هذا ابن اختك العزيز عليها ، واوصتني كثيرا ان تعتني فيه لاجل خاطرها واخذوا في الحديث الى نصف الليل ثم ان الوزير قال لزوجته اؤمري الجواري ان يفرشوا له غرفة خاصة ويضعوا فيها ما يلزم فأمرتهم بذلك ثم التفت الى الامير بيبرس وقال له : اعلم يا بني ان هذه خالتك مثل امك ، ثم قالت له خالته : اعلم انك جئت من عند امك الى عندي ، فأنت عزيزعلي ، كما انت عزيز على امك ، ثم انها امرت الجواري ان يأخذوه الى غرفته ويقدموا له ما يطلب وكل منهم ذهب الى النوم ولما اصبح الصباح انتبه بيبرس واذ بالوزير اقبل فقام له وصبح عليه وهم الوزير بالركوب وقال يا ولدي اريد ان اسير الى الديوان واسلم المال الى السلطان وأعود اليك قال : بينما الملك جالس واذ اقبل الوزير نجم الدين البندقداري وقبَّل يدي الملك وسلم عليه فقال له اهلا وسهلا بابن العم نجم الدين جبت الخراج ؟ قال : نعم يا امير المؤمنين ، ثم أمر الغلمان ان يحضروه بين يدي السلطان فلما رآه امر برفعه الى بيت المال اما الامير بيبرس فانه بعد نزول الوزير من المكان ضاق صدره لانفراده فنهض وسار ولم يزل سائرا حتى أقبل الى دكان وبها شاب صغير وكان يصنع العرقسوس ويسمى كريم الدين فلما رآه نهض له على الاقدام وترحب به واجلسه وقبَّل يده فقبل الامير راسه وجلس فناول كريم الدين القاعدين كل واحد طاسة عرقسوس فلما شربوا قال له بيبرس : ما اسمك؟ فقال : خادمك كريم الدين فقبَّل الامير راسه وجلس وقال له : يا كريم الدين ناول القاعدين كل واحد طاسة على حسابي ونقده دينار وقال : خذ ما بقي منه بخشيش فسأله كريم الدين : من اين انت يا سيدي ؟ فقال له : انا الامير بيبرس ، فقال : تشرفنا يا سيدي ثم انصرف الامير وسار الى البيت وصعد الى المقعد وجلس وصار الامير بيبرس يتردد على الدكان ويأتي اليه الرفاق والاخوان وصار له جملة اصحاب من اولاد الحسينية ومضت مدة من الزمان الى ان كان يوم من الايام والامير جالس في الدكان

واذ برجال الدرك قد اقبلوا ومقدمهم يقال له رشقون وهو قابض بيده على غلام وهو يصيح : انا دخيلكم خلصوني ، والناس مجتمعون حوله وليس فيهم من يتجاسر على تخليصه فلما وصلوا الى دكان كريم الدين الشماع والامير جالس فصاح الغلام : انا في جيرتك يا حضرة الامير فعند ذلك تقدم الامير بيبرس وقال للدركي : دعه يمضي الى حال سبيله ، فقال : وانت ما لك بهذا الامر ؟ فقال له الامير : لاجل خاطري اطلقه ، فقال له : امض الى حال سبيلك والا قرناك انت الاخر معه يا نسل الحرام ، فلما سمع الامير ذلك امتزج بالغضب وجرد الدبوس وضرب به رشقون على راســه اخمد انفاسه وخلص الغلام فلما رأوا رجال الدرك ما فعل برفيقهم هجموا عليه يريدون القبض على الامير فصال فيهم وجندل اربعة ذات اليمين واربعة ذات اليسار فهرب باقي الرجال فلحق منهم اثنين فسقاهم شراب النكال وما زال خلفهم وهم قدامه الى ان اوصلهم الى باب الخلق واولاد الحسـينية خلفه ولما تفرق باقي الدرك التفت الامير بيبرس الى الغلام وقال له : ابن من انت ؟ فقال له : انا ابن نقيب الاشراف فقال له : اذهب الى ابيك واعلمه بما جرى ودعه يجمع الاشراف ويطلع بهم الى الديوان فقال له : السمع والطاعة ، واما اولاد الحسينية فانهم قالوا للامير : لا تخف فأرواحنا لك الفداء ونحن كلنا شاهدون فسر بنا الان الى قاضي الحسينية حتى نشهد بما رأيناه ثم انهم ساروا الى القاضي وعرضوا عليه القصة وكيف تكلــم رشقون بما لا يليق فثبت عند القاضي فسقه فكتب لهم بذلك حجة ونزل فيها الشهادة التي شهدوها فأخذها الامير ووضعها معه ورجع وجلس في الدكان اما الدرك فانهم اخذوا قتلاهم وساروا طالبين الديوان فبينما الملك جالس واذ بهم داخلين الى الديوان فقال : ما الخبر ؟ فقالوا : يعيش راس مولانا السلطان برئيس الدرك وبعض رجاله فقال الملك : ومن قتلهم ؟ قالوا: مملوك يقال له الامير بيبرس من مماليك الوزير نجم الدين البندقداري ، فقال الملك : هذا المملوك المقصوف العمر يقتل رجال الدرك ويخرق القانون فلا كان ولا استكان ولا عمرت به أوطان فقال القاضي : يا مولانا القاتــل يقتل شرعا فقال الملك : قم يا نجم الدين وائتنا بهذا المملوك حتى نسمع منه لاي شيء قتلهم فسار الوزير الى بيته فما وجده فسأل عنه فقال احــد الخدم : انا رايته قاعدا بدكان بالحسينية فقال الوزير : اذهب وائتني به، فسار اليه وقال له : اجب سيدنا الوزير ، فسار معه الى ان وصل بين ايادي الوزير فقال له : ما فعلت اليوم ؟ قال : لا شيء الا عشرة قتلى ،

قال له الوزير : قليل لازم تقتل خمسين فقال : ان الملك طالبك مني الى الديوان فقال : السمع والطاعة ، فسار هو والوزير نجم الدين الى الديوان فتقدم بيبرس وسلم فقال له الملك : ما اسمك ؟ قال : اسمي بيبرس ، قال: لاي شيء قتلت هؤلاء الدرك ؟ فقال : هم الذين تعدوا عليّ فدافعت عن نفسي فقال قاضي الديوان : ثبت عليك القتل لاقرارك من لسانك ولا عذر لمن اقر ، فقال الملك : تأنى يا قاضي . ثم ان الملك قال للامير : اخبرني عن السبب فقال : يا مولاي اقرا هذه الحجة ، فأخذها الوزير وقراها فراى فيها ما فعله رشقون بشهادة الناس فعرضها على العلماء فقالت العلماء : يا امير المؤمنين هذه الشهادة لا تبرىء بيبرس من القصاص واذ بنقيب الاشراف طالع الى الديوان ومن ورائه الاشراف وقالوا : والله ما حمانا وحمى عرضنا الا هذا الهمام فقال لهم الملك : وانتم شهدتم فيه بالدين والصلاح ، فقالوا : وحق الملك الفتاح قد جرى ما هو كذا وكذا ، وقصوا على الملك القصة والعلماء يسمعون فقال الملك : ماذا انتم قائلون يا علماء الاسلام ؟ فقالوا : لقد ثبتت براءة هذا الفتى لانه كان في موقف الدفاع عن نفسه وهؤلاء جماعة اشرار دابهم الاعتداء على الناس وعلى اعراضهم فنالوا جزاءهم فقال الملك : حيث انهم شهدوا ببيبرس الصلاح والغيرة والمروءة فالبسه يا حاج شاهين رئيسا للدرك ، فألبسه الوزير وقال له : اوليتك رئاسة الدرك ، اما الاشراف فانهم تصافحوا مع السلطان ونزلوا الى حال سبيلهم ، اما الامير بيبرس فانه نزل واقبل الى دائرة الدرك واذ فيه ماية نفر وعليهم اثنان فلما تحقق انهما على صلاح البس احدهما وكيلا عنه والثاني معاونا واوصاهما بالعدل والانصاف وسار وطلب بيت الوزير نجم الدين وجلس واذ أقبل الوزير من الديوان فقال له : يا ولدي اترك قتل الناس فان قتل النفس لم يرض الله ولا السلطان فقال له بيبرس : امرك كما تريد ، فتركه الوزير وسار الى مكانه ثم نزل بيبرس وصاح على السياس وكان رئيسهم يسمى عقيرب فأتى اليه فقال له : شد لي حصان مرادي ازور الامام الشافعي فقال : أمرك ، واحضر له جواد ووضع عليه العدة وقطع اللجام والقشاط وخلاها ماسكة على شيء واه وفتح الحلقات التي للركاب وقدم الجواد لبيبرس فركب وسار قاصد الامام من برات البلد ، اما عقيرب بعدما ذهب بيبرس قال للسياس ان هذا الغلام لم يرجع اليوم الا محمل، اما بيبرس فانه لما ركب وخرج فكان ذلك الجواد له مدة من الزمان واقف وما احد ركبه وقد هبت عليه نسمات الفلا فمسه الامير

بالركاب فقفز كانه الريح العاصف فاراد بيبرس ان يهدف فوقف بالركاب فوقعت وفلت اللجام من راس الحصان وانقطع القشاط وتزحلق السرج فتعلق بيبرس في شعر الجواد فيئس من الحياة لان الجواد بقي عربان لا سرج ولا لجام ولم يزل يجري به الجواد الى ان وصل البساتين وكان ذلك المكان فيه سرايا الآغا شاهين والوزير واقف يعلم المماليك ابواب الحرب وركوب الخيل فلما رأى الوزير الحصان الغائر صاح على المماليك : حوشوا هذا الجواد الغائر براكبه ، فتسارعت المماليك بالخيول واحتاطوا به يمينا وشمالا فوقف فمسكوه وقدموا راكبه الى الوزير فاستقبله واجلسه الى جانبه بعد ان سلم عليه فقال له : اخبرني اين كنت قاصد ، حتى جرى لك ذلك ؟ فقال له : كنت قاصد زيارة الامام الشافعي فقال له الوزير : ان هذه الالطاف التي حصلت لك من بركة الامام ، ثم ان الوزير قال له : هل ركبت الحصان من دون سرج ولا لجام فما سبب ذلك ؟ فحكى له ما وقع له وتقطع الركاب واللجام فقال له : هذا من عمل الخبيث السائس الذي شد على الحصان وانما يا ولدي اقبل نصيحتي وخذلك سائسا يكون مخصوص بك ولا تعتمد على سياس زوج خالتك فانهم مخصوصين بسيدهم وانك لا تستغني عن الركوب فقال له بيبرس سمعا وطاعة ، فقال الوزير : اياك ثم اياك ان تستخدم رجلا يسمى عثمان بن الحبلة لانه رجل لا يصطلى له بنار، وما دابه الا خطف العمائم وقد جاءتني عليه شكايات كثيرة وقطعت بحقه اوامر بختم السلطان محل ما يمسك يقتل وبعدها ركبت انا ورجالي اليه فلم نقدر عليه فاجتنب خدمة هذا الرجل واحذره لانه ما له أمان . فلما سمع بيبرس من الوزير ذلك الكلام قال : سمعا وطاعة. ثم ان الامير بيبرس تودع من الوزير شاهين ونزل فقدم له السياس الحصان فأنعم عليهم وركب وسار الى ان دخل الى بيت الوزير نجم الدين فلما دخل وجد السياس يغنون فصاح : يا عقيرب ، فلما سمع عقيرب النداء سكت واذ هو الامير بيبرس فلما رآه أقبل وتقدم اليه وقال زيارة مقبولة يا امير ، فقال له : اللهم تقبل ، ثم نزل عن الحصان وصبر حتى قاربه عقيرب ضربه كف مثل النار ولحقه بعصا المقشة وصار يضربه ويشتمه ويقول له يا خائن قصدك هلاكي ، واذ بالوزير نجم الدين داخل فرأى ذلك الحال فقال : ما الخبر ؟ فأخبره الامير بما جرى منه ، فلما سمع الوزير ذلك تأسف وقال : يا ولدي ربما يكون بذلك معذور والاحسن ان تنظر لك سائس لنفسك ويكون من غير هؤلاء . ثم ان نجم الدين صعد الى مكانه اما بيبرس اعطى عقيرب

عشرة دنانير وقال له سامحني يا عقيرب فقال له : كل يوم اعمل لي قتلة وانقدني عشرة دنانير ، فضحك الامير فقال : يا عقيرب أريد منك ان ترشدني الى سايس يكون مخصوص بي واهل امانة فقال له: محل السياس بالرميلة، فسار بيبرس الى الرميلة الىمحل السياس ودخل فراى السياس ورئيسهم معهم فتقدم وسلم فقال له الرئيس : ما تريد ؟ فقال : اريد سائسا يكون شاطرا وقويا ، فقدم له سائسا ما اعجبه وقدم له ثاني وثالث فلم يعجبوه وبينما الشيخ مع بيبرس في الكلام واذ بضجة وقعت والناس هربت ولم يبق الا الشيخ وبيبرس معه واذ بشاب طويل القامة غليظ الهامة عليه ملابس فاخرة وكان هذا عثمان بن الحبلة الذي أوصاه الوزير بأن لا يخدمه عنده فلما رآه الشيخ قبّل يده وقال : مرحبا بسيدي ، فزاد بيبرس العجب فقال عثمان : يا سليمان ما اتاك دراهم اليوم قال : لا يا سيدي ، ثم التفت الى بيبرس وقال له : ماذا تريد يا فتى ؟ قال له : اريد سائسا يخدمني فقال له الرئيس : هذا طالب سائس وعرضت عليه السياس فما اعجبه ولا واحد فقال له : اما اعجبك ولا واحد من السياس ؟ فقال له : ما اعجبني منهم احد ، فقال له : وانا اعجبك ام لا ؟ فقال : انت اعجبتني فقال كبير السياس : يا اسطى عثمان انت تخدم هذا الجندي ، فقال عثمان اخدمه فقال بيبرس : وانا رضيت وقال في سره ان اطاع والا قتلته واريح الناس منه واما ضمير عثمان فان مراده ان يخدم عنده ذلك اليوم . ولما دخل الليل يقتله ويأخذ ما عنده فعند ذلك اخرج بيبرس خمسة دنانير واعطاهم الى كبير السياس فأخذهم واراد ان يضعهم في جيبه فنظر اليه عثمان فناوله اياهم وقال للامير تفضل يا سيدي ، فسار بيبرس وسار عثمان وهو مغطى الراس ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا الى الحسينية فقال عثمان : يا جندي من اي بيت انت ؟ فقال له بيبرس : من بيت الوزير نجم الدين فقال له عقيرب : هناك ، قال : نعم ، ولما دخلوا البيت نزل الامير عن الجواد وطلع الى المقعد وكان عثمان لا يظهر منه الا العيون ودخل وجلس على سرير عقيرب فلما رآه عقيرب قال للسياس ادخلوا الحصان لارى من هذا فوجد عثمان جالس وهو مغطى راسه فقال له : سلامات يا ولد ، فقال عثمان : تسلم يا عم ، قال له : من انت من الاولاد ؟ فقال له: عثمان فلما سمع عقيرب بذلك الاسم قال : انا في عرضك يا اسطى عثمان فكشف عن وجهه فدارت به السياس فاعلمهم بما جرى فلما سمعت السياس ذلك الكلام قال عقيرب : يا كبيري انت خدمت عند الجندي فقال عثمان : انا اضحك عليه . فالتفت فراى عدة جواد معلقة قال : لمن هذه ؟ قال : عدة

حصان الجندي ، فقال له : ناولني اياها فاني اريدها اجرة مشواري ، قال عقيرب : يا سيدي ما نقول له عنها ؟ قال عثمان : اذا هو سألك عنها فقل له اخذها عثمان فاحمد ربك الذي جاءت في العدة ولا جاءت فيك لان هذا قتال مجرم ، قال عقيرب : سمعا وطاعة ، ثم انه اخذ العدة ووضعها في عباءته وحملها على عاتقه وهم بالخروج واذ بالامير بيبرس صاح عليه : الى اين يا اسطى عثمان وما معك ؟ قال له : غسيل وهذه عادة السياس اذا خدم عندهم سايس جديد يغسل لهم حوائجهم فقال له عندنا خدام يغسلوه وانا لا اريد خديمي يغسل للناس فقال له : هذه عدتك وانا اخذتها في نظير ما مشيت معك من الرميلة الى هنا فأنا لم اخدم واسأل عني انا عثمان بن الحبلة فقال له : خذ هذه المائة دينار مني اليك فلما سمع عثمان بالمائة دينار طمع وطلع الى المقعد فوقف له الامير خلف الباب فلما دخل ضربه بالدبوس بين اكتافه فوقع الى الارض فكتفه وربطه في العامود فرأى بيبرس على حزامه سوطا فقال له : انت حامله لأذية الناس لأذوقك لسعاته وضربه حتى كاد ان يغشى عليه ثم رمى السوط تحت رجليه وتركه مربوطا وقال الى السياس : وحياة راسي كل من حله لا يلوم الا نفسه ثم تركه وصعد فلما طال الحال على عثمان صاح على عقيرب : تعال فكني فلم يرد عليه فقال لا بد ان اقتلك يا عقيرب ان لم تجيء وتفكني فجاء فقال عثمان: كيف يضربني وانت واقف تنظر ولا تفزع لي ؟ فقال له عقيرب : هذا جندي جبار وانا لا اقدر عليه ، فقال عثمان : حلني حتى اقعد معك فاذا طلع النهار اربطني في مكاني فعند ذلك حله وفك كتافه فلما تخلص عثمان قبض عليه وربطه مكانه واخذ العدة وفتح الباب وذهب الى بيته وطرق الباب ففتحت له امه فدخل وقال يا امي انا جائع هل عندك شيء ؟ فقالت له : عندي وزة محمرة فقال : هاتي فقدمت له ذلك فكسر اول لقمة من رغيف واخرج نسرة من الوزة واراد ان يمضغهم فتفكر العلقة فنزلت دمعته على خده وقال لامه شيلي الاكل فقالت له : ولاي شيء لم تأكل وما ابكاك ؟ فحكى لها ما جرى له مفصلا وقال لها : مرادي ان اجمع رجالي الثمانين واطلع بهم الى المغاير لاجل ان يأخذوا لي بالثأر . ثم سار من عندها وجمع رجاله وسار بهم الى المغاير وجعل يحكي لهم ما جرى له فهذا ما كان من عثمان اما الامير بيبرس فانه لما قام من النوم في الصباح اخذ الدبوس ونزل قاصد عثمان ليضربه فلما تأمله واذا به عقيرب مربوط بالعامود فقال له : اين عثمان ؟ فقال: ربطني مكانه وأخذ عدة الجواد وذهب فقال بيبرس:

واين بيته ؟ فقال عقيرب : كل من دل على بيت عثمان يقتله واذا قلت لك على بيته أحلفك يمين انك ما تقر بي ابدا ، فحلف له بشرفه انه لا يقر عليه فقال عقيرب فكني لأدلك على بيت عثمان ، فحله الامير فقال له : ان بيت عثمان في المراغة والقبر الطويل بيت غزية الحبلة فاذا وصلت تسأل عن الحارة والبيت فلا بد ان تستدل عليه فلما سمع بيبرس من عقيرب ذلك شد على الحصان وسار الى أن وصل الى الرميلة فسأل رجلا عن حارة المراغة والقبر الطويل فدله وقال له : من هنا ، وأما بيبرس فانه دخل الى تلك الحارة فرآها واسعة فسأل احد الناس عن بيت عثمان فقال : أعوذ بالله من شر الشيطان والثاني ما رد والثالث خاتل وراوغ ففهم ان كل من دل على بيته يقتله كما قال له عقيرب ثم قال في نفسه ان الذي يعرف البيت في كل البلاد البقال والفران . ثم انه نزل عن الحصان وأوقفه وصاح على الفران فأتى اليه فقال له : لاي شيء أتلفت الخبز لسيدي الاسطى عثمان وسرقت عشرة ارغفة كبار يا خبيث يا مكار وهو أرسلني اليك أسألك ، فقال : يا سيدي انا ما سرقت شيء لسيدي عثمان ونهار امس ارسلوا لي صينية وبها وزة فشويتها وغطيتها بعشرة ارغفة من عندي فقال له بيبرس : تكذب ، فقال الفران : انا بعثتهم مع الاجير خذه الى بيت الاسطى عثمان ودعهم يسألوه عن ذلك ، فقال بيبرس الى الاجير : سر قدامي لارى ، فسار معه الى ان اقبل الى البيت فمد يده ليطرق الباب منعه بيبرس وقال له : اعلم اني كنت تائها عن البيت حتى دليتني عليه فاذهب وسلم على معلمك فطار عقل الولد وطلع يركض من خوفه اما بيبرس فانه طرق الباب فانفتح واذ بعبد اسود قال لبيبرس : ما تريد ؟ قال له : غزية الحبلة ، فقال له : اصبر لآخذ لك اذن من سيدتي فغاب واذ بأم عثمان اقبلت وقالت له : من انت وما تريد ؟ قال : انا الامير بيبرس اريد عثمان ، قالت : ولاي شيء؟ قال : لاجل ان اخدمه عندي وأتوبه عن افعاله وابعده عن الاذية ، قالت : اذا كانت نيتك هكذا أدلك اين موجود هو الان في المغاير ثم قالت : ترفق به وأنا اسأل الله العظيم ان يهديه على يديك ، فنزل بيبرس وركب جواده وسار وهو يقول : من يدلني على المغاير ، ثم اقبل على بائع بطيخ فاشترى منه عشر بطيخات كبار وقال له : هات لي حمال يحملهم الى الامام الليث، فصاح على حمال معه حمار وقال له : حمل هذا البطيخ الى مقام الليث والجندي يبقى يدفع لك زيادة فحمل البطيخات وسار والامير بيبرس بجانبه ولم يزالوا سائرين الى ان اقبلوا الى الامام الليث فقال له الامير : اين المغاير ؟ فطار صواب الحمال فقال له : يا سيدي انا لا اقدر ان اروح الى

هناك سامحك الله بالاجرة فان المغاير محل الهلاك فقال له بيبرس : يـا شيخ ان لم تسر معي والا اقتلك ، فمشى الحمال معه مسافة قليلة ثم قرب الى اذن الحمار وقال له : سخرة يا حمار ، فبرك الحمار بالارض وما عاد قام وصار الحمال يندب حماره ويقول : يا اسف عليك يا حماري يا شايل همي ومطعم عيالي ، فقال له بيبرس : ماذ جرى للحمار ؟ فقال : يا سيدي الحمار راح يموت يا مصيبتي ، فقال له بيبرس : يا شيخ اين المغاير ؟ فقال له : من هنا تروح ، فأكرمه وتركه مع حماره والبطيخ وسار طالب المغاير وبعد قليل التفت الى ورائه وجد الحمال راكب حماره وراجع بسرعة فسار بيبرس الى ان وصل الى اول مغارة فلم يجد احدا والثانية والثالثة والرابعة وجدهم جالسين وعثمان بينهم يقول لهم يا رجال من منكم يأخذ لي بالثأر من هذا المملوك ابن الحرام فانه ضربني وتعدى عليّ ، واذ بالامير بيبرس يصيح بهم : اين عثمان وتبعته جماعته فقال له عثمان : انت جئت الى هنا ايضا ؟ قال بيبرس : نعم لا افارقك اما ان تخدمني والا اقتلك ، فقال له عثمان : الخدمة بالفلوس ما هي بالدبوس فقال له : اعلم انه ما بقي لك خلاص الا بالخدمة ، قال عثمان : فارقني والا اخلي رجالي يقتلوك فلا ينفعك وزراء ولا ملوك فقال له بيبرس : اذا كنت شاطر اخرج الي وكل من معك ، فلما سمع عثمان كلامه هجم عليه وضربه بالعصا فتلقى بيبرس ضربـــة بالدبوس فانكسرت العصا وبقي النصف في يد عثمان ثـــم ان بيبرس هجم عليه وضربه بالدبوس أرماه الى الارض وكتفه ونادى يا رجال هل فيكم من يطلب خلاصه من يدي فما احد تحرك ، ثم ركب جواده وسار وعثمان بين يديه مكتف ولم يزل سائرا به الى ان أقبل الى باب الخلق قدام السيدة زينب فقال عثمان : يا بيبرس اطلق كتافي فان دخولي معك في مصر وانا مكتف يجعلني مضحكة للناس فالنار ولا العار فقال له بيبرس : انت خائف من ضحك الناس عليك وانا خايف ان تعصي خدمتي فقال له عثمان أطلقني من الكتاف اخدمك فظن الامير ان كلامه حق فأطلق كتافـــه واعطاه عمامته لفها على راسه وتركه الى جانبه فلما وجد نفسه قارب مقام السيدة قمز الى داخل المزار ودخل تحت التابوت وهو يقول : يا ام البيت انا في حماك خلصيني من هذا الجندي فدخل بيبرس الى المقام وصار يدور عليه واذ بعثمان من داخل الستر واضع يده على الضريح وهو يقول افاجيه يا ام البيت وبيبرس سامع كلامه ثم انه شال الستر ووضع يده على اكتاف عثمان فقال له انت جيت ورائي الى هنا فقال له : انا وراءك اينما

سرت لا اتركك ، فقال عثمان : يا ام البيت ابطحيه ها هو عندك ، قال بيبرس : يا عثمان اعلم ان السيدة راضية انك تخدمني وترجع عن اذيـــة الناس ، فقال عثمان : يا ام البيت انا دخلت تحت زمامك وتسلميني لهذا الجبار وحياة قناعك الطاهر لا اخدمه الا على طيبة خاطر فقال له بيبرس: تعال يا عثمان وعليك الامان .

فبينما بيبرس وعثمان كذلك واذ اخذتهم سنة من النوم فناموا فـي الحضرة فراى بيبرس السيدة قدامه وهي تقول له ان هذا تابعي وانا لا اتركه ابدا ولكن رضيت ان يكون خادمك على طول المدى سامعا مطيعا وعلى يدك تزول شقاوته وتوثق بينك وبينه عهد الله فقال بيبرس : سمعا وطاعة، ثم ان بيبرس انتبه من منامه فوجد عثمان يبكي فقال له بيبرس : ما لك تبكي ؟ قال : لاني سمعت كلام السيدة معك وهي توصيني بخدمتـــك وتوصيك بي وبالعلامة قالت لك انمحت شقاوته واوثق عهد الله على يدي بينكما فقال بيبرس : انت كنت سامع قال عثمان : نعم انا مفكما ، ثم انه اخذه وخرج به من المقام ودخلا الى المسجد وعلمه الوضوء والصلاة ثـــم اخذه وسار به الى ان ادخله على النقيب وتوبه عن جميع المعاصي واوثق عهد الله بينهما وفرح بيبرس واعطى وفرح عثمان وخرجوا فركب الامير وسار عثمان الى جانبه حتى وصلوا الى حارة المراغة ودخلوا بيت غزيـــة الحبلة ام عثمان فقال عثمان : يا جندي من الذي عرفك طريق بيتنا ؟ قال: لاي شيء ؟ قال : لاقتله لانه حالف يمين كل من دل على بيتي اقتله فقال له بيبرس : انت تريد ان تنقض التوبة والميثاق فقال له: انا حالف ، قال : انت حلفت قبل التوبة ، ثم دخلوا البيت وهم في سرور ، ففرحت الحبلة واستقبلت الاثنين وسلمت عليهم فقال لها عثمان : انا تبت عن جميـــع المعاصي وتعلمت الوضوء والصلاة وصرت خادم الجندي وبقينا اخوة فهاتي لنا الغداء يا امي ، فأحضرت لهم الطعام فأكلوا الاثنين فأخذ بيبرس ينصح عثمان ويوعظه ويظهر له البيان بكل ما قدر عليه حتى لان عقله فقال عثمان: انا متوكل على رب العالمين ، فقال له بيبرس : انا سائر الى بيت نجم الدين وانت الى اين قاصد ؟ فقال له : الى المغاير واجمع رجالي واقول لهم ما جرى ، فقال له : يا عثمان توبهم عن الاذية ولا تدعهم يؤذوا احدا من البرية فقال له عثمان : اتوبهم لاجل ان يموتوا من الجوع ، فقال له بيبرس : سر بهم الى عندي ودعهم يخدمون عندي وانا اكفيهم مؤنتهم فقال له : ومن اين تأتي بأكل لثمانين رجلا ؟ قال : اما تعلم ان رزقي ورزقهم على الله ، فقال عثمان : صدقت ، ولكن سر انت الى بيتك وانتظرني حتى اذهب اليهـــم

واتوبهم واعود اليك بهم وسار عثمان طالب المغائر ، فلما أشرف عليهـــا استقبله رجاله وسألوه عن حاله فاخبرهم وقص عليهم ما كان ثم انه قال لهم : والان اريد منكم ان تتوبوا الى الله وترجعوا وتخدموا عند الجندي فقالوا له : انت سيدنا واميرنا ونحن نطيعك كما تريد فلما سمع عثمان منهم ذلك الكلام انسر بهم وفتح الله على قلوبهم وتاب عليهم فعند ذلك اخذهم الاسطى عثمان وسار بهم الى رحاب السيدة وعلمهم الوضوء والصلاة ، ثم سار بهم الى بيت الامير نجم الدين فرآهم بيبرس من المقعد فطلع بهم عثمان الى عنده وقال لهم قبّلوا يد الامير فتقدموا وسلموا عليه فقال لهم : هل اعلمكم الاسطى عثمان انكم تخدمون عندي ؟ قالوا : نعم ، فقال لهم انا اكفيكم مؤنتكم انتم وعيالكم ولكن على شرط ان تتركوا التعدي على الناس والاذية وعليكم بالحق والانصاف والان تبتم ورجعتم عما كنتم عليه وانـــا اعطيكم كل ما تطلبونه من الاموال ومد يده واعطى كل واحد منهم عشرة دنانير وقال لهم : اصلحوا احوالكم الان بهم ولا تنسوا ما ذكرته لكم وان بلغني خبر بأنكم ظلمتم احدا من الناس اذقت كل من فعل ذلك العذاب لاني تكفلت لكم بكل ما تحتاجون اليه فلا تعرضوا انفسكـــم الى الهلاك ، فقالوا له بعدما قبّلوا يده : يا اميرنا رضينا بهذه الشروط ، ثم انهم نزلوا الى الاصطبل فتلقاهم عقيرب وفرح بهم وقبّل يد الاسطى عثمان فقال له: اصلح شأن الاصطبل وهيء محلا للرجال ، ثم ان الامير أحضر الطباخ وقال له : وسع المطبخ واعمل فيه على حسابي لاجل رجالي وكل ما تحتاج اليه من اللوازم انا اعطيك اياها ، فقال له : امرك وثاني يوم ركب الامير وسار بجانبه عثمان طالب الفلا فبينما بيبرس سائر واذ بعثمان تعلق بلجـــام الجواد واعاقه عن المسير فقال له بيبرس : ما هذا الفعل فقال له : الى اي جهة من الجهات انت سائر ؟ فتعجب الامير بيبرس وقال له : ولاي شيء تسأل عن ذلك يا عثمان ؟ فقال : لاني فهمت مرادك وهو ان تعمل عليّ حيلة وتسلمني الى الوزير شاهين ، اما تدري انه عدوي وانا عدوه لاني فعلت معه فعالا تعجز عنها فحول الرجال وقتلت له سبعة ولاة وقطع بحقي امر سلطاني محل ما يمسكوني يقتلوني ولا احد يطالب بدمي فكيف امضي اليه ، فلما سمع الامير ذلك الكلام قال له : لا تخف وعليك الامان، واعلم انني لا افرط فيك ابدا وروحي فداك وليس الا ما يسر خاطرك ومع الوزير اريد ان اصالحك قال له عثمان : الان سر بنا لنرى ولم يزالـــوا سائرين الى ان اقبلوا الى البساتين ودخلوا الى سراية الآغا شاهين فنزل

بيبرس من على جواده وطلع الى المقعد فاستقبله الوزير واجلسه بجانبه وجعل يتحدث هو واياه ثم قال الوزير : يا ولدي ان لك اربعة ايام ما رأيناك فلأي شيء فقال له : يا ابي انني سمعت قولك وعملت به ومضيت افتش لي عن سايس لانك نظرت ما جرى لي فقال له الوزير : هل رايت لك خادم ؟ فقال : نعم رايت رجلا ابن حلال عظيم الخصال قليل المثال ، فقال له الوزير : عسى ان يكون شهما وليس من الرجال الانذال ، فقال له بيبرس : نعم وحقك كما ذكرت ، فقال الوزير : يا ولدي لقد شوقتني ان انظر اليه فما اسمه حتى نكرمه فقال اني اخاف ان اذكر اسمه تتغير متى تسمع ذكره لانه اخبرني بما حصل له واعلمني واوصاني ان لا اخبر احدا باسمه فقال الوزير : اليس هو عثمان قال : نعم ، فلما سمع الوزير اغتاظ وتغير وقال يا بيبرس هذا اخر العهد بيننا لان هذا الرجل جبار عنيد وشيطان مريد يقتل النفس ويؤذي الناس وانه ليس له دين ولا اعتقاد وقد قتل لي سبعة ولاة فقال له : يا دولة الوزير قد تاب وارتجع وقد عاهدني عند أم الاسياد وعلمته كيف يتوضأ ويصلي واعاد عليه قصته التي جرت معه فقال الوزير : اذا كان الامر كذلك فادعه الان يأتي الى عندنا حتى ننظر كيف الحال واحدثه فقال : سمعا وطاعة ، ثم أطل بيبرس براسه وصاح: اطلع يا عثمان كلم الوزير ، فلما رآه الوزير اقبل ترحب به وقال له : اجلس يا عثمان ، فجلس فقال عثمان : ايها الوزير ارجو قبل كل شيء الغاء الامر السلطاني بقتلي فعند ذلك أمر الوزير باحضار الامر وسامه الى عثمان ثم صافح عثمان وسامحه وجلسوا وحضر الطعام فأكلوا وشربوا ولذوا فقال الوزير لبيبرس يلزم ان تأتي كل يوم الى عندي حتى اعلمك ما ينفعك من الطعن والنزال ، فقال سمعا وطاعة ، ثم ودع الوزير واخذ عثمان وسار الى ان اتى الى الديار وصار كل يوم يركب ويأتي الى الوزير ويتعلم ابواب الحرب فبينما هو جالس مع الوزير نجم الدين واذ دخل عليهم عشرة رجال فلاحين من بنها العسل فقال لهم الوزير : ما معكم من الاخبار ؟ قالوا له: معنا كتاب من المعلم سرحان ونحن من رجاله ، فقال لهم : اعلموا ان التزام بنها صار لولدي بيبرس ، ثم ان بيبرس اخذ الكتاب وقراه واذ به خطاب من المعلم سرحان الى بين ايادي الوزير نجم الدين نعرفكم ان وكيلكم شرف الدين هو من اهل الجور والفسق وقلة الدين فعرف الامير بيبرس الوزير نجم الدين في هذا الامر فقال : يا ولدي اذهب انت الى بنها العسل وتدبر هذا الامر واصلح فيما بينهم ، فالتفت بيبرس الى عثمان وقال له : سر معي وركب كل واحد جوادا وساروا الى ان وصلوا الى بنها العسل فقال الامير

لعثمان : اريد منك ان تأخذ هدية من السكر الى الوزير شاهين ، فقام عثمان وملأ زورقا من السكر وسار الى ان وصل الى بولاق فقال عثمان للريس : دير بالك على السكر وذهب واتى بجمال وحمير وشيالين وقال : شيلوا هذا السكر على كل دابة شيء منه وذهب واتى بجماعة زمارين وطبالين وناس يصفقون ويغنون وساروا على تلك الحال الى بيت الوزير شاهين فبينما الوزير جالس في بيته واذ سمع الضجة اطل من الشباك فرأى اولئك الرجال ومعهم الجمال والحمير يصفقون ويرقصون ويزمرون ويطبلون فتعجب الوزير من ذلك وقال : ما الخبر ؟ فقالوا : ان الاسطى عثمان اقبل من عند الامير بيبرس بهدية وهي سكر من بنها فقال الوزير: جزاه الله كل خير وظن انه سكر كثير فقال للخدم : اخلوا الحواصل فقال له الوكيل : يا وزير الزمان اعلم ان الرجال المقبلين الف رجل ومعهم عثمان وصحبتهم مائة جمل وحمار وكل واحد محمل راس واحد من السكر ، فضحك الوزير وقال : هذا شغل عثمان ولكن اصبروا حتى ننظر ما يكون في جوابه ثم اقبل عثمان الى عند الوزير وقال له : السلام عليكم احفظ قدر ما وصل اليك من النعمة قناطير من سكر بنها العسل قال الوزير : مقبول يا عثمان ، فقال : عليك اجرة الجمال والشيالين الف قرش فقال الوزير : يا عثمان ان الهدية لا تساوي نصف الاجرة فدعهم يأخذوا السكر اجرتهم فقال عثمان : حرام عليك تظلم الناس وتأكل اجرتهم ولا تخاف ربهم فوعزة الله لا بدان تدفع لهم الف قرش ثم ان الوزير اعطاهم مثل ما اراد عثمان وانصرفوا وهم يدعون له ويثنون عليه فهذا ما كان من امرهم ، واما عثمان فانه اراد الانصراف الى سيده فأعطاه الوزير كتاب فأخذه وسار طالب بنها العسل فوصل فقال الامير : اهلا بالاسطى عثمان وصلت الهدية ؟ قال : نعم ، فقال : جزاك الله خير يا عثمان ولكن هل اعطاك الوزير كتاب ؟ قال : نعم ، ثم ناوله الكتاب فقراه خطابا من الوزير الآغا شاهين الى بين أيادي ولدنا الامير بيبرس اعلم اننا ما نريد الا بقاءكم وطول عمركم وبعد فقد وصلت الينا الهدية المرسلة من عندكم بالتمام ودفعنا اجرة الجمالة والشيالة الف قرش لان الرجل المرسل بالهدية رجل اهل كرم ما يريد الظلم وقد احضر لنا الهدية علىماية جمل وحمار وطبالين وزمارين حتى اهل مصر صار لها خبر بالهدية وهذا شيء لم يؤثر عندنا لان روحنا فداء لاحبابنا والسلام . فلما فرغ الامير من قراءة الكتاب رفع راسه الى عثمان وقال له : هذا يصح يا عثمان وما منعك ان تجعلهم على اربعة او

خمسة جمال الجمل بقرشين والشيال بقرش ، قال عثمان : هذا لا يصح ابدا ربنا جعل ناس ترزق من ناس والكون هكذا وحتى الوزير يبقى دائما في باله الهدية التي بعثتها له فتبسم الامير وتركه .

اما الامير بيبرس بعدما اقام في بنها العسل مدة وفقهم مع بعضهم الوكيل والمعلم والعمال وصالحهم وصاروا يهدونه ويكاتبونه بما يجري فيوم من الايام اراد بيبرس ان يسلم على زوج خالته واذ رآه منهمكا في معجنه من الطين وهو يعجنه فتعجب الامير واذ بالوزير نجم الدين كشف له الامر فقال له : انا اسمي نجم الدين ولقبي البندقداري قال له : اعلم اني ما لقبت بذلك الا لاجل هذا السبب وذلك اني في كل عام في هذا الوقت اصنع هذه العجنة من الطين واجعلها حبوبا بقدر البندق وان الملك الصالح في كل عام يغدو الى الجيزة في هذه الاوان وهو فصل الربيع وصحبته ارباب الدولة فيطربون ويأكلون ما طاب لهم وبعد ذلك يصطادون الطيور بهذا البندق . فلما سمع الامير بذلك اخذه الاشتياق الى الرواح الى ذلك المكان واذ اقبل عثمان فقال له : ساعد الوزير ، فساعده وصار يكبتل مثل ما اشار اليه الوزير وبعد ما انشوى صار عثمان يعبي جيوبه من البندق وقد فرق الوزير البندق على بيوت الوزراء والامراء ويأخذ منه عادته وخرج الامر من السلطان بالرواح الى الجيزة وكانت للناس مسرات من العام الى العام ونادى المنادي بالرواح وازدحمت المراكب بالناس وانتصبت الخيام والسرادقات اما الامير بيبرس قال لعثمان أريد منك ان تسبقني الى الجيزة وتنظر لنا مكانا وتنصب لنا خيمة فقال عثمان : امرك ، ثم نزل وصاح الى عقيرب قال : نعم ، قال : اين فراشو الوزير ؟ فناداهم فلما حضروا قال لهم عثمان : ان الجندي لما اتى من ارض الشام جاء معه خيام قالوا له : نعم ، قال عثمان : واين موضوعين ؟ قالوا له : في الحواصل ، فعند ذلك فتح الحواصل فوجد فيه خيام كثيرة ووجد صيوان سرجويل فقال عثمان لكبير الفراشين : ما هذا ؟ فقال له : يا اسطى هذا صيوان ربيع الدنيا وليس له مثيل : فقال عثمان : هذا الذي يصلح لنا فقال له : هذا الصيوان يلزمه رجال وجمال تحمله ، فقال : ابق هنا حتى آتيك برجال وجمال ، فحمل درته على كتفه وصار يأخذ الجمال والرجال سخرة بدون أجرة وامرهم بحمل الصيوان الى بولاق فرفعته الرجال على الجمال وسبقهم الاسطى عثمان الى بولاق وكشف عن راسه ونادى على الرؤساء بملء صوته وقال : يا رجال اما تعرفوني انا الاسطى عثمان فلما سمعت الرؤساء صوته اتوه مسرعين فقال لهم مرادي منكم ان تودوا لي خيمة الجندي الى الجيزة

فقالوا له : على الراس ثم العين ، وهم في الكلام واذ بالجمال قد اقبلت وعليها الصيوان فنقلوه الى الزوارق ثم رجعت الجمال الى حال سبيلها اما الاسطى عثمان فانه وصل الى الجيزة ونزل الصيوان وكان معه عقيرب فقال له : يا سيدي ان هذا الصيوان يلزمه رجال تنصبه فقال له عثمان : اجلس هنا ، ثم سار الى ساحل الجيزة واذ بفراشي السلطان قد اقبلت ومعهم صيوان الملك فصاح عثمان على كبيرهم فأتى فقال : اعلم ان لنا خيمة اريد منك نصبها فقال : سمعا وطاعة وذهب هو ورجاله مع عثمان فوجد الصيوان موضوع قطع على الارض فقال : هذه خيمة يا اسطى عثمان هذا يلزمه مائة من الرجال لنصبه فقال له عثمان : اجلس هنا لآتيك بالرجال واذ بفراشي الوزير شاهين ففعل معهم مثل فراشين الملك وكذلك فراشين ايبك والقاضي والامراء ولما اجتمعت الفراشين أمرهم عثمان برفع الصيوان فدارت به الرجال فرفعوه فظهر كأنه مدينة مبنية فأوهج لمعانه فقال الفراشين : يا اسطى عثمان ان هذا الصيوان يلزمه الف قنديل ، فقال لهم : اذهبوا الى حال سبيلكم ، فسار الى ساحل الجيزة وصبر حتى اتى فراشو السلطان فتعرض لهم وسألهم عن تلك الفرش فقالوا له : فرش السلطان ، فقال لهم الملك الصالح معزوم عند الجندي الى الصيوان فسيروا بالمفروشات الى هناك ، فقالوا : سمعا وطاعة وساروا الى الصيوان ، ثم صبر حتى اتى فراشين الآغا شاهين ففعل معهم عثمان مثل فراشين السلطان وايضا فراشين أيبك وفراشين القاضي وجميع الامراء وبعد ذلك رجع الى الصيوان وفرشه ورتبه حتى صار على أحسن حال ورتب كل شيء قبل ان يأتي السلطان وجميع أرباب الدولة ولما اصبح الصباح اقبل الامير بيبرس الى الجيزة فراى صيوان سرجويل مضروبا كأنه مدينة على وجه الارض فتعجب من ذلك وغضب ونادى : يا عثمان ، فقال : لبيك يا جندي ، فقال له : من أمرك تأتي بالصيوان وتنصبه ؟ ثم ان الامير نادى على الفراشين وامرهم بقلع الصيوان فتركهم عثمان وسبق الى الصيوان وجلس واذ بالفراشين اقبلوا يريدون قلع الصيوان فصاح عليهم عثمان وقال : كل من وضع يده على وتد من الاوتاد أعدمته الحياة فرجعت الفراشين واعلموا الامير بيبرس بذلك فغضب وسار الى عثمان وهجم عليه بالدبوس واراد هلاكه فهرب منه عثمان وصار يجري والامير خلفه واذ اقبل السلطان والوزراء فارتمى عثمان قدام الشهبة ونادى انا في عرضك يا مولانا السلطان خلصني من هذا الجندي لانه اراد هلاكي وقال لي ما بقيت

تخدم عندي الا اذا عزمت الملك الصالح ، فقال له هذا امر قريب يا عثمان سر ونحن معك ، فسار الملك وارباب الدولة معه قاصدين الصيوان فلما دخل الملك الى الصيوان انبهر وتعجب وقال للوزير شاهين : ما هـــذا الصيوان يا وزيري ؟ فسمع القاضي فقال : هذا الصيوان لا يليق الا لك يا ملك الزمان ، فقال : هو لي واوهبته الى ولدي بيبرس ، ثم جلس الملك وجلس جميع ارباب الدولة وبقي الصيوان كأنه فاضي ثم ان الامير بيبرس لما جلس الملك خرج من الصيوان ونادى عثمان فقال له لبيك يا جندي قال: من امرك تعزم السلطان وارباب الدولة ومن اين لنا ان نكفيهم في هـــذه الليلة ؟ فقال له عثمان : ما عليك انا ادبر ، فتركه عثمان وسار الـــى طباخين السلطان وقال لهم الملك معزوم عند الجندي ونريد منكم الطعام تأتون به الى الصيوان فأجابوه بالسمع والطاعة وسار الى طباخين الوزير شاهين وقال لهم كذلك وبقية طباخين الامراء ، ثم هيأوا المأكولات مـــن جميع الاصناف ثم وضعوا الطعام قدام السلطان فمد يده وقال : بسم الله، فأكلت الرجال حتى اكتفوا ، فقال الملك : اللهم اجعل البركة في اهله ثم خرج الملك من الصيوان وخرجت معه ارباب الدولة لاجل الصيد ومضى ذلك النهار في الصيد والمرح والسرور وثاني يوم امر السلطان بقلع الخيام ورجع السلطان بأرباب الدولة والنوبة تدق قدامه الى ان وصل الى ديوان قلعة الجبل ورجع بيبرس الى دار الوزير نجم الدين ورجعوا الصيوان الى الحواصل وباتوا ، ولما اصبح الصباح جلس الملك بالديوان وقال للوزير شاهين لبس ولدي بيبرس امير دعاوي وهي كل من كان له دعوى معروضة للديوان يأخذها منه ويقدمها الى السلطان فلبسه الوزير ووقف بيبرس بباب الديوان فزاد حقد القاضي عليه فبعدما نزل من الديوان وسار الى بيته كتب كتاب واعطاه الى غلامه منصور وقال : خذ هذا الكتاب وسر به الى قلعة بورش واعطه الى عزقول وأؤمره ان يعمل بما فيه ، ثم اخذ الكتاب وسار به الى ان وصل ودخل على عزقول وكان هذا قتل النفس عنده كلا شيء ، فلما دخل عليه غلام القاضي عرفه وسلم عليه وقال له : ما معك من الاخبار ؟ فناوله الكتاب فقراه فراى خطابا من جوان الى بين ايادي عزقول اعلم يا ولدي حين وقوفك على هذا الكتاب تكون رجلك في الركاب وتأتي الى ديوان مصر وأنت لابس ملابس الخواجات التجار واذا دخلت تجد شابا هناك واقفا على باب الديوان فاذا سألك ما معك فاعلم انه هو المطلوب فقل له معي دعوى اريد اقدمها الى الديوان ثم اعطه ورقة مطوية فـــاذا اخذها واعطاك ظهره فاضربه بحسامك ولا تخف وانا اساعدك على الخلاص،

فلما قرأ عزقول الكتاب فرح وطاب وكان الغلام اخذ منه رد الجواب وعاد الى استاذه يعلمه بأنه قادم فلما قرأ جوان الجواب فرح وجعل ينتظره ، اما عزقول غيَّر ملابسه وسار حتى وصل الى مصر وطلع الى الديوان وقدم دعواه فأخذها منه الامير بيبرس وعاد راجعا واذ بعزقول جرد سيفه واراد ان يضرب الامير بيبرس واذ بشاكرية لمعت واخذت راسه فسقط الى الارض يتخبط بدمه فعند ذلك نهض القاضي وقال : ما يحل من الله رجل مظلوم يقتله بيبرس في الديوان ، فقال الملك : انت قتلت هذا الرجل ؟ قال : لا وحياة راسك يا مولانا السلطان واذ باثنين من اسماعيل تقدموا بين يدي الملك وقالوا : يا مولانا السلطان ان بيبرس ما قتله وما قتله الا نحن ، فقا لهم الملك : ولاي شيء قتلتموه ؟ قالوا : يا مولانا هذا يسمى عزقول صاحب قلعة بورش ونحن اعرف الناس فيه واثناء تجوالنا في مصر وجدنا هذا فعرفناه فقلنا لا بد انه قاصد يفعل شيء فتبعنا اثره الى ان جاء باب الديوان وقال مظلوم وبيده ورقة فأخذها منه الامير بيبرس واعطاه ظهره واذ به جرد سيفه ويريد ضرب الامير فسبقناه نحن وضربناه ثم تقدم من رأوه وشهدوا بذلك فقال الملك : لقي جزاؤه ثم قال : ظهر الحق يا قاضي فقال: نعم يا مولاي ان الحق ظاهر مثل الشمس ثم ان الامير بيبرس اخذ الفداوية ونزل بهم من الديوان وسار الى دار نجم الدين واكرمهم ثم قالوا لبيبرس: يا سيدنا هل هذه الدار لك ؟ قال : لا هي للوزير نجم الدين البندقداري فقالوا له : وانت يا سيدنا لاي شيء لم تشتر لك دارا ؟ فقال لهم : يـــا اخواني انا مملوك والمملوك لا يملك فقالوا له : انت لست مملوكا بل انت ابن ملك وقد ثبت عندنا تاريخ نسبك ونحن في غد نطلع الى الديوان ونخبر الملك في ذلك الشأن فقال لهم : افعلوا ما بدا لكم ، ثم انهم قاموا للنـــوم الى ان اصبح الصباح وساروا قاصدين الديوان فبينما الملك جالس فـــي الديوان واذ بالاثنين الفداوية وبيبرس داخلين يسلموا ويدعوا فلما رآهم الملك ترحب بهم وامرهم بالجلوس فقالوا يا امير المؤمنين ان الامير بيبرس ليس بمملوك وما هو الا من اولاد الملوك ومثبوت عندنا في التاريخ والنسب فقال الملك : يا ولدي بيبرس اذن انت حر ، فقال بيبرس شكرا لله تعالى.

ثم قال الملك للفداوية : اريد ان اسمع منكم عن بيبرس وما جرى له حيث انه ثبت عندكم انه حر فقالوا سمعا وطاعة يا امير المؤمنين نعرض لكم يا مولانا ان جد الامير بيبرس كان له ثلاثة اولاد طلعة ولمعة وجمك وكان كبير السن فاراد ان يمتحن اولاده حتى اذا راى منهم من يصلح منهـــم

للسلطنة ملكه فاجلس الاول طلعة وامره ان يحكم يوما فحكم فاتى ليلا لعند ابيه فقال له ابوه : كيف رايت نفسك قال رايت نفسي مثل السبع الكاسر والدولة حولي مثل الغنم ثم اجلس اخاه الثاني لمة يوما فحكم الى اخر النهار فقال له : كيف رايت نفسك ؟ فقال : مثل الصقر الجارح والدولة حولي مثل الطيور الضعاف فلما كان اليوم الثالث اجلس ولده الصغير جمك وسأله اخر النهار : كيف رايت نفسك بالحكم ؟ قال : يا ابت لقد حكمت بين الناس بالعدل وانصفت المظلوم من الظالم ولم اخف في الله لومة لائم فقال له : ما يصلح للمملكة الا انت ، ثم جعله وليا للعهد دون أخويه فلما راى ذلك اخوته امتلأت قلوبهم عليه غيظا وقالوا لبعضهم : كيف يولي ابونا اصغرنا على العهد دوننا لا بد لنا من هلاك اخينا ، ثم انهم اظهروا الفرح وقلوبهم نار وجعلوا يدبرون المكايد الى ان توفي والدهم وقد تهيأ الفراغ لهم وجلس الشاه جمك على تخت ابيه واطاعته سائر الجنود واجلس اخويه وزراء وقال لهم : انا وانتم سوية وقد ظن بذلك تصفى له قلوبهما فلما كان في يوم من الايام عمل عليه اخواه مؤامرة وارادوا ان يبطشوا به فشعر بالمؤامرة وهرب في جنح الظلام وترك الاوطان وسار في البراري والقفار ولم يزل سائرا الى ان وصل الى ارض توريز العجم ومنها الى خوارزم فبينما هو سائر واذ وجد اسدا كبيرا يهاجم رجلا طاعنا في السن وهو راكب جواده وهو يستغيث ويستجير وليس له قوة على مدافعة الاسد ولما اقبل عليه شاه جمك نزل عن جواده الى الارض وجرد سيفه وصاح الى اين يا كلب البر ؟ اما الاسد فانه ترك الرجل وهجم على جمك فاستقبله بالحسام وضربه وسط جبهته فهوى بجثته الى الارض ثم ان الشاه جمك مسح سيفه في شعر الاسد وتركه واقبل على الرجل وقال : لا بأس عليك يا والدي فقال له : لا شلت يداك ، ثم اخذه وسار به وهو يمدحه ويثني عليه ولم يزالوا سائرين الى ان اقبلوا الى خوارزم ودخل واياه واذ انعقد الى ذلك الرجل موكب عظيم وسار شاه جمك الى جانبه وقد عظم في عينه فقال له : يا سيدي لو اخرجت معك بعض الغلمان ، فقال : يا ولدي انني خرجت الى الصيد وكان معي من الرجال سبعون فوقع لنا غزالة فقلت لمن معي ضيقوا عليها واذ بها هجمت ناحيتي فتركت اللجام لاقتنصها فقفزت من فوق راسي الى الخلا فمضيت خلفها الى ان اقبلت الى ذلك المكان واذ بالاسد خرج عليّ ووقفت ادافع عن نفسي الى ان اعانني الله بك فقال له : الحمد لله على سلامتكم ، ثم انهم ساروا الى الديوان فجلس الملك واجلس الشاه جمك الى جانبه ثم قال له : اعلمني

بقصتك فقد ظهرت لي منك بطولة نادرة فاعاد عليه قصته فتعجب من ذلك ثم جعله وزيرا بالميمنة وزوجه ابنته ايق ثم كتب له حجة بالسلطنة من بعده وختمها بختمه ولم يزل مقيما عنده الى ان توفي ملك خوارزم فجلس جمك على كرسي خوارزم وحكم بين الناس بالعدل وصار يكرم الابطال فأحبوه وأطاعوه ورزقه الله من الاولاد خمسة ذكور وكان خامسهم محمود أحبهم عند والده فلما كان يوم من بعض الايام خرج الشاه جمك الى صلاة الجمعة ولما قضيت الصلاة رأى أخويه اللذين قدمنا ذكرهما وقد بلوا من الفقر بما لا يطاق فقال لبعض خدامه : خذ هذين الرجلين وامض بهما الى الحمام والبسهما افخر اللباس واتيني بهما ففعل ما امر به الملك وهما لا يعرفان سبب ذلك ثم اتوا اليه بهما وهو جالس فلما وقعت عينيه عليهما نهض لهما قائما واخذهما بملء الاحضان واجلسهما الى جانبه وسألهما عن حالهما ولم يبد لهما شيئا مما سبق فقالا له : والله يا اخانا ان سبب قدومنا وغربتنا في البلاد انه عز علينا فراقك فتركنا ارضنا لاجلك وسرنا ندور عليك وقد ذهب مالنا وتكدر عيشنا ، والحمد لله على سلامتك فلما سمع منهما ترحب بهما وأجلسهما وزراء وقد زاد حسدهما وكثر حقدهما واضمر له لشر .

وكان سبب قدومهما وفقرهما ان اخاهما الشاه جمك لما ارتحل عنهم وطلب النجاة جلسوا على تخت خراسان وصاروا يحكموا بين الناس بالظلم والطغيان فضاقت قلوب اهل الدولة منهم وقالوا لا بد من قتلهم كمـا افجعونا في اخيهم وابلونا بما لا نطيق ، فلما اتفقوا على ذلك الشأن نهضوا اليهما وقبضوهما وهموا بقتلهما فقالا لهم : يا قوم لاي شيء فعلتم ذلك معنا ؟ فقالوا لهما : اعلموا اننا لا نريدكما علينا ابدا ونحن نولي علينا من نريد ، فقالوا : اطلقونا مما نحن فيه الى حال سبيلنا ولا تقتلونا فقالوا لهما: رضينا بذلك ، ثم ولوا عليهم ملكا اختاروه .

اما لمعة وطلعة فضربوا كل واحد منهم خمسين سوطا وطردوهما بعيدا عنهم فخرجوا هاربين الى ان اتوا ذلك المكان واجتمعوا بأخيهم واقاموا عند جمك وفي يوم من الايام ذكروا الى اخيهم انهم يريدون الصيد وقالوا : يا اخانا نريد ان نأخذ ابنك محمود معنا ، فأرسله معهم واوصاهم عليـه وساروا ومعهم خمسون فارسا وقال لهم : لا تغيبوا عني كثيرا ، ثم انهم ساروا حتى تبطنوا في البر فنصبوا خيامهم واقاموا حتى امسى المساء ونام الجميع فاغتنموا الفرصة واوثقوا محمود كتاف وكموا فمه وشدوه على الجواد وركبوا وساروا في تلك البراري والقفار وعند الصباح فاق

الفوارس وطلبوا ابن ملكهم ووزراءه فظنوا انهم انتبهوا من النوم قبلهم وساروا يتصيدون فصبروا الى اخر النهار فما جاء من يخبرهم بخبر فطلبوا البراري وتفرقوا في وسيع البطاح فلم يروا لهم اثرا فرجعوا خائبين واخبروا الملك شاه جمك بما جرى فلما سمع ذلك غضب ولام نفسه ولعن اخويه وسمعت امه بذلك ولبست ثياب الحداد وبكت وجعلت تندبه . فهذا ما كان من هؤلاء .

اما ما كان من محمود وعمومه فانهم لما اخذوه وساروا به حتى آمنوا على ارواحهما ممن كان خلفهم فدخلوا مغارة واراد احدهما قتله فقال له الاخر : لا تفعل لاننا على كل حال نحن بغربة وما ندري ما يجري علينا ، ثم انهم ابقوه مكتف وتركوه في المغارة وذهبوا الى حال سبيلهم .

واما محمود فانه اقام على هذه الحال باقي اليوم والليلة وهو يبكي ويستغيث فبينما هو كذلك واذ مر به رجل من دراويش العجم فلما راى محمود خلصه مما هو فيه وقال في نفسه آخذه ابيعه في البلاد وسار به حتى وصل الى بورصة فمرض محمود فوضعه في الحمام وصار يتفقده من الميعاد الى الميعاد حتى آن الاوان وكنت قد ارسلت يا امير المؤمنين علي ابن الوراقة فاشتراه وهذا ما كان يا مولانا . فلما سمع الملك الصالح ذلك من المقدمين الفداوية فرح وكذلك الوزير شاهين وقال الملك : يا ولدي بيبرس ، قال : نعم ، قال : انزل من الان واشتر لك بيتا ، فقال : سمعا وطاعة ، ثم نزل ومعه الاثنين الفداوية وباتوا تلك الليلة وعند الصباح تودعوا من الامير وساروا لحالهم .

اما الامير بيبرس فانه سار طالباً جامع طولون ومعه عثمان ودخلوا الجامع فلما رات الناس عثمان اخذهم العجب وصاروا ينظرون اليه فقال لهم عثمان : ما لكم اني تبت الى الله المتعال غافر الذنوب والآثام وصرت اصلي مثلكم فاطمأنت الناس وقالوا سبحان التواب وصاروا يدعون له بالتوفيق وبعد ان خرج بيبرس وعثمان من الجامع واذ بهم يسمعون مناديا ينادي ويقول : عندنا بيت الامير احمد بن باديس السبكي اوله خضرة الحنة وآخره سوق الصباغين وله اربعة ابواب باربعة باحات وفيه ساقية ماء بنوافر وفيه خمسون قاعة وغرفة وهي بالنقوش الجميلة ، فلما سمع الامير بيبرس الدلال ينادي على ذلك المكان قال له : من هو صاحب هذا البيت ؟ فقال له : يا سيدي ان اصحابه اربعة ستات حفيدات الامير احمد بن باديس السبكي ، فلما سمع الامير ذلك قال : سر معنا وارنا البيت ، ثم سار الدلال قدامهم واقبلوا الى باب من ابوابه الاربعة فتقدم

الدلال وفتح باب الخوخة فقال له الامير : افتح لنا الباب الكبير ، فقال : يا سيدي ان هذا الباب له مدة ما انفتح ولا يقدر احد على فتحـــه وان الستات قد اوصوني وقالوا لي اذا رايت شخصا قد فتح الباب فاحضره الى عندنا فقال له : اين المفتاح ؟ فاخذه ووضعه بالقفال وفتح من غير مشقة فلما راى الدلال ذلك تعجب ودخل الامير الى البيت واذا به في غاية ما يكون من الاوصاف الحميدة فأعجبه وقال للدلال : سر بنا الى اصحابه فاخذهما وسار بهما الى الستات فلما اقبلوا استأذنوا عليهن فاذنوا لهم فقال لهن الدلال : اتيت لكن بمشتر للبيت فقالوا : فاين هو ، فصاح الدلال للامير فطلع وخلفه عثمان فلما عاينوهما قالوا : من يريد البيت من هذين الاثنين ؟ فقال الامير : انا الذي اريد ان اشتري البيت قالوا له : مـــا اسمك يا فتى ؟ قال : بيبرس ، قالوا : هذا اسمك الاصلي ؟ قال : اسمي الاول محمود فقالوا : من اي البلاد انت ؟ قال : من الشام ، فقالوا : مولود بها ؟ قال لهم : مولدي في ارض خوارزم العجم فقالوا له : نريد منك ان تحكي لنا عن حسبك ونسبك ، فأعاد عليهم حسبه ونسبه فقالت احداهن : انت عندك ثمن هذا البيت ؟ قال لها : نعم ، فقالت له : انت تذكر نفسك بالغنى وما عليك كسوة تذكر تدل عليك انك من اهل الثراء وهذا دليل على انك غير صادق . فلما سمع الامير ذلك غضب وظهرت له سبعة نقط جدريات وشعرة الاسد بين عينيه فلما نظروا تلك العلامـــات عرفوها وقالوا له : لا تأخذ على خاطرك انا ما ذكرنا لك ذلك الا على سبيل المزاح ومع ذلك اننا بعناك البيت وعرفنا انك صاحب العلامات ونحن في انتظارك وهذه المفاتيح وهذه الاوراق التي لاحمد بن باديس السبكي جميعا لك والان باقي عليك علامة واحدة وهي تمام المعرفة وهي قنطارية احمد ابن باديس السبكي فان قدرت تلعب بها فخذها اليك وهي مطلسمة على اسم بيبرس وكانت هذه القنطارية وزنها مائة رطل مصري فلما سمع ذلك الامير نهض قائما وجذبها بيده فاقتلعها من مكانها مثل العصا ولعب بهـا عدة ابواب من ابواب الحرب فلما راوا ذلك منه قالوا له : انت صاحب الاشارات المرسومة والعلامات المرقومة ونريد ان تبني لكل واحدة منا بيتا وجامعا يسمى باسمها فاذا ماتت تدفن فيه فقال : سمعا وطاعة ومـــا اسماؤكن ؟ قالوا له : السيدة عمرة والسيدة مسكة والسيدة لاله والسيدة الخويدرية ، ثم انهم اعطوه الحجج واخذ القنطارية ثم انه ارسل عثمـان فأتاه بالقاضي فلما حضر كتب له حجة جديدة واشهد فيها على الستات

بانهن بعن البيت الى الامير بيبرس ولما تم البيع احضر المهندسين وسالهم عن اربعة قوائم في البيت فقالوا هي ركائز وراى الامير رجلا فقيرا وعليه ثياب رثة وهو جالس منفردا قال للمهندسين هذا الرجل معكم ؟ قالوا : لا وانما يسير معنا لاجل الاحسان فاقبل اليه الامير وقال له : اليس لك صنعة ؟ فقال له : نعم مهندس وما انا بسائل وان هؤلاء المهندسين كلهم اتباعي وما منهم الا من يعرفني في اول زماني فلما عاقني الزمان ساروا كأنهم لـم يعرفوني وانا اقول وحق راسك وراس امير المؤمنين ما بنى هذا البيت الا انا وابي وجدي ولا احد يعرف ما فيه غيري فاعط هؤلاء شيئا من النقود واصرفهم وانا اخبرك بما تريد ، فلما سمع بيبرس ذلك من علي المهندس اكرمه واعطاه وقال له : امض الان الى بيتك وادخل الحمام واشتر بدلة والبسها فاذا كان من الغد تأتي الى هنا ، قال : سمعا وطاعة ، ثم ان المعلم علي اخذ الدراهم وانفق على بيته ووسع عليهم واشترى بدلة فلما كان الصباح سار المعلم علي الى البيت فوجد الامير ومعه عثمان فسلم عليهم فترحب به الامير واجلسه الى جانبه وقال : يا معلم علي اريد منك ان تطلعني على غوامض هذا البيت فأجاب : سمعا وطاعة ، ثم نهضوا وتفرجوا على القاعات وكل واحدة بخلاف ما قبلها ولما توسطوا المكان راوا به دعامة من الارض الى السقف فقال الامير : وما هذه فقال المعلم علي : هذه دعامة فقل لعثمان ان يخرج من هنا لان هذا شيء يلزمه الكتمان وما ينبغي اظهاره لاحد غيرك فقال عثمان : وسرها في مقامها لا اطلع ولا اطارقكم فقال الامير للمعلم علي : دعه يكون معنا ثم ان المعلم اخرج من جيبه ازميل ونقر بـــه الحائط واتى الى الجانب الاخر ونقر ايضا حتى استدل على الباب فنقر وحفر حتى كشفه واذ به باب صغير من النحاس فعالج الباب الى ان فتحه ثم نزلوا فوجدوا قاعتين واسرة من خشب الساج الهندي المصفح بالذهب ووجدوا تماثيل من نحاس ملونة وعليها من الحلي والجواهر شيء يبهـر الابصار واواني من فضة وذهب واواني من فخار منقوش بأنواع الزهـور وراوا في الليوان اربعة صناديق وعليها الاقفال والمفاتيح فتقدم الامـــير وفتحها واذ بها قطع من الذهب والفضة وكان عثمان يتفرج وجعل ياخذ من كل صندوق شيئا ووجدوا سروجا محلاة بالذهب وسيوفا واتراسا محلاة بالذهب ثم صعدوا من المكان وانعم الامير على المعلم علي المهندس بانعام زائدة وامره بهندسة المكان وتصليحه فاخذ الامير ما اراد وطلع واغلق الابواب وصار يوصي عثمان بالكتمان .

اما عثمان فانه خرج من البيت وسار الى باب الديوان وصبر حتى

نزل القاضي وايبك وقال لهم : انظر يا قاضي انت وايبك ما لقينا ، فقال له القاضي : ارني يا شيخ عثمان فأخرج له من الجواهر اصناف فقال : حدثني اين وجدتم هذه الخيرات فقال : انا اشترينا بيت باديس السبكي فوجدنا فيه هذا وجعل عثمان يصف للقاضي ما وجدوا في البيت ثم تركهم ومضى .

اما ايبك فقال للقاضي : ان بيبرس محظوظ ، فقال له القاضي : اصبر واعلم انه قرب هلاكه واني ابشرك اني سأخلصه هذا البيت ويكون لك ، اما الملك فبينما هو جالس واذ بالقاضي وقف وقال : يا مولانا ان ولدك بيبرس قد اشترى بيت احمد بن باديس السبكي ولقي فيه كنزا كبيرا ، فبينما هم كذلك واذ بالامير بيبرس حضر فقال له الملك : احق انك اشتريت دار احمد ابن باديس السبكي ؟ قال : نعم يا مولاي ، فقال : ان القاضي يقول انك لقيت فيه كنز ، قال بيبرس : انا ما رأيت شيئا ، فقال القاضي : انا اخبرني بذلك عثمان واراني بعض الجواهر وشهد بذلك الوزير ايبك ، فقال الملك : سر واتني بعثمان ، ثم سار بيبرس الى عثمان فقال له : انت قابلت بالامس القاضي وايبك واعلمتهم بما لقينا فقال عثمان : نعم ، فتأسف الامير وقال : اما اوصيتك بالكتمان والان طالبك الملك فاذا سألك انكر وقل له ان القاضي كذاب ونحن ما راينا ولا لقينا ولا معنا خبر ، فقال عثمان نعم ، ثم ان الامير سار بعثمان وطلع الى الديوان وسلم فقال له الملك : احكي لنا ما لقيتوا وماذا جرى يا عثمان فقال : صلينا الجمعة انا والامير بيبرس في جامع طولون وطلعنا قابلونا الدلالين وفرجونا على بيت احمد بن باديس السبكي ورحنا لعند اصحابه الستات فباعوا البيت للجندي فأتى المهندس علي فقال له : انا اعرف اسرار هذا البيت وفتح له المحلات فدخلنا ورأينا تحف واواني وصناديق ملآنة بالذهب والفضة وخيرات كثيرة فقال القاضي : والكنوز للسلطان ، قال الملك : وانا وهبتها الى ولدي بيبرس وهبة كريم لا يرد في عطاءه فقال القاضي : يا مولاي ان هذا البيت كبير والاولى كل واحد من الدولة يأخذ منه قسما فقال الملك : يا بيبرس بكم اشتريت ذلك البيت ؟ فقال : يا امير المؤمنين اشتريته بهذه القنطارية وكل من كان له مقدرة يلعب بهذه القنطارية اعطيته شيء من البيت يعمله لنفسه فقامت الامراء والرجال كل في دوره فما قدر احد يلعب بها ، ثم قام الامير بيبرس ولعب بها مثل العصا اوفى من عشرين باب من ابواب الحرب فقال الملك : هنيت بما اعطيت والله يا حاج شاهين يستاهل انزل

يا ولدي بيبرس واعمل لنا عزومة في بيت احمد بن باديس السكبي لنتفرج عليه فقال : سمعا وطاعة ، ثم ان الامير بيبرس قال لعثمان : ائتيني بشيخ الفراشين وشيخ العشية بسرعة ، فسار عثمان واتى بهم فلما حضروا بين يديه قال لشيخ الفراشين : اعمل جهدك في هذا النهار نظف البيت واحضر فرش ممتازة تكون تليق بجلالة الملك ووزرائه ويكون كل شيء منتهي اذان العصر وخذ قد ما طلبت من المال ، ثم قال لشيخ العشية : اريد من المأكولات من جميع الاصناف من حلويات وطبخ وتكون ممتازة وبسرعة وخذ ما اردته من المال ، ثم انهم بدأوا بأعمالهم بهمة فالفراشين صاروا يرتبوا والعشية يهيئوا الطعام فهذا كان واما ما كان من المأكولات فعلى الصواني مما لذ وطاب فتقدم السلطان وسمى باسم الله يحصل لنا السرور وتكون جبر خاطر فقال الوزير : امرك يا امير المؤمنين ، ثم قام السلطان وارباب دولته وساروا الى ان وصلوا الى البيت فدخلوا اما الملك فصار يتأمل ويتفرج على الاماكن وصناعة المهندسين الى ان وصل الى القاعة المعدة له فأعجبته فجلس السلطان والوزراء كل على قدر مرتبته فدخلت الفراشين ووضعوا الكراسي واطباق النحاس والعشية وصارت تضع المأكولات على الصواني مما لذ وطاب فتقدم السلطان وسمى بسم الله وكذلك الوزراء وجعلوا يأكلون ويتحدثون وبعد نهاية الاكل والشرب قال الملك : اللهم اجعل هذا البيت عامرا بما فيه وبعد ذلك اراد الانصراف ثم انه ركب ومشى الامير بيبرس بركابه والوزير شاهين بالميمنة وايبك بالميسرة وما زال السلطان سائرا حتى دخل شارع السيدة زينب رضي الله عنها فنظر الخشب ممدودا على الخليج والناس تمر عليها بصعوبة فقال الملك : يا آغا شاهين يحتاج هنا الى قنطرة ، ثم التفت الى بيبرس وقال له : ابني هنا قنطرة وابني هنا حارة بدكاكينها وبيوتها ولما وصلوا الى الديوان في قلعة الجبل جلس السلطان على تخته وأمر الوزير ان يكتب الامر والاشعار الى بيبرس بعمارة القناطر وعمارة قيصرية بدكاكين وبيوت كاملة وبعد ذلك نزل الامير بيبرس من الديوان فتلقاه عثمان وقال : ماذا جرى يا سيدي ؟ قال له : امرني الملك بعمارة حارة ودكاكين اذهب واحضر لي المهندس علي، فأحضره الامير الى مقام السيدة زينب وقال له : ان السلطان امرني ان ابني هنا قنطرة فقال المهندس : ان الطريق هنا أعوج فاذا كان ولا بد فيكون قنطرتين فقال بيبرس : افعل الذي يوافق فعقد قنطرتين فسموهم العوام قناطر السباع واجتهد الامير في بناء الحارة والدكاكين حتى انتهت الحارة من البناء فأنعم على المهندسين وارباب الصنائع فشكروه ثم قال بيبرس:

يا عثمان احضر لي بقالين وجزارين وعطارين وزياتين وقهوجي وغيرهم فأتى عثمان بما طلب الامير وقدمهم اليه قال لهم الامير بيبرس : كل واحد منكم له دكان يسكنه مع عياله ومعفو من الاجرة ثلاث سنوات وكل واحد يأخذ مني خمسين دينارا على شرط ان لا يكون في بيعكم وشرائكم غدر او اذى لاحد وتكون بضائعكم نظيفة ومعتدلة الاسعار واذا سمعت انكم غشيتم او غدرتم احدا فان الفاعل منكم مطرود من الدكان والبيت وتصادر امواله ، فسكنوا فيها وامتلأت الدكاكين وكانوا يزيدون على التسعين وفوقهم اماكن للسكن وصارت حارة ما لها مثيل اما القاضي فانه سمع بهذه الحارة التي انشأها بيبرس فقال : لا بد ان اتفرج عليها ، ثم ركب بغلته وسار الى ان دخل تلك الحارة فرأى فيها كل شيء حسنا من بيع وشراء ونظافة واتقان فحسبده ولكن كتم ما به من الحقد والحسد حتى انتهى الى اخر الحارة ثم قال لغلامه : والله ضاقت بي الامور يا منصور اريد منك ان تحضر لي الوالي حسن آغا وكان له صداقة متينة معه فسار منصور واحضره فلما حضر اجلسه واكرمه وقال له : انا اعتمد على صداقتك ولي عندك حاجة اريد قضاءها ولك مني ما تريد ، قال : وما هي يا سيدنا ، فقال له : اما تنظر ما فعل بيبرس وكيف انه بنى حارة فأريد منك يا ولدي ان تجتهد في حرقها وتصبح خرابا حتى يطمئن خاطري ، فقال له الوالي: اطمئن انا احرقها لك ، واتفقوا على ذلك وكان هذا الوالي على اتفاق مع المقدم مقلد حارس ابواب مصر فأرسل احضره واكرمه واحضر الوالي الخمر وقال : يا مقدم انت نديمي وانا احبك لانك شجاع ، ففرح مقلد بهذا الكلام وتعاطوا المدام وبعد ذلك دار بينهما الكلام فقال الوالي : يا مقدم مقلد انا لي عندك حاجة فلا احد يقدر يقضيها غيرك فماذا تقول ؟ فقال له : وما هي الحاجة حتى ابذل مهجتي في قضائها ؟ فقال له : ان الولد بيبرس مملوك الملك الصالح بنى حارة واظنك رأيتها اريد منك ان تحرقها وتجعلها خرابا ولك مني ماية دينار فضحك المقدم مقلد وقال له : يا امير هذا هين واقرب ما يكون عندي ، ثم انه نزل بعد ذلك الاتفاق وكان هذا مقلد يبغض الاسطى عثمان فصاح على غلامه فضه واعطاه كتاب وقال له : سر الى كفر الجاموس واسأل عن شيخ العرب حرحش واعطه هذا الكتاب ، فأخذ الكتاب وسار به الى ان وصل الى دار حرحش فأعطاه الكتاب فقراه واذ فيه من المقدم مقلد قائد درك بوابات مصر الى ولدنا شيخ العرب حرحش حال وصول كتابنا اليك تحضر انت ورجالك لاننا في امس الحاجة اليك فلا بد من

حضورك والسلام فلما قرا حرحش الكتاب قال للغلام سر اليه وقل لـــه ينتظر يومين اكون عنده فعاد الغلام واعلم سيده بما قال ولما اقبل حرحش استقبله مقلد وسلم عليه هو ورجاله واكرمهم غاية الاكرام ثم ان مقلـــد قال لحرحش : هل تعلم لاي شيء ارسلت اليك ؟ قال له : اعلمني ، فحكى له على حرق حارة بيبرس فقال له : هي في اي مكان ؟ فقال له : انهـــا بجوار السيدة زينب ، قال يـــا مقدم هذا شيء قريب ولكن لو كانت في غير جوار السيدة زينب لقمت بهذا العمل فلما سمع المقدم مقلد كلامه اغتاظ وقال : دع الوزر يبقى علي وافعل ما امرتك به فقال: سمعا وطاعة، وامتثل ولكن على مضض . ولما تقرر الامر بينهما امر مقلد غلامه ان يأخذ اثنين من رجال حرحش ويمضون الى حارة بيبرس وينظرونها فساروا حتى دخلوا الحارة وتأملوها وقالوا لبعضهم هذا المكان لا يمكن حرقه بالنهار فاذا اتى الليل نعود ونعمل شغلنا ، ثم انهم رجعوا واعلموا المقدم مقلد وشيخ العرب حرحش بما اتفقوا عليه وان هذا الامر يكون في الليل ومن لطف الله انه كان رجل خياط نائم في ارض الدكان هربا من الحر وقد وقفوا امام دكانه وهو يسمع ما قالوه وما اتفقوا عليه بحرق الحارة هذه الليلة فصبر حتى مضوا وسار الى الاسطى عثمان وقال له : انا كنت نائم في دكاني فمـــا شعرت الا وثلاثة رجال وقفوا امام دكاني وانا اراهم وهم لا يروني واتفقوا على حرق الحارة في هذه الليلة وها انا اتيت اعلمتك بهذا الامر فلما سمع عثمان ذلك تعجب وقال للرجل اذهب ولا تذكر هذا الامر لاحد ، ثم ان عثمان ارسل الى البوابين وقال لهم : امضوا الى بيوتكم هذه الليلة وقال لاهل الحارة : لا تشعلوا القناديل ، فقالوا : امرك ، وبعد ذلك جمع عثمان رجاله وقال لهم : انا صار لي خبر ان جماعة مرادهم يحرقوا حارتنا فكونوا حاضرين ونقفل البوابة ونفتح الباب الذي في قلبها ثم اننا نقف من خلفها ونكون صفا جانب بعضنا حتى اذا دخل الغريم اتلقاه واضع يدي على فمه واسلمه الى الذي بجنبي وهو يسلمه للذي بجنبه حتى يصيروا داخل البيت الجواني ، ثم وقف عثمان هو ورجاله منتظرين الخصم اما شيخ العرب حرحش ورجاله فانهم ساروا الى ان وصلوا الى الحارة وكانوا محضرين قوارير نفط وقراطيس وكبريت فوجدوا الحارة مظلمة وبوابتها مقفولـــة فقال حرحش : نحن بلغنا المنى نقضي شغلنا ولا احد يرانا فأرسل رجل وقال له : اكشف لنا الخبر ، فقال : سمعا وطاعة ، فدخل من باب الخوخة وكان عثمان يسمع ما يقولون ومنتظر ما يفعلون فلما دخل الرجـــل واذ بعثمان يضع يدا على فمه ويدا على ظهره وناوله الذي بجنبه والاخر اعطاه

للذي بجنبه وهكذا حتى اوصلوه الى حوش البيت الثاني وكتفوه اما حرحش لما مشى الرجل لم يسمع له خبر فبعث رجل ثاني كان عثمان تلقاه ولحقه بأخاه ثم ان عثمان صفر فظنوا ان الذي صفر لهم رفيقهم وكان عثمان يتقن هذا الفن فصاروا يدخلون وعثمان يتلقاهم هو ورجاله حتى اخـــذوا الخمسين ولم يبق الا شيخ العرب حرحش ينتظر خبر رجاله فصفر لـه عثمان فصفر الاخر فصفر عثمان ثانيا فظن حرحش ان رفقاءه يريدونه ان يدخل فتقدم الى الباب ودخل واذ بعثمان قبض عليه واداره كتاف ثـم سحبه الى الحوش الجواني وامر عثمان ان توقد القناديل فأوقـــدت وصاحوا بصوت واحد نحن في جيرتك يا اسطى عثمان واذ بالامير بيبرس يسمع الصراخ فنزل يجري فرأى رجالا مكتفين فقال بيبرس : ما الخبر؟ فقال له عثمان : ما لك وما الخبر انت خليك بحالك ، فتقدم الامير الى كبيرهم وقال له : من تكون انت ؟ فقال له : انا شيخ العـــرب حرحش وهؤلاء رجالي وانا من كفر الجاموس وقد اتيت الى هنا لاحرق هذه الحارة وما رماني في يدك ويد عثمان الا كرامة السيدة زينب لانها مكرمة جارها ثم اعاد عليه القصة فلما سمع الامير ذلك حمد الله تعالى فقال له : يـــا حرحش ما تستحقون من الجزاء على اعمالكم ؟ قال : يا سيدي لا نستحق اي جزاء لاننا صرنا من المحسوبين على حضرة السيدة زينب الـــذي انت مجاورها فقال له : تتوب انت ورجالك ، فقال : يا سيدي انا تبت لله ، فقال الامير اطلقه يا عثمان ورجاله فقال : يا سيدي ان كنت عفوت عنـي فاقبلني لك خادما انا ورجالي فقال له بيبرس : مرحبا بك تسلمه يـــا عثمان ورجاله وقد تاب الجميع توبة نصوحا اما الوالي فصار عنده خبر ان قناديل حارة بيبرس ما شعلت الليلة الماضية فتوجه اليها مع رجاله فكان اول دكان زيات فقال له الوالي : لاي شيء ليلة امس لم تشعـــل القنديل ؟ قال له : ان الاسطى عثمان قال لا تشعلوا القناديل وروحوا الى بيوتكم ، قال له : واين عثمان ، ثم ضربه علقة وانتقل الى غيره وهكذا الى اخر الحارة فقالوا لبعضهم : نحن ما كنا طفينا القناديل الا بأمر عثمـــان والان الوالي جاءنا وضربنا نحن نروح الى الامير بيبرس ونشكو له حالنا ، ثم جمعوا بعضهم ومضوا الى البيت ودخلوا على الامير وسلموا عليه فقال: ما تريدون ؟ قالوا : ان الوالي جاءنا في هذا النهار وضربنا لعدم اشعال القناديل ليلة امس ، فقال لهم بيبرس : اعلموا ان الوالي لا بد له مـــن الطواف على الحارات وايقاد القناديل بالليل لازم ولكن حيث جئتم وشكيتم

لي فأنا اكلمه وامنعه عنكم فانصرفوا ثم ذهب الى الوالي وكلمه بذلك فوعده خيرا ولكن لم يف بوعده ، فلما كان ثاني يوم ركب الوالي على جواده فقال له مقدم الرجال : الى اين ؟ قال : الى حارة بيبرس ، فقال المقدم : ما بقي في مصر الا هذه الحارة وما ذنب الذين قاعدين في الدكاكين ولماذا ضربهم وهم ناس مساكين فقال الوالي : امشي يا مقدم بلا كثرة كـلام فساروا الى ان وصلوا الى الحارة وتقدم الوالي الى الزيات وقال له امرتك ان تشعل القنديل شعلته ؟ فقال له : نعم وهو شاعل الى الان ، فقال له: هذا عالي ، قال : لاجل ما يطوله الجمل ، فقال : طيب ما ترش الماء والوقت صيف ، قال له امرك نرش ، ثم التفت الى الرجال وقال : ارموه ، فضربه علقة وانتقل الى الاخر وكان عطارا وقال له : ارني علبة القرنفل فأتاه واخرج منها حبة وقال له : هذا القرنفل اعوج ، قال له : ارني القرنفل عند غيري كيف يكون ، قال الوالي : وهل انا كذاب ارموه ، وضربه علقة ثم التفت الى البقال وقال له : يا رجل ان لبن الجاموس ابيض ولاي شيء السمن اصفر قال : ان الله على كل شيء قدير ، فقال له : انت غشاش ثم قال : ارموه وضربه علقة وهكذا الى ان اتى على اهل السوق جميعا ونال كل واحد علقة بتعليل باطل فضاقت صدور اهل الحارة وقالوا : نحن ندخل ثانيا الى عند الامير اما ان يمنعه عنا واما نعزل من هذه الحارة ، قال رجـــل منهم : الصواب اننا نروح الى الاسطى عثمان ونحكي له ، ثم انهم اجتمعوا كلهم وراحوا الى عثمان وقالوا : نحن اولاد حارتك وكل يوم يأتينا الوالـــي ويضربنا بلا ذنب اول مرة تعلل علينا بالقناديل وانت قلت لنا لا تشعلوا قناديل وثاني يوم تعلل علينا بالباطل وضربنا علقات فقال لهم : لاي شيء ما جئتم الي من الاول قالوا الحق علينا قال هاتوا الحق وانا ارده عنكم قالوا له وما تريد ؟ قال بسيسة بالسمن البقري وعسل النحل قالوا امرك فجابوا له قصعة بسيسة بعسل النحل والسمن البقري عايم فلما رآها عثمان قال هذه اكلة مليحة ولكن الذي يأكل الخاروف لازم يحمي امه ، ثم التفت الى اولاد الحارة وقال لهم اذا رايتم الوالي دخل الحارة قولوا عباية عباية وبعد ذلك الزموا مكانكم وهذا الذي عليكم فقط قالوا سمعا وطاعة وانصرفوا واذ بالوالي ركب فقال له المقدم الى اين قال الى حارة بيبرس قال ما بقى لنا شغل الا هذه الحارة فصاح فيه الوالي وساروا الى ان دخلوا الحارة واقبل الوالي على الزيات وقال يا زيات فصاح الزيات عباية عباية فصاح اهل السوق معه عباية عباية فلم يشعر الوالـــي الا والسياس محتاطين به وبجماعته من كل جانب وكل واحد مسكوه خمسة

وعروهم من ملابسهم واتى عثمان الى الوالي وقال له ما جاء بك لحارتنا فقال له الوالي لا تتدخل فيما لا يعنيك فلم يرد عليه جواب الا بالنبوت حتى رضرضه ثم عراه من ثيابه واخذه الى دكان الصباغ فطلع كالعبـــد الاسود واركبه الحصان على المقلوب وضرب كل واحد من اتباعه ثــلاث ضربات وقال لهم سيروا امام الوالي وانتم عرايا وارسل السياس وراءهم يصفقون ويصفرون والناس عليهم يضحكون حتى اخرجهم من الحارة بعيدا وعادوا راجعين ففرحت اهل الحارة بما جرى على الوالي وجماعته وشكروا عثمان فقال عثمان لاهل الحارة لا شفنا ولا راينا فقالوا سمعا وطاعة وأما الوالي وجماعته فانهم ما زالوا بطريقهم قاصدين الديوان بتلك الحالة واذ بالوزير أيبك والقاضي نازلين من الديوان فلما راى أيبك الوالي والناس مجتمعين عليه وهو على تلك الحالة قال له من فعل بك هذه الفعال فأخبره فالتفت الى القاضي وقال له انظر فعل بيبرس فقال له قل الى جماعـــة الوالي ضعوه غدا في تابوت واحضروه الى الديوان ولما كان ثاني الايام جلس الملك في الديوان واذ طالعين خدام الوالي وهم حاملين تابوت وعليه سيدهم قال الملك الصالح يا آغا شاهين هنا تربة فقال الوزير ما الخبر يا نــاس قالوا له يعيش راس مولانا السلطان بالوالي حسن آغا فقال الملك فلماذا لا تدفنوه قالوا مات قتيلا وقتله عثمان وبيبرس فقال القاضي هكذا يجري القتل جهارا يا مولانا السلطان حتى على اتباعك ان هذا لا يرضي الله ولا العباد فقال الملك اطلبوا لنا بيبرس وعثمان فأرسل الآغـــا شاهين بطلب بيبرس وعثمان الى الديوان فقال بيبرس الى المرسل اليه ما الذي جرى فقال له ان الوالي مات وطالعوه الى الديوان وقالوا انت الذي قتلته فالتفت الى عثمان وقال ما عملت مع الوالي قال له ما ضربته الا ثلاث ضربات بالدرة وعريته وغطسته في جرن الصباغ وركبته حصانه على المقلوب ورجالــه عريتهم ومشيتهم قدامه الى ان بعدوا عن الحارة فقال بيبرس ما عمــل الوالي قال عثمان الوالي هو الذي ضرب الناس من دون ذنب فقال بيبرس الوالي مات وطالعين به الى الديوان والسلطان طالبنا انا واياك فقال عثمان الى جهنم وبئس الشتات نحن لا شفنا ولا راينا فقال له الامير اوعى تعترف يا عثمان قال خلاص ، اما قلت ما شفت ولا رايت ثم سار بيبرس الــى الديوان قال الملك يا بيبرس انت قتلت هذا الرجل قال بيبرس انا يا امير المؤمنين لا اعلم بشيء من ذلك ابدا قال الملك ومن قتله قال القاضي يا مولانا عثمان الذي قتاله قال ائتونا بعثمان حتى نشوف لماذا قتله وكــان

عثمان بعدما توجه بيبرس الى الديوان جمع اولاد الحارة واخذهم وسار امامهم حتى قربوا من الديوان واذ ببيبرس مقبل قال يا عثمان اجب امير المؤمنين قال حاضر وطلع الى الديوان فسلم وبأفصح لسان تكلم قال له الملك انت قتلت الوالي يا عثمان قال اسأل سكان الحارة فسألهم فقالوا له عما جرى عليهم من الوالي وجوره وضربه لهم فقال له الملك وانت يا عثمان ما فعلت قال يا مولاي ان الوالي ارسل لنا جماعة مرادهم يحرقوا الحارة فلما صار لي خبر بذلك قلت للسكان اذهبوا الى بيوتكم الليلة ووقفت انا ورجالي مسكناهم فقام الجندي خلصهم وتوبهم وخدمهم عنده فنقم الوالي على اهل الحارة وصار يضربهم ويسبهم من دون سبب فقال الملك وبسيدك حاضر قال سيدي لا يعلم شيء قال الملك يا عثمان ان القاضي قال الرجل مات فقال عثمان ان كان مات انقضى عمره وان كان لم يمت أكمل عليه ثم ان عثمان وثب مثل الاسد واخرج سكينا وتقدم الى التابوت وضرب الوالي أفرى بطنه فصاح الوالي من الالم ومات ، فلما سمع السلطان صرخته قال هذا ما كان ميتا وكيف تقول يا قاضي انه مقتول كأن ديواني صار مهزلة فقال القاضي انا ما رايته لما قتل ولكن جماعته قالوا ، قال الملك خذوه من هنا وادفنوه والان انظروا لنا واليا مكانه قال القاضي يا امير المؤمنين لا يصلح لهذا المنصب الا ولدكم بيبرس قال السلطان لبيبرس قد جعلتك واليا على مصر تحكم بالعدل والانصاف فعند ذلك قبّل يد السلطان وخرج والخلعة على كتفيه فاستقبله عثمان وقال له مبارك يا جندي خير ان شاء الله قال له لبست والي مصر قال عثمان اذا كنت تريد ان اكون على عهدي معك اكون انا والي مصر الصغير وهذه الخلعة تكون على أكتافي وأركب حصان عقيرب على يميني وحرحش على شمالي والثمانون سائسا قدامي ينادون في الموكب ان الجندي بيبرس هو والي مصر الكبير والاسطى عثمان هو الوالي الصغير فعندما سمع الامير منه ذلك رفع الخلعة من على اكتافه ووضعها على اكتاف عثمان وقال له افعل ما تريد وانعقد لعثمان ذلك الموكب من القلعة الى بيت الامير بيبرس والناس يباركون لعثمان .

اما الامير بيبرس فانه ركب حصانه وسار وحده الى ان اقبل الى داره فبينما هو جالس واذا بالخدامين الذين يخدمون الوالي السابق قد اقبلوا وسلموا فقال الامير من انتم قالوا نحن خدامين الوالي السابق جئنا نأكل عيشنا عندك يا امير فقال لهم انا عندي خدامين ولست محتاجا لكم ثم قال لهم انا عندي خدامين ولست محتاجا لكم ثم قال لهم وهل كان لكم راتب على الوالي السابق فقالوا له ليس لنا عليه من شيء فقال لهم ومن اين

تجيبوا معيشتكم قالوا له من قطاعي الطرق ولعابي القمـــــار والنشالين وبياعي الخمر وما اشبه ذلك فقال بيبرس هؤلاء الذين ذكرتموهم كيـــف تعرفون محلاتهم فقالوا كل حرفة لها راس وراس الجميع المقدم مقلـــد صاحب درك البوابات بمصر قال اذا صار لكل واحد منكم معيشته هو وبياله وما يلزمه من كسوة ماذا تقولون فقالوا له اذا كان الامر كما ذكرت فهو احسن ما يكون لنا قال لهم ولكن على شرط انكم تتوبوا عن الاعمـــال السابقة وتصلوا وتصوموا ، اما اذا اكتشف لي عليكم امر يغضب الله فلم يكن عندي لكم الا الجزاء الصارم فقالوا رضينا فقال ائتوني بعثمان ولما حضر حكى له العبارة فقال لا بأس فأخذهم عثمان وتاب الله عليهم وساروا تحت امر عثمان ورتب لهم معاشات ثم ان الامير بيبرس قال يا عثمان من هؤلاء المجرمون الذين ذكرهم خدام الوالي السابق قال عثمـــان اذا اردت ان تعرفهم فان رئيسهم مقلد وكلهم تحت امره واذا سألك عني فقل له ان عثمان سايس وليس له عندي شغل الا خدمة الحصان وانا اخلي بالي معك.

اما الامير بيبرس فانه صبر الى ان اقبل الليل وركب واخذ عثمان معه ودار البلد شرقا وغربا وبعد نصف الليل وصل الى مقر مقلد فرآه جالسا كأنه النمر وعليه الملابس الفاخرة والرجال بين يديه وقوف فلما أقبل الامير بيبرس اليه لم يقم له ولم يسأل عنه من شدة تكبره وتجبره فتعجب الامير من ذلك فسأل عثمان من هذا قال هذا المقدم مقلد كبيرنا كلنا الذي مـا يجري شيء في مصر الا ويكون بمعرفته وكل اولاد الحرام والاشقياء من تحت يده ، فلما سمع الامير بيبرس ذلك زاد به الغضب واضمر له الشر فأقبل عليه وسلم قال مقلد انا لا اعرف سلام قل ما عندك يا ولد انت الذي لبست والي قال بيبرس نعم يا ابي قال مقلد انت الذي توبت حرحش وجماعته وعثمان وجماعته قال نعم قال مقلد كن انت من أتباعي فأرتب لك كل ما تحتاجه قال بيبرس انا ما جئت الا لاراك وانتفع بمعرفتك اذا رضيت بي اكون كأمثالي ولا يغرك اني والي فأنا لم اخالفك في امر قال المقدم مقلد اما دخولك عليّ في محلي فمرحبا بك وانا انفعك فاذا كنت متجولا بالليل ووقع في يدك شخص من جماعتي اطلقه مهما كان عاملا ومصروفك انت وجماعتك عليّ فان طاوعتني جمعت الاموال وان خالفتني تندم قال بيبرس رضيت بذلك ولكن يا ابي انت وجماعتك كثيرون يمكن اني امسك واحدا يكون من جماعتك فأظنه كذاب وامسك احد ثاني يقول انه مـــن جماعتك وهو كذاب فأطلقه فكيف يكون الراي فقال مقلد انا احضر الطوائف

التي عندي حتى تراهم وهم يرونك فقال بيبرس حاضر يا ابي اجمعهم وتعال الى عندي وعرفني بهم فقال مقلد اصبر ثلاثة ايام حتى اجمعهم فقام بيبرس ورجع الى منزله قال الامير اريد منك يا عثمان اذا جمعت الطوائف لا ينفذ منهم احد حتى اتوبهم ثم بعد ثلاثة ايام اقبل المقدم مقلد على بيت الامير بيبرس فاستقبله بالترحاب والعز والاكرام ثم جلس هو واياه في المقعد الذي يطل على الحوش قال له بيبرس اتت الطوائف يا ابي فقال مقلد نعم قد حضروا واذ بخمسين امراة لابسين حبرا وركبات حميرا وكل واحدة منهن لها خديم ففتح لهم عثمان محلا واجلسهم فيه واذا بفرقة ثانية نحو سبعين امراة بالازر البيض فأدخلهن الى مكان اخر وبعد ذلك اقبلت طائفة فتيان واقبلت طائفة اولاد صغار وبعده طائفة رجال وبعدهم نساء عجائز وبعدهم شيوخ بعمائم حتى امتلأت اماكن البيت فقال له بيبرس يا ابي هل يوجد غيرهم فقال مقلد اما الذين في مصر حضروا واما الذين في دوايرها فلم يحضروا فقال مقلد هات يا عثمان طائفة فعرض عليه النساء ارباب الحبر فقال بيبرس ما هؤلاء يا ابي قال هذا بقر الوحش لهم بيوت في الحارات تطلع الواحدة منهم تحط عينها على الرجل الذي تراه مليان بالمال والملابس فتسايره حتى يروح معها الى بيتها وتسقيه الخمر حتى يغيب فيطلع خديمها ويضع على فمه مخدة ويقعد عليه حتى تخمد انفاسه وبعدها يواروه بحفرة في بيتها قال بيبرس خذهم يا عثمان واحضر غيرهم فأحضر ارباب الملايا فقال وهؤلاء قال مقلد هذا البقر السارح تسرح الواحدة منهن حتى يقع بها واحد منحوس يدخلها بيته فتشرب الخمر هي واياه وتضع له مع الخمر افيون او ما اشبه ذلك حتى لا يعود يعي فتأخذ كل ما قدرت عليه من البيت وتطلع وتتركه مرميا قال بيبرس خذهم يا عثمان وهات غيرهم فأحضر ربات الازر البيض فقال بيبرس وهؤلاء فقال مقلد هذا بقر الحليب وهؤلاء يخرجون ايام الاعياد وينحشرون في الازدحام ويأخذون ما في جيوب الناس ويمرون على التجار في صورة مشترين البعض يقلب والبعض يسوم حتى يجدوا فرصة ويسرقوا ما قدروا عليه فقال بيبرس خذهم يا عثمان وهات غيرهم فأحضر الفتيان المرد فلما رآهم بيبرس قال يا ابي وهؤلاء قال هؤلاء علوق وحرامية قال خذهم وهات غيرهم فأحضر عثمان الاولاد الصغار فقال وهؤلاء قال مقلد اولاد كار يعني ابن الكار يأخذ واحدا من هؤلاء الاولاد ويمشي في الطريق حتى ينظر من في جيبه صرة فيضرب الولد كفا فيجري الولد ويدخل في حضن الرجل ويقول انا في عرضك يا عم فيشفع له ويخلصه من يد الرجل وتكون تد

طارت فلوسه قال بيبرس خذهم يا عثمان وهات غيرهم فأحضر النساء العجائز فقال بيبرس ومن هؤلاء فقال هؤلاء يدخلون البيوت في صفحة مشبخة وهم يسرقون مع اعتقاد النساء فيهن انهن من اهل الفضل والبركات وبعدهم أحضر دقاقين العملة المزيفة ولعابين القمار وآكلي الربا وغيرهم ولما عرضت هذه الطوائف على الامير بيبرس قال لعثمان اعرض على الجميعالتوبة فالذي يتوب لا بأس والذي لا يتوب ضع في رجله قيد حديد فنزل عثمان وقال يا جماعة ما قولكم في التوبة فقالت النساء وكيف نتوب وعلى كل واحدة منا خمسة محبوب جعل للشيخ مقلد شهرية فقال عثمان هذا مرفوع عنكم ولا احد يطالبكم بشيء ابدا فتابت النساء وكذلك الرجال تابوا فأمر الامير بيبرس ان كل امراة تختار لها زوجا من الحاضرين واعطى لكل رجل وامراةماية محبوب وقال لهم اتركوا الفساد وعليكم بالتقوى واذا خالف احد منكم لقي الجزاء الصارم اما عثمان فأوقد النار وكواهم على يدهم الشمال وقال لهم هذه علامة التوبة وكل من وقع بعد ذلك في معصية ما جزاؤه الا الموت وانصرفوا جميعا اما الاولاد الصغار فكساهم وادخلهم المدرسة وكل هذا يجري والمقدم مقلد ينظر ويرى فالتفت الى الامير بيبرس وقال له انت توبت كل هؤلاء الناس فمن اين تأخذ مصاريفك انت ورجالك قال الامير بيبرس يا شيخ كم سنة عمرك قال مقلد عمري ثمانون سنة قال بيبرس أما عبدت ربك بهذا الزمن قال ما دخلت جامعا قط ولي ستون سنة أقطع الطريق واخون الرفيق ولا اعرف عهودا ولا مواثيق وكل الطوائف تحت يدي وكل وال اتى يوافقني وما عصى امري غيرك قال له بيبرس يجب عليك انت الاخر ان تتوب وترجع عن هذه العيوب وتطيع علام الغيوب قال مقلد وهل تظن اني كمثل هؤلاء الناس انت قليل عقل وخفيف راس انا عندي خدام مثلك كثير لم يخطروا لي على بال ولكن ما بقى لك عندي بعد هذا الا قتلك وجرد سيفه وضرب الامير بيبرس فاتقى الضربة بالدبوس فانكسر السيف فعند ذلك قام الامير وضرب مقلد بالدبوس على صدره أرماه وكتفه عثمان وكتف غلامه وقال يا شيبة الخزي والعار ثمانين سنة تعيش في هذا الضلال ولا تتوب فقال بيبرس خذهم يا عثمان احبسهم وتولى تعذيبهم وفي الليلة الثانية اراد بيبرس ان يركب ويدور في البلد قال له عثمان لا تركب حتى تهدأ الحال وترى وبعد ثلاث ليال قدم له عثمان الجواد واوقد المشاعل فقال بيبرس هذا لا يظهر الغريم وانما يا عثمان اعمل لنا نورا يخفى ويظهر وسار عثمان ورجاله في ركاب الامير

بيبرس الى درب الجميز واذ بأربعة لصوص سارقين من احد البيوت اشياء ومنتظرين حتى يمر الوالي بمشاعله فما شعروا الا الوالي وعثمان قبضوا عليهم وبعد ذلك شعلت المشاعل فقال الامير بيبرس من انتم قالوا نحن من جماعة مقلد قال اكشف يا عثمان على العلامة فكشف عثمان واذ بالكي على أيديهم فقال لهم بيبرس لو كنتم من غير علامة عفوت عنكم لانكم ما سمعتم بالشروط اما وانتم عالمين بالشروط فما لكم عذر بعد التوبة وامر برمي رقابهم فرموا رقابهم ثم ان الامير أخرج قلما وقرطاسا وكتب هذا جزاء من يتجاسر على السرقة والحرام وينقض التوبة بعد العهد والميثاق ثم وضعها على صدورهم ووضع المسروق عندهم وأحضر الغفراء وقال لهم حافظوا على هؤلاء القتلى وما عندهم من الامتعة وبعد ذلك سار الى باب الخلق فنزل وأمر رجاله بالوقوف فما لبث غير قليل واذ بستة فقهاء وهم يتحدثون بالعزومة والذكر لرفع الشبهة عنهم فأحاطوا بهم واوقفوهم قدام بيبرس فقال لهم من انتم قالوا نحن فقهاء قال عثمان هؤلاء جماعة مقلد فقالوا له من انت قال انا عثمان الذي حطيت الحديدة على يدكم ثم تقدم عثمان وكشف على علاماتهم فرآها على أيدي الجميع ففتشوهم فراوا معهم آلات السرقة وراوا معهم اشياء مسروقة فأمر الامير بيبرس بقطع رؤوسهم وكتب اوراقا كالاوراق السابقة ووضعها على صدورهم وركب وسار الى الرميلة فالتقى بأربعة سارقين وحاملين المتاع الذي سرقوه فكشف عليهم فراى العلامات فقال لهم عثمان نحن أعطيناكم مصروفا وتبتم ولماذا رجعتم تسرقون ثم فعلوا بهم كأمثالهم ورجع بيبرس الى منزله وهذا ما جرى واما اهل البلد اصبحوا فوجدوا القتلى في الشوارع من اللصوص وقطاع الطرق ففرحت الخلق بهذا الحال وقد رأى الوزير أيبك القتلى في طريقه الى باب الخلق وفي الرميلة فسأل من قتلهم فقالوا له الوالي بيبرس لانهم لصوص فسار الى باب القلعة واذ رآه القاضي يرتعد فقال ما الخبر قال ان بيبرس ملأ الارض بالقتلى لانهم لصوص فقال اذا كان الامر كذلك نحن نشتكي الى السلطان ثم انهم ساروا طالبين الديوان ولما جلس السلطان وثب القاضي قائما وقال يا امير المؤمنين الوالي تولى الولاية على سفك الدماء وقتل الناس فان هذا لا يجوز ولا يحل من الله فقال أيبك يا امير المؤمنين حتى لو ادعى وقال انهم لصوص فلا يجوز قتلهم بل تقطع أيديهم فقال الملك ابعث وائتنا ببيبرس يا حاج شاهين فأرسل الوزير الى بيبرس بالحضور فحضر ودعا للملك فقال السلطان ولاي شيء انت تقتل خلق الله قال يا مولانا انا ما قتلت الا من يستحق القتل وان مقلد هو الذي كان مسرح اللصوص وسفاكي

الدماء وحكى للسلطان ما جرى بينه وبين مقلد وكيف اعطاهم الدراهـم وزوجهم لبعضهم والعلامات التي علمها عليهم عثمان بالنار وكيف اخـذ عليهم عثمان بالنار وكيف اخذ عليهم العهد ان لا يرجعوا لاجرامهم كالزمن السابق وبعد ذلك نقضوا العهد ومشوا في اجرامهم مثل ما كانوا سابقا فقطعت رؤوسهم اما مقلد رئيسهم فمحبوس عندي فان لم يتب عن هذا جعلته مثلهم قال السلطان وهل المقتولين فيهم العلامات فان كانوا كذلك يبقى الحق بيد بيبرس فنزل عز الدين الحلبي ومعه اربعة شهود من الديوان باذن من السلطان وكشف عن الجميع ورجع وقال يا امير المؤمنين رأيت الجميع فيهم العلامات وان اصحاب المتاع المسروق اخذه اصحابه بمعرفة الخفراء ومشايخ الحارات فلما سمع الملك ذلك قال يا قاضي ان بيبرس ما افترى على الناس بل انه قتل بحق والحق معه في ذلك قال القاضي يا مولانا ذلك الفضل من الله ثم نزل كل من كان في الديوان الى حـال سبيله ونزل أيبك والقاضي فالتفت أيبك الى القاضي وقال كل ما تدبـر ملعوب على بيبرس يفشل وينفذ منه ويعلو منصاه فقال القاضي يا معـز أيبك سوف ترى مني مكيدة عظيمة لهذا الولد بيبرس اصبر عليّ وشوف وتوجه كل واحد الى بيته ثم ان القاضي كتب كتابا وأعطاه لغلامه وقال له امض به الى الجيزة واسأل عن شيخ العرب خضر البحيري وأعطه هـذا الكتاب وائتني برد الجواب فسار الغلام الى ان وصل الى الجيزة وسأل عن شيخ العرب خضر البحيري فدلوه عليه واعطاه الكتاب فقراه ووجده مـن القاضي صلاح الدين الى بين أيادي ولدنا خضر البحيري الذي نعلمكم به انه ظهر عندنا مملوك يسمى بيبرس وان هذا يحبه السلطان وسلطه على الناس فالمرجو منك يا ولدي ان تساعدني لنرفع هذه الغمة عن الناس فابعث عربك تربط الطرق وتخل بالامن وتعمل مشاكل واتعابا للدولة فتشتكي الناس للملك فنشير عليه ان يبعث بيبرس فيرسله الى هذ المنطقة ليمنع التعدي فحالا اقتلوه هو ورجاله ومن بعدها انا اقترح على السلطان لاجل اخماد الفتنة ان تكون انت حاكم هذه الناحية مع رجالك وعشيرتك وانـا اكبر المساعدين لك ان نفذت لي هذا الامر فالبدار يا ولدي خضر والسلام عليك اما ما كان من خضر البحيري فانه حالا ارسل عربه فقتلوا القائم مقـام الجيزة وصاروا ينهبوا ويقتلوا ويخلوا في الامن اما اهل تلك المنطقة ضجوا من ذلك فجمعوا وفدا منهم ونزلوا الى الديوان وصاحوا بصوت واحـد اغثنا يا امير المؤمنين اموالنا انتهبت ورجالنا قتلت فقال الملك من انتم ومن فعل بكم هذه الفعال قالوا نحن يا مولانا من اهل الجيزة وان رجلا مـن

العربان يقال له خضر البحيري هو ورجاله قتل القائم مقام بالجيزة ونهب الاموال وقتل الناس فطيب الوزير شاهين خاطرهم وقال اذهبوا الان الى دياركم ونحن ان شاء الله حالا نقطع دابر هذا اللعين ورجاله فنزلوا من الديوان وساروا طالبين أوطانهم فقال الملك انظروا لنا قائدا نرسله الى هذه المنطقة فقال القاضي ان الذي يصلح لهذا الشأن ويطهر هذه المنطقة من الفساد هو الامير بيبرس فقال الملك احضروا لنا بيبرس فأرسل الوزير شاهين رسولا اليه فأتى وطلع الى الديوان وتقدم وباس يد الملك ودعى له بدوام العز والنعم فقال الملك اهلا يا ابني بيبرس ثم قال اجعله يا حاج شاهين قائم مقام الدولة قال له انت قائم مقام الجيزة وعليك بتقوى الله واجتهد في تنظيف الارض من المجرمين الذين قتلوا القائم مقام السابق فنزل الامير بيبرس من الديوان فرآه عثمان فقال له انا صرت قائم مقام الجيزة ثم سار معه الى ان وصلا الى بيت باديس السبكي فقال لعثمان غدا نحن متوجهون الى اقليم الجيزة فقل لرجالك يكونوا على حضر وثاني يوم جمع بيبرس مماليكه ورجال عثمان.ورجال حرحش وعقيرب وجماعته وسار طالب الجيزة وعند وصوله طلب المشايخ واحضرهم بين يديه فقال لهم كيف يقتل القائم مقام شعبان عندكم على يد رجل بدوي غادر ولا احد يسأل عنه فقالوا له هذا رجل جبار لا يصطلى له بنار ثم ان بيبرس رتب منهم مأمورين وقسم اقليم الجيزة قسمين وجعل كل مأمور تحت يده المشايخ ولكل شيخ معاون ونبه على الفلاحين بعد الفوضى واذا ظلم شيخ فلاحا فانه يشتكيه الى المأمور واذا لم ينصفه المأمور يشتكي للقائم مقام واريد منكم ان تتعاونوا معي على خضر البحيري حتى اجازيه على ما فعل وثاني يوم بينما الامير جالس واذ بقاضي الجيزة مقبل وقال السلام عليك ايها الامير فقال بيبرس عليكم السلام ورحمة الله فلما جلس رآه بيبرس يبكي فقال له لاي شيء تبكي يا مولانا فقال القاضي اعلم يا مولانا ان لي بنتا نزلت تملأ جرتها فقبضها رجال منصور ابو السيفين واخذوها الى بيته وهذا الرجل فاسق غدار معتد لا يعرف حرام ولا حلال وصنعته قطع الطرقات وسبي المخدرات وهو اخو مقلد بالاجرام وافظع وله قصر على البحر وله خدام يقدرون بخمسين كلهم اولاد حرام مثله ودابهم خطف البنات الابكار فلما سمع الامير بيبرس بذلك الكلام صار الضياء في عينيه ظلام وقال له واين مكانه قال على شاطىء النيل فنهض الامير بيبرس وركب معه الاتباع والمماليك يقدرون بأربعمائة وهم بأكمل العدة والسلاح وسار حتى قرب من

ذلك المكان فقال لمن حوله انتم تكونوا خارج الدار فاذا دخلت الدار وصحت الله اكبر فاحفظوا المكان ولا يفلت منهم انسان قالوا سمعا وطاعة ثم دخل الامير بيبرس الى ان وصل الى المقعد الذي جالس عليه ابو السيفين فوجده جالسا كأنه النمر فلما رآه بيبرس قال السلام عليكم فقال له عليك السلام فتقدم الامير بيبرس الى جانبه وجلس فقال له من تكون يا رجل فقال له انا قائم مقام الجيزة الجديد فقال اعلم ان كل قائم مقام في هذا الاقليم هو معي مثل ما اريد وان لم تعمل بكلامي فلا بد من شر يوصل اليك فقال الامير انا من تحت امرك ونهيك فقال له مرحبا بك وانعدل جالسا وقال له انت يا ولدي تحب الكيف وها قد اتى عندي بنت جميلة أقدمها لك فقال له الامير اتق الله تعالى وتب اليه عسى ان يقبلك ويرحم هذه الشيبة التي شابت في الفسق والضلال فلما سمع ابو السيفين هذا الكلام قال له انت جئت تطيعني بدخولك الى عندي ثم انه جرد حسامه وضرب الامير بيبرس الضربة بالدبوس فطار السيف من يده وضربه بالدبوس على صدره القاه الى الارض بعد ان كاد يقضي عليه وصاح الله اكبر انا الامير بيبرس فسمع رجاله فكروا ودخلوا مجردين السيوف وقبضوا على الخدم والعبيد وكل من كان في الدار وكتفوا منصور ابو السيفين ثم جلس الامير مكان ابو السيفين وأمر باحضار الخدام والعبيد فأمر بضرب رقابهم فقالوا له لا تفعل ايها الامير فنحن تائبون على يديك ونكون في خدمتك فقال لهم الامير مرحبا بكم ثم أطلقهم وامرهم ان يأتوه بالبنت فأحضروها بين يديه فاذا هي بنت القاضي فأمر اثنين من اتباعه ان يوصلوها الى ابيها ولما وصلت الى ابيها اخذها وسألها عن حالها قالت كما انا فجعل يثني على الامير بيبرس ويدعو له وبعد ذلك التفت بيبرس الى منصور ابو السيفين وقال له انا نصحتك ان تتوب عن الضلال فلم تقبل فأمر بقتله فقتلوه ثم وضع يده على ماله وجماله وامتعته وخيله وقد شاعت سطوة بيبرس وزادت هيبته فبينما هو جالس واذ اقبل عقيرب وقبّل يد الامير بيبرس وقال له انا خديمك مدة حياتي فالذي اريده منك ايها الامير تخطب لي بنت القاضي فقال له الامير هذا هين فبعث من اتاه بالقاضي فلما اتى قام له الامير واجلسه بجانبه وقال له اتعرف يا مولانا لاي شيء ارسلت اليك قال القاضي لا اعلم قال له يقول المثل قيمة العبد من قيمة سيده فخديمي عقيرب اراد ان يتشرف في جنابك وقال لي اخطب لي بنت سيدنا القاضي وانا وافقت على ذلك وانشرح خاطري فما رايك بذلك يا مولانا فقال له القاضي حيث انك شرحت لي ذلك ورضيته لي صهرا فاني وافقت رايك واعطيته فعند

ذلك دفع مهرها وشرعوا في الافراح فدبت الغيرة بعثمان وقال في نفسه كيف ان عقيرب يتزوج وانا ابقى اعزب فدخل على سيده وقال زوجني كما زوجت عقيرب فقال له بيبرس اذهب الى امك وقل لها اخطبي لي زوجة فتخطب لك كما تريد فقال سمعا وطاعة وتركه وسار الى ان اقبل الى امه وقال لها قومي اخطبي لي فقالت مرحبا يا ولدي نهارك مبارك فقال لها اخطبي لي بنت كويسة وتكون تكتب وتقرا فقالت له سمعا وطاعة واخذت معها بعض جيرانها وصارت تنتقل من مكان الى مكان الى ان وصلت الى السيدة زينب فزارتها ودخلت الى حمامها فرات صبية توافق عثمان فتقدمت اليها وقالت لها يا بنت ما اسمك فقالت اسمي خضرة فقالت لها وانت تقرئي قالت نعم فقالت وانت بنت من فقالت انا اخت قاضي الجيزة ومن مدة قريبة تزوجت بنت اخي بسائس القائم مقام بالجيزة واسمه عقيرب فقالت لها أم عثمان اريد ان أزوجك الى ولدي عثمان مرافق القائم مقام بالجيزة فقالت البنت امري يا سيدتي الى شقيقي القاضي فمضت الى عثمان واعلمته بالخبر فرجع عثمان الى الجيزة ودخل على الامير وقال له أمي لقيت لي عروسة شقيقة قاضي الجيزة فاخطبها لي فأرسل الامير بيبرس اليه خادما يدعوه فأقبل فقام له الامير واجلسه جانبه وقال لا تؤاخذنا أزعجناك فقال القاضي ربنا يعزك وينصرك على اعدائك ما الخبر يا ولدي قال الامير ارسلت اليك لاخطب منك شقيقتك المصونة الى مرافقي واخي بالعهد الاسطى عثمان فقال له ان عثمان مرعب وقاطع قلوب الناس واخاف على شقيقتي منه فقال يا مولانا لا تخف من شيء ابدا فعثمان تاب وصار رجل معتبر وأنا الكفيل والضامن من كل شيء فلا يكون لك فكرة ابدا فقال له اذا كان الامر كذلك فلا بد لك ان تجيء الى منزلي واخطبها مني على رؤوس الاشهاد وهي جارية لك فقال الامير سمعا وطاعة ثم ان الشيخ انصرف اما الامير بيبرس فصبر الى العشاء وقال سر معي يا عثمان لنعقد لك العقد فعند ذلك نهض الامير وسار مع رجاله والاكابر الى منزل القاضي وارسل الامير بيبرس كل ما يحتاجون اليه لاجل الكتاب ولما وصل الامير استقبله القاضي بالتحية والاكرام هو ومن معه واجلسهم في اعز مقام وبعد ذلك قراوا الفاتحة وطلبوا عقد النكاح فجلس القاضي وجلس عثمان والشيخ بينهم وجرى العقد والمهر خمسمائة دينار وضربت الطبول والمزامير وفرح عثمان وثاني يوم ذهب الى امه واخبرها بذلك وان الامير خطبها له وكتب كتابه على البنت خضرة ففرحت امه بذلك وذهبت معه الى الجيزة لاجل الفرح ثم ان الامير عمل الفرح لعثمان وذبح له الجزر والاغنام واكل الخاص

والعام مدة ثلاثة ايام وبعدها عمل الزفة وادخله ورابع يوم انتهت الافراح ثم ان الامير بيبرس قعد يفكر في امر خضر البحيري وعربه وكيف يعمل فاستشار بعض رجاله فقام حرحش وقال يا امير انا اسير متخفيا وآتيك بخبرهم ثم بعدها ترى ما يوافق من الامور فقال الامير اذهب اليهم وائتني بخبرهم ولكن بسرعة فسار حرحش الى ان وصل الى ديارهم فوجد القوم في فرح ودق مزامير وطبول والغواني والراقصات في حلقة كبيرة وخضر البحيري متوسد امام صيوانه ولا احد واعي على احد فرجع بسرعة واعلم الامير بيبرس بما رأى وقال له هذه فرصة يا امير والان تأخذهم بغفلة اما الامير بيبرس حين سمع من حرحش ما رأى جمع رجاله والمماليك وسار الى ان وصل الى اخر الليل فوجد القوم في بسطهم ولهوهم واذ بالامير بيبرس يفاجئهم برجاله والمماليك واوقع السيف في جماعة خضر البحيري فقتلوا منهم اربعين واسروا ماية مع رئيسهم خضر البحيري والباقي هربوا وهجوا واستولى الامير على مواشي خضر البحيري وامواله وأمر باحضاره بين يديه فقال له ما حملك على قتل القائم مقام ونهب أموال الناس اما تدري ان مصرع الباغي وخيم ثم ان الامير قطع راسه ووضعه على راس سنان وقفل راجعا ومعه الاسرى والغنائم الى الجيزة وثاني يوم ارسل عثمـــان براس خضر البحيري والاسرى الى مصر الى الديوان ليرى الملك اعـــداءه
براس خضر البحيري والاسرى الى مصر الى الديوان ليرى الملك اعـــداءه
بأوشم الحالات فبينما الملك جالس بالديوان واذ بعثمان طالع ومعه الاسرى مكتفين وراس خضر البحيري على راس سنان فقال الملك اهلا وسهـــلا بالاسطى عثمان اخبرني بما جرى فأخبره بما جرى مفصلا فقال الملك ان بيبرس لمنصور وعدوه مقهور ثم قال يا عثمان اذهب الى سيدك وسلم عليه وقل له انتهت مهمتك بالجيزة تعال الى الديوان ثم قال الملك للوزيـــــر شاهين اكتب لبيبرس مكتوب فكتب الوزير الذي نعلمك به يا امير بيبرس ان مولانا الملك يأمرك ان تولي على اقليم الجيزة من تشاء وتحضر الـــى الديوان فان الامر لازم لحضورك والسلام وسلم الكتاب الى عثمان فأخذه وتوجه الى سيده واعطاه الكتاب ثم ان بيبرس البس مماوكا من مماليكه وجعله قائم مقام واوصاه بالعدل والانصاف وتوجه قاصدا مصر الى ان وصل لبيته اما ما كان من الملك الصالح ايوب بعدما جلس على كرسي قلعة الجبل وتكامل الديوان واذ بباب الديوان داخل سيار وحامل كتاب قدمه للملك فقال له الملك من اين قال من حلب واعطى الكتاب الى الملك ففضـــه

وقراه وفهم رموزه واذ فيه خطاب من نائب حلب الى بين ايادي امـــير المؤمنين ايده الله بالنصر والعز والتمكين اننا مقيمون يوم تاريخه واذ بالغبار قد علا وثار وانكشف عن فوارس للحرب طالبين وعلى راس هذا الجيش الملك هلاوون فاغلقنا الابواب واقمنا الحصار فحط اللعين بجيوشه على حد الرمي فأرسلنا هذا الكتاب الى شريف علمك فادركنا يا امـــير المؤمنين فأعطى الملك الكتاب الى الوزير شاهين فقراه على الخاص والعام فقال الملك ومن يرد عنا هؤلاء اللئام فقال القاضي لا يليق لهذا الامر يا مولانا الا ولدكم المنصور الامير بيبرس فانه مسعود فبينما هم على مثل ذلك الحال واذ بالامير بيبرس طالع الى الديوان فلما رآه الملك قال للحاج شاهين انظر الى هذا التوفيق ثم ان بيبرس بعدما سلم ودعى للملك سلم على الوزير فقال له خذ اقرا هذا الكتاب فقراه وقال له الملك يا ولدي ان القاضي قال لنا انه لم يكسر هذه الركبة وينصرنا عليهم باذن الله الا انت واني قد ارسلت اليك فماذا انت قائل قال الامير انا لها ان اذن لي امير المؤمنين فقال الملك يا وزير شاهين اجعل ولدي بيبرس قائد الجيش والبس الوزير ايبك معاونا له فتجهزت العساكر والمماليك وامر بيبرس بجمع الرجال من كل ناحية من مصر وبعد ثلاثة ايام توجه الى الملك وطلب منه الدعاء للمسلمين بالنصر فدعا له وامره بالمسير فخرج من مضر بجيش جرار قاصدا حلب اما ما كان من القاضي فانه بعد مسير الجيش سطر كتابا واعطاه الى غلامه وقال له سر بهذا الكتاب الى العريش وسلمه الى الملك فرنجيل فأخذه وسار الى ان وصل الى قلعة العريش فدخل على فرنجيل وسلمه كتاب سيده فحله وقراه واذ به خطابا من جوان الى بين ايادي ولدي الملك فرنجيل اعلم يا ولدي ان بيبرس قاتل ولدك وهو مجتاز ارضك بجيش قاصد حلب فاذا وصل اليك كتابي هذا فاكمن اليه حتى يجوز عن ارضك فحاربه وخذ بثار ولدك ففرح اللعين واعطاه رد الكتاب وظن انه بلغ المراد وكمن بخمســـة آلاف فارس وجعل ينتظر قدوم بيبرس لاجل ان يأخذ منه بالثار ويجلي عنه العار واذ بالغبار قد ثار وعلا وسد الاقطار وانكشف الغبار عن الوزير ايبك وقلاوون ولم يعلموا ما قد خبىء لهم في الغيب ولما تقاربوا من قلعة العريش واذ بالكمين قد خرج عليهم بغتة وعلى حين غفلة وكبسهم اللئام لانهم كانـــوا سائرين على غير اهبة من امرهم وصاروا ينادون بأخذ الثار وجلي العار فعادت المقدمة منهزمة وباوائلهم ايبك التركماني الى نحو بيبرس وعادت الاعداء الى قلعة العريش فبينما الامير سائر واذ بالوزير ايبك مرتد راجع وهم على هذه الحالة فلما رآهم صعب عليه وكبر لديه واغتم لاجلهم غاية

الغم وقال لهم من فعل بكم هذه الفعال وأورثكم النكال فقالوا له ايها الامير لقد باغتنا اللعين ملك العريش فرنجيل بكمين على حين غفلة منا وهكذا جرى فأخذ الامير بخاطرهم وطمنهم بأخذ الثأر من عدوهم وسار الامير بيبرس حتى اقبل الى القلعة وحط عليها وقد احاط بها الامير من كل جانب اما اللعين فرنجيل فانه قال لرجاله اعلموا ان جوان دعاني وبشرني بالنصر على الغلام بيبرس ولولا ذلك ما فعلت وفي الغد انا عازم على الحرب والنزال فلماذا انتم قائلون فقالوا له نفديك بأرواحنا فشكرهم على ذلك وجعل يفرق عليهم العدد والخيول والزرد وباتوا على ذلك الحال الى ان اصبح الصباح وفتحت ابواب القلعة ونزلت فوارس يتقدمهم فرنجيل فأمر بدق طبول الحرب فعند ذلك نهض الامير بيبرس وركب بنفسه وانحدر الى حومة الميدان وقال هل من مبارز انا الامير بيبرس قاتل ابن ملككم قمطة ثم ان الامير لعب على ذلك الجواد ابواب الحرب وجرد سيفه وهجم على ميمنة اللئام وقتل اربعة وهجم على الميسرة وقتل خمسة واعتدل بعد ذلك الى حومة الميدان وقال ابرزوا يا انذال يا غدارين يا لئام وخذوا ثأركم مني فلما سمع فرنجيل ذلك من الامير بيبرس ورأى فعاله صاح على رجاله دونكم واياه خذوا منه بالثأر واجلوا عن ملككم العار فعند ذلك هجمت اللئام واحاطوا بالامير بيبرس من كل جانب فاستقبلهم الامير كما تستقبل الارض العطشانة وابل المطر فلما عاين ذلك جيش الابرار هجموا على اللئام فثبت الشجاع وانهزم الجبان وطارت الرؤوس عن الابدان والامير يضرب بهم يمين وشمال وصار اللئام يتحاشونه حتى قربت الشمس من الزوال فولت اللئام وانهزمت وكان اول من انهزم فرنجيل ملكهم وهو لا يصدق بالنجاة وما زالوا في هزيمتهم والامير خلفهم حتى أدخلهم الى قلعتهم فلما دخلوا اغلقوا الابواب ولما جلس اللعين فرنجيل جمع خواصه وجلاسه وقال لهم ما الذي نقدناه فحسبوا القتلى واذا هم الفين غير المجروحين من المنهزمين فقالوا له كان خروجك على هذا الجيش الجرار خطأ كبيرا فأنت يوم كان بيبرس في نفر قليل ما قدرت عليه فكيف تقدر عليه في هذا الجيش الكبير وصار له خبرة في تدبير الامور فقال لهم فرنجيل دعونا من الماضي وتدبروا في رحيل هذا الجيش عنا لاننا لا نقدر ان نجابهه وان برزنا الى هذا الجيش ثانية يكون مصيرنا الدمار فقالوا له ابعث مكتوبا الى الامير بيبرس واعتذر له عما جرى وارسل له خزنة مال واسأله الرحيل عنا بالحال فقال هذا هو الصواب اما الامير ثاني يوم بينما هو جالس واذ بوزير فرنجيل ومعه اربعة اشخاص

محملين صندوق على بغل وعندما وصل قال الامان ايها الامير المظفر فأمر له الامير بالجلوس وقال له ما هذه الافعال التي فعلها مليككم فقال الوزير ايها الامير المعظم اننا لمناه وقلنا له ما هذا الا جنون والان جئتك ايها الامير راجيا ان تعطينا الامان وتقبل منا هذه الخزنة من المال فقال له الامير نحن نعطيكم الامان ولكن على شرط ان لا تعتدوا على انسان في طريقه الى مصر او اي الاقطار وتاتوني باربعة خزنات مال فوق هذه الخزنة فان لم تأتوا بما طلبته منكم فاني غدا احط على قلعتكم واحتاط بها وانقض عليهـــا كانقضاض العقاب واخربها على رؤوسكم ولم ابق بها من ينفخ نار والمهلة باقي هذا النهار فقد أعذر من انذر والان اذهب ايها الوزير الى ملككـــم واخبره بطلبي وها انا منتظر الى المساء لرد الجواب فنهض الوزير وسار الى مليكه وبلغه بما جرى بينه وبين الامير فلما سمع فرنجيل ذلك دبر اربع خزنات مال وارسلهم مع الوزير الى الامير بيبرس فاستلمهم الامير وقال للوزير نحن غدا راحلين وان تعديتم على احد فها انا راجع اليكم ما اخلي منكم ديار وثاني يوم دق طبله وارتحل الى ان وصل ارض الشام فلمـــا صار له خبر عيسى الناصر نائب الشام بأن بيبرس أقبل بجيش جرار قاصد حلب انجبر ان يستقبله وفي قلبه نار الحقد والحسد ولكنه سلم عليه ودعا له بالنصر والتوفيق وصل الخبر الى امه السيدة فاطمة الاقواسية فخرجت لملاقاته فاستقبلها الامير وقبّل يدها وراسها فعانقته وصارت تبكي من شدة الفرح ثم انها جعلت تحدثه وتسأله عن اختها كيف هي الى ان قالت اعلم يا ولدي ان الله تعالى استجاب دعائي وذلك لما سرت من عندي وتوجهت الى مصر قلت يا رب يا سامع الدعاء لا تدعني اراه الا وهو قائد عسكر يحكم على خمسين الف واكثر فقبّل الامير يدها ثم ودعها بعد ذلك ورجعت الى محلها وثاني يوم امر جيشه بالرحيل طالب حلب فوصلها بقليل من الايام فراى الكفار عباد النار محتاطين بها من جميع الجهات فنزل بجيشـــه بعيدا عنهم لاجل ان يستعد لمحاربتهم ثم باغتهم على حين غرة بهجوم صادق ازاح اللئام عن حلب واسوارها فارتاح اهل حلب وزحـــف الامير بيبرس بجيشه وجعل مدينة حلب وراءه يحميها والاعداء مقابل له وصار يناجز الاعداء كل يوم بالحرب والنزال الى يوم من الايام بينما الامير بيبرس يقتل ويأسر من الاعداء ولا احد منهم قدر ان ينال منه منال فتضايق الملك هلاوون من هذه الاحوال فأمر جيشه بالحملة على جيش المسلمين فتلقتهم الابرار بكلمة التوحيد واشتعلت نار الحرب فيما بينهم الى اخر النهار انفصلت الطائفتان وثاني يوم قامت الحرب بينهم ودام هذا الحال مدة سبعة ايـــام

والحرب سجال فيما بينهم وثامن يوم امر هلاوون بالحملة على جيش الامير بيبرس فتلقاهم المؤمنون بقلوب اقوى من الجلمود فدارت رحى الحرب فيما بينهم وحمى وطيسها فلا عدت تسمع الا صياح الابطـــال ورنين السيوف فلله در المسمين وما فعلت بعباد النار والامير بيبرس وما فتك بهم ودامت الحرب من طلوع الشمس الى صلاة العصر وبيبرس يطلب من الله النصر على الاعداء واذ بغبار علا وثار وبان عن خيول غائرة وامامهم المقدم سليمان الجاموس وهم يقولون لعينيك ايها الامير بيبرس ونزلوا على الاعداء نزول الصاعقة من السماء فانكسر الاعداء عباد النار وولوا الادبار فتبعتهم الابرار وهم يقتلون ويأسرون الى ان اقبل الليل بالاعتكار فرجعوا الـــى الخيام فتلقاهم الامير بيبرس وهنأهم بالنصر والسلامة وشكرهم على نصرتهم له واكرمهم واقامهم عنده في أعز مكان واعطاهم من الغنائم والاسلاب شيئا كثيرا وقال لهم يا بني اسماعيل اني مديون لكم على طول الزمان .

قال الراوي : وكان السبب بمجيئهم عندما مر الامير بيبرس بجيشه من المعرة واستقبله المقدم سليمان الجاموس وسلم عليه واضاف الامير عنده ثم سار الامير طالبا حلب بجيشه فرجع عثمان وقال الى المقدم سليمـان الجاموس هكذا تترك اخوك الامير بيبرس وان الوزير ايبك واتباعه اعداء له ولا يريدون ان ينتصر ويكسب الوجه الابيض عند السلطان فقال المقدم سليمان الجاموس ابشر يا عثمان بنصرة الامير بيبرس فسر انت ونحن ان شاء الله من الان نجمع جموعنا ونتبع أثره فقال لهم بارك الله فيكم وسار طالب الجيش حتى لحقه هذا كان السبب بمجيئهم ونصرتهم الى الامـــير بيبرس ثم ان الامير بعد انتصاره على عباد النار واخلى الارض منهم اقام بضعة ايام بأرض حلب وارتحل طالب مصر المحروسة وعند وصوله الـــى جهات المعرة طلب الفداوية ورئيسهم سليمان الجاموس الاذن من الامـــير برواحهم الى قلاعهم فتودع منهم وتودعوا منه ثم سار الى ان وصل الى دمشق الشام فاستقبله نائبها والاعيان واهل الشام بنهار يعد من الاعمار ثم ان الامير بيبرس ذهب لعند امه فاطمة الاقواسية فاستقبلته وفرحت بسلامته وانتصاره فقبَّل يدها وقال لها كله بحسب دعاك يا والدتي رب يخليك لي فأقام ثلاثة ايام بالشام وطلب الاذن من والدته وودعها فبكت وبكى ثم انه ارتحل وسار طالبا ارض مصر الى ان وصل فدخل بجيشه وهو على راسهم وقدامه الاسارى من الكفار عباد النار فاستقبله الاهالي بالاهازيج والزين وبلغ خبر قدومه الى الملك الصالح فقام وصار ينظر الى

بيبرس وجيشه والاسارى قدامه فانشرح الملك وفرح بالانتصار ثم ان الامير بيبرس والوزير ايبك وباقي الامراء الذين كانوا معه طلعوا الى الديـــوان للسلام على الملك فاستقبلهم الملك والوزراء وسلم عليهم وهنأهم بالسلامة والانتصار فدعوا له بدوام العز والنصر على الاعداء اما الامير بيبرس سلم على الملك ودعا له وقبَّل يده فقال له اهلا وسهلا بالاميرْ المظفر واني قـــد لقبتك بركن الدين وامر له بخلعة فأفرغوها على كتفيه ثم جعله وزيرا الى يوم من بعض الايام والملك جالس بالديوان واذ بنجاب يدخل الديـــوان ويقبِّل الارض بين يدي السلطان فقال له الملك من اين قال من بيت القدس ومعي كتاب من عند خادمكم علي القيمري نائب القدس ثم انه اخرج الكتاب فأخذه الحاجب واعطاه للسلطان فقراه واذ فيه خطابا من علي القيمري الى بين أيادي امير المؤمنين الذي اعلمك به يا مولانا اننا قد ظهر عندنا نقص بالارواح والاموال وكل يوم يصير عندنا مشكل يكون ضحيته ارواح واموال فسعينا ما أوتينا من جهد ما قدرنا نكشف هذا الامر فلما اعيانا اعلمناكم لكي يكون عن شريف علمكم والامر امركم يا امير المؤمنين والسلام عليكم فلما قرأ الملك الكتاب اعطاه الى قارىء الديوان فقراه على الخاص والعام فقال الملك من يكشف عنا هذه الغمة فقال القاضي يا مولانا السلطان ما لهذا الامر الا ولدكم المحفوظ الامير المنصور بيبرس الذي سعده يضيء كالشمس قال الملك يا قاضي ان ولدي قائد عسكر فقال القاضي هذا لا يضر بشيء يــا مولانا بل اجعله نائبا بالقدس حتى يكشف هذه الغمة عن الناس ثم ان الملك قال للوزير شاهين اجعل ولدي بيبرس نائب القدس فأولاه الوزير نائبــا للقدس ونزل من الديوان بموكب حتى اتى الى بيته وثاني الايام سار الى الديوان وطلب الاذن بالسفر من السلطان واخذ عثمان بصحبته والرجال وتوجه طالبا القدس فلما وصل استقبله علي القيمري وسلم عليه فقال له لا يكون عندك فكر في مجيئي ابدا واعلم انني ما اتيت الى هنا الا بـــاذن السلطان لاجل ان اكشف الغمة واظهر الغريم واعلم ان هذا محلك وهو باق برسمك ولا احد يأخذه منك فشكره علي القيمري على ذلك وجلسوا ذلك اليوم وهم في اهنأ ما يكون الى ان اقبل الليل بالاعتكار قال الامـــير مرادي ان اتجول في بيت القدس وحدي لعل الله يأخذ بيدي قالوا له دعنا نسير معك قال لهم كلا جزاكم الله عني خيرا ثم انه غير زيه ولباسه ونزل يدور في القدس ويتنقل فبينما هو سائر واذ لاح له شخصان فرابه امرهما فاتبعهما وسار خلفهما فشعرا به يترقبهما فدخلا دهليزا مستطيلا ودخل وراءهما واذ الباب الذي دخل منه اغلق فرجع الامير ليرى ما جرى فوجد

الباب مغلق فمشى الى الامام فوجد بابا مغلقا واذ به يشم ريح البنـــج والمخدرات ارموها عليه من السقف والمكان ضيق وليس له منفذ فاثر به البنج فداخ وارتمى الى الارض وعندما راوه تبنج خرجوا اليه وقيـــدوه واحتملوه واخذوا ما عندهم من الاموال التي سرقوها وساروا طالبين البر وكان عددهم عشرة عياق ورئيسهم وكان السبب في مجيئهـــم الى بيت المقدس ان جوان لما ضاقت به الحيل كتب كتابا وارسله الى الملك قريطش فلما وصله الكتاب قراه واذ به من جوان الى ولدنا الذي اعلمك به انني قد ضاق صدري من امر بيبرس وما بلغت منه مرادي فساعة وصـــول كتابي ارسل عشرة عياق وعليهم رئيس ويكونوا عياق شاطرين الى بيت المقدس يقتلوا ويسرقوا .

فاذا وصل الخبر الى السلطان بذلك الامر اشور عليه بارسال بيبرس الى القدس فاذا وقع في أيديهم يقتلوه فحالا ارسلهم يا ولدي لاكون راضيا عنك فلما قرأ الكتاب أرسل هؤلاء العياق وفعلوا ما ذكرنا من الفعال وشاعت الاخبار وارسل نائب القدس يستنجد بالملك من هذا الامر واشار القاضي في ارسال بيبرس الى القدس وجرى له ما شرحنا فلما اوغلـــوا في البر وصلوا الى واد انزلوا بيبرس وصحوه من البنج فقال اين انا فقالوا انت بين ايدينا ونريد الان قتلك فقل ما تريد فبينما الامير بيبرس يطلب الفرج ويستغيث واذ بفارس قاصد اليهم وصاح عليهم فارتعبت قلوبهم مـــن صرخته وحارت افكارهم فضرب الاول قتله والثاني ألحقه بأخيه والثالث اعدمه الحياة وكل من دنا منه دنت منيته الى ان قتل منهم سبعة وهرب اربعة في الفلاة وهم لا يصدقون بالنجاة فنزل الفارس وخلص الامير بيبرس من القيود وقال اشهد لي بها يا بيبرس فقال له الامير بيبرس ما اسمك قال ضايع الاسم وغاب في البر من حيث اتى ثم ان الامير بيبرس رجع الى الديار فاستقبله عثمان وقال له اين كنت قال الامير يا عثمان سر الى المكان الفلاني انت ورجالك وائتني بما فيه من الاحمال والبغال قال سمعا وطاعة فسار عثمان الى ذلك المكان فوجد البغال محملة بالامتعة والاموال والقتلى بالارض فسحب البغال واخذ اسلحة القتلى وامتعتهم وترك القتلى للوحوش تأكلهم ورجع الى سيده بالبغال والاحمال اما ما كان من علـــي القيمري فقعد ينتظر الامير بيبرس واذ بالامير قد طلع الى الديوان فنهض له وسلم عليه ولما استقر به الجلوس سأله عما جرى فقال نصرنا الله على الاعداء فأرسل المنادي ينادي في المدينة ان كل من كانت له حاجة مسروقة

يأتي ويأخذها من الديوان وذلك بعد ان يصفها بأوصافها قال له علـــي القيمري جزيت خيرا ايها الامير فأعاد عليه ما قدمنا ذكره فتعجب من ذلك اما اهالي البلد فقد اتوا الى الديوان يهرعون من كل مكان وجعل كل واحد يصف ما ضاع له للامير فيسلمه اياه ولم يفقد لاحد من اهل القدس شيء ثم ان الامير بيبرس من بعد هذه الاحوال كتب كتابا وارسله لامير المؤمنين بما جرى بالتمام وقال ان مدينة القدس رجع اليها الاطمئنان والامان والامر اليكم مولاي بالاقامة بالقدس او برجوعي الى مصر بين اياديكم وارسله مع عثمان الى مصر فسار به حتى وصل وطلع الى الديوان واعطى الكتاب للملك فأمر بقراءته فلما سمع الملك انشرح وامر الوزير ان يكتب الى الامير بيبرس بالرجوع الى مصر مع أمر من السلطان الى علي القيمري بأنه نائب القدس وحاميها وسلمه الى الاسطى عثمان وقال له سر الى سيدك واعلمه فسار عثمان الى ان وصل واعطى الكتاب لبيبرس فقراه وفهم ما فيه واعطى الامر لعلي القيمري برجوعه لمنصبه وثاني يوم تودع من نائب القدس ومن ومن معارفه واخذ رجاله وسار طالب مصر الى ان وصل وطلع الى الديوان فاستقبله الملك بوجه بشوش وقال اهلا بولدي ركن الدين بيبرس فقبّل الامير بيبرس يد الملك وجلس في مكانه .

قال الراوي : في يوم من الايام بينما الملك جالس واذ بنجاب يقبّل الارض وهو يقول سبحان هادي الطير قال الملك وراحم الشيب وساتر العيب من اين قال يا مولانا من ثغر الاسكندرية ثم انه اخرج الكتـــاب فأخذه الحاجب واراد ان يناوله الى السلطان فقال الملك اعطه الى القاضي يقراه علينا ويسمعنا ما به ففضه القاضي وقراه واذ فيه خطابا من نائب الاسكندرية الى بين أيادي مولانا امير المؤمنين يوم تاريخه مقيمين واذ بمركب مقبل ورافع علم الامان الى ان وصل الى الثغر ورمى المراسي واذ طلع منه وزير ومعه اتباع فسألناهم عما يريدون فتقدم كبيرهم وقال انا وزير ملك جنوا ومعي كتاب وهدايا للسلطان وأريد مواجهته فأقمناهم في دار الضيافة وأرسلنا اعلمناكم يا امير المؤمنين فاذا اردت قربناهم او ابعدناهم والامر امركم مولاي فلما سمع الملك الكتاب قال للوزير شاهين اكتب الى نائبنا ان يرسلهم الينا لنرى فكتب الكتاب وارسله مع النجاب الى الاسكندرية فلما وصل الجواب الى نائب الاسكندرية أمر بنقلهم الى بحر الحلو فساروا طالبين مصر حتى اقبلوا الى بولاق ثم طلعوا الى الديوان وسلموا ودعوا للسلطان قال الملك ما معكم قالوا كتاب من ملك جنوا وهدية قال الملك اعطوا الكتاب للقاضي حتى يقراه واذ به خطاب من ملك جنوا الى بين ايـــادي

السلطان ان بنتي مريم قد اعتراها مرض فنذرت على نفسي ان طابت أزورها القدس والان شفيت واريد افي بنذري فأرسلت اليك طالبا من جلالتكم السماح لها بالمرور وأن ترسل من طرفكم حارسا يحرسها من يافا الى القدس ومن القدس الى يافا وله خمسة الاف دينار ذهب حق طريقه واما الهدية فالامل قبولها منا والسلام فلما سمع الملك الكتاب قال للوزير اكتب لهؤلاء رد الجواب بأننا سمحنا لابنتكم بالمرور لبيت المقدس وما تصل الى يافا الا ويكون الحارس بانتظارها .

فكتب الجواب بذلك واعطاه لاتباع ملك جنوا وقال سيروا الى مليككم واعلموه ان السلطان سمح لها بذلك ثم ان الملك قال لرجل من الاكراد قم يا ابن العم خذ نصيبك واحرس البنت من يافا الى القدس ومن القدس الى يافا فقال له الوزير يا مولانا السلطان ان الحراسة ما هي علينا وانما هي على سلطان القلاع والحصون فاذا كان هو غايب فرجاله فقال الملك ما اسمه قال معروف بن جمر فقال اكتب له كتابا واكتب فيه يحرس البنت فكتب الوزير بسم الله الرحمن الرحيم اما بعد فهذا كتابي وانا الصالح ايوب الى بين أيادي ولدي معروف بن جمر سلطان القلاع والحصون من المعلوم لدينا انكم اصحاب الحراسة فالآن ستأتي الى يافا مريم بنت ملك جنوا فنريد منك ان تحرسها من يافا الى القدس ومن القدس الى يافا واجرة الحارس الذي ترسله خمسة آلاف دينار صحبة ولدنا الامير بيبرس حامل الكتاب وبعد ذلك لك مني الدعاء ومن الله القبول ثم ختم الكتاب واعطاه للامير بيبرس وقال له سر الى معروف بن جمر فنزل بيبرس من الديوان وتجهز وثاني يوم اخذ معه بعض الرجال وأخذ المال وصار طالب قلعة صهيون وما زال سائرا حتى وصل الى القلعة فطلب الاذن بالدخول الى الحصن فقال له الاتباع من تكون وماذا تريد قال اريد مواجهة سلطان الحصون ومعي كتاب اليه من امير المؤمنين بمصر فقالوا له انتظر لنخبره بالامر فغابوا قليلا وأتوا وقالوا له ادخل فأوصلوه الى قاعة كبيرة والرجال يمين وشمال شاهرين السيوف الى ان دخل على السلطان فسلم عليه فقال له من انت وماذا تريد فقال له انا الامير بيبرس واني حامل كتاب امير المؤمنين الملك الصالح أيوب الى حضرتك وناوله الكتاب ففضه وقراه ثم وضعه على راسه بعد ان قبّله وقال لبيبرس لاجل خاطرك وخاطر سيدي الملك الصالح لا احد يحرس البنت غيري ولا آخذ اجرة ابدا وهذا المال هبة مني اليك فقال الامير بيبرس وانا لا يتبعني منه شيء فقال المقدم معروف حيث ابينا ان لا يتبعنا من المال شيء صاح على الرجال وقال فرقوه على

المحتاجين والارامل والايتام ثم اجلسه بجانبه واكرمه وآنسه وامر بايقاد النار على رؤوس الجبال لجمع الرجال فاجتمعت الابطال والمقدمين عند السلطان معروف بن جمر ثم ذبحت الاغنام ونحرت النوق والفصلان وقامت المهرجانات ولعب السيف وطراد الخيل كله لاجل الامير بيبرس اخي فكل من اطاعه فقد اطاعني ومن خالفه فقد عصاني واقاموا مدة عشرة ايام وهم بهناء وسرور وبعد ذلك استأذن الامير بيبرس من المقدم معروف في المسير فاذن له فركب وركب معه المقدم وساروا طول ذلك النهار ثم ان الامير اقسم على المقدم معروف بالرجوع فأعطاه جواب كتاب الملك الصالح وقال له انا ان شاء الله من الغد متوجه الى يافا لاجل حراسة البنت ورجع المقدم معروف الى مكانه وثاني الايام وضع وكيلا عنه وسار الى يافا مع بعض الرجال .

اما الامير بيبرس فانه بعد ان ودع المقدم معروف وسار ، قال لنفسه ان هذا الرجل صاحب عز ووقار وقد ظهر منه الكرم والاحتشام والهيبة وعلو المقام وما زال سائرا حتى وصل الى مصر وبينما الملك جالس واذ بالامير بيبرس داخل الى الديوان ويقبّل يد الملك ويدعو له قال الملك اهلا وسهلا بركن الدين ماذا فعلت من الامور قال له كل خير ببركة دعائكم يا امير المؤمنين ثم ناوله الكتاب واذ فيه بسم الله الرحمن الرحيم خطابا من خادمكم ومقبّل اياديكم المقدم معروف بن جمر قد حضر عندنا كتاب امير المؤمنين وعملنا بما فيه من الامر وها نحن خدامكم على طول الامد فلا تنسونا من الدعاء والسلام على نبي ظلله الغمام فانشرح الملك اما المقدم معروف فانه لما وصل الى يافا نزل هناك مع رجاله واقام ينتظر قدوم البنت مدة خمسة ايام واذ اقبل المركب من ظهر البحر وارخى مراسيه فنزلت منه النوتية ونصبوا الخيام ثم نزلت منه مريم بنت ملك جنوا ونزلت معها الخدم والمرافقين فلما استقرت بالجلوس وصل الخبر للمقدم معروف ان الملكة اقبلت فسار الى صيوانها فسألوه من انت قال لهم خبروا الملكة اني انا الحارس لها فخبروها بذلك فأذنت له بالدخول فلما راته نهضت على الاقدام وقد اخذتها منه هيبة ووقع حبه في قلبها فقالت له انت الحارس لي قال لها نعم قالت له مرحبا بك اجلس يا سيدي فجلس معروف فقالت له ما اسمك قال معروف فأمرت اتباعها باحضار الطعام والشراب فأحضروا ما لذ وطاب فاكلت هي واياه والوزير الذي مرافقها ثم بدا يحرسها هو ورجاله وثاني يوم أمر الرجال بالارتحال فحملوا الاموال والاثقال على ظهور الخيل والبغال وركبت مريم في تخت ومعروف ورجاله راكبين على الخيول ومحتاطين بها وبأتباعها الى ان وصلوا الى بيت المقدس فأمر

المقدم بالنزول وقال لها ها هو بيت المقدس فادخلي فنهضت مريم ودخلت القدس ومعها المقدم معروف واتباعها وصارت تتنقل من مكان الى مكان الى ان وصلت الى القيامة فزارت ووهبت ثم خرجت من القيامة ومعها حارسها المقدم واتباعها فسارت فرات مسجد الاقصى فقالت للحارس أيسمحون لي ان ادخل قال لها لا بأس بشرط ان لا يدخل اتباعك فادخل انا وانت فوافقت ودخلت مريم مع حارسها المقدم معروف وصارت تتأمل في الجامع وزارت قبة الصخرة الشريفة فانشرحت وقالت للمقدم ان نفسي زهت لرؤياي هذه القبة الشريفة وهذا المقام . وصارت تنتقل من مكان الى مكان فرات الاستاذ الامام النووي وصحبته اهل العلم وهو يقرأ عليهم والطلبة حواليه فقالت للمقدم من هذا قال لها ان هذا الشيخ عالم جليل يلقي العلم على تلاميذه قالت اني رأيت مناما أريد ان يفسره لي قال لاعرض عليه ذلك فاستأذن من الشيخ وقال يا استاذي ان هذه البنت تريد ان تفسر لها مناما فقال لها قولي ماذا رأيت فقالت رأيت نفسي في واد لا ماء فيه فعطشت فرأيت نهرا أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل وانا في شدة الظمأ فأخذت منه غرفة وشربتها فلما استقرت في جوفي برد لهيب قلبي وزالت عني حرارة الظمأ ثم خرجت من فمي ذبابة سوداء وسقطت الى التراب ثم اقبلت نحوي ذبابة بيضاء فدخلت في فمي فابتلعتها واستقرت في جوفي وازداد حبي فيها ثم تأملت في ذلك النهر فرأيت مركبا فنزلت فيها وعديت الى البر الثاني وطلعت من المركب فرأيت نفسي في واد وسيع ذي انهار واطيار واشجار فرقدت تحت شجرة عالية واذ بطير ابيض نقرني بمنقاره فخرج مني طير صغير ففرحت به واذ بطير اسود قد انقض عليه واخذه مني وطار به حتى غاب عني فجعلت ابكي عليه فانتبهت من منامي فهذا ما رأيت فقال لها الشيخ اعلمي ان الوادي هو مكانك الاقفر وقد انقذك الله منه وأما الوادي الاخضر ذو الانهار والاشجار فهو دين الاسلام وكذلك الذبابة السوداء هي الظلمة خرجت من قلبك والذبابة البيضاء التي دخلت في فؤادك هي كلمة التوحيد وهي لا اله الا الله محمد رسول الله واما السفينة فهي سفينة النجاة واما الطير الذي نزل عليك هذا رجل كبير من الاشراف يتزوج بك وتأتي منه بذرية صالحة ولكن تتربى بعيدا عنك وهذا تأويل منامك والله أعلم فان اردت السلامة فاخلصي النية لله تعالى واسلمي قالت له يا سيدي والذي يسلم ماذا يقول قال لها يقول كلمة التوحيد وهي اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمدا رسول الله فقالتها الست مريم واسلمت اسلاما صادقا ثم قبّلت يد الشيخ فدعا لها بالتوفيق والثبات

على الايمان ثم قالت للشيخ بما ان الله منّ علي بالاسلام فليس لي رجعة الى بلادي فمرادي ان اتزوج رجلا يكون لي عضدا ومؤنسا فقال لها الشيخ ومن تريدينه لك زوجا لاجري لك العقد عليه قالت لن اجد افضل من هذا الرجل واشارت الى المقدم معروف فالتفت الشيخ الى معروف وقال له هذه البنت قد طلبتك ان تكون لها زوجا فماذا انت قائل فلما سمع معروف ذلك الكلام أعلم الشيخ بقصتها وكيف ان الملك ارسله حارسا لها قال له الشيخ يا ولدي انا اكتب لك كتابها واعطيك فتوى تكون لك سلاحا لكل من عارضك فأجاب بالقبول ثم ان الشيخ قال للبنت من تريدين ان يكـــون وكيلك في العقد قالت له انت وكيلي في جميع اموري قال الاستاذ وانـــا رضيت بذلك ثم التفت الى معروف وقال له امهرها فقال امهرتها بعشرة آلاف دينار في ذمتي لحين وصولي الى دياري فقال الاستاذ وانـــا قبلت وعقد الشيخ العقد ثم ان السيدة مريم قبّلت يد الاستاذ واعطته خمسين دينارا فشكرها ثم كتب لهم الفتوى وختمها وسلمها لمعروف وامر مريم ان تلتف بالشال ولا تخرج مثل ما دخلت ففعلت ما قال الشيخ ثم اخذهـــا معروف وسار الى باب المسجد واشار الى الوزير بالسير هو والاتباع الى ان وصلوا الى الخيام وباتوا الى ثاني يوم امر المقدم بالرحيل وركبت الست مريم في الهودج وأرخت الستائر وقد فرح المقدم معروف ولم يزالـــوا سائرين الى ان اتوا الى مفرق الطريق الى يافا فقال المقدم لرجاله سيروا بنا من هنا الى قلعة صهيون فساروا كما امر قال الوزير المرافق للبنت الى اين يا سيدي من هنا طريق يافا الى البحر قال المقدم حتى تأكلـــوا ضيافتي فساروا وهم فرحين بذلك فلما وصلوا الى الحصن دارت الافراح واجتمعت الرجال والفرسان مدة عشرة ايام فلما كانت ليلة الزفاف دخل المقدم معروف على مريم ولما اصبح الصباح نزل المقدم وجلس على كرسيه واحدقت به رجاله وجعلوا يباركون له اما الوزير فتقدم اليه وصحبته اتباعه وقال يا سيدي معروف كثر الله خيرك فقد اكرمتنا فأعطنا بنت الملك ودعنا نسير بالامان قال له معروف سر من هنا الى ملك جنوا وقل له بنتك اسلمت وتزوجت بالمقدم معروف سلطان القلاع والحصون فقال الوزيـــر ودخلت عليها قال نعم دخلت عليها ليلة امس فلما سمع الوزير بذلك لطم على وجهه وقال للمقدم يا سيدي اقتلني لاني لا استطيع الرجوع الى جنوا بدونها فقال المقدم معروف نحن لا نجبرها على الذهاب او البقاء عندنـــا فاسألها عن رايها ثم امر باحضار مريم فلما حضرت سألها الوزير ورغبها في العودة الى بلادها فأبت ان ترجع عند ذلك خرجوا من عنده وساروا

الى يافا ونزلوا في مركبهم طالبين جنوا هذا ومعروف مقيم مع زوجته مريم ولم يبال بأبيها ولا بغيره اما ما كان من ملك جنوا فانه جالس واذ بالوزير والمرافقين لبنته وهم يدعون بالويل والثبور وعظائم الامور فلما رآهم قال لهم ما دهاكم ومن بشره رماكم قالوا له بنتك اسلمت وتزوجت معروف سلطان القلاع والحصون وهذا الذي جرى فلما سمع ذلك لطم على خده واشتد به الغضب ثم بعد ذلك كتب كتابا وارسله الى الملك الصالح أيوب مع اربعة اشخاص وساروا طالبين مصر فبينما الملك جالس واذ بباب الديوان داخل اربعة رجال بزي الافرنج وهم يسلموا قال الملك من اين انتم قالوا له من جنوا ومعنا كتاب من الملك فأخرجوا الكتاب واعطوه الى السلطان فبعثه الى القاضي وقال اقراه لنا فقراه علنا واذ به خطابا من ملك جنوا الى بين ايادي السلطان انا ارسلت بنتي تحت أمانة الله وامانتك وارسلت خمسة آلاف دينار للحارس الذي يحرسها فخان الحارس العهد والامانة واخذ البنت فحال حضور كتابي اليكم ترسل لي بنتي كما اخذتها مني والسلام.

فلما قرأ القاضي الكتاب قال يا مولانا السلطان هذا الملك قد جعل بنته تحت أمانة الله وأمانتك وانت بعثت بيبرس واعطيته كتابك وامانتك وسار وقد اتفق مع سلطان القلاع فأخذها وتزوج بها وقد طرد أتباعها فقد اضاعوا امانتك وزمامك ان هذا شيء لا يصح ابدا وان هذا الغلام بيبرس هو اصل هذا العمل فقال الملك ارسلوا لنا خبرا الى بيبرس يحضر لنحقق هذه الدعوى فأرسل له الوزير بالحضور فأتى على عجل وطلع الى الديوان وقبّل يد الملك ودعا له قال الملك اهلا بوالدي بيبرس أما تدري ما فعل المقدم معروف صديقك وحكى له ما جرى قال يا مولانا السلطان والله لا اعلم بشيء من ذلك ابدا قال الملك اذهب يا بيبرس هات لنا البنت وهات لنا معروف بن جمر حتى ننظر ما الخبر فأجابه بالسمع والطاعة ثم نزل الامير بيبرس فقال له عثمان ما الخبر فأخبره بالقصة واخذه معه وسار طالب الحصول فهذا ما كان واما المقدم معروف فانه في بعض الايام نزل الى ديوانه وهو منزعج فسأله مرافقه موسى القصار ما الخبر يا مقدم قال له زوجتي حصل لها مرض فلأجل هذا اصابني ما تراه من الغم قال يزول الشر يا سيدي قال له اذهب الى الشام وائتني بطبيب يكون ماهراً ويكون يدري بالحكمة قال سمعا وطاعة ثم انه سار كما أمره وعاد بطبيب فلما دخل عليه قال له يا حكيم زوجتي هذه مريضة فجس الطبيب نبضها وسألها ماذا يجري معها فأخبرته بألمها ثم قال يا مقدم اعلم ان زوجتك تغير عليها الهواء ودواؤها ان تكون في مكان منفرد معتدل الهوى وتجعلها فيه مدة ثلاثة اشهر فقال له

هل يوافقها دير الشقيف قال نعم يناسبها ذلك لكونه على جانب البحر ثم انه انعم على الطبيب فانصرف شاكرا له واما معروف فانه اقام موضعه ابن اخته عماد الدين واركب مريم واخذ معه بعض الرجال وسار طالب دير الشقيف الى ان وصل وانزلها في الدير وافرد لها من يتكفل بخدمتها فهذا ما كان منه واما ما كان من بيبرس فانه سار طالب حصن صهيون فلما وصل اليه نزل فسأل عن المقدم معروف فذكروا له انه توجه الى دير الشقيف وذلك لان زوجته حصل لها مرض وتغير عليها الهوا قال لهم لا بد ان اسير اليه وانظر ما الخبر ثم ركب ومعه عثمان وسار طالب دير الشقيف فلما وصلوا استقبلهم المقدم معروف وسلم على الامير بيبرس وعمل لهم ضيافة ولما جن الليل جعل الامير يتحدث مع المقدم معروف فقال الامير بيبرس يا اخي بالله عليك انت الذي ارغمت مريم ان تسلم أم هداها الله للاسلام ومن أمرك بالزواج بها وكيف كانت القصة فحكى للامير ما جرى بالتمام كما ذكرنا وقال هذه فتوى من شيخ الاسلام النووي فخذ راجعها حتى تقف على حقيقة الحال ثم ان الامير اخذ الفتوى وقراها فوجد فيها كل ما ذكر من الكلام فقال الامير والله يا اخي ان هذه الحجة قوية وشرعية ولكن أعلمك ان ملك جنوا ارسل الى امير المؤمنين يطلب بنته وتكلم القاضي في حقنا بما لا خير فيه وقد اتيت اليك حتى أكشف الخبر ويظهر الحق ويبطل الشك فظهر انه ما عليك في هذا الامر ملام ومن الراي اني اعود الى امير المؤمنين اعرض عليه هذا الامر ليرسل الى ملكجنوا ويعرفه بالواقع فقال له المقدم معروف ان كان الامر كذلك فأنا لا احوج امير المؤمنين الى التعب ولا أكلفك انت الاخر بما لا تطيق ومن الراي عندي ان اسير بنفسي الى ملك جنوا وآتي به الى امير المؤمنين يفعل به ما يريد والسلام فقال له الامير بيبرس لقد قلت الصواب ثم ان المقدم معروف قال له يا اخي دير بالك على المكان وعلى السكان حتى ارجع ثم ركب جواده وسار الى يافا ونزل في مركب قاصدا جنوا الى ان وصل فبينما هو على الميناء وهو يفكر ماذا يفعل واذا برجلين من بني اسماعيل يسلمان عليه فسألهما عن حالهما ووصولهما الى هذه الديار فقال يا سيدنا اتينا الى هنا بتجارة بمركب لنا وها هو واخذنا تجارة من هنا ومرادنا المسير صباح غد وانت يا سيدنا ما جاء بك الى هنا فأمرنا بخدمة تفوز بقضائها فقال لهم يا رجال ان لي حاجة في هذه البلد اتيت لقضائها فقالوا وما هي يا مقدمنا فقال لهم سيروا بنا الى المركب لاحكي لكم عنها فساروا الى المركب فلما وصلوا قال يا رجال مرادي اخذ ملك جنوا وحكى لهم قصته وما جرى له فقالوا لاي شيء تأتي

انت ونحن لك من بعض الخدام فنحن الليلة ناتي به ذليل مهـان وانت انتظرنا في المركب لا تتعب سرك وصباح غد نقلع ونسير الى الديار فقال لهم بارك الله فيكم ثم انهم صبروا حتى انتصف الليل وسار ثلاثة مـــن الرجال الى سراية الملك ونصبوا مفاردهم فصاروا داخل السرايا فصبروا حتى ما بقي احد يتجول وانقضوا على غرفة الملك فبنجوه ووضعوه في كيس وشالوه ودلوه الى خارج السرايا ونزلوا وحملوه وساروا به الى المركب فاستقبلهم المقدم معروف واثنى عليهم ثم انهم فردوا القلوع وساروا طالبين الديار حتى رأوا انهم صاروا بأمان امرهم المقدم معروف ان يخرجوا الملك فأخرجوه وصحوه فصاح اين انا قال المقدم انت بين يدي صهرك المقـدم معروف ثم قال له انت كتبت الى امير المؤمنين تذكر له اني انا خنتك في ابنتك واغويتها والحقيقة ان الله هداها للاسلام فأسلمت بدون اكراه ثم تزوجت حسب رغبتها وبموجب فتوى من شيخ الاسلام فقال الملك انـــا ارسلت الكتاب حسب ما بلغني من الاخبار قال المقدم معروف انا مرادي ارفع العتب واللوم عني واذهب بك الى امير المؤمنين بمصر وما زال المركب سائرا الى ان وصل الى الديار فخرج المقدم معروف وملك جنوا وساروا طالبين دير الشقيف فوجد المقدم ينتظره ففرح بيبرس بوصول المقـدم معروف بالسلامة ومعه الملك وثاني يوم ركب المقدم والامير وجعل الاتباع حراسا على مريم وساروا طالبين مصر وملك جنوا معهم الى ان وصلـوا فبينما السلطان جالس في الديوان واذ بالمقدم معروف داخل وصحبتـه الامير بيبرس وقد دعوا للملك بدوام العز والبقاء قال الملك اهلا وسهـلا بالمقدم معروف بن جمر سلطان القلاع والحصون ثم اجلسه بجانبه وجلس بيبرس في مكانه ولما استقر بهم الجلوس قال الملك يا مقدم معروف انت من اذن لك ان تتزوج بنت ملك جنوا وهي في أمانتي فلما سمع المقدم معروف ذلك الكلام قال خذ يا امير المؤمنين هذه الفتوى تنبئك بالحقيقة قال الملك سلموها للقاضي لانه يعرف الاحكام الشرعية فأعطوها له وقال الملك اقرأها وافتي لنا بكل ما تقدر عليه من الاحكام فقراها القاضي وقال يا امـــير المؤمنين من ابطلها ابطل الله رجاءه قال الملك والحق لمن قال القاضي الحق مع المقدم معروف وكذلك بيبرس ليس لهما ذنب في ذلك الامر ابدا وان الاسلام هداية من الله تعالى الى من اراد من عباده قال الملك ولاي شيء يكتب لي ملك جنوا ما تقدم ذكره قال القاضي يا مولانا السلطان من عدم اطلاعه على الحقيقة كتب ذلك فلما سمع الملك من القاضي ذلك الكلام قال وكيف نطلعه على الحقيقة فقال معروف يا امير المؤمنين اتيت به معي وها

هو خلف باب الديوان قال الملك قد اصبتم بما فعلتم احضروه لنرى ما يقول فعند ذلك نهض الامير بيبرس واحضر عثمان ومعه الملك وبعد ما جلس قال له السلطان انت ارسلت لي كتابا تتهم فيه معروف بالخيانة طلبت ان تتزوج سلطان القلاع والحصون وجرى الامر حسب طلبها ورغبتها فقال ملك جنوا اذا كانت هذه رغبتها فلا مانع بذلك ثم قال القاضي للسلطان ارجو ان تسمح لي بضيافة الملك عندي فسمح له بذلك فأخذه الى منزله اخر النهار وما ان استقر بالجلوس خلع القاضي ما عليه من الملابس فظهر من تحتها ملابس الرهبان ودخل على ملك جنوا فلما رآه تعجب منه وقال له من انت قال له انا جوان فقال له ولاي شيء انت عامل قاضي المسلمين قال له لاجل مساعدة اتباعنا والقضاء على اخصامنا ثم قال امض يا ولدي غدا الى بلادك وارسل لي خزنة مال حتى استعين بها فقال له ارسل معي غلامك لاستلام المال فبعثه ثم سار الى بلاده فلما وصل احضر المال وكتب كتابا الى جوان واعطاه الى غلامه وبعث رجلا مع المال لاجل حمايته وصحبته غلام جوان وساروا طالبين مصر الى ان وصلوا واستلم جوان المال واعطاه غلامه الكتاب ففضه وقراه واذ خطابا من ملك جنوا الى بين ايادي ابونا جوان اعلم انني ارسلت بنتي تزور القيامة وتعود بالسلامة فأخذها معروف وبنجني واخذني الى السلطان وما نابني الا ضياع بنتي وانت ايضا اخذت مني خزنة مال ولكن وحق ديني ان لم تبعث من يسرق بنتي وترسلها الى عندي والا ارسل الى ملك المسلمين كتابا واعلمه بحقيقة حالك واخليه يسفك دمك ويأخذ مالك فلما قرا جوان المكتوب خاف على نفسه ثم كتب كتابا وأعطاه الى غلامه وقال له خذ هذا المكتوب يا ولدي وسر الى دير الزيتون وسلمه الى نعنع اميلي وقل له اعمل بما فيه وعد لي ثم كتب كتابا وأرسله الى جنوا الى الملك وهو خطابا من جوان اعلم ايها الملك انني ارسلت أسرق لك ابنتك واعيدها اليك وسوف أدبر على بيبرس وآتي الى عندك وليس لك الا ما يسر خاطرك ولا بد من حضور ابنتك اليك وحين وصول كتابي ارسل اولاد اختك الاثنين ورجالهم العياق الى الاسكندرية يسرقوا ويقتلوا فلا بد ان تشتكي الناس الى نائب الاسكندرية وهو يرسل الى السلطان فأشير عليه بأنه ليس لها الا بيبرس وانزل انا معه بنفسي واذا وصلت الى الاسكندرية قبضت عليه وارسلته اليك ثم ختم الكتاب واعطاه الى رجل من اتباعه وقال له سر بهذا الى ملك جنوا فسار به ولم يزل سائرا الى ان وصل الى جنوا واعطى الكتاب الى الملك فقراه وفهم معناه وفرح بذلك وأنعم على السيار فانصرف الى حاله ثم انه أحضر اولاد اخته ماتون

وبراميل واعلمهم بما قال عليه جوان فجهزوا انفسهـــــم وساروا طالبين الاسكندرية ونزلوا عند اصدقاء جوان .

اما ما كان من المقدم معروف بينما هو في دير الشقيف واذ داخل عليه رجل تاجر وقدم اليه هدية قماش وغيره وقال له اكراما الى جدك ابـــي السبطين الامام علي عليه السلام ان تأخذ مني هذه الهدية فقال له المقدم معروف قبلتها ولكن لاي شيء تقدم لي هذه الهدية قال التاجر اريد ان ادخل بزمامك وعاريتك وتعطيني ورقة من يدك حتى لا يتعدى علي احد وانا الان انزلت احمالي جانب الدير فقال له المقدم حبا وكرامة وكتب له ورقة وختمها واعطاه اياها بأن لا احد يتعرض لحامل كتابي هذا ومـــن يتعرض له لا يلوم الا نفسه والحذر ثم الحذر والسلام فأخذ الورقة من المقدم وشكره وعند الصباح حمل احماله ورحل فلما بعـــد قدر ساعتين بعث الاحمال والبغال مع رجاله الى دير الزيتون فساروا وبعد مسيرهم ضرب راسه بحجر ومزق ثيابه وعفر حاله ورجع الى دير الشقيف وهو ينعـــي بالويل والثبور وعظائم الامور الى ان وصل الى المقدم معروف فقال لـــه المقدم ما دهاك ومن بشره رماك قال يا حضرة المقدم بينما انا سائر مـــع تجارتي واذ طلعت علينا خيل واحتاطوا بالقافلة واشهروا علينا السلاح وضربوا بعض رجالي فتقدمت اليهم وقلت لهم انا ماشي بزمام ورعاية المقدم معروف بن جمر ، وهذه ورقة معي من يده بأن لا احد يتعرض لي قالوا لي اننا لا نعرف معروف ولا غيره ثم انهم اخذوا متجري ومتاعي وقتلوا اتباعي وذهبوا طالبين الفلوات ثم اني بعد ذلك سألت عنهم فقيل لي هؤلاء من بني اسماعيل العاصين على المقدم معروف فقال المقدم بأي جهة جرى لك ذلك فذكر له جهة على بعد عشرين ميلا فقال له المقدم ابق انت هنا ثم ركب وركبت رجاله معه وابقى في الدير رجلين لحراسة زوجته وسار الى الجهة التي ذكرها التاجر اميلي وفي اثناء جلوس اميلي مع حراس زوجة المقدم معروف صار يتأسف على متجره ويضع في فمه ملبسا فقال له احدهم ما هذا الذي تأكله فقال لهم ما هو من قدركم وناول لكل واحد كمشة ملبس واذ به جاعل جيبته قسمين قسم واضع به ملبس فيه مخدر وقسم كان يأكل منه خالي من المخدر فبعد ان اكلا منه بنصف ساعة داخا ووقعا على الارض مثل القتلى لا يعيا على شيء فلما رآهما هكذا انقض على مريم زوجة المقدم وبنجها وحملها وسار بها الى ان اقبل الى يافا ودخل على ملكها فسلم عليه فقال له من اين والى اين قال له أمرني جوان بسرقة مريم بنت ملك جنوا فسرقتها من عند زوجها المقدم معروف وها هي معي

قال له وما الذي تريد ان تصنع بها قال اريد ان اسير بها الى ابيها قال له خذها وانزل بها حالا الى البحر لانني لا اقدر ان احميك من معروف بن جمر فنزل بها الى البحر وسار طالبا جنوا وهذا ما كان .

واما معروف فانه وصل الى الجهة التي ذكرها التاجر وسأل عن هذا الامر فقالوا يا مقدم لا احد يتعرض عندنا لاحد قال هل سمعتم او رايتم رجالا اخذوا قافلة ومتجرا من هنا قالوا يا سيدنا ما سمعنا ولا راينا ابدا ولو على بعد يومين والذي بلغك بهذا غلطان او غشاش. فرجع المقدم هو ورجاله الى الدير فوجد الرجلين مغشيا عليهما فتفقد زوجته مريم فلم يجدها ثم ان معروف صار ينعي مريم وهو يبكي وعلم ايضا انها حامل منه فزاد لذلك وجده وتلهب فؤاده وتحسر ثم انه جمع الرجال وقال لهم قد جرى من الامر ما هو كذا وهو قضاء من رب السماء ولا بد ان اسير في البلاد وأدور على زوجتي مريم واقتل الذي كان السبب فانتبهوا لاعمالكم حتى اعود الى الاوطان فأجابوه بالسمع والطاعة وركب جواده وسار الى ان وصل الى يافا ودخل على ملكها وسأله عن مريم فقال له نعم اتى بها رجل الى هنا وسار بها الى ابيها ملك جنوا فتركه وقصد جهة البحر فراى مركبا قاصدا جنوا فركب به وسار اما اميلي بعدما وصل بزوجة معروف الى يافا ركب في مركب هو ومريم وسار الى جنوا اما مريم فانها فاقت من غشيتها ورات نفسها في مركب وسط البحر قالت من جاء بي الى هنا قال انا قالت ومن تكون انت قال انا نعنع اميلي قالت له ولاي شيء فعلت ذلك قال لها لان اباك ارسل يطلبك من جوان فجئت بك اليه فلما رات ذلك الحال وما حل بها من الذل وما قد اصابها بعد العز بكت وسلمت امرها لربها وباتت تطلب الفرج من الله واذ بالبحر هاج وماج وعصفت الرياح كما يريد الملك الفتاح فانكسر الصاري ودامت هذه العاصفة مدة ثلاثة ايام والقبطان لم يقدر يسير المركب ثم بعدها راق البحر فتوجه القبطان الى جزيرة تسمى العرانيس وفيها دير خراب وبها اخشاب واحراش ليقطعوا لهم صاريــا للمركب فخرجوا من المركب لاجل ذلك اما مريم فانها دب بها الطلق وزاد بها الوجع فقالت لسارقها اريد ان اقضي حاجة قال لها سيري واقضي حاجتك لانه يعلم ان ليس لها سبيل للهرب فسارت بعيدا ودخلت هـذا الدير فرات حوضا فنزلت فيه وقد اشتد عليها الطلق فوضعت غلامــا ذكرا كانه البدر فلما وضعته لم تدري ما تصنع وخافت على ولدها فمدت له ثوبها في ذلك الحوض ووضعته عليه وقبّلته وقالت اودعتك عند الملك الديان الذي لا يخيب من قصده لان يا ولدي هنا آمن عليك لانــي اذا

اخذتك معي يرمونك في البحر ثم انها جعلت تودعه ثم تركته في ذلك المكان وهي تقول أقسمت عليكم يا خدام هذا المكان بالله العظيم وبحق جميع الانبياء والمرسلين انكم تحرسوا هذا الغلام من كل الانام ولا تسلموه لاحد من الناس الا لمن يحلف لكم بالاقسام انه يأخذه ويوصله الى امه وابيه وهذه وديعتي عندكم فاحفظوها ثم انصرفت بعد ذلك الى المركب فاظهرت الجلد واخفت الكمد ونزلت الى المركب وساروا ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا الى جنوا فأخذها اميلي وطلع بها الى ابيها الملك وقال له هذه ابنتك قد اتيت بها فتقدم الى ابنته ونظر اليها نظرة قاسية وقال لها أصحيح انك خرجت عن دينك وتزوجت مسلما الويل لك مني يا فاجرة سوف تلقين جزاء اعمالك ثم اخذها وهي تبكي الى السرايا حتى تراها امها ولما دخلت على امها وجدتها حزينة باكية لا يهدأ لها حال حزنا على ابنتها فأشفقت عليها ودخلت غرفتها وصارت تبكي على ابنتها ليلا ونهارا .

قال الراوي : اما ما كان من المقدم معروف فانه قصد جنوا الى ان وصل وطلع الى الديوان وسلم على الملك فسلم عليه ثم سأله عن مريم قال له هي عندي يا سيدي فاطمأن معروف وجعل الملك يحدثه بما كان من امرها وقصتها وذكر له انها ملازمة للاحزان فقال دلني على مكانها فبعث معه خادما دله عليها فقال يا مريم قالت من انت قال انا معروف فقالت مريم انت يا معروف سائر تدور عليّ وتارك ولدك فأنا لا ابرح من هذا المكان حتى يأتي الي ولدي والا تكون هنا مقبرتي ثم بكت حتى ابكت معروف ثم قال لها واين وضعتيه فقالت له بجزيرة العرانيس قال لها وما سميتيه قالت له عرنوس نسبة لهذه الجزيرة فقال لها والاسم الاعظم ما بقيت آتي اليك الا وولدك بصحبتي ثم تركها وسار الى الجزيرة ودخل ذلك الدير فلم يجد ولده وكان السبب في فقد عرنوس ان كنيار ملك القطلان كان في مركبه بالبحر فاختلفت عليه الرياح فطلع برجاله الى جزيرة العرانيس الى ان يهدا البحر وصار يتجول في هذه الجزيرة الى ان دخل الدير الخراب واذ به يسمع بكاء طفل صغير فتعجب واقبل على الصوت فرأى طفلا عاري الجسد فمد يده ليأخذه فما شعر الا وكف القاه الى الارض فنهض وقال يا اهل هذا المكان اعلموا اني انا ابو هذا الغلام واريد ان أوصله الى امه لترضعه ثم مد يده فلم يعارضه احد فأخذه وسار الى ان وصل الى جماعته فركبوا وساروا في البحر واذ بمركب حجاج قاصدين البيت الحرام فتعرض كنيار ورجاله للمركب واخذه فجعل اهل المركب يستغيثون فقال لهم كنيار ان كان معكم امراة ترضع هذا الغلام اخذتها وتركتكم تسيرون بسلام وبالامر

المقدر كان فيهم امراة ترضع ومات ولدها فنهضت تلك المراة وقالت انا افديكم ولكن ان وصلتم الى زين الاحباب فاقراوه عني السلام ثم تقدمت الى كنيار وقالت له انا ارضعه لك فلما راى كنيار المراة ارضعت الغلام ترك الركاب يمضون حيث شاءوا واخذ المراة والغلام ووضعهما في مركبه وسار لبلاده ولما وصل اخلى لتلك المراة مكانا ورتب لها كل ما تحتاج اليه وسمى الغلام الديابرو ولقبه بعرنوس نسبة للجزيرة وظلت هذه المراة ترضعه وتربيه عامين ثم انها فطمته وفي احدى الليالي كانت نازلة على الدرج فوقعت من اعلى الدرج فقضت نحبها وفارقت الحياة فجاء الخدام صباحا فوجدوها ميتة فأخذوا الغلام وطلعوا الى كنيار واعلموه فتأسف واخذ الغلام في حضنه وجعل يلاعبه فرفع الطفل يده فصابت عين كنيار فصرخ من الالم فجاؤوا له بمن يداوي له عينه فقالوا له عينك ما لها خواص فلما سمع ذلك قال ائتوني بالغلام فجاءوا به اليه فأراد ان يقتله فقال له احد وزرائه ان هذا الطفل لا يؤاخذ لانه لا يعرف الضار من النافع فقدم له التمر والجمر فان هو عرف أيهما احسن فهو يعرف فان اخذ التمر فاقتله وان اخذ الجمر فما عليه ملام فقال له لقد قلت الصواب ثم انه قدم له التمر والجمر فمد يده الى الجمر واراد ان يأخذه فمنعه من ذلك وقال لا يلزمه شيء ثم كفل الغلام الى احد اتباعه ليربيه ويعتني به ويعلمه ما يلزمه واخلى لـه وللغلام مكانا ووضع لهما كل ما يحتاجان اليه فصار هذا يربيه ويلاطفه وكل يوم يأخذه الى ظاهر البلد فنشأ الطفل وصار يمشي ويلعب وصار آية في الجمال الى يوم كان يلعب ومعه مربيه خارج البلد واذ بمعروف سائر في الطريق فرأى الغلام فخفق قلبه وحن اليه فتقدم الى مربيه وسلم عليه وصار يتحدث معه وقال له هذا الغلام ابنك قال لا هذا ابن الملك كنيار وانا المربي له فأكد معروف بالغلام فرآه كثير الشبه به وله شامة على خده قدر العدسة وكان لمعروف مثلها فتعجب معروف وقال في سره هذا ولـــدي وليس هو ابن كنيار ثم قال لمربيه يا اخي انت كل يوم تأتي الى هنا قال نعم لاجل ان يلعب الغلام ويتنشط فصار معروف كل يوم يأتي الى هذا المكان ويأتي للغلام بأشياء تحلو للاطفال فصار عرنوس يستأنس بمعروف ويلقـي نفسه بين ذراعيه مدة عشرة ايام وكان معروف يظهر الجلد ويخفي الكمد ومراده يأخذ الغلام ويرحل بسلام ولكن كان ينتظـــر الفرص لان الارض جزيرة وليس منها مفر الا بركوب البحر فلما راى مربي الغلام هيام معروف بالغلام رابه امره وحكى الى كنيار بذلك الشأن فقال له كنيار اذا جاءك اليوم ضيفه عندك خذ هذه الصرة وضع منها في الطعام الذي يأكل منه وعندما

يأخذ عليه المخدر تأتي الى عندي وتخبرني قال سمعا وطاعة فجاء معروف مثل عادته ولا يعلم بما دبر له وصار يلاعب الغلام ويقول له انت شريف من ظهر شريف انت ابني ونور عيني وكان هذا دابه كل يوم فالتفت اليه مربي الطفل وقال أريد ان اضيفك عندي فهل تتكرم عليَّ بقبول دعوتي فقـال معروف على الراس ثم العين لان معروف كان يرغب بمعرفة مكان الغلام فذهب معه واذ به يقدم لمعروف المآكل المخدرة فأكل مما قدمه اليه فمـا استقر في جوفه الاكل الا ووقع الى الارض لا يعي على شيء فذهب المربي واخبر كنيار بما جرى فأتى بالحال فراى معروفا فاقد الحس والادراك فتفقد سلاحه فراى مكتوبا عليه المقدم معروف سلطان القلاع والحصون فاندهش وصار يثني على مربي الغلام ثم اتى بقيود واغلال وقيده من رجليه ويديه بجنزير من الحديد وسار به الى سجن مبني من الرصاص والبحر يحيط به من ثلاث جهات وله طاقة بالعالي وشباك له قضبان حديـــد بالعرض والطول وهو على علو راس الانسان وله باب من الحديد المصفح من داخل سراية كنيار وجعل له مقعدا من الخشب وعليه لباد وحـــرام ومخدة من القش وجعل له داخل السجن محلا لاجل زيح الضرورة وعلق سيفه ودرعه بالعالي في السجن ذاته ثم صحاه واغلق الباب وقفله ووقف على الشباك فتفقد معروف نفسه فاذا هو على هذا الحال فقال اين انا قال كنيار انت عندي اما انت معروف بن جمر الذي يقولون لك سلطان القلاع والحصون انت الذي تريد ان تأخذ ولدي وتهرب به ولكن هنا قبرك حتى تلقى وجه ربك فقال له معروف وقد رأى نفسه مسجونا يا كنيار اعمـــل معروف واطلق سبيلي فأكون عدوا لاعدائك وصديقا لاصدقائك وقال عمري ما قلتها لاحد قبلك وأنا في وجهك يا كنيار فقال كنيار هيهات هيهات فقال معروف وانا ان أحسن ربي خلاصي ونجاني مما انا فيه لانتقم منكم انتقاما فظيعا واجعل من دمائكم بحرا فقال له لما تنجو من الموت افعل ما تريد ثم تركه وصعد على الدرج ووكل له جارية تأتي اليه بالطعام وعرفها كيف تعمـــل .

اما معروف فانه اظلمت عليه الدنيا ودوى عليه البحر قال اين الاصحاب اين الاهل والاحباب اين الذين كانوا يقولون نحن لك ولو جار الزمان اين عيناك يا عماد الدين يا ابن الاخت ثم قال رب ادركني بفرجك القريب فهذا ما كان من امره نرجع بالنص الى الملك الصالح أيوب بينما هو جالس بعد ان تكامل الديوان واذ بنجاب داخل وهو يقول سبحان هادي الطير فقال الملك وساتر العيب وراحم الشيب من اين قال يا مولاي من الاسكندرية فأخذ

الملك الكتاب وقال خذ يا قاضي الديوان اقرا لنا فأخذه القاضي وقراه واذ فيه خطابا من نائب الاسكندرية الى بين ايادي امير المؤمنين الذي نعلمكم به انه قد ظهرت عندنا سرقات كثيرة فتعقبنا الامر بذلك وعجزنا ان نقبض على الفاعل واصحاب الاموال المسروقة يلحون علينا في القبض علـــى المجرمين وارجاع أموالهم اليهم لذلك ارسلت اليك يا امير المؤمنين ان تدركنا بمن يساعدنا على قبض الغريم والسلام على نبي ظلله الغمام وكان سبب ذلك ماتون وبراميل اللذين ارسلهما ملك جنوا الى الاسكندريـــة بمشورة جوان قال الملك يا قاضي ومن الذي يكشف لنا هذه الغمة قال القاضي ولدكم بيبرس ليس لنا غيره وانا اكون معينا له فألبسوا بيبرس نائب الاسكندرية ثم ساروا الى الاسكندرية فاستقبلهم نائبها وطلع الامير بيبرس ورجاله وعثمان الى الديوان اما القاضي فانه من أول وصوله الى الاسكندرية ما ظهر له خبر اما الامير بيبرس فصبر الى الليل بعد ان نامت العيون ونزل وهو متنكر واذ برجل ماش ومسرع لكنه غريب الشكل فقال في سره ان صدقني حزري هذا هو الغريم فتعقبه فصار الشخص يتلفت على الامير فزاد يقين الامير انه هو الغريم وله رفقاء فتبعه الى ان دخل في حارة وعبر من بوابة فلحقه الامير الى ان انتهى الى مكانواسع والامير وراءه فراى جوان جالسا وغلامه البرتقش الى جانبه وحوله اربعون عايقا فلما راى الامير ذلك قال هذا هو القاضي لا محالة ليتني طاوعت عثمان فلا شك انه من اصحاب الكرامات فكم مرة حدثني بأن القاضي جوان وانا لم أصدقه في ذلك وقد تقدم العايق الى جوان وقال له لقد تبعني شخص من رجال بيبرس او هو نفسه لم أدر وهو خلف الباب يشاهدنا ويسمع ما تقول فأسر جوان في اذنه اذهب انت ورجل اخر ومع كلّ واحد حجر وقفوا فوق الباب وانا أشجعه على الدخول فحين دخوله ارموه بالحجارة فعملوا مثل ما أشار به جوان فصاح جوان بصوت عال لا يختبىء وراء الحيطان الا الجبـــــان فانحمق الامير بيبرس ودخل عليهم بقلب اقوى من الصخر واراد ان يضربهم بالحسام واذ بحجر جاءه على راسه وحجر اخر على ظهره فوقع على الارض فارتموا عليه وبنجوه ووضعوه في صندوق واغلقوه عليه وقال لهم جوان خذوا هذه الصناديق الى البحر واكون انا بزي القاضي واجلس على هذا الصندوق وانتم في زي التجار فاذا رآني امير البحر لم يتعرض لي بشيء اما انتم فامضوا بكل ما معكم الى جنوا فقالوا سمعا وطاعة ثم انه لبس ملابس القاضي وسار مع الصناديق الى ان وضعت على المينـــاء وجلس القاضي على الصندوق الذي فيه بيبرس فأتى امير البحر فراى القاضـــي

فسلم عليه واحترمه فقال له القاضي اسمح لهم بانزال هذه الصناديق يا ولدي لانهم تجار محترمين وانا اعرفهم فلا تكلف نفسك بفتحها وتفتيشها فقال له امير البحر كما تريد يا سيدي وسمح لهم بالنزول بدون ان يفتشهم ومعهم الصندوق الذي فيه الامير بيبرس ومن ساعتهم اقلعوا وساروا في البحر الى جنوا اما جوان فانه اختفى هو وغلامه وما عاد بان .

قال الراوي : اما عثمان فانه سأل عن الامير بيبرس فقالوا له خرج بالليل وما نعلم الى اين ذهب فما عرف عثمان اين يفتش عنه فخرج هائما على وجهه حتى اقبل على ميناء البحر فسأل امير البحر عن الامير بيبرس فقال ما رايته ابدا ولكن جاء القاضي الى هنا وتكفل تجارا معهم صناديق وقال لي انه يعرفهم وأرسل معهم صندوقا كبيرا لا اعلم ما به فقال لـــه عثمان يا مغفل لاي شيء ما كشفت على الصناديق وبالاخص الصندوق الكبير وان صدقني حزري يكون الامير بيبرس موجودا فيه وما هـــذه الصناديق التي انزلوها الا أموال الناس والتجار بالاسكندرية يا مغفل يا قصير النظر والله حرام عليك ان تقوم بهذا العمل والى اين كان اتجاههم قال اظنهم توجهوا الى جنوا فضرب عثمان كفا على كف ثم قال في نفسه لم يكن سبب ذلك الا الملك الصالح ثم انه ترك الاسكندرية وسار الى مصر فبينما الملك الصالح جالسا في الديوان واذ بعثمان طالع فقال الملك اهلا بعثمـان فقال لا سلام ولا كلام انا ما اطلب سيدي بيبرس الا منك قال الملك وأين هو يا عثمان قال له انت قد ارسلته الى الاسكندرية والقاضي ظهر امره وهو اكبر مساعد على سرقة اموال الناس وحكى للملك قصة الصناديق وكيف انزلهم ومعهم صندوق كبير وقال ان به سيدي بيبرس وبعدها اختفـــى القاضي المزيف وما عاد له اثر لانه ظهر عليه فكم مرة حذرتكم منه يـــا مولاي فلا تعتبروا كلامي فقال الملك لا يعلم بالغيب الا الله يا عثمان ثم ان الملك قال يا وزير شاهين اكتب كتابا الى ملك جنوا ان يرسل لنا الامـــير بيبرس قال امرك يا مولاي اما العياق ماتون وبراميل ورجالهما بعدما توسط لهم القاضي جوان بأن لا يكشف امير البحر على الصناديق نزلوا في البحر طالبين جنوا وبعد ان بعدوا عن الاسكندرية وصاروا بأمان اخرجوا الامير بيبرس من الصندوق فأنعشوه وصحوه اما جوان وغلامه البرتقش بعدما ساروا انزوى جوان الى مكان في الميناء ونزع عنه زي القضاة وتزيا بتجار الافرنج ونزل في مركب قاصدا جنوا هو وغلامه الى ان وصل وقصد ديوان الملك وجد العياق سابقينه ولما استقر به الجلوس قال جوان هاتوا بيبرس فأتوا به الى بين يديه فأمر ان يرموه في نطعة الدم فرموه وهو مكبل بالقيود

والاغلال وقال لبيبرس الان قد بلغت مرادي منك وقد وقف السياف عند راسه منتظر الاشارة واذ نهض وزير وقال للملك امهل هذا الشاب لا تقتله الان بل اسجنه لنرى ما تأتي به الايام لان هذا مـن ورائه ملك المسلمين والفداوية وانا انصحك ان لا تستعجل بقتله قال جوان وانت كل هـذا خايف من ملك المسلمين قال له الوزير انا خايف على تجارنا واموالهـم لان مراكبنا دائما ذاهبة الى الاسكندرية وعائدة منها فأخاف ان ينتقموا منهم ونحن اذا قتلنا هذا نكون قد جلبنا الى غيرنا الاذى والضرر وثانيا لاي شيء تقتل هذا هل قتل لك ولدا او اخذ لك اموالا فقال الملك انـا ليس لي عنده ثأر ولكن هذا راي جوان قال له الوزير ان جوان يقتلـه ويذهب الى حال سبيله ونحن نقع بالمصيبة والضرر قال الملك رأيك هو الصواب فأمر بأخذ بيبرس الى السجن وان يتلطفوا به ويخففوا عنه القيود هذا ما كان من هؤلاء وأما الوزير شاهين بعدما أمره السلطان ان يكتب الكتاب فكتبه واعطاه الى الملك ليراجعه ويختـم عليه واذ فيه خطابا من امير المؤمنين وخادم الحرمين الى ملك جنوا ايها الملك ما هذه المهازل التي تقومون بها ان الملوك تركب بجيوش وتغزو وليست ترسل عياقا ولصوصا لاذى الغافلين والضعفاء والان اقسم بمسير الاكوان أن لم ترسل ولدي الامير بيبرس معززا مكرما وترسل معه أموال الناس والتجار بالاسكندرية وترسل خزنتين من المال الواحدة لولدي بيبرس والثانية للذيـن تضرروا بهذه الاحوال والا صادرت اموال تجاركم وذبحتهم ذبح النعاج واسير اليك بجيوش لا قبل لك بها واخرب ديارك فالحذر ثم الحذر من الاهمال لانـك سترى ما لا يسرك والسلام ثم ان الملك بعدما قراه وافق عليه وختمه واعطاه الى السيار وأمره بالسرعة برد الجواب اما جوان عندما امر الملك بوضـع بيبرس في السجن رحل وهو مقهور اما ملك جنوا فيوم جالس واذ بنجاب حامل كتاب فأعطاه اياه ففضه وقرأه واذ به صار يرتجف كالبردان واصفر لونه فقالوا له ما دهاك يا ملك فأعطاهم الكتاب فقراوه ووجدوا فيه ما لا يسر فقال الوزير الذي نصحه هذا الذي كنت حاسبه فلو كنت قتلته كنا ندمنا ولا نفعنا جوان ولا غيره والان اسرع وابعث الى السلطان بما طلب قبل فوات الاوان فحالا ارسل الى السجان باخراج بيبرس من السجن ونزع الاغلال منه واقبلوا به الى الملك فاستقبله واكرمه واعتذر له وامر باحضار اموال الناس بالاسكندرية وخزنتين من الاموال صحبة الامير بيبرس واعتذر له عن الاعمال التي اقترفها جوان اما الامير بيبرس فانه ركب احد المراكب الى الاسكندرية وصحبته اموال وأسلاب الناس والتجار وخزنتان مـن

الاموال والنجاب الذي جاء بكتاب امير المؤمنين ولما وصل ارسل الى التجار والى كل من فقد له شيء من مال وغيره يأتي ياخذه من الديوان الى ان ما بقي لاحد شيء مفقود وثاني يوم ركب الى مصر وعند وصوله توجه الى الديوان فاستقبله الملك وقبّل بيبرس يده ودعى له بالنصر وسلم على الوزير شاهين وباقي الوزراء والامراء وقال بهمتكم يا مولاي ارجعت اموال الناس بالاسكندرية واعطيتها لاصحابها وها هما الخزنتان ارسلهما ملك جنوا كما امرتم فقال له الملك بارك الله فيك خذ يا ولدي لك خزنة والاخرى فرقها على المتضررين بهذه الاحوال بالاسكندرية وخذ هذا الامر السلطاني برجوع نائب الاسكندرية الى منصبه وعد الي حالا فثاني يوم سار الى الاسكندرية وسأل عن الذين تضرروا وعوض عليهم اضرارهم واعطى الامر السلطاني الى نائب الاسكندرية ورجع بالحال فأخبروه ان الملك الصالح مريض فعاد مع الوزير شاهين واحضرا له طبيبا فجس نبضه وقال يا امير المؤمنين انك بخير من رب العالمين ولكن يوافقك مكان يكون معتدل الرياح تقيم فيه شهرا من الزمان تبرأ باذن الله قال الملك واين يوجد ذلك المكان قال له بأرض المنصورة يا مولاي قال الملك توكلت على الله ثم ركب الملك والوزير بالمركب المعد للسلطان حتى اتوا الى المنصورة والحكيم معه وقد اصطنع له فيها مصطبة قريبة من البحر وحوله الاشجار والازهار فأقام بها شهرا فبريء باذن الله ثم ان الملك امر بالرحيل فنزلوا في المركب وعادوا الى مصر ونجاه الله مما اعتراه ولما اتى الى مصر زار الامام الشافعي وزار الصالحين وعاد الى مكانه ومكث قليلا من الايام ثم عاد اليه المرض الذي كان اعتراه وزاد به الحال فقال اين ولدي بيبرس فأتى اليه وقال له الملك يا ولدي اريد ان تبني لي جامعا ومقاما فنـــزل بيبرس واحضر المعلمين والمهندسين وشرعوا في المقام والمسجد فلما تم البناء أعلم السلطان باتمامه فقال الملك لازم نصلي الجمعة في مسجد سيدنا الحسين وننزل نتفرج على المسجد والمقام فلما كان يوم الجمعة ركب الصالح ايوب وهو مريض وصلى ثم سار الى المسجد والمقام فأعجبه البناء ورجع الى تخته واراد الجلوس فلم يمكنه ذلك لشدة المرض ثم انه قام وسندوه من تحت ابطه الى ان وصل الى مضجعه ولما كان في بعض الايام والملك في فراشه قال انا لله وانا اليه راجعون ديروني على القبلة فاداروه وقال اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمدا رسول الله وفارقت روحه الدنيا رحمة الله عليه فعند ذلك حضر كافة ارباب الدولة وشاع الامر في سائر البلدان بأن الملك الصالح توفاه الله فهرعت العالم واذنوا في المنارات ثم جهزوه وقراوا عليه ما تيسر من

القرآن الكريم وحملوه على الاعناق وهو اخف من ريش النعام حتى اتوا به الى مقام سيدنا الحسين فصلوا عليه وواروه في مقبرته التي بناها فسبحان الحي الذي لا يموت وبعد مرور اربعين يوما على وفاته جمع الوزير شاهين ارباب الدولة والوزراء وقال ما رايكم ومن تريدون ان يجلس على كرسي السلطنة فطمع بعض الوزراء والامراء وصار كل واحد يريدها لنفسه فقالت الاكراد وابناء عم السلطان لا ملك يكون الا من نسل الملك وان السلطان الراحل له ولد في بلدة تكريت يقال له عيسى طوران شاه فقال الوزير لنرسل اليه مكتوبا ثم انه سطر له كتابا وختمه وارسله مع رجل من الاكراد الايوبية وصحبته عشرة فوارس فلم يزالوا سائرين الى ان وصلوا الى ديار عيسى طوران شاه فدخلوا عليه فاذا هو جالس تحت شجرة وبين يديه الكأس والخمر فقال بعضهم انظروا ما يفعل هذا وابوه الملك الصالح ما كان يأكل الزفر الا يوم العيد وهذا يشرب الخمر فتقدموا اليه وسلموا عليه فرد السلام وناولوه الكتاب واذ فيه خطابا من الوزير شاهين الى بين أيادي عيسى طوران شاه اعلم ان الدنيا لا تدوم لاحد من الناس وان اباك قد انتقل منذ شهرين الى رحمة الله وقد تقرر الحال على انك تكون ملكا علينا وها نحن ارسلنا اليك لتحضر وتجلس على تخت والدك والسلام .
فلما قرا الكتاب اغرورقت عيناه بالدموع واراق الخمر الذي بين يديه على الارض ثم امر لهم بضيافته وثاني يوم تجهز للرحيل الى مصر واخذ معه بعض الرجال وحامل الكتاب ورجاله وتوجه الى مصر هذا ما كان منه واما ما كان من الوزراء والامراء فانهم ركبوا لاستقبال الملك عيسى طوران شاه فاجتمعوا به في دمشق الشام ثم اقيمت الافراح والعزائم مدة سبعة ايام وبايعه الوزراء وامراء الجيوش وارباب الدولة على ان يكون ملكا عليهم وان يطيعوه ثم ارتحلوا الى مصر ودخلوها في نهار يعد من الاعمار الى ان وصل الى قلعة الجبل وجلس على تخت السلطنة فبايعه الخاص والعام ولقب بالمعظم وثاني يوم ترتب الموكب وركب امير المؤمنين عيسى المعظم في موكب عظيم حتى اتى الى مقام الحسين وصلى وزار وفرق واوهب ثم سار الى مقام والده الملك الصالح ومسك التابوت وقرا الفاتحة ودعا لابيه ثم اخذته سنة من النوم فراى الملك الصالح في نومه وقال له تسلطنت يا عيسى قم قاتل على خيرة الله فقام وهو يبكي وسار الى الديوان وجلس يتعاطى الاحكام فقال الوزير مرادنا نزوج السلطان فخطبوا له بنتا من ابناء عمه وزوجوه من غير مهرجان فبارك له الجميع فقال له الامير بيبرس سرا سمعت انك تشرب الخمر وهذا شيء حرام فقال له انا تبت ولم اعد اشرب ابدا

فاشهد علي بذلك والله خير الشاهدين وفي يوم من الايام بينما الملك جالس في الديوان واذ بنجاب يدخل ويسلم فقال له الملك من اين قال من دمياط يا مولاي قال الملك اعط الكتاب الى الوزير شاهين يقراه فأخذه وقراه واذ به خطاب من نائب دمياط الى بين ايادي امير المؤمنين بينما نحن مقيمون يوم تاريخه واذ اظلم الجو وبان لنا عن عسكر جرار مقبل من ناحية البحر فأرسلنا نكشف الخبر فاذا احد ملوك الافرنج خرج من البحر وصحبته جوان وجيوش كالجراد المنتشر ادركنا يا امير المؤمنين قبل ان يحل بنا ريب المنون ربنا يؤيدك بنصره والسلام على صاحب المعجزات قال الملك ما ترى يا وزير الزمان فقال له الوزير ارسل بالحال الجيوش لتقف في وجههم واعلن الجهاد في سبيل الله فقال من يكون قائد الجيش قال له الوزير ابعث الامير بيبرس الان بالجيش وبعده تخرج انت بجيوش المسلمين والله يعطي النصر لمن يشاء ثم ان الملك البس بيبرس قائدا للجيش وسيره لملاقاة الاعداء واعلن الجهاد الاكبر وخرج على اثره مع ارباب الدولة وأبطال ورجال الاسلام اما سبب مجيء هذه الجيوش وغزوهم بلاد الاسلام فهو جوان لما خرج من عند ملك جنوا قال له غلامه سيف الروم الى اين تريد قال له أريد ان اتوجه الى ملوك الافرنج لعلي اغريهم بغزو بلاد المسلمين ثم سار الى ان وصل الى لويس السابع ملك الافرنج وكان كثير الجنود ويحكم على ثلاثة اقاليم فلما دخل عليه جوان استقبله وحياه ثم أجلسه في أعز مكان فصار جوان يرغبه بالغزو والجهاد ويغريه الى ان طاوعه فأمر بتجهيز الجيوش وجمع العساكر من كل مكان وساروا بالبحر وخرجوا الى اراضي مصر وزحفوا الى ان وصلوا الى المنصورة فالتقاهم الامير بيبرس بجيش المسلمين وقد غر لويس الطمع بامتلاك البلاد فقسم جيشه الى قسمين الاول حاصر دمياط والثاني توجه الى المنصورة اما بيبرس امر الفلاحين واهل البلاد نايحولوا ماء بحر النيل لجهة جيش اللئام الموجه الى المنصورة فلما حولوا المياه غرقت خيولهم بالماء والوحول وغرق منهم ناس كثير في مياه النيل فانقضت عليهم جيوش المسلمين واهل البلاد وقتلوا منهم مقتلة عظيمة والذي بقي منهم أسروه ومن جملتهم الملك لويس ووضعوهم في سجن المنصورة ثم توجهوا الى دمياط واذ بالملك المعظم اتى بجيوش المسلمين الى دمياط فانضم جيش بيبرس المنتصر الى جيش الملك المعظم ثم نصبوا الخيام مقابل جيش الاعداء وباتوا يتحارسون الى الصباح فقال الملك ابرزوا اليهم يا عصبة النبي المختار فنزل الامير بيبرس وبرزت اليه اللئام وهو يتلقاهم بحد الحسام ولم يزل على ذلك الحال الى اخر النهار

ثم بات الفريقان الى ثاني الايام نزل الامير بيبرس بعزم واهتمام وصار يقتل ويأسر حتى جاء وقت الظهر فقال جوان ما هذا التواني والكسل ابرزوا اليه باجمعكم فساروا اليه فتلقاهم بقلب اقوى من الصخر وكان الوزير شاهين امر بالهجوم وطلع الملك المعظم الى المنظرة وجعل يتفرج على الحرب فجاء على باله ان يتناول كاسا من الخمر فقال لخادمه اسقني فتقدم اليه يناوله الكأس فسطع الكأس ولمع في الشمس فلمحه الامير بيبرس فأتى اليـه وسيفه مشهور وهو يقول له يا امير المؤمنين لا تشرب المنكر بل اطلب الفرج من الله تعالى والنصر على الاعداء فقال معاذ الله يا بيبرس ان اشرب واراد ان يرد الكأس الى خادمه فسقط من المنظرة الى الارض على ام راسه ومات بالحال فحملوه الى الصيوان وعاد الامير الى المعمعة وصار ينخي الرجال فكرت معه الشجعان وحملوا حملة صادقة فما كانت الا ساعة حتى ولت اللئام وركنوا الى الفرار وتبعتهم الابرار وصارت تقتل منهم وتأسر الى ان ولى النهار وهرب جوان وغلامه البرتقش ولم يبق من جيوشهم احد .

اما الامير بيبرس فقد اتهمه اعداؤه بقتل الملك طوران شاه فقال الوزير شاهين هاتوا بينة عليه بذلك قالوا نحن كنا مشغولين بالقتال ما رايناه ولكن هكذا سمعنا فقال الوزير هاتوا خدام الملك فشهدوا انه وقع قضاء وقدرا ومات وما احد رماه فبراوا الامير بيبرس من قتله اما الوزير شاهين فانه اهتم بأمر السلطان فبعدما غسلوه وكفنوه شيعه وعمل له مشهـدا عظيما ودفن بقبره في فارس كور ثم امر الوزير بالرحيل الى مصر فرحلوا ودخلوها بغير زينة ولا مهرجان وجلس الآغا شاهين في الديوان وفـرق الغنائم واعطى كل انسان ما يستحقه ثم تشاوروا فيمن سيكون سلطانا عليهم قال ايبك للوزير انا وليتك سلطانا فاحكم بالعدل قال الوزير هذا يكون ابدا فاختلفوا فيما بينهم فوصل الخبر للست شجرة الدر زوجة الملك الصالح فأرسلت اليهم تقول انا احق بالسلطنة ومعي حجج بذلـك وانا اتولى امركم واقيم وكيلا عني يحكم بالعدل فقال الاكراد رضينا بذلك ورضي ايضا الاتراك وتسلطنت الملكة شجرة الدر وضربت العملة باسمها والخطبة كذلك ولم تزل الاخبار تصل من مكان الى مكان حتى وصلت الى الحجاز فلما سمع شريف مكة بذلك ارسل يلوم الوزراء في دولة الاسلام وان هذا تقليد الكفار فاما ان تولوا من تعتمدون عليه من الرجال والا فنحن احق منكم بهذا فلما وصلت الاخبار وسمعت بها شجرة الدر قالت انـا تنازلت لكم فولوا عليكم من تريدون فوقعت المشاجرة فيما بينهم فقالت العلماء اقترعوا ثم كتبوا الاوراق بالقرعة وكل انسان كتب اسمه في ورقة

ومد الوزير شاهين يده فسحب ورقة وتاملها واذ مكتوبة باسم ايبك قال العلماء الان صارت السلطنة حقا له فنصبوه سلطانا عليهم وجلس على تخت السلطنة الى يوم من الايام واذ مقبل نجاب فسلم ودعى للملك بالنصر ودوام العز والنعم قال له الملك من اين قال من الاسكندرية يا مولاي فأخذ الحاجب منه الكتاب واعطاه للملك ففضه وقراه واذ به من نائب الاسكندرية الذي نعلمكم به يا امير المؤمنين يوم تاريخه ورد على ميناء الاسكندرية مركب وهو رافع علم السلام ورسى على الميناء اذ يتزل منه وزير واتباع وهم من الافرنج فسألناهم ماذا تريدون قالوا نريد مواجهة السلطان فانزلناهم في دار الضيافة واعلمناكم والامر امركم فلما قرا الملك الكتاب اعطاه الى الوزير وقال له اقراه واعطنا الجواب فقراه الوزير وقال ارسل يا امير المؤمنين لهذا الوزير ان يمثل بين يديك لنرى ما يريد فقال الملك اكتب ايها الوزير الى نائب الاسكندرية ان يرسله لنا واتباعه فكتب الوزير الى النائب بارسالهم حالا الى مصر فأرسلهم فبينما الملك جالس بالديوان واذ مقبل هذا الوزير واتباعه وهم يسلمون ويخضعون للسلطان فسأل كبيرهم بواسطة الترجمان ماذا تريد قال يا ملك الزمان جئت بهذا الوفد لاجل المفاوضة في فك اسر الملك لويس السابع ومن معه من الاسارى فاطلبوا يا جلالة السلطان ما تريدون من المال نأذن لكم بالحال لاننا احضرناه معنا وهو في المركب بالاسكندرية فسأل الملك الوزير شاهين ما نطلب منهم من الاموال فسأل الوزير كبير الوفد ما هو المبلغ الذي اتيتم به لاجل فك الملك ورفقائه من الاسر قال كم تريدون قال مائتي الف دينار قال كبير الوفد اتينا بمائة الف دينار لا غير فتشاور السلطان والوزير في هذا الامر فوافقوا على ان يأخذوا المائة الف دينار ويعطوهم ملكهم والاسارى فقال الوزير شاهين لكبير الوفد احضر المال وخذ الملك لويس والاسرى فأحضروا المال فلما استلموه اخذوا الملك والاسرى وتوجهوا الى بلادهم .

قال الراوي : اما السلطان ايبك التركماني فقد اشار عليه بعض محبيه ان يخطب الملكة شجرة الدر ويتزوجها فيصير اقوى له بالملك قال لهم انا موافق على ذلك فمن يخطبها لي قالوا ليس لها الا الامير بيبرس لانها اتخذته ابنها وله وجاهة عليها فلما كان الغد جلس المعز ايبك على تخت ملكه وخاطب بيبرس بقوله يا ابني بيبرس قال نعم قال مرادي اتمنى عليك قال له اطلب ما تريد يا مولانا قال له ما في الحلال عيب لاني جئتك خاطبا راغبا في أمك الست فاطمة شجرة الدر فلا تردني خائبا فلما سمع الامير ذلك الكلام سكت وما اجاب بشيء فقال له الوزير اعلم يا ولدي انك رسول

وما على الرسول الا البلاغ اذهب اخبر الست بذلك فان رضيت فلا باس وان لم ترض فتكون قد اديت الامانة فأجاب بيبرس السمع والطاعة وسار الى امه ووقف لا يدري ما يقول فلما راته الست فاطمة قالت له اهـــلا وسهلا بك ما تريد يا ولدي قال اها لا شيء وكانت وصلت لها الاخبار بذلك فقالت له الست آتيا تخطبني لأيبك قال نعم ثم قالت له والله يا ولدي كنت مصممة ان لا اتزوج بعد زوجي الملك الصالح ولكني رايته في نومي وهو يقول لي يا حجة فاطمة ما في الحلال عيب اذا دعيت الى الزواج فتزوجي والان مقبل اليك بيبرس فاقبلي وساطته والا غضبت عليك والان قد قبلت وساطتك فاخبرني بما جرى فأعاد عليها القصة فقالت له اذهب الى الآغا شاهين وقل له ان يكون وكيلي فذهب الى الديوان وقال للوزير شاهين لقد قبلت والدتي بأن تتزوج السلطان ايبك وقد وكلتك في هذا الامر فقال الوزير قل لامك تأتي وتقف خلف الستار حتى نسمع كلامهـا والعلماء حاضرين فأخبرها بذلك فأتت ووقفت خلف الستار قال الوزير لايبك يا ملك الزمان انا وكيلّ الست فاطمة فهل انت رضيت بذلك قـــال رضيت قال الوزير وانت ما تقولين يا سيدتي قالت قلت ولكن لي شرط ان لا اسكن بغير سرايتي قال ايبك رضيت ثم قرئت الفواتح على هذه النيـة وثاني يوم عقدوا على ايبك وشربوا الشرابات واقيمت الافراح سبعة ايام ثم ادخلوه على الست شجرة الدر فاستقبلته الجواري والمغنيات وصارت ليلة عرس لايبك ما لها مثال وثاني يوم خرج الى الديوان وجلس على تخته وصار يتعاطى الاحكام مدة من الزمان الى يوم من الايام ضاق صدره فخرج هو وبعض الامراء والمماليك من مصر لاجل الترويح عن النفس وبينما هو راكب على جواده والمماليك وراءه راى بدوية حاملة جرتها ومتوجهة الى بحر النيل لتملأها منه وهي ذات حسن وجمال فتعلق قلب ايبك بها وقال لها يا ذات الحسن انت بنت من من العربان قالت له انا بنت شيخ العرب حسان ثم مضت بعد ذلك الى اهلها فسار ايبك ومن معه خلفها حتى عرف قبيلتها فسأل عن ابيها حسان شيخ العربان فقالوا له ها هو جالس مـع العربان فسار اليه وسلم عليه فاستقبله حسان بالاكرام والانعام واضافه تلك الليلة ولما ان طاب الكلام قال الملك يا مقدم حسان قال له نعم قال انا جئتك خاطبا وبك راغبا ان تزوجني ابنتك فقال له لم نتشرف بعد بمعرفة اسمكم الكريم قال انا السلطان المعز ايبك فلما سمع ذلك حسان قام على الاقدام هو واكابر عشيرته وقال يا امير المؤمنين ليس علينا ملام بتقصيرنا بالخدمة والواجبات لاننا لم نعرف جلالتكم اول الامر واني وابنتي سالمة خادمان

للسلطان قال ايبك بارك الله بكم ثم امهرها ارضا واسعة واسقط عنهم الخراج وكتب له حجة بذلك ففرح ابوها بتلك النعمة ثم اقام ايبك عندهم الى الصباح وركب وسار مع مماليكه الى ان وصل الى الديوان وجلس وامر باحضار رئيس المهندسين فحضر بالحال قال له عمّر لي قصرا في جهة الغواطة وسمه بقصر البدوية فأجاب بالسمع والطاعة وبنى ذلك القصر المشهور وبعد ان تم بناء القصر اقبل الى السلطان واعلمه به فأنعم عليه واكرمه ثم امر بنقل البنت الى قصرها فأتت بها امها واختها الى القصر واقيمت الافراح مدة سبعة ايام والناس في حظ ولعب فلما كانت ليلة الجمعة دخل عليها ايبك وتملى بحسنها وجمالها واقام ليله ونهاره عندها لا يسير الى ديوان ولا يذهب الى زوجته شجرة الدر ولا الى زوجته الاولى ام احمد مدة شهر كامل هذا وقد تعطلت بعض المصالح في الدولة ودبت الغيرة بامرأته شجرة الدر وامرأته ام احمد ولذلك اتفق الوزير مع العلماء ان يزوروه ويذكروه بالعودة الى الديوان فركبوا وساروا الى قصر البدوية وطلبوا الاذن بالمثول امام الملك فلما دخلوا سلموا على الملك وهنأوه ثم قالوا له قد اطلت الغيبة علينا يا امير المؤمنين فمتى تعود الى الديوان فقال الملك بلغني ان شجرة الدر حاقدة عليّ وغضبانة لاني تزوجت عليها وهي شديدة الغيرة فأريد منكم ان تتوسطوا بيني وبينها ليروق بالها فقال له الوزير سمعا وطاعة ومتى تشرفون الى الديوان فقال له غدا ان شاء الله عند ذلك استأذنوا من الملك وساروا الى شجرة الدر وقالوا لها لاجل خاطرنا ان تصفحي عن جلالة الملك ولا تغضبي عليه فقبلت السيدة شجرة الدر قولهم واطاعتهم في طلبهم فأرسلوا الى ايبك اعلموه بأنها رضيت وراق بالها ففرح بذلك وسار الى الديوان وسلم على الاخوان وجلس يتعاطى الاحكام الى ان انفض الديوان وسار كل واحد الى حاله ولما جن الليل طلع ايبك الى السرايا فاستقبلته شجرة الدر ببشاشة واجلسته الى جانبها وحصل بينهما عتاب ثم وقع الصفاء واستطاب حتى اتى الصباح وكان تجهز الحمام الذي في السرايا ودخلا الى الحمام فقالت شجرة الدر يا ملك الزمان هل رأيت البدوية احسن مني شعرا او ابيض مني جسما او احسن مني وجها فقال لها لا والله يا شجرة الدر انت احسن منها ومن غيرها ولكن انت كبيرة امام البدوية فهي صغيرة بنت اربعة عشر وهذا الكلام يغيظ النساء كثيرا فعندما سمعت منه ذلك الكلام تغير لونها واضمرت له الاذى واخفت الكمد واللوم وصارت تسايره في الكلام وتلهيه عنها ثم خرجت من الحمام لاجل ان تأتي ببعض الحاجات واتت بخنجر واخفته داخل فوطتها ودخلت الى الحمام

وصارت تحكي مع ايبك وتسليه ثم اخذت الصابون وصارت تغسل راسه وعينيه ووجهه الى ان ما عاد يرى ما تفعل ثم سحبت الخنجر وذبحته من الوريد الى الوريد فسال الدم في الحمام وجرى الماء الى الجنينة وكان احمد ن ايبك قاعدا في الجنينة فراى الماء يجري وهو مخلوط بدم كثير فأخذه الفزع وطلع يجري الى السرايا ليرى ما السبب ودخل الى الحمام فراى والده مذبوحا من الوريد الى الوريد فطار صوابه وخرج من الحمام ليرى من المجرم فراى شجرة الدر بيدها خنجر يقطر دما وهي شبه عارية فعند ذلك لحقها بالحسام فخافت على نفسها منه فهرعت الى اعلى السرايا وارادت ان تقفز من مكان الى مكان فزلت قدمها وسقطت الى الارض فوقعت على راسها وفارقت الحياة واذ اقبل احمد بن ايبك والحسام بيده مشهور حتى وقف على راسها وقال لقيت جزاءك يا مجرمة فبينما هو كذلك واذ بالوزير شاهين اقبل ومعه بعض الرجال فراى احمد واقفا على راس الست وبيده السيف مسلول فصاح بمن معه اقبضوا عليه واوثقوه فقبضوا عليه وامر به الى السجن فصاح انا لست القاتل انا بريء فقال الوزير ان كنت بريئا سنطلق سراحك وكان السبب في مجيء الوزير انه راى الملك الصاح ايوب في المنام فقال له ان ايبك مات في الحمام فتعجب من ذلك المنام فلما اصبح الصباح سار الى الديوان واخذ معه بعض الرجال فوجد احمد على هذا الحال وراى ايبك مذبوحا في الحمام فأمر باخراج ايبك من الحمام فأخرجوه وامر ايضا بنقل الست فنقلوها الى داخل السراية وشاع الخبر بموت الاثنين فتحزبت الاكراد الى شجرة الدر وتحزبت التركمان الى ايبك وكادت الفتنة تقع بينهم فصاح الوزير شاهين قائلا وحق المتعال كل من اعتدى وباشر القتال فمأواه السجن والاغلال وكل واحد منكم يذهب الى مكانه وانا احقق في هذا الامر واحكم فيه بما يقتضي الحال ثم شيعهما الوزير وعمل لهما ما يلزم ودفنهما في القرافة قريبين من بعضهما اما القضاة والوزير شاهين باشروا التحقيق في هذه القضية فما وجدوا لاحد يدا فيها وما هي الا قضية عائلية سببها غيرة النساء بعضها من بعض وقضاء وقدر فأطلقوا سراح احمد بن ايبك من السجن لانه ليس له يد فيها وانتهى الامر ثم ان الوزير والامراء بداوا يتشاورون من يكون سلطانا عليهم فقال الاكراد يلزم ان ترجع السلطنة الى اهلها وان الملك عيسى طوران شاه المعظم له ولد اسمه علاء الدين وعمره سبع سنوات فهو احق بالملك من غيره فوافقهم الوزير فجعلوه ملكا ولقبوه بالمظفر واقاموا عنه وكيلا بالسلطنة من ابناء عمه الاكراد الى يوم من الايام ورد كتاب من نائب حلب

يقول فيه يوم تاريخه ظهرت جيوش كقطع الغمام فبعثنا من يكشف لنـــا الاخبار فقالوا لنا ان هذه جيوش عباد النار تتر ومغول لا يعلم عددهم الا الاله وبعد عشرة ايام ورد كتاب من نائب الشام يوم تاريخه وردت لنــا الاخبار من المهاجرين والعساكر الذين هربوا من وجه العدو بان حلب وحماه وحمص ملكها العدو ونحن ما لنا قدرة بالوقوف امام اعدائنا ادركونا وصارت ترد المكاتيب من نواب البلاد بامتلاكها من التتر والمغول وقد وصل الاعداء الى غزة فبعثوا وفدا مؤلفا من اربعين رجلا ومعهم كتاب الى أولي الامـر بمصر بالتسليم والا يقتلوا ويسبوا ويخربوا الى ما هنالك من تهديد ووعيد وكان رجال هذا الوفد يتظاهرون بالكبر والعظمة ويحتقرون كل من واجههم فوضعوهم في دار الضيافة لترى الدولة ماذا تفعل فاجتمعت الوفود من جميع البلاد من المهاجرين الى مصر ومن اهالي مصر وبرها ومن شيـــوخ العربان من كل مكان والعلماء وشيوخ الاسلام بالازهر وغيره والوزراء وامراء المماليك وجعلوا يتباحثون بماذا يفعلون فقال المهاجرون من البلاد المحتلة ليس لهذا العدو ذمام ولا عهد ولا ميثاق فانهم يقتلون من يحاربهم ومـن يستسلم اليهم على السواء وقد ارتكبوا من المحرمات ما لا يخطر على بال فقال لهم امير من أمراء المماليك يقال له قطز ان هذا الامر له ثلاثة أوجه الوجه الاول ان نترك لهم مصر ونرحل عنها وهذا لن يكون والثانـــي ان نستسلم لهم يفعلوا بنا ما يشاءون من قتل وسلب وسبي وما أشبه ذلك وهذا مستحيل فلن نستسلم اليهم بدون حرب ولا قتال والثالث هو الذي نقدر ان نقره وهو القتال بهمة عالية ونية صادقة ونعلن الجهاد الاكبر رجالا ونساء ومالا ونأخذ فتوى من شيخ الاسلام فما انتم قائلون فصاحوا جميعا القتال هو الصواب والله يعطي النصر لمن يشاء ثم ان شيخ الاسلام اعطى فتوى بذلك وهي كل من كان له قوة على حمل السلاح والجهاد ولم يقاتل اعداء الله فهو كافر ولا يدفن في مقابر الاسلام وكل من كان لديه مال ولا ينفق في سبيل الله لاجل نصرة الاسلام فهو كافر وتصادر أمواله وتنفق في سبيل الله فوافقوا على ذلك ثم قالوا ما نفعل بهذا الوفد ما دام نيتنا القتال قال البعض ابقوهم في السجن لنرى ماذا يجري وقال آخـــرون اقتلوهم لانهم غدارون ولا يعترفون بعهد وميثاق وقد وافق على ذلك شيخ الاسلام وافتى بقتلهم لانهم قتلوا الذين استسلموا لهم ثم ان الوفود تشاوروا وقالوا من يكون قائد هذه الجيوش يلزم ان يكون صاحب همة وتدبـــير فاعتمدوا على امير من أمراء المماليك وهو الامير قطز لانه اعجبهم عندمـا خطب فيهم فوجدوه صاحب ارادة قوية وتدبير فعرضوا عليه القيادة فأبى

ان يكون قائدا الا بشرط فقالوا ما هو قال لهم ان اكون السلطان المنفذ لما يلزم دون ان يكون عليّ آمر وان تعزلوا هذا الملك الطفل واوصياؤه عن الحكم ويكون لي الامر بقيادة الجيوش وتجهيزها قالوا رضينا بذلك ثم انهم عزلوا الملك عن الحكم واعطوا السلطنة الى الامير قطز فحالا ارسل مكاتيبا الى جميع الجهات يجمع الجيوش وجهز جيش المماليك وارسل مكاتيبا الى جميع شيوخ العربان بأن يغزوا العدو وهددهم بفتوى شيخ الاسلام بأن كل من لم يقاتل في سبيل الله فهو كافر ويقتل وتصادر امواله واعلن النفير العام والجهاد الاكبر وخرج الى ظاهر مصر وصار يستقبل الجيوش وينظمها بهمة عالية وسرعة زائدة ثم امر بشنق وفد الاعداء المؤلف من اربعين شخصا على باب زويلة حتى يكونوا أرهب للعدو وقال فلنكن نحن المهاجمين للعدو لا مدافعين ثم انه بعد ما تكاملت الجيوش وانتهى من تعبئتها وتنظيمها امر بالمسير الى ان وصل الى غزة ففاجأ العدو بهجوم صاعق فولت الاعداء مدبرين لا يعولون على شيء لانهم ما كانوا حاسبين قوة اعدائهم بهذا المقدار وكانوا من نشوة النصر غير مكترثين لهم فلما ركنوا الى الفرار تبعتهم جيوش الابرار وصارت تقتل منهم كل من قصر الى ان اوصلوهم الى سهل بيسان وعين جالوت وهناك طلبوا جيوشهم من البلدان التي احتلوها اما السلطان قطز فانه نظم خطة حربية ومكيدة للعدو ليقضي عليه فكان سهل بيسان مرج بن عامر ينفذ عليه ثلاثة وديان من جهة جيش الاسلام وهو وادي اللجون ووادي بركين ووادي جينين فعبأ هذه الوديان بالجيوش وبرز الى السهل بالفرسان وصدم العدو مدة ساعتين من الزمان وامر الجيش ان يولي من وجه العدو ويوهمه بالانكسار وكان مع الاعداء سلاح ليس له وجود في جيش مصر وهو السهام الثقيلة وهي مركزة على دولابين ويجرها جوادان وهي تمثل المدفع وتطاق سهاما لا نار فيها ولا قنابل وقد قتل بهذه السهام فرسان كثير فعندما ولت فرسان المسلمين واوهمت العدو بالانهزام فتبعهم العدو وطمع بالانتصار ففاجأتهم جيوش المسلمين وخرجت من الوديان ففصلت جيش الاعداء الى قسمين واحتاطوا بالاعداء شبه السوار بالمعصم وتكاثرت عليهم جيوش المسلمين من كل مكان الى ان صارت الشمس في قبة الفلك فانشلت مقاومة العدو فصارت جيوش المسلمين تنقض عليهم كالصواعق وتقتل فيهم وتفتك فما ابقت منهم الا من عمره طويل وفر من المعركة وعندما انتهت المعركة بانتصار جيوش الاسلام وصاروا يتفقدون المجاريح ويسعفونهم والقتلى منهم يدفنونهم وقتلى العدو يتركونهم الى وحش الفلا فتفقدوا السلطان فوجدوه مقتولا بسهم من السهام

فتأسفوا عليه وواروه التراب فاستلم قيادة الجيوش الامير بيبرس فامر بملاحقة فلول الاعداء فلحقوهم وطمعت بهم العربان واهل البلاد بعد الانكسار فما ابقوا منهم انسانا وخلصوا منهم البلاد ورقاب العباد وكانت هذه الموقعة من المواقع الفاصلة في تاريخ الاسلام وتسمى بموقعة عين جالوت ومن فضل الله على الاسلام انتصارهم على الاعداء ولو ان هؤلاء الاجلاف الغلاظ الاكباد انتصروا في هذه الحملة ودخلوا مصر كانت ضربة للمسلمين قوية لا سمح الله ثم ان الامير بيبرس بعد ان طهر البلاد من الارجاس صار يرتب نواب البلاد ويوصيهم بالعدل والانصاف ووضع مراصد خارج المدن لمراقبة الاعداء على مسافات بعيدة لئلا تؤخذ الناس على حين غرة وأوصى النواب باصلاح أسوار المدن والتحصن وان يكونوا دائما على استعداد لملاقاة اي عدو يأتي اليهم ورتب البريد بين البلدان وان يكون بأقصى السرعة وأوصى النواب بالسهر على الامن وملاحقة اللصوص وقطاع الطرق وان يقضي عليهم بلا امهال ثم ان الامير بيبرس وضع في كل بلد من البلدان قسما من جيشه لمساعدة النواب وقفل راجعا الى مصر ودخل مع جيشه بيوم يعد من الاعمار واستقبله الاهالي بالترحاب والمهرجانات وهنأوه بالنصر على الاعداء هذا ما كان من الامير بيبرس واما ما كان من الوزير شاهين فانه صبر ثلاثة ايام حتى استراحوا من عناء السفر ثم امر بالاجتماع في الديوان لبحث أمر هام وبعد ان اجتمعت ارباب الدولة قال الوزير ما رايكم اشيروا علينا بمن نجعله سلطانا فصار كل انسان يبدي رايه في هذا الشأن الى ان بت راي الجميع على تنصيب بيبرس سلطانا فحالا بايعوه بالملك وحلف اليمين الشرعية بأن يقوم بالعدل بالرعية ثم انهم بعدما بايعوه على السلطنة على كرسي قلعة الجبل فضربت له المدافع وشاع الخبر وصارت تتوافد الاهالي لتهنئته بالجلوس على كرسي السلطنة ففرحت الناس وصارت المهرجانات في الشوارع ثم ضربت العملة باسمه وخطب له على المنابر ودعوا له ثم خلع على الوزير خلعة سنية والبس تختمر وزير ميسرة وايد غدي حاجبا وايد غمش قائم مقام وايدمر امير الترك وعز الدين الحلبي امير الاكراد وقلاوون امير الشراكسة واحمد بن ايبك امير التركمان وسليمان الجاموس مقدم السلطنة ثم ان الملك نظم الرتب كما يريد وجعل يولي على كل جماعة اقدرهم واذ طالع الى الديوان الشيخ العز بن عبد السلام فألبسه الملك قاضي القضاة وكذلك الشيخ ابن دقيق العيد وابن غريق الزيت البسهما ثياب القضاة والعلماء وكذلك الاشراف والسادات البكريين وغيرهم ثم ان الملك بعث الى مقدمي الحصون

والقلاع بالحضور اليه بدون امهال فحضروا بالحال فأمر عليهم اميرا يقال له شيحة ويكنى بجمال الدين وجعله سلطان القلاع والحصون وقال لهم الملك هذا امير عليكم الى ان يظهر ويرجع اليكم سلطانكم المقدم معروف بن جمر فقالوا بالاجماع سمعا وطاعة فاقامهم في الديوان ورتب لهم المعاشات وجعل لكل مقدم راية وكرسيا بالديوان ومحل اقامة له ولرجاله فبينما الملك يرتب الرجال واذ بعثمان بن الحبلة داخل الى الديوان وهو يقول انت لبست كل الناس الرتب ولا تسأل عن اخيك عثمان قال له الملك اهلا وسهلا بالاسطى عثمان ما تكرم جعلتك اميرا ثم انفض الديوان اما الملك فانه طلع لسرايته فاستقبلته زوجته الملكة تاج بخت التي جاء بها بهذه الغزوة من جهات حلب واصلها من بلاد خوارزم فاستقبلته بالبشاشة وهنأته بالسلامة فأقام الى الصباح ثم صلى صلاة الافتتاح ونزل الى قاعة الجلوس وجلس فاتى اليه الاغوات واعلموه بأن الديوان تكامل فنهض الملك الى الديوان ودخل فنهضوا اجلالا له فسلم عليهم فردوا عليه السلام ثم اقبل الملك الى التخت وجلس واذ داخل من باب الديوان فداوي طويل القامة عريض الكتفين وهو الذي كان كاتما اسمه وقال الحمد لله لقد كملت بك الافراح يا امير المؤمنين فتبسم الملك وقال اهلا وسهلا بك ثم التفت الى بني اسماعيل وقال من هذا فقالوا هذا المقدم ابراهيم بن حسن الحوراني قال له الملك اطلب ما تريد يا ابراهيم. قال اريد ان اكون مرافقك الاول قال انت رفيقي اذهب وائتني بمرافق ثاني قال ابراهيم يا امير المؤمنين لي ابن خالة يعجبك كثيرا ولكن لا يعرف يتصنع الكلام فلا تؤاخذه بما يقول قال له الملك احضره لنراه فذهب ابراهيم واتى به فتعجب الملك من طوله الفارع وقال بنفسه هذا يليق به ان يكون مرافقي حقا لانه طويل وجسيم فقال له الملك ما اسمك قال سعد يا امير المؤمنين قال الملك انشاء الله اقبل الينا السعد واستبشر بذلك ثم انعم عليهما الملك واعطى كل واحد طبرا من السلاح فوقف واحد الى اليمين وواحد الى الشمال فيوم من الايام بينما كان الملك جالسا بالديوان واذ برجل داخل وهو يقول مظلوم يا امير المؤمنين خذ بناصري ربنا ينصرك قال الملك من ظلمك قال يا امير المؤمنين انا تاجر من تجار الشام وكل سنة اجيء بتجارة الى مصر وفي هذه السنة حزمت بضاعتي وهي اقمشة وحراير وحملناها على الجمال وسرنا طالبين مصر وعندما وصلنا الى العريش طلع علينا ملك العريش فرنجيل فأخذ البضاعة والجمال واسر رجال القافلة وانا ساعدني الحظ وهربت منهم وجئت اشكو امري اليكم فلما سمع الملك من التاجر ذلك الكلام قال الى

متى ونحن نصبر على اذى هذا اللعين وانه دائما يعتدي على كل من يقصد مصر فهذا يجب ازالته من طريقنا فأمر الملك ان يأخذوا التاجر الشامي الى دار الضيافة وأمر الامراء وقادة العساكر بالتجهيز وخرجت الى ظاهر مصر وتبعتهم الفداوية بنو اسماعيل الى ان تكامل الجيش في مدة اسبوع من الزمان وارتحل الملك وعساكره حتى وصل الى العريش واحتاط بالقلعة فلما راى اللعين فرنجيل الملك الظاهر اتى بالجيش اخذه الانذهال وقال هذا رايك يا جوان انت الذي اغريتني على تلك الفعال فقال له جوان لا تخف انا اضمن لك النصر ثم ان جوان امر بقفل الابواب وحاصروا وتحصنوا في اماكنهم اما الملك الظاهر فدخل عليه جمال الدين شيحة وقال يا امير المؤمنين كن الليلة على حذر انت والعساكر لاني عرفت ان جوان ذهب الى ملوك الساحل يطلب منهم المساعدة الى فرنجيل فالليلة مرادي افتح لكم الابواب فكونوا يقظين ثم ان جمال الدين شيحة غير ملابسه ولبس بصفة جوان ودخل البلد وحمل المبخرة وذهب الى باب البلد فلما رآه الحرس مقبلا عليهم ظنوه جوان فصاروا يقبّلوا يديه فقال لهم يا اولادي اقعدوا لابخركم فقعدوا قباله فوضع المبخرة وفيها البنج فصار يدخن عليهم وقال لهم تنشقوا وديروا وجوهكم الى الحائط ففعلوا ما امرهم وخرج من المكان وسكر عليهم فوقعوا مبنجين لا يعون على شيء فتقدم جمال الدين الى الباب وفتحه وأعطى الاشارة لجيش السلطان بالدخول فدخلوا الى البلد وشاع الخبر فأمر السلطان الظاهر بالهجوم فهجموا وصاحوا الله اكبر فتح ونصر وخذل من كفر ولم يزل السيف يعمل والدم يبذل ونار الحرب تشعل حتى صاحت اللئام الامان الامان وايد الله الاسلام الابرار والباقين اخذوهم اسارى وأمر الملك بجمع ما في البلد من مال وارزاق وامر بهدم القلعة وارسل الاسرى والارزاق لمصر وتوجه الى عسقلان كل هذا بمشورة شيحة جمال الدين الذي سبق الملك الى عسقلان فراى الابواب مغلقة والحصارات قائمة فصبر الى الليل وعبر الى البلد وتنكر في زي حكيم واقام في مكان من الخانات وصار يداوي الناس ويعالجهم بكل ما يقدر عليه واسبل الله عليه خيمة الستر حتى ان جوان دخل عليه اربع مرات فما عرفه لانه جعل له لحية بيضاء ودهن وجهه بما يعرفه من العقاقير فصار كل من رآه يظن به جدري واقام في ذلك الخان حتى يدبر امرا من الامور .

اما الملك الظاهر بينما كان ينتظر من جمال الدين جوابا واذ اقبل رجل بكتاب من شيحة فقبّل يد الملك واعطاه الكتاب ففضه وقراه واذ به خطاب من خادم الركاب جمال الدين الى مولانا السلطان الذي نعلمك به اننا سرنا

من عندك وقصدنا الى عسقلان فرأينا جوان والبرتقش وكفرين وفرنجيل اتوا الى عسقلان واغروا ملكها على الحصار والعصيان فقطع الطرقات على المسافرين واقاموا محاصرين فحال وصول الكتاب الى يديك تأتي بالجيش وتحط على عسقلان بعد ان تهدم قلعة العريش واما الذي اوصل لك الكتاب فكان اسيرا عند اللئام المرجو اكرامه .

اما الملك فانه اكرم الاسير وصرفه وامر بالرحيل وسار بالجيش الى ان اتى الى عسقلان واحتاط بها من كل الجوانب ثم ان اللئام بعد ثلاثة ايام دقوا طبول الحرب وبرز منهم فارس وطلب النزال فبرز اليه فارس من الفداوية وانطبق عليه وضربه بالحسام اطاح رأسه بالحال فنزل له الثاني فما ابقاه والثالث ابلاه وما انتصف النهار حتى قتل منهم جملة فرسان فتضايق جوان والملوك من هذا الحال فأمروا بفتح باب البلد وخرج الافرنج للقتال جملة واحدة ، فلما خرجوا تلقتهم الابطال واشتعل الحرب ودار السيف في الطائفتين ودارت المنية وكثرت الرية وقد قل الكلام واشتغل الحسام وما زال السيف يعمل ونار الحرب تشعل حتى ولى النهار واقبل الليل بالانسدال وقد بان في اللئام الفشل وظهر عليهم التعب والشلل وعملت فيهم السيوف اي عمل فهربوا الى داخل البلد وازدحموا على الابواب فمات منهم خلق كثير مما نالهم من سيوف المجاهدين واغلقت الابواب .

اما ما كان من جوان فانه نزل عليه الخذلان فقال له البرتقش كل هذا بسببك ومن تحت رأسك فقال جوان لملك عسقلان الراي عندي ان ترسل الى ملك يافا تستنجد به لعله يدركك بالعساكر فقال له هذا راي سديد ثم انه سطر كتابا وارسله الى يافا فلما وصل الى ملك يافا ديافيل فضه وقراه خطابا من ملك عسقلان الى بين ايادي ديافيل ملك يافا الذي نعلمك به ان ملك المسلمين خرب العريش وأتى الى عسقلان فأغلقنا الابواب وقطعنا الطرقات على المسافرين فوصل الخبر الى السلطان فتوجه الينا وحط على البلد وحاصرنا وتحاربت انا واياه فقتل من عندنا كثيرا من الرجال والان انجدني بعساكرك والسلام فلما قرأ ديافيل الكتاب بكى فقال له كفرياط ابن اخت ديافيل ما الذي يبكيك فأعطاه الكتاب فلما قراه قال له لا تحمل هما ابدا فأنا اكون لك الفدا ، ثم انه جعله قائد الجيش وجهز له خمسة آلاف من الفرسان وقال له سر بهؤلاء الى عسقلان وانصر الملك بريجيت فأجابه بالسمع والطاعة وطلب عرض البر وما زال يجد المسير حتى بقي بينه وبين عسقلان يوم واحد فبينما هم سائرون واذ بالغبار قد ثار وعلا وسد

الاقطار وانكشف الغبار وبان عن رجال وهم ينادون الى اين تطلبون يــا انذال ثم انهم اوقعوا فيهم الحسام فكانت وقعة عظيمة قتل فيها القائـد كفرياط ومن معه عن آخرهم واخذوا ملابسهم فلبسوها وخيولهم فركبوها وساروا يجدون المسير الى ان اشرفوا على عسقلان فلما رآهم عسكـــر عسقلان فتحوا لهم الابواب ظنوهم نجدة من عند ملك يافا فعبروا من باب البلد حتى توسطوها وخبروا جيش السلطان فأقبلوا وصاحوا بصوت واحد الله اكبر فتح ونصر وكان سبب مجيئهمان جوان لما دبر هذا التدبير الذي ذكرناه وقال لملك عسقلان استنجد بملك يافا كان شيحة جمال الدين واقفا بينهم بصفة خادم وسمع ما جرى بينهم من الكلام ثم صبر الى الليل وسار الى جيش السلطان ودخل على الملك الظاهر فسلم عليه فاستقبله الملـــك وهنأه بالسلامة فقال له جمال الدين نعرفكم ايها الملك ان بريجيت ملـــك عسقلان اغراه جوان فأرسل يستنجد بديافيل ملك يافا والراي عندي انك ترسل لهم قسما كبيرا من الجيش يكمنون لهموسط الطريق فاذا اقبلت النجدة يخرجون عليهم ويقتلونهم عن آخرهم فاذا فرغوا من قتل هؤلاء يأخذون ألبستهم ويلبسونها ويحملون راياتهم ويأتون من ناحية يافـــا قاصدين عسقلان فاذا رآهم اهل البلد ورأوا راياتهم يفتحون لهم الابواب فيدخلون ويخبرونك بالحال ايها السلطان فتدركهم فتملكون البلد وتقبضون على الملوك فلما سمع الملك الظاهر ذلك الكلام فعل بما اشار به شيحة وما زال حتى دخل البلد وفتحها وأهلك اللئام وطلب السلطان الملكين وجوان فما وجد لهم خبرا والسبب في ذلك ان جوان لما راى ذلك الانكسار قال ارحلوا بنا فانسلوا من المعركة وساروا الى يافا ودخلوا على ديافيل وقالوا له ما منعك من نجدتنا قال لهم وحق ديني ارسلت اليكم ابن اختي فـي خمسة آلاف من الفرسان ولا ادري ما جرى عليهم قال جوان اعلم انه قد جرى لنا ما هو كذا وكذا وقد رأينا ابن اختك وعساكره ملحقين في احدى المعارك فلما سمع ديافيل بذلك الخبر لطم على وجهه من عظيم مصابه فقال له جوان اغلق الابواب واقطع الطرقات فأغلق الابواب وقطع الطرقات واقام على الفساد .

اما جمال الدين شيحة فانه تودع من السلطان قاصدا يافا فلما وصل اليها وجدها محاصرة فصبر الى الليل وغير زيه ودخل البلد وذهب الى خان فجلس مع الخاناتي وسأله عن اسمه قال طنوس فصبر شيحة الى الليل فقتله وصرفه واقام مكانه ونكر نفسه في صفاته واقام بالخان وكل من رآه يظن انه طنوس الخاناتي بالذات فبينما هو جالس واذ بالخادم اتى

من بيت طنوس وقال يا طنوس اجب ابنتك فانها تدعوك اليها فسار جمال الدين مع الخادم حتى وصل الى البيت فاستقبلته البنت وهتفت قائلة اهلا وسهلا بجمال الدين شيحة سلطان بني اسماعيل الذي جاء الى هذا البلد وقتل والدي ولبس ثيابه فارتعب جمال الدين على نفسه عندما سمع ذلك الكلام لانه قد كشف امره ولكنه اظهر عدم المبالاة وقال لها ما الذي تقولين ومن اعلمك بذلك قالت له لا تخف يا شيحة فأنا مسلمة وسبب اسلامي انه اتاني انسان من اهل الله وقال لي انت من الفرقة الناجية يوم القيامة وقد مات والدك فلا تحزني عليه قتله جمال الدين شيحة وتزيا بزيه فارسلي خلفه وتزوجيه فسوف تأتيك منه ذرية صالحة فلما افقت من نومي اسلمت وهذه حكايتي فقال لها الحمد لله رب العالمين خذي هذا العقد فهو يساوي الف دينار فهو مقدم صداقك ثم ودعها وقال لها غدا اكتب كتابك فأجابته على ذلك ونزل من عندها وسار الى السجن وقتل السجان خريستوفان واخفاه وتزيا بزيه وجلس على باب السجن حتى نامت العيون وعبر الى الاسارى واخذ منهم اثنين وسار بهم الى بيته واشهدهم على الزواج واعتقهم ودخل على زوجته ثم تركها في مكان ابيها وسار الى السجن فرأى رجلا يقال له حمدو الانكاري وهو يبكي فسأله عن حاله فقال له دعني يا معلم فقال له لا تخف انا مسلم مثلك قال له بينما كنت سايرا في تجارتي ووجهتي مصر واذ طلعت علينا الافرنج اللئام اخذوا اموالنا وسجنونا وطول النهار نقطع الاخشاب وقد طال علينا المطال فبكيت على نفسي وما حل بي فقال له جمال الدين يا حمدو انا ارسلك بكتاب الى السلطان في عسقلان فأوصله له وخذ منه ما يعطيك وسر الى حال سبيلك ففرح حمدو بذلك ثم اخذ الكتاب وسار حتى اقبل الى جيش السلطان ثم وصل الى بين أيادي الملك فدعا له فقال له من اين قال من يافا يا امير المؤمنين من عند جمال الدين شيحة فأخذ الملك الكتاب منه وقراه واذ فيه خطابا من جمال الدين الى بين ايادي امير المؤمنين ساعة وصول كتابي اليك يا مولاي تأمر بهدم عسقلان وتأتي الى يافا بالجيش وهناك قد اجتمع الملوك وجوان وغلامه وجاء لهم عايق جبار يقال له الكفير وانا اليوم سجان باسم خريستوفان الرجاء اكرام حامل الجواب لان له حكاية محزنة ومنكسر والسلام عليكم .

اما الملك فانه اعطى حمدو الانكاري حامل الكتاب الف دينار وصرفه ثم امر بهدم البلد فهدموها والى الان مهدومة على شاطىء البحر وامر الملك بالرحيل وسار بالجيش الى ان وصل الى يافا واحتاط بها واقام ذلك النهار

ولما كان ثاني يوم امر جوان بدق طبول الحرب وفتحت البلد ونزل الى الميدان فارس يمزق الحديد وهو الكفير فابتدرت اليه الابطال فقاتلهم الى اخر النهار وقد اسر خمسة عشر فارسا ساقوهم الى البلد وهم فرحون بذلك الانتصار اما الملك الظاهر فانه اغتم لهذا وقال غدا لا يخرج اليه الا انا فقالت له الفداوية نحن حاضرون بين يديك ولا نبخل بأرواحنا عليك يا ملك الزمان ثم انهم باتوا على تلك الحال اما جوان فانه لما جاءوا بالاسارى قال اقطعوا رؤوسهم فقال له الملك ديافيل لا تقتلهم لاننا نبادل عليهم بأسرى فسكت جوان على مضض ثم ان ديافيل ملك يافا صاح على الخدام ائتوني بالسجان خريستوفان فأتى اليه فقال له اسجن هؤلاء عندك فلما راى جوان السجان ارتعشت اعضاؤه وقال هذا شيحة فقال له الملك ديافيل يا ابانا ان هذا السجان له عندي اكثر من عشر سنوات وهو حافظ السجن من كل انسان فلا تتكلم بحقه بما لا يليق من الكلام ثم ان السجان خريستوفان لما سمع من جوان ذلك الكلام بكى وانقهر فطيب خاطره ديافيل وقال لا يصعب عليك ذلك فخذ الاسارى وسر بهم الى السجن فأخذهم وجعلهم في الاغلال وأقام ينتظر ما يقوم به من الاعمال وثاني الايام عند طلوع الفجر امر جوان بقرع طبول الحرب ونزل الكفير الى الميدان وعبر على الفرسان فقال الملك ابرزوا له يا بني اسماعيل واذ بفارس غاير من كبد البر وانقض على الكفير وصدمه بالميدان وجرى بينهم قتال يشيب اطفال فكرا وفرا مدة ساعتين من الزمان حتى كلت من تحتهما الخيل الى ان خرجت منهما ضربتان كان الفارس السابق خصم الكفير اطاح راسه فكان هذا الفارس فخر الدين حسن من بني اسماعيل وهو من الرجال الذين ذهبوا للتفتيش على معروف بن جمر فلما وصل الى قلعته واستقر بالجلوس ودارت حواليه رجاله سأل عن القلاع ومن السلطان عليها وهل معروف ظهر ام لا فقالوا له قد تسلطن على القلاع رجل من عرب غزة يقال له شيحة بن سيف القبائل واما معروف فلم يظهر ولا اتى عنه خبر فقال انا اعرف بيبرس من عهد المقدم معروف وانه يستاهل السلطنة لكن اخطأ بسلطنة شيحة علينا وسأذهب الى مصر وارى ذلك الامر فقالوا له لا تكلف نفسك بالذهاب الى مصر فالسلطان واولاد عمك يقاتلون الاعداء في يافا وثاني يوم سار طالبا يافا الى ان وصل وراى الكفير بالميدان وهو يغير على الفرسان فصدمه وقتله في حومة الميدان فقال الملك الظاهر من هو هذا الفارس قالوا لا نعلم .

قال الراوي : ولما لم ينزل للفارس احد يبارزه ترك الميدان وسار الى

جهة جيش السلطان فوقف بين يدي الملك ودعى له بدوام العز والنعـم والنصر على الاعداء ثم قال انا المقدم فخر الدين من بني اسماعيل وقد سمعت يا مولانا السلطان انك ركبت على الاعداء فجئت لاجاهد في سبيل الله فترحب به الملك وقال له تمنى علي يا مقدم فقال اتمنى على مولانـا السلطان سلطنة القلاع والحصون فقال الملك تمنى غير هذا المقال يا ملك الزمان لا أتمنى غيرها فقال الملك في نفسه لنجرب هذا الرجل ونرى بطولته فقال له ان كنت تريد سلطنة القلاع فاقبض على اعدائنا الملوك وعلى جوان وانا اسلطنك على القلاع والحصون فقال هذا من اسهل ما يكون ثم تركه وسار الى يافا وصبر الى الليل وتخفى بزي الاعداء وعبر عن اعلى الاسوار وتسلل الى سراية الملك ديافيل ووقف بين الرجال ورأى جوان جالسا هو والملوك الثلاثة فلما رآه جوان عرفه وصاح به الست قاتل الكفير في الميدان قال نعم وسأقتلكم جميعا وهجم عليهم ليفتك بهم ولكنهم تغلبوا عليه وقبضوا عليه واودعوه السجن فتسلمه السجان خرستوفان وثقل له الحديد فقال في نفسه انا ما اصابتني هذه المصيبة الا بسبب كلامي بحق شيحة وان احسن المولى خلاصي اكون له خادما ومطيعا واذ بالسجان اقبل اليه وقال له تمنى لك موتة يا رجل فقال له ابعد عني لئلا أصيح على مين يخلصني فقال له ومن الذي يقدر يأتي ويخلصك من قبضتي فقال له اصبر وانظر ثم قال الهي ادركني بجمال الدين شيحة سلطان الحصون واذ بالسجان قال له لبيك وانحنى عليه وخلصه مما هو فيه فتعجب المقدم فخر الدين وقال له من انت قال انا شيحة الذي طلبته فقال انت شيحة ما دامت هـذه افعالك فأنا خادمك الامين فسأله جمال الدين ما سبب مجيئك الى يافا فقال اني تعهدت للملك بفتح البلد واخذ الملوك وجوان والبرتقش اليـه فوقعت في الاسر فقال له شيحة ابشر فانا اساعدك وآتي لك بهم فسار واياه ونزلوا الى السراية وبنجوهم واتوا بهم جميعا ثم ان جمال الديـن شيحة خلص الاسارى الموجودين بالسجن وقال للمقدم خذ الملوك وجوان والبرتقش وهؤلاء الاسارى اخوانك يساعدونك واذهب الى الملك وقل لـه ان يهجم بالجيش على البلد لاني ذبحت الغفراء وفتحت له ابواب البلد وايد قولك عند السلطان واعلمه انك انت فعلت هذه الافعال ثم انه سار بالملوك وجوان وساعدوه اخوانه الى ان اتوا الى بين ايادي السلطان وقدموا له الملوك وجوان وقالوا يا امير المؤمنين اسرع في مهاجمة البلد لان جمال الدين قتل الغفراء وفتح باب البلد وينتظر هجومك فأمر الملك بالهجوم فهجمت الرجال وصاحوا بالتهليل والتكبير فما افاقت الافرنج الا وحيهم مكبوس

والسيف يلعب في اعناقهم فلم تكن الا ساعتان حتى افنوا اللئام وزعق عليهم غراب البين فأخذ شيحة زوجته واخذوا من البلد ما كان من الاموال واسروا الرجال وامر الملك بهدم المدينة ثم جلس في صيوانه وتقدم اليه المقدم فخر الدين حسن وسلمه الثلاثة ملوك وجوان والبرتقش وامر الملك بضرب رقابهم فمنعه شيحة من ذلك وقال يا امير المؤمنين ابقهم وكل شيء له اوان ثم امر بمد جوان وضربوه علقة وقال هاتوا البرتقش فضربوه علقة ثم ان الملك اخذ عليهم العهود والمواثيق واطلق سراحهم واما الملك الظاهر فانه امر بالرحيل الى مصر ومعه الثلاثة ملوك مقيدين بالاغلال وصار كل ما حل في مكان تستقبله الاهالي بالاهازيج والمهرجانات حتى وصل الى ظاهر مصر فسبقت البشائر الى سائر الرعية بقدوم الملك المظفر وجيشه المنصور فزينت مصر لقدومه واقامت المهرجانات في كل مكان ونادوا في سائر الاماكن بأن غدا موكب السلطان العادل فلما اصبح الصباح انعقد له الموكب وغلت ايادي الملوك وساروا بهم قدام جواد السلطان فدخل الملك وجيشه من باب النصر واذ بالدنيا قامت وقعدت من ازدحام الخلق والناس يتأملون في هؤلاء الملوك الذين بين يدي السلطان فلما وصل الموكب الى قلعة الجبل طلع الملك وارباب دولته الى الديوان وجلس على تخته ثم انه امر بسجن الملوك الثلاثة فهذا ما كان من امر السلطان واقام بتعاطي الاحكام مدة من الزمان فبينما هو جالس واذ بنجاب مقبل ويسلم قال الملك من اين قال من حلب يا امير المؤمنين واخرج الكتاب واعطاه الى السلطان ففضه وقراه واذ فيه خطابا من عماد الدين نائب حلب الذي نعلمك به يا امير المؤمنين يوم تاريخه واذ بغبار ثار وانكشف وبان واذ بابن الملك الفرتماكوس حاكم انطاكية وصحبته جيش جرار حطوا على ارض حلب فنزل ابي اليهم برجاله وتقاتلوا قتالا شديدا وجاهد والدي جهادا عظيما حتى قضى نحبه ومات شهيدا الى رحمة الله فأغلقت الابواب واقمت الحصارات وارسلت اعلمك يا امير المؤمنين فأدركنا بسيفك المسنون وجوادك الميمون قبل ما يحل بنا ريب المنون فلما قرا الكتاب امر بتجهيز الجيش اما الوزير امر العساكر بأخذ الاهبة الى الرحيل فجمع الجيش في ثلاثة ايام ووضع الملك نائبا عنه ثم ارتحل طالبا ارض حلب حتى اقبل عليها ونزل وثاني يوم امر بدق طبول الحرب فأول من نزل الى الميدان ايدمر البهلوان لانه مفتاح الحرب فصاح جوان ابرزوا اليه فبرزوا له فارس بعد فارس فصار أيدمر يقتلهم ولم يزل كل من برز اكل العلقة واطلق سراحه اخذ غلامه وسار الى انطاكية ودخل على الملك اليه بعجل فناه حتى قتل منهم عشرة فوارس فعاد الامير أيدمر فلما وصل الى

السلطان أكرم مثواه وكان السبب في هذه المعركة جوان وذلك انه لمـا الفرتماكوس فنهض له واستقبله وسلم عليـه واكرمه وهرعوا اليـه يقبلون يديه واجلسوه فلما استقر به الجلوس اخذ يفري الملك بالحرب على السلطان الظاهر فلما سمع الفرتماكوس ذلك الكلام قال اعلم يا جوان انني لا احارب السلطان أما تنظر الى الملوك الذين اخذهم اسارى وخرب مدنهم بعد العمار فان كنت تقعد عندي اهلا وسهلا وان اردت ان ترحل فمع السلامة فسكت جوان على مضض واقام الى جانبه وتأمل في رجاله فراى فتى واقفا بين يديه قال جوان اظن ان هذا الفتى ابنك لانه يشبهك تماما قال نعم هذا ابني كرفوس قال جوان ولماذا لا ترسله علـى راس جيش ليحارب اعداءنا فاني اراه بطلا شجاعا وهو كفؤ لهذه المهمة فقال سله ان كان يوافق فسأله فقال هذا طلبي ومناي فقال له جوان خذ معك العساكر وسر بهم الى حلب وحارب نائبها هذا كان سبب الركبة على حلب ثم ان الملك بات تلك الليلة وعند الصباح دقت طبول الحرب ونزل الامير قلاوون برجاله وفعل فعل الشجعان وقتل من الاعداء جملة وعاد اخر النهـار فاستقبله الملك الظاهر واثنى عليه وما زالوا على ذلك عشرة ايام فقـال كرفوس لجوان طال الحال على الرجال وهلكت الابطال فما يكون الراي عندك فقال له هل تسمع كلامي قال نعم قال ان هذا الامر ليس له غيرك فاذا كان الغد ابرز اليهم انت بنفسك عسى انك تبلغ المرام ولما جاء الصباح نزل الى الميدان وطلب المبارزة وكان دور الجاولي فابتدر اليه وتحاربوا مدة ساعة من الزمان فوجهوا الى بعضهم ضربتين كان السابق الامير الجاولي فجاءت صائبة وخرجت روح كرفوس من بين جنبيه فلما راى جوان ذلك الحال امر الجيش بالحملة فحملوا عن آخرهم ثم التفت الى البرتقش وقال ارخ العنان للجواد ودعنا نسلم بأرواحنا لان هذا الجيش لا يثبت الا ساعة امام جيش السلطان فقال له البرتقش ما دمت تعرف ذلك فلأي شيء أمرتهم بالهجوم وتسببت لهم بالفناء فقال له تربت يداك اما تعرف انه صارت لي عادة وميل شديد الى الحروب وسفك الدماء ثم انهما انسلا من المعركـة ونفذا بالسلامة اما جيش السلطان عندما راوا اللئام هاجمين تلقوهـم بالتهليل وصاحوا الله اكبر وضربوا فيهم بالسيوف الثقال فلم تكن الا ساعة حتى حمي الهجير واشتد الزفير وقام الحرب على قدم وساق وضاق الخناق وكثر الزعاق وقد اوقدت الحرب نيرانها وما زال الحرب قائما حتى صارت الشمس في قبة الفلك فولت اللئام وركنوا الى الفرار فتبعتهم الابـرار وصارت تقتل منهم وتأسر حتى ولى النهار وما سلم منهم الا من كان له

عمر مديد وايد الله الاسلام بنصره ثم ان الملك امر باسعاف المجاريح ودفن قتلى الموحدين وجمعوا الغنائم ووضعوها بين يدي السلطان فأخرج الخمس منها الى بيت المال والباقي فرقه على الرجال ثم ان الملك قال اين جوان والبرتقش فدوروا عليهما فما وجدوا لهما اثرا فأقام السلطان ثلاثة ايام لاجل الراحة ثم اراد الرحيل الى مصر واذ بنجاب قد اقبل عليه وقبّل يديه قال له الملك من اين قال له من انطاكية يا امير المؤمنين ثم اعطاه الكتاب فأخذه منه وفضه وقراه واذ فيه خطابا من جمال الدين شيحة الى بين ايادي السلطان العادل الذي نعلمك به ان جوان لما هرب من حلب سار الى ملك انطاكية الفرتماكوس واعلمهان ابنه قد قتل في حلب واغراه على القتال والاخذ بالثأر فأطاعه واغلق الابواب واقام الحصارات وقطع الطرقات فحين وصول جوابي اليك يا مولانا تأتي بالجيش الى انطاكية وعلى الله الاتكال وكان السبب في ذلك ان جوان لما هرب الى انطاكية ودخل على الفرتماكوس فاستقبله وسأله عن ولده وماذا جرى قال له اعلم ان ولدك قتل ولا بد من مجيء السلطان فان اردت ان تأخذ بثار ولدك فافعل وان جبنت عن الاخذ بالثأر فانتظر الهجوم الصاعق على بلدك وها اني انذرتك ونصحتك فدبر امرك قبل ان يحل بك الوبال فلما سمع الفرتماكوس بهذه الاخبار وان ولده قتل لطم وجهه ونتف شعره ورمى طيلسانه وقال كل هذا منك انت اغريت ولدي على القتال قال له جوان لا تخف فها انا عندك فاستشار الفرتماكوس وزراء دولتهفي ذلك فقالوا له اما اذا كان لا بد للملك الظاهر من القدوم الينا والهجوم علينا فينبغي ان نحترس لانفسنا ونحصن بلدنا فان هو اتى الينا حاربنا ونكون على حذر من امره والسلام عند ذلك اطاعهم وغلق الابواب واقام الحصار وجعل جوان يرسل اللصوص ايجلب الشر ويقطع على المسافرين البر .

قال الراوي : فلما قرا السلطان كتاب شيحة قال كيف نعمل مع جوان الذي يسبب لنا الحروب والاهوال ثم امر الجيش بالرحيل الى انطاكية فركبت الرجال واخذت الاهبة للسفر والقتال ولم يزالوا يجدون المسير حتى اقبلوا الى انطاكية فرمى الاعداء عليهم النبال فنزل الملك بجيشه على حد الرمي واحتاط بالبلد من كل جانب ومكان ثم اقام الملك ثلاثة ايام وامر بدق طبول الحرب فعند ذلك فتحت ابواب البلد ونزل للميدان فارس وطلب مبارزة الفرسان فابتدر اليه الامير ايدمر البهلوان وتقاتل معه ثم هجم عليه وضربه بالحسام على عاتقه فنزل اليه الثاني كانه المهبول فما لحق ان يجول حتى تركه ايدمر مقتول والثالث كمثله والرابع والخامس عجل

لهم الفناء ثم دق طبل الانفصال فعاد ايدمر وهو مسرور وفرحان .

اما ما كان من الملك الفرتماكوس اقبل عليه جوان وقال له غدا افتح الابواب واخرج في عساكرك واحمل على جيش الاسلام حملة واحدة لعلك تبلغ المرام قال له هذا هو الصواب وباتوا على هذه النية اما ما كان من شيحة جمال الدين فانه كان سامعا ما دار بينهم من الكلام فلما فهم ذلك المرام خرج من البلد واتى الى جيش السلطان فقال له الملك اهلا وسهلا بسلطان الرجال ماذا وراءك من الاخبار قال يا امير المؤمنين قد اتفق الفرتماكوس وجوان نهار غد صباحا على انهم يخرجوا في حملة واحدة فانا مرادي ان آخذ الرجال وادخلها الى البلد من محلّ انا اعرفه واكمن بهم الى الصباح فحين خروج اللئام الى القتال تهجمون عليهم فاذا تراجعوا نخرج اليهم ونجعلهم بيننا ونقضي عليهم ان شاء الله ونفتح البلد فقال له الملك اعمل ما بدا لك اصلح الله اعمالك ثم ان جمال الدين اعلم بني اسماعيل بما كان من التدبير واخذ منهم قسما كبيرا وذهب في غسق الظلام وادخلهم البلد وكمن بهم الى الصباح بعدما أوصى الملك بالاستعداد لملاقاة الاعداء وعند الصباح فتحت الابواب وخرجت الاعداء وهجموا على جيش السلطان فتلقوهم كما يتلقى الجوعان اطايب المأكولات والتقت الرجال بالرجال فلا بقيت تسمع للسيوف الا الرنين ولا للمجاريح الا الانين ولم يزل الملك وجيشه يضربون في الاعداء الى ان ادخلوهم الابواب فخرجت عليهم الرجال من داخل البلد وهم يصيحون الله اكبر وما مالت الشمس الى الزوال الا والبلد ملكت وصاحت اللئام الامان فمن قتل قتل ومن اسر اسر قد فرغوا البلد من الاهالي وامر الملك بلم الاسلاب فلموها والى بين اياديه قدموها فأخذ منها الخمس لبيت المال والباقي قسمها بين الرجال بالسوية وجلس الملك على كرسي انطاكية وخلص المأسورين الذين في السجون وهم يقدرون بألفي اسير منهم نساء واطفال وقد انعم عليهم واركبهم وامرهم بالمسير الى بلادهم فمنهم من سار طالب الديار ومنهم من خدم عند السلطان ثم ان الملك الظاهر امر بهدم الاسوار .

قال الراوي : وبعد ذلك تقدم رجل وقبّل يد السلطان وقال معي كتاب من سلطان الحصون شيحة من مدينة سيس واخرج الكتاب واعطاه الى الملك ففضه وقراه واذ به من جمال الدين شيحة الذي نعلمك به يا امير المؤمنين عند فتوح البلد تفقدت جوان والفرتماكوس فسالت عنهم فقيل لي توجهوا الى مدينة سيس فتبعتهم على الاثر فرايت فرنسيس صاحب سيس قد اتى اليه جوان والفرتماكوس وقد اغرياه على العصيان فاغلق

المدينة واقام الحصارات وقطع الطرقات على المسافرين فدخلت البلد وقمت بها فحين وصول كتابي اليك يا مولانا تأتي بالجيش الى سيس ويفعل الله ما يريد وحامل كتابي هذا من بني اسماعيل وهو ابن اخت حسن النسر بن عجبور وقد أطاعني والسلام ختام فَلما ان قرا الملك الكتاب امر الجيش بالرحيل ولم يزالوا كذلك حتى اقبلوا الى مدينة سيس واحتاط الملك الظاهر بها واقام ثلاثة ايام ثم ان السلطان كتب الى فرنسيس واعطاه الى مرافقه ابراهيم سياج العذاري وقال له خذ هذا الكتاب وسر به الى ملك هذه البلد وهات منه رد الجواب فأخذ الكتاب وسار طالب سيس فلما وصل قالوا ماذا تريد قال معي كتاب من الملك الظاهر ففتحوا له فسار الى الديوان فتقدم الى الملك واعطاه الكتاب ففضه وقراه واذ فيه خطابا من امير المؤمنين السلطان الظاهر بيبرس الى فرنسيس صاحب سيس اعلم انك ان اردت السلامةمن النقم والحياة قبل العدم تقبض على جوان والبرتقش والفرتماكوس وتأتي الى عندي وانت طايع مختار وتدفع الجزية في كل عام واتعهد لك بالامان فان فعلت ذلك كان لك الحظ الاوفر وان لم تفعل فانك سترى ماذا افعل والعاقل من يحسب للعواقب والسلام . قال فلما قرا الكتاب خضع ولان فقال جوان ما كتب لك السلطان فناوله الكتاب فقراه جوان وقال اكتب له رد الجواب بالحرب والقتال فكتب ما أمر به جوان وناول الجواب لابراهيم فأخذه منه وظلَّ واقفا قال الملك لجوان ما يريد قال اعطه حق الطريق لازم اكرام حامل الكتاب فأمر له بخمسين دينارا اخذها وسار طالب جيش السلطان الى ان وصل الى بين ايادي الملك واعطاه الكتاب وجده بالحرب فمزقه ورماه ثمأمر بدق طبول الحرب فسمعت اللئام ففتحوا ابواب البلد وخرجوا الى ظاهرها وامر جوان الفرسان بالنزال فبرز فارس وصلل وجال وطلب الحرب والقتال فقال الملك الظاهر ابرزوا اليه يا عصبة الاسلام فابتدر اليه مقدم من بني اسماعيل وتقاتل واياه مدة ساعة من الزمان فخرجت منهما ضربتان صائبتان كان السابق فارس العدو ابطلها المقدم وعاجله بضربة من الحسام قطع راسه فبرز له الثاني فجندله والثالث والرابع اوردهم الدمار الى وقت الاصفرار اهلك جملة من اللئام ورجع سالما فاستقبله الملك وحياه واكرم مثواه ولم يزل الحرب قائما بالنزال مدة عشرة ايام واللئام كل يوم يخسرون جملة من الفرسان اما جوان فانه ازداد هما وحزنا واحتار ما يفعل فاذا امر بالحملة جملة فان جيشه لا يثبت ساعة قدام جيش السلطان . هذا ما كان من هؤلاء واما ما كان من الملك الظاهر بينما كان جالسا في بعض الليالي واذ بالمقدم جمال الدين شيحة

داخل عليه فاستقبله وحياه وقال ما عندك من الاخبار يا سلطان الرجال قال يا مولاي بينما الملكان فرنسيس والفرتماكوس جالسين يتعاطيان الخمر ويتذاكران في امور الحرب خرج من عندهما خادمهما فتقدمت اليه وصرفته وقمت موضعه ووضعت البنج والمخدرات في الخمر فشربا وتبنجا فأخفيتهما في مكان حتى لا يراهما احد وجئت اليك اخبرتك بهذا العمل اما جوان فسألت عنه فقيل لي انه ذهب يسعى للملك فرنسيس بمن يساعده في العساكر والان مرادي ان آخذ بعض الرجال من بني اسماعيل وافتح لك باب البلد فحالا تأمر يا امير المؤمنين بالهجوم على البلد فما يصبح الصباح الا وانت مالكها والملكان بقبضة يدك فقال الملك افعل ما بدا لك اصلح الله اعمالك فأخذ جمال الدين ما اراد من الرجال وادخلهم البلد واكمنهم وتبدل في صفة جوان وسار الى باب البلد وتقدم الى الحراس فوجد اكثرهم نائمين فقال ما هذا هكذا تحرسون الباب فلو ما جئت اليكم كانت الاعداء ملكوه وفتحوا البلد ثم قال لهم الان ابعث غيركم فسلموهم الباب قالوا له امرك فرجع شيحة الى رجاله وقبل ان يصل اليهم شلح زي جوان وسعى لهم بألبسة عسكر الاعداء ولبس هو مثلهم ولكن كرئيس عليهم وقال لهم لا احد يتكلم بشيء فأنا اتكلم بصفتي رئيس عليكم ثم انه اخذهم وكانوا يقدرون بمائتين وسار بهم الى ان وصل الى الباب وصاح على رئيس الحراس وقال له امرني جوان ان تذهب انت ورجالك الى مكانكم واستلم انا ورجالي حراسة الباب ففرحوا بذلك وذهبوا ثم ان شيحة فتح الباب وبعث احد الرجال يخبر السلطان بما فعل وان يهجم حالا على البلد ويملكها فلما وصل الخبر امر الملك بالهجوم ودخلوا من باب البلد ووضعوا السيف برقاب الاعداء وصاحوا الله اكبر فتح ربي ونصر فما اصبح الصباح الا والبلد ملكت وجلس الملك على تخت سيس وامر الرجال بجمع الاسلاب والمال فجمعوها ووضعوها بين يدي السلطان فرفع الخمس لبيت المال والباقي فرقه على الرجال ثم ان الملك امر باحضار الملكين فاتوا بهما اليه وصحوهما مما كانا فيه فقال الملك الظاهر لفرنسيس ما حملك على هذه الفعال قال يا امير المؤمنين اغراني جوان قال جمال الدين شيحة ايها الملك اجعل الملكين عندك في القيود الى ان تدخل مصر المحروسة وهم في ركابك فاخذهما الملك معه مقيدين وارتحل ولم يزل سائرا الى ان اقبل الى ارض مصر فوصلت الاخبار الى نائبه فأمر بالزينة والمهرجانات ثم ان الملك الظاهر دخل مصر بجيوشه والناس يدعون له ويثنون عليه حتى جلس على تخته وامر بسجن الملكين فسجنوهما مع الملوك المحبوسين .

قال الراوي : واما ما كان من مصعب ابن اخت النسر بن عجبور فانه عاد كما ذكرنا بعدما أوصل الكتاب الى الملك حتى اجتمع بخاله المقدم نسر بن عجبور فلما رآه قال له دخلت القلاع قال نعم فقال له هل ظهر المقدم معروف قال لا يا خال ولكن قد تسلطن على القلاع واحد من غير بني اسماعيل فغضب النسر وسار حتى اتى قلعته فسلمت عليه رجاله ثم نظر الى باب القلعة فراى مكتوبا عليه اسم جمال الدين سلطان القلاع والحصون فقال ومن جعله سلطانا علينا قالوا له الملك الظاهر قال هذا معزول قالوا افعل ما بدا لك فان قدرت عليه اطعناك وان هو غلبك فنحن على ما نحن عليه من اطاعة الرجل فقال لهم هذا هو الصواب فبينما هو يتحدث معهم واذ باثنين داخلين عليه وهما داود وشاهين المسايطة فسلما عليه فأمر لهما بالجلوس ثم قال لهما هل انتما طائعان لشيحة ام عاصيان فقالا نحن عاصيان قال لهما وانا كذلك فأقيما عندي حتى انظر حالي مع شيحة فأقاما عنده ثم انه التفت الى ابن اخته مصعب وقال له هل رايت شيحة ام لا قال رايته يا خال فقال له كيف شكله قال له هو قصير ملموم ونشيط كثير الحركة يتبدل مائة لون ولون قال انتظر لنرى ما يكون ثم انه سار وطلب البر فبينما هو سائر واذ راى رجلا فقيرا على راسه غمامة من الليف ومعه ابريق وطبلة وهو يذكر الله فأقبل اليه وقال له ما اسمك قال الشيخ عدس فقال له اقسمت عليك بالله الست انت جمال الدين شيحة فقال له انا سلطان الحصون فماذا تريد قال له النسر مرادي انصحك ان تترك السلطنة وتمضي الى حال سبيلك قال له ان شاء الله يا مقدم قال له الان امنت على نفسك فقال له يا مقدم ما رايت من يصلح للسلطنة غيرك وانت احق بها مني ومن غيري قال صدقت امض الى حال سبيلك فذهب شيحة وهو لا يصدق بالنجاة ثم ان المقدم نسر ذهب الى قلعته وحكى لرجاله ما جرى بينه وبين شيحة وانه تنازل له عن السلطنة فقالوا له يا مقدم استيقظ لنفسك واعلم ان بينك وبين السلطنة كما بين الارض والسماء فقال لهم ما هذا الكلام يا رجال قالوا له سوف ترى الان يا مقدم خذ حذرك من هذا الرجل لانه لا يصطلى له بنار والملك ما سلطنه علينا الا وهو جدير بها فتحير النسر في امره وعرض على والده ما قالوه له قال له ابوه ما تكلموا به صحيح فطعه وخلصنا من هذا الامر مثل ما اطاعه ابناء عمك فقال يا ابي انا لا اطيعه ولو ذقت كاس الردى فقال له افعل ما بدا لك وانصرف الى مكانه ونام وذهب النسر الى منامه واما ما كان من شيحة جمال الدين فانه لبس كرجل من الاتباع ودخل القلعة ثم صعد الى المكان

الذي فيه النسر فرآه نائما فبنجه وجعله في حرام ودلاه من اعلى السور بعد ان ترك لابيه كتابا في المكان ثم اخذه وسار به الى الفلوات فهذا ما كان من امر شيحة .

وأما ما كان من المقدم عجبور والد النسر فانه ذهب عند الصباح يصحي ولده فما رآه ووجد الكتاب فقراه واذ فيه ما عمل هذا العمل وأخذ النسر الا شيحة اعلم يا عجبور ان ابنك مغرور بنفسه ومتكبر فاخذته لاربيــه ولا اتركه الا اذا اطاعني والا فلا يلوم الا نفسه فعند ذلك ضرب المقدم عجبور يدا على يد وخبر زوجته فبكت وتبدل سرورها بالاحزان اما شيحة فانه اخذ المقدم حسن النسر كما ذكرنا وسار به الى الخلوات واقبل به الى غابة من الغابات وصحاه فقال اين انا قال له شيحة انت بين يدي سلطــان الرجال جمال الدين انت تقول لي اترك السلطنة وقد هددتني بتركها كان لازم منك لما عرفتني تكرمني وتأخذني الى قلعتك بالعز والاكرام لا كما قلت اعطني السلطنة فهل السلطنة جبة اشلحها والبسك اياها ومن انت يـــا صعلوك حتى تكون سلطان القلاع اما اذا اطعتني فاني أسامحك واجعل لك مقاما بين اخوانك بني اسماعيل فقال اعلم اني لا اطيعك ولو قطعت لحمي واطعمتني منه قال له وانا غني عنك ثم اخرج سوطا وضربه ضربا مؤلما ثم اخذه وسار طالبا مصر وكل ما وصل به الى مكان يضربه علقة الى ان وصل الى مصر وادخله سرايته وعرض عليه الاطاعة فأبى وما ازداد الا عنادا اما والده عجبور بعد ان تفقد ابنه قال ما رأيكم يا رجال ماذا افعل لاخلص ابني من يد شيحة قالوا له اذهب الى مصر وادخل لعند المقدم ابراهيم بن حسن فهو يدبر لك هذا الامر فسافر الى ان وصل الى مصر ودخل على ابراهيم وقال له أنا في جيرتك ان ولدي حسن النسر رجع من التفتيش علــى معروف وجعل دابه ضد السلطان جمال الدين وابني لا يرضى ان يطيعه فأخذه شيحة وترك لي ورقة يقول فيها اذا لم يدخل ابنك تحت اطاعتي فاني أعدمه الحياة فأرجوك ان تتوسط بينه وبين سلطان الحصون قــال ابراهيم انا احكي مع سلطان الرجال ولكن على شرط ابنك يطيعه والا ما يخلص من شره فذهب ابراهيم الى جمال الدين شيحة وقال له ان عجبور جاء يترجاني ان اخلص له ابنه فقال له كما تريد يا ابراهيم ولكن انصحه ان يطيعني وانا اجعله مقدما بين اخوانه بني اسماعيل وله كرسي بالديوان مثل اقرانه قال ابراهيم بارك الله فيك فدعني أواجهه وانصحه ان يترك هذا العناد من راسه فسمح له بالدخول عليه فلما دخل المقدم ابراهيم عليه وجده مشبوحا من يديه على الجدار فقال ابراهيم ما هذا يا ابن عجبور

ولاي شيء تحمل نفسك ما لا تطيق كل الرجال اطاعته ثم انه تقدم اليه وفكه من الاشباح ومن القيود وصار يسرد له مناقب جمال الدين شيحة والاعيبه ومقدرته وقال له والله قليل مثله بين الرجال وانه يدافع عن كل واحد من بني اسماعيل كأنه امه وابوه فالاحسن يا حسن ان تطيع هذا الرجل لانه قال اذا اطاعني سيكون له كرسي في الديوان بين اخوانه المقدمين فخفف حسن النسر من عناده وقال كما تامر يا ابن العم انا اطيعه فذهب ابراهيم الى جمال الدين شيحة وقال له اطاعك الرجل ففرح ودخل عليه وصافحه واخذه الى بين ايادي السلطان فقدم الاطاعة للسلطان ولجمال الدين فأنعم عليه الملك وترحب به وجعل له كرسيا بالديوان بين المقدمين بني اسماعيل ثم ان المقدم حسن النسر سار الى قلعته وكتب اسم شيحة على السيوف ورجع الى مصر برجاله لاجل الاقامة بالديوان وبأثناء رجوعه صار مروره على قلعة مشنة وجدها قائمة بالحصار ومعلنة العصيان سأل ما الخبر قالوا له ظهر المقدم حسن المشناتي واتى من التفتيش على معروف واعلن عصيانه فمر حسن النسر وبعد عن القلعة خوفا ان يجبره على العصيان اما حسن المشناتي لما فتش عن معروف ولم يجده شكت نفسه من الغربة فعاد طالب الاوطان الى ان اتى الى قلعته فلما اتى اجتمعت عليه الرجال فرأى في صدر القاعة مكتوبا سلطان القلاع والحصون شيحة ورأى ان القلعة فيها تلوين وتزويق وكتابة فقال يا رجال ما هذا وما هذه الزينة التي على الحيطان وسأل عن القلاع ومن هو عليهم سلطان فأخبروه بالمقدم جمال الدين شيحة سلطان القلاع والظاهر بيبرس سيد الملوك فلما سمع ذلك الخبر ضحك حتى استلقى على قفاه وصاح بملء راسه وقال شيحة مقتول والظاهر معزول وما احد سلطان الارض بالطول والعرض الا المقدم حسن المشناتي فلما سمعت رجاله هذا الكلام قالوا له ان الملك الان راكب على طرابلس بجيشه فسر اليه واظهر نفسك لديه ولكن ما انت اعظم من حسن النسر وغيره الذين قدموا الطاعة وما قدروا يطلعوا راس مع جمال الدين شيحة وحكوا له على ما جرى وما فعل شيحة مع الرجال من الابتداء الى الانتهاء فلما سمع بذلك الكلام قال لهم سوف ترون ما افعل ثم قال هاتوا الفرس فأتوه بها فركب وسار ومعه قليل من الرجال طالبا طرابلس الشام .

قال الراوي : اما الملك الظاهر بينما هو جالس على تخته في الديوان وحواليه اكابر دولته واذ باربعة تجار يقبلون رداء السلطان ويدعون له بالنصر ودوام العز والنعم فقال الملك ما الخبر قالوا يا ملك الزمان ان الملك

البرنز صاحب طرابلس قطع الطرقات على القوافل السائرة واخد بضاعتنا واسر رجالنا فاقبلنا اليك نستنجد بك يا امير المؤمنين فخد بيدنا وخلص لنا اموالنا ربنا يأخذ بيدك وينصرك على الاعداء فلما سمع الملك كلام التجار تأثر وصمم ان لا يرجع الى مصر الا بعد ان يفتح طرابلس ويأخذ ملكها البرنز اسيرا ويجعله مع الملوك الذين عنده فحالا امر بتجهيز العساكر بمدة ثلاثة ايام ورحل الى طرابلس الشام وكان السبب في ذلك جوان وذلك انه لما ذهب ليأتي بنجدة الى ملك سيس وصل الى طرابلس فبلغه خبر ان سيس فتحت فبقي بطرابلس الشام ودخل على البرنز فاستقبله واكرمه فلما استقر بهم الجلوس قال جوان اما تريد ان تغزو الملك الظاهر فقال اعلم يا جوان ان الملك الظاهر لا احد يقدر عليه وما انا بمجنون حتى احاربه واغزوه اما رايت كيف اخذ الملوك اسارى بعدما قتل رجالهم وخرب مدنهم فان قعدت عندي فلا بأس وان رحلت فمصحوب السلامة فلما سمع جوان منه ذلك سكت وقال في نفسه انا لا ادخل مدينة عامرة واخرج منها الا وهي خراب ولا بد ان أجعل البرنز مع الملوك في سجن السلطان ثم انه امر بعض اللئام ان يقطعوا الطرقات وينهبوا القوافل فساروا في البر وهجموا على قافلة وقتلوا بعض رجالها واخذوا الاموال والجمال والدواب عن بكرة ابيها ولم يزالوا يفعلون هكذا حتى وصلت الاخبار الى الملك الظاهر وركب وتوجه الى طرابلس وكان البرنز بلغه خبر ما كان يفعله جوان وما نهاه عن افعاله ولما صار له خبر بأن الملك الظاهر ركب على طرابلس قال لجوان انظر نتيجة اعمالك بارسالك اللصوص لقطع الطرقات ونهب الاموال فقد وصل الخبر الى الملك الظاهر وهو راكب علينا بجيوش جرارة ولولا افعالك هذه كنا بغنى عن هذه الحالة فلما سمع جوان من البرنز هذا الكلام قال له الا يكفيك فخرا ان تنتصر على الملك الظاهر وان تكون سببا لخلاص الملوك من السجن فلما سمع البرنز ذلك استبشر بالنصر واغلق ابواب البلد وامر بقطع الطرقات وغزو القوافل اما الملك الظاهر لما وصل الى طرابلس الشام نزل واحتاط بها ثم كتب كتابا واعطاه لابراهيم وقال له سر بهذا الكتاب الى البرنز وهات منه الجواب فسار ابراهيم بالكتاب الى ان وصل الى الباب قالوا له ما تريد قال لهم حامل كتاب من امير المؤمنين الى البرنز ففتحوا له الباب ودخل وسار الى ان وصل الى الديوان قال جوان اهلا بابراهيم الحوراني ماذا تريد قال حامل كتاب امير المؤمنين قال البرنز هات الكتاب قال له ابراهيم قم على اقدامك وخد الكتاب فقام على اقدامه واخد الكتاب ففضه وقراه يجد فيه خطابا من امير المؤمنين الملك الظاهر بيبرس الى البرنز اعلم

انه وصلتني اخبار عنك انك تقوم بنهب القوافل وقطع الطرقات وان هذه الافعال ما هي افعال ملوك بل هي افعال لصوص اشرار فان اردت السلامة تقبض على جوان وغلامه وتأتي بهم الى عندي ومعك اموال التجار وحق دم من قتل منهم اثناء الاعتداء فان عملت هذا كان لك الحظ الاوفر وان لم تفعل سوف ترى ما لا يسرك وتكون مع الملوك المسجونين والسلام ثم اعطى الكتاب لجوان فقراه وتغير لونه فقال جوان اياك ان تقبض علـــي وتسلمني لملك المسلمين فانها تغور بك الارض قال البرنز اكتب له انت ما تريد فكتب جوان جواب الجواب وقال فيه ما عندنا الا الحرب وناوله لابراهيم فأخذه منه وظل واقفا قال جوان اعطوه خمسين دينارا فأخذها وسار الى السلطان اعطاه الكتاب فقراه الملك ولما وجده بالحرب والقتال مزقه ورماه ونادى على الامراء والرجال بأخذ الاهبة للقتال اما المقدم حسن المشناتي بعدما ركب وخرج ما قلعته كما ذكرنا سار الى طرابلس الشام ودخل الى الديوان راى جوان فسلم عليه فقال له من انت قال انا حسن المشناتي صاحب قلعة مشنة وقد جئت اليك يا جوان لاساعدك على الملك الظاهر فقال له جوان مرحبا بك سلطنوه على القلاع والحصون ثم امر بدق طبل الحرب وفتحوا باب البلد وقال جوان نعم يا مقدم حسن انزل الى الميدان وأرنا فروسيتك فأجابه الى ذلك ونزل الى حومة الميدان ونادى من عرفني فقد اكتفى ومن لم يعرفني فما بي خفا انا المقدم حسن المشناتي سلطان القلاع والحصون فلما سمع الملك ذلك قال لبني اسماعيل من هذا ولاي شيء يحارب مع الاعداء قالوا يا امير المؤمنين هذا المقدم حســـــن المشناتي جاء من التفتيش على معروف واتى لقلعته وعصى سلطـــــان الحصون وأراد الان ان يظهر نفسه بهذا الشأن فلما سمع الملك ذلك الكلام قال ابرزوا اليه يا عصبة الابرار فابتدر اليه الامير أيدمر البهلوان فتغلب عليه حسن واسره ونزل الجاولي فأسره ايضا وعلاء الدين كذلك حتى أسر خمسة من الامراء وكل ما اخذ واحدا صاح بصوته ما في الميدان الا حسن سلطان القلاع والحصون ثم دقت طبول الانفصال فعادت كل طائفة الى مكانها ففرح جوان وقال للملك البرنز اقتلهم فقال له البرنز اما الان فنجعلهم في السجن والحرب سجال يوم لك ويوم عليك فاذا أسر منا احد نفديه بأحدهم فسكت جوان اما الملك الظاهر فصعب عليه ما جرى وقال لوزيره كيف يكون هذا من الاشراف ويفعل هكذا فقال الوزير يا امير المؤمنين هذا قد تمكن منه الشيطان فاصبر على هذا الشأن فان قلبي يحدثني بكل خير وفي ثاني الايام نزل المقدم حسن الى الميدان فأسر خمسة من الفداوية ثم دقوا

طبل الانفصال ولم يزل على ذلك الحال مدة ستة ايام وقد اسر ثلاثين بطلا من اعيان الدولة وجوان يشكره على ذلك ثم ان الملك ضاق صدره فقال يا ابراهيم خذ سعدا وادخل به البلد لعلكم ان تجدوا لنا مدخلا ندخل منه فقال ابراهيم سمعا وطاعة يا مولانا واخذ سعدا ولبسا كملابس الاعداء وسارا الى ان وصلا الى الاسوار فرميا مفردا ونزلا الى البلد ثم سارا من مكان الى مكان حتى وصلا الى خمارة فقال ابراهيم يا سعد ادخل بنا الى هنا فدخلا وجلسا فاستقبلهما صاحب الخمارة واكرمهما وقال لهما قوما الى الداخل واستريحا فدخلا فقال لهما هل عرفتماني قالا انت صاحب الخمارة قال لهما انا جمال الدين شيحة ففرحا به وسلما عليه ثم قالا ان الملك ضيق الصدر من هذا الحال لاسيما من حسن المشناتي فانه ساء الاعداء واخذ من رجال السلطان ما يقدر بثلاثين اسيرا وتكبر وتجبر وصار يصيح في الميدان انا سلطان الحصون والقلاع وخجل بني اسماعيل امام السلطان فقال جمال الدين لا يكون لكما فكرة من هذا القبيل سأجيء به طائعا مختارا ثم انه احضر لهما الطعام وتركهما ووقف في باب الخمارة واذ بالمقدم حسن المشناتي يمر فلما رآه جمال الدين عرفه فاستقبله وترحب به فسأله حسن المشناتي هل مر من هنا جوان فقال نعم لقد مر من هنا ومعه غلامه وقال لي اذا سأل عني احد فدعه ينتظرني في الخمارة حتى اعود لاني اريد ان افحص البلد ولا بد من الرجوع الى هنا الان فلما سمع المقدم حسن المشناتي ذلك اطمأن قلبه وعبر الى الخمارة وجلس فأتاه بالخمر فشرب وداخ وغاب عن الوجود فكتفه من يديه ورجليه ودخل به على ابراهيم وسعد وشيحة وصحاه فقال اين انا فقال له الخمار انت عندي فقال ومن انت قال له انا سلطان القلاع والحصون فما تقول في الاطاعة يا حسن فقال له اخرس يا قرد فقال له شيحة المهم ان تطيعني فقال انا لا اطيعك ابدا فعند ذلك اخرج جمال الدين السوط من وسطه فلما رآه المقدم حسن ضحك وقال ما هذا يا رجل فقال له هذا مؤدب العصاة فقال له والله انك لمجنون اتضربني بقطعة جلد اضربني بالسيوف والخناجر قال له شيحة ان كنت تتحمل عشر ضربات من هذه الجلدة افوت لك السلطنة قال حسن اصحيح ما تقول يا شيحة قال له والاسم الاعظم ما اقول الا الصحيح ولكنك اذا لم تتحمل العشر ضربات هل تطيعني قال حسن له اطيعك واكون لك عبدا قال جمال الدين اشهد يا ابراهيم واشهد يا سعد اشهدا علينا في هذا الزمان قالا شهدنا بذلك فخلع عن حسن الثياب وتشمر وكان بالسوط مسامير رفيعة مغروزة فيه اذا اكل الضرب انسان لا يتحمله لانه

يغرز باللحم فيشده ويقلع اللحم على قدر عرضه ثم ان جمال الدين رفع يده بالسوط وضربه الضربة الاولى فلفالسوط عليه فتمتع به شيحة وشده فسحب معه من الجلد واللحم على قدر عرضه فشعر المشناتي كأن روحه خرجت منه ولكنه كابر على نفسه ثم بعدما سحبه وعلق عليه من لحمه نظف ما فيه وضربه الضرب الثاني فاستجار حسن المشناتي وقال الجيرة يا ابراهيم قل له لا تضرب باقي العشرة وها انا مطيعه من الان فلما أطاعه رفع السوط عن جسده بلطف حتى لا يزيد في آلامه وفك عنه القيود ودهن له جراحاته وداواه فقال حسن المشناتي خاب من عاداك ياسلطان الرجال والف طاعة لك وللسلطان الظاهر فصافحه جمال الدين وطيَّب خاطره وقال له ابشر يا مقدم حسن بكل شيء حسن ثم انه قال لهم ابقوا انتم هنـــا لاسعى في خلاص اخوانكم من السجن وسكر عليهم باب الخمارة ودخل على السجانين فبنجهم وخلص المأسورين من السجــن والبسهم البســة السجانين وأتى بهم الى الخمارة وتبعوه الى ان وصل الى باب البلد فأكمنهم قبل الباب وأتى الى الحراس وبنجهم ورجع الى الرجال وقال لهم اذبحوا الحراس فذبحوهم وفتح الباب ثم قال لحسن المشناتي اذهب حالا واخبر السلطان فبينما الملك جالس منتظر الاخبار واذا بالمقدم حسن المشناتي مقبل عليه فسلم على الملك وقال له سر بالعساكر وافتح البلد لان جمال الدين فتح الباب وخلص الاسارى منتظر هجومك على البلد وانا قد دخلت تحت طاعتكم يا مولاي وطاعته فحالا أمر الملك بالهجوم على البلد فهجمت الرجال والابطال وصاحت بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير ثم ان شيحة جمال الدين لما رأى جيوش السلطان دخلت البلد اخذ ابراهيم وسعــدا وقصد سراية البرنز فرأى جوان والبرنز والبرتقش يهمون في الفــرار فقبضوا عليهم وكتفوهم وأتوا بهم الى بين أيادي السلطان فما تضاحـــى النهار حتى ضعفت مقاومة اللئام فصاحوا الامان الامان ثم ان الملك الظاهر اخذ الذين استسلموا أسرى وأخذ خزائن البرنز وصادر الاموال وخــرب الاسوار وأخذ ملكها البرنز وجوان والبرتقش وقيدهم بالحديد ثم رحــل بجيشه وسار طالبا مصر فدخلها بمهرجانات واهازيج الى ان وصل الى قلعة الجبل وجلس على تخته وامر بالملك البرنز وجوان والبرتقش بالسجن مع الملوك وعين المقدم حسن المشناتي من ارباب خدمته ورتب له ما يلزمه وجلس يتعاطى الاحكام الى يوم من الايام فبينما الملك جالس واذ بنجاب مقبل وهو يدعو فقال الملك من اين فقال يا امير المؤمنين من ثغر الاسكندرية واخرج الكتاب واعطاه الى الملك ففضه وقراه واذ به خطابــا من نائب

الاسكندرية الى بين ايادي مولانا الملك العادل الذي نعلمكم يوم تاريخه وصل للثغر مركب رافع علم السلام فبعثنا من يكشف خبره فرجع وقال ان هذاالمركب وارد من رومه المدائن وعليه وزراء ومعهم هدايا للسلطان وكتاب من الملك باش قران فسمحنا لهم بالرسو بالمينا ونزلوا الى البر فاقمناهم في دار الضيافة واعلمناكم بالحال والامر لكم في هذا الشأن والسلام ثم ان الملك اعطى الكتاب الى الوزير شاهين وقال له اقراه فأخذ الكتاب وقراه ثم قال يا مولانا السلطان ابعث احضرهم لنرى ما هو مرادهم فعند ذلك قال الملك لقلاوون اذهب الى الاسكندرية وخذ معك مائة مملوك بأحسن الملابس وائتني بهؤلاء الضيوف فأخذ معه المماليك وسار الى ان وصل الاسكندرية ودخل على وزراء باش قران وسلم عليهم وقال لهم انا موفد من قبل السلطان لاكون برفقتكم اليه ففرحوا وثاني يوم ركبوا في نهر النيل وساروا الى بولاق فوصلت الاخبار الى الملك بوصولهم فبعث اليهم اربعة امراء لاستقبالهم واصطفت العساكر والمماليك والفداوية بطريق الديوان وهم بأحسن الملابس وشاهرين السلاح ثم ان الوزراء ساروا بطريق الديوان فدهشوا مما راوا من سطوة الملك الى ان وصلوا الى بين ايادي السلطان فخضعوا وانحنوا وسلموا فاستقبلهم الملك الظاهر ببشاشة وامر لهم بالجلوس فجلسوا فقال لهم الملك من اين انتم وفيما اقبلتم فقالوا له نحن وزراء الملك باش قران وجئنا من رومة المدائن ومعنا كتاب من ملكنا الى جلالتكم ثم اخرجوا الكتاب واعطوه الى الملك ففضه وقراه واذ به خطابا من باش قران ملك رومة المدائن الى بين ايادي السلطان الملك الذي نعلمكم به انه قد حضرت عندنا نساء الملوك المأسورين عندكم وقالوا لي المرجو منك يا ملك ان تتوسط لنا وتكتب الى السلطان الملك الظاهر ان يفك اسر رجالنا الملوك من الذل والهوان فوعدتهم بالخير بذلك الشأن وكتبت اليكم راجيا بأن تطلقهم ولكم على كل واحد منهم خزنة مال مني وخزنة مال للذين يوصلونهم الى عندي فالمرجو من جلالتكم ان لا تخيبوا رجائي والسلام عليكم ثم ان الملك اعطى الوزير الكتاب ليقراه وقال يا امير المؤمنين لا مانع من ذلك وانا اوافق فقال الملك وانا كذلك ثم قال الملك للوزير خذ وزراء الملك وضيفهم عندك الى وقت رحيلهم فأجاب بالسمع والطاعة ثم ان الملك ثاني يوم جلس على تخته في الديوان وجلست الوزراء والامراء والابطال فقال الملك من نرسل مع الملوك الى رومة المدائن قال الوزير حسب ما تريد يا امير المؤمنين فنهض ابراهيم وقال يا امير المؤمنين ارجو منك ان ترسلني مع الوزراء الى رومة المدائن واكون حامل كتابك .

فقال الملك سمحت لك بالرواح معهم فخذ معك رفقاء فاختار ايدمر وزيرا وسعدا مرافقا له وعرض الامر على السلطان فوافق على ذلك وقال لهم سافروا الى رومة المدائن لاخذ الملوك وتسليمهم الى باش قران وهاتوا معكم خزنات المال التي وعدونا بها قالوا حسب ما يأمر امير المؤمنين ولما تقرر الامر بينهم على ذلك اخرج الملك من خزانته ثلاثة صناديق وقال لهم لا تفتحوا هذه الصناديق الا عند باش قران فقالوا سمعا وطاعة هذا وقد امر الملك باحضار الملوك وهم في الاغلال وسلمهم الى ابراهيم وايدمر وسعد وتودعوا من الملك وتودع منهم واخذوا معهم عشرة مماليك وعشرة خدام وشرعوا في قضاء مصالحهم ثم انهم توجهوا الى بيت الوزير شاهين واعلموه انهم غدا سائرون الى الاسكندرية فأعلم الوزير شاهين وزراء الملك باش قران بالمسير ثم اخذهم الى عند السلطان فترحب بهم وخلع عليهم خلعا سنية وقال لهم ان رجاء الملك باش قران مقبول واني ارسلت له الملوك مع وزيري أيدمر وابراهيم وسعد وهم مسافرون معكم الى رومة المدائن وحاملو كتابي الى الملك باش قران فانسروا من الملك على حسن وفادته وقالوا انا لا ننسى هذا الاكرام من السلطان ومن الوزير شاهين ما دمنا احياء ثم انهم تودعوا من الملك والوزير وساروا صحبة أيدمر وابراهيم وسعد الى ان وصلوا الى بولاق ونزلوا بالمركب المعد للسلطان وساروا طالبين الاسكندرية الى ان وصلوا ثم انهم نزلوا في المركب وساروا طالبين رومة المدائن الى ان وصلوا اليها اما ابراهيم وايدمر وسعد والملوك الاسارى نزلوا من المركب ونصبوا الخيام لاجل الراحة ذلك النهار اما وزراء الملك باش قران فانهم وصلوا الى الديوان فترحب بهم الملك وسألهم عن حالهم وما جرى معهم فحكوا له كيف أكرمهم السلطان والوزير شاهين والملك الظاهر قبل رجاءكم يا مولاي وبعث معنا الملوك الاسارى صحبة وزير السلطان ورفقه وها هم ناصبين خيامهم على الميناء لاجل الراحة من سفر البحار فبعث الملك اربعة اتباع الى الميناء وطلبوا الاذن بالدخول على الوزير أيدمر فأذن لهم فدخلوا وسلموا عليه وقالوا له يا سيدي اجب الملك باش قران وصحبتك الملوك الاسارى وجوان وغلامه وصحبتنا الملوك فنهض ابراهيم وسعد وتسلحوا ولبسوا احسن ما عندهم وأيدمر لبس بذلة الوزراء والعشرة مماليك لابسين مسلحين ومحتاطين بالملوك وجوان وغلامه وابراهيم وسعد قدامهم والوزير أيدمر على راسهم الى ان وصلوا الى الديوان واصطف الملوك وجوان والبرتقش بآخرهم ثم ان الملك باش قران رحب بالوزير أيدمر وبابراهيم وسعد وأمر لهم بالجلوس فجلسوا ثم قال

اين كتاب السلطان قال له ايدمر حاضر اعطه كتاب السلطان يا مقدم ابراهيم فنهض ابراهيم واعطى الكتاب للملك باش قران وجلس ففضه وقرا في اوله بسم الله الرحمن الرحيم خطابا من امير المؤمنين وخادم الحرمين السلطان الظاهر بيبرس الذي نعلمكم به ايها الملك انه ورد علينا كتابكم فقراناه وجدنا فيه رغبتكم في خلاص الملوك المأسورين عندنا ونعرفكم عن هؤلاء الملوك الذين شوهوا سمعتهم لانهم كانوا يفعلون فعل اللصوص وقطاع الطرق الاشرار ويعتدون على الصغار والمسافرين في القفار فوصلتنا اخبارهم فكتبت لهم ان يمتنعوا عن هذه الاعمال المشينة وقلت اهم الملوك تركب بجيوش وتغزو الاعداء ولا تفعل فعل اللصوص الانذال فما زادهم الا طغيانا فقلت هؤلاء ليس لهم الا السيف فجئت بهم واحدا بعد واحد كما وقع بأيدينا جوان وغلامه مرات عديدة ونحن نعفو عنه فيعود ويحرض الملوك بالركوب علينا وكان دابه الاذية والعدوان وقتل الانسان بدون حق والان فقد حققنا رغبتكم واطلقنا سراح الملوك وجوان والبرتقش وهم مع وزيرنا ايدمر والمقدم ابراهيم وسعد فاحكم عليهم بما يستحقون والسلام .

فلما قرا الملك باش قران الكتاب وفهم رموزه ومعناه التفت لاول واحد من الملوك وسأله ما حملك على العدوان وقطع السابلة فقال جوان قال له هو عقلك الذي يدبره وسأل الثاني والثالث الى آخرهم وكلهم ادعوا ان جوان هو الذي حرضهم وامرهم بهذه الاعمال ثم ان الملك قال انا ترجيت بكم السلطان الظاهر ودفعت عنكم كل واحد خزنة مال لترجعوا الى بلادكم ولكن على شرط ان لا تأتوا بأعمال شائنة ودعوا القوافل تسافر بينكم وبين جواركم فيشترون منكم بضاعتكم وتشترون بضاعتهم فهو احسن وانفع من قطع الطرقات والخراب قالوا رضينا بذلك ايها الملك قال لهم سيروا الان الى بلادكم وعمروها وكل واحد منكم يرسل لي خزنة المال الذي ارسلتها الى السلطان فانحنوا امام الملك وحيوه وانصرفوا وهم يدعون على جوان وما فعله ثم التفت الملك الى جوان والبرتقش وقال لهما ما هذه الاعمال التي ظهرت منكم فسكتا ولم يجيبا بكلمة فقال لهما اذا عدتما الى هذه الاعمال الشائنة فلن اعفو عنكما والان اذهبا واستقيما في معبد او دير قال جوان كما تأمر ايها الملك ثم صرفهما فذهبا يفتشان على جرائم جديدة .

قال الراوي : ثم ان الامير ايدمر امر الخدم ان يدخلوا الصناديق الثلاثة فأدخلوها الى الديوان وقدمها الامير ايدمر للملك باش قران قائلا اقدم لك هدية السلطان امير المؤمنين فتبسم الملك وقال مقبولة وامر بفتح الصندوق

الاول فوجد فيه تحفا وآنية مطعمة بالفضة والذهب من مصنوعات الشرق ففرح بها وقال لاتباعه افتحوا الثاني ففتحوه فوجد فيه سلاحا وسيوفا وخناجر مطلية بالذهب وكانت هذه من كنوز باديس السبكي فدهش الملك واعجبه ذلك ثم قال افتحوا لنا الثالث لنرى ما فيه ففتحوه فراى فيه اقمشة مطرزة بالذهب والفضة من مصنوعات مصر والشام ليس لها مثيل في بلادهم فانسر الملك بهذه الهدية وتشكر السلطان على ارسالها اليه ثم قال الملك للوزير أيدمر وابراهيم وسعد انتم واتباعكم ضيوف عندي عشرين يوما واذا أعجبتكم الاقامة فاقعدوا ما شئتم في ضيافتي وخصص لهم سرايا على البحر ووضع لهم الخدم والاتباع ومترجمين وجميع ما يطلبون فأقاموا في ضيافة الملك باش قران وفي يوم من الايام بينما ابراهيم وايدمر وسعد يتجولون ومعهم الترجمان فوجدوا عمالا يحملون الاحجار على ظهورهم والجنود يضربونهم بالسياط اذا قصروا والعمال يقولون عيون الملك الظاهر ترى ما بنا من الذل والهوان فسمع ابراهيم ما يقولون فصاح بالجنود كفوا عنهم ثم اقبل ابراهيم الى اسير وسأله من انتم ولاي شيء يحملونكم هذه الاحجار فقال يا مولانا نحن أسراء وكل يوم يحملوننا هذه الاحجار من طلوع الشمس الىمغيبها فصاح ابراهيم على العمال بأن يرموا ما على ظهورهم فلما سمعوا ذلك رموا الاحجار واتوا الى ابراهيم وايدمر فقال لهم ابراهيم من انتم قالوا نحن أسراء الملك باش قران نموت بالاسر والذل والهوان وانتم تترفهون بالعز والانعام ولكن لنا وقفة معكم بين يدي المنتقم الجبار لانكم لم تسألوا عنا ولا خلصتمونا مما نحن فيه من الذل والحرمان فدمعت عين ابراهيم لما سمع منهم ذلك الكلام ثم قال لهم كفوا عن هذه الاشغال وانا الان ذاهب الى باش قران لاجل خلاصكم من الهوان والتفت الى الترجمان وقال له قل لرئيس الاعمال ان لا يشغلهم الان ثم ان ابراهيم قال لايدمر وسعد اذهبوا معي لنسعى بخلاص هؤلاء الاسارى فذهبوا ودخلوا على باش قران فاستقبلهم بالبشاشة وسألهم عن حالهم فقال ابراهيم انتم تهتمون بأسراكم وتزعجون العباد من اجلهم وعندكم الالوف من رجالنا اسارى بالذل والهوان ولم تذكروهم لا بشفة ولا بلسان فهذا لن يكون ابدا فأنا اقسم برب العباد اننا لا نخرج من رومة المدائن وبها اسير الا ويعود معي الى الاوطان فقال له الملك ابشر يا مقدم ابراهيم بما تريد وحالا امر بجمع الاسارى من كل مكان واقاموهم بمحل واسع ونظيف وامر لهم الملك بالكسوة والطعام الى ان مضى وقت الضيافة فهم ابراهيم

وايدمر وسعد بالمسير الى الاوطان فاستأذنوا من الملك بالرواح فاذن لهم وقال لابراهيم وايدمر اطلبوا ما يلزمكم فانا اقدمه لكم فقال ابراهيم انا مرادي ان اسير في البر الى الاوطان لان البحر صعب ركوبه في الشتاء ودائما هايج ومتلاطم بالامواج فقال له باش قران افعل ما بدا لك قال ابراهيم هؤلاء الاسارى صار عددهم ستة آلاف وأريد لهم خيولا يركبونها فقال له باش قران لك كل ما تطلب يا ابراهيم وامر له بأربعة آلاف حصان وبغل وامر لهم بمؤن وتجهيزات وكل ما يلزم ولما انتهى المقدم ابراهيم سار هو وايدمر وسعد لعند الملك باش قران وطلبوا الاذن لهم بالرواح فأذن لهم وودعهم وودعوه ثم جدوا بالمسير الى الاوطان .

قال الراوي : ان جوان قال للبرتقش قم بنا ننظر ماذا جرى في رومة المدائن ونأخذ خبرا عن ابراهيم وجماعته هل ساروا الى الاوطان ام لا فلبس جوان والبرتقش ملابس التجار ثم مرا قريبا من الديوان فنظرا المقدم ابراهيم وايدمر وسعد خارجين من الديوان بعدما تودعوا من باش قران ووجهتهم معسكر الاسرى فساروا وراءهم الى ان وصلوا الى الاسرى وقالوا لهم خذوا اهبتكم غدا نسير وبات الجميع على اهبة الرواح والمسير اما جوان والبرتقش فقد عرفا انهم سيرحلون في البر فقال جوان للبرتقش هيا بنا لنأخذ امتعتنا ونذهب قدامهم لنرى ما نفعل بهم اما المقدم ابراهيم عندما اصبح الصباح حمل الاحمال وخزنات المال فكاك الملوك وما يخصه هو ورفقاؤه وامر الاسارى كل اثنين ان يأخذا حصانا او بغلا ويتعاونا عليه بالركوب وما بقي من الخيل والبغال حمل عليهم المؤن وامتعة الاسارى ثم سار في القفار طالب الاوطان اما جوان القرنان مشى قدامهم مسافة نهار وصار كلما وصل الى ملك من الملوك يصير يطلب منه الاعتداء على ابراهيم وجماعته الاسرى ويقول لهم قوموا خذوا منه هذه الاموال ولا تخافوا من سلطان ولا من احد فيقولون له هذا كان عند الملك باش قران فنخاف يغضب علينا ولا تنس سلطان المسلمين فانه ينتقم منا وليس لنا طاقة على هذا الحال فلما وصل جوان مدينة الانجبار دخل على الملك وقال له انت الذي دلت عليك الدلائل قم حالا واجمع عساكرك وخذ هذه الغنيمة والمال وهي آتية اليك بدون تعب فقال له ملك الانجبار واين الغنيمة ومن يحرسها فقال جوان الغنيمة مع ابراهيم الحوراني وهو آت في الطريق على بعد نهار ومعه اسارى جاء بهم من رومة المدائن من عند باش قران والغنيمة عشر خزنات من المال فقم لهم واقتلهم وخذ المال والنوال فقال هذا الامر خطير واخاف من الملك الظاهر ان يأتي الي ويخرب بلدي لاني لا اقدر على قتاله

فقال له جوان لا تخف انا اطلب لك المساعدة من جميع الملوك ولا بد ان تنتصر عليه وما زال يلح عليه ويرغبه ويقربه حتى وافق معه على الغدر والعدوان ثم انه أمر بجمع عساكره بالحال وعندما اقبل ابراهيم بالاسرى تصدى لهم هذا اللعين وصار يقاتلهم فنشب القتال بينهم على قدم وساق فاستقبلهم ابراهيم وايدمر وسعد بضرب يهد الشامخات ودار الحسام البتار ذات اليمين وذات اليسار وما زال القتال مستمرا الى وقت الزوال فرجعوا عن القتال الى ان اصبح الصباح هجم اللئام فتلقاهم ابراهيم وايدمر وسعد وباقي الاسرى بالسيف البتار وصاح ابراهيم على سعد اترك المال واقطع اعناق اللئام فصار سعد يضرب بسيفين ويقطع الرؤوس ثم ان ابراهيم اشتد وصار يضرب بالاعداء ضربات قاطعات فانكشف الميدان عنه وتنشط فلله دره وما فعل فصارت اللئام تبتعد عنه وتخشى الاصطدام معه حتى قتل منهم مقتلة عظيمة الى وقت الزوال فأراد اللئام الانفصال فقال لهم جوان ولاي شيء الانفصال وما بقي من اعدائكم الا اليسير فانقضوا عليهم بالحال فثابروا على القتال فعندما راى ابراهيم ذلك الحال قال لسعد اذهب يا سعد الى الاوطان وقل لمليكنا الملك الظاهر ان يأتي بالجيوش ويأخذ لنا بالثأر فقال له سعد انا ان وصلت الى السلطان يقتلني لفراري من المعركة والميدان فقال له ابراهيم لا تفكر بهذه الافكار فما انت الا بطل شجاع فأنا مرادي ان تخبر عنا السلطان ورجال الاوطان لاجل ان يأتوا ويخربوا هذه الديار على هذا العدوان وخبر بني اسماعيل وكل ما مريت على بلد من الاوطان او قلعة خبر عنا لاجل ما ينمحي اثرنا وما احد يعرف ما جرى لنا فاذهب يا سعد وخبر امي الشمطا ووالدي حسن وقل له اجمع الرجال وخذ لولدك بالثأر فانفرد سعد وصاح برفيع صوته وقال ابشروا يا اهل الانجبار بالخراب والدمار واني ذاهب لآتي لكم بالبلاء الاعظم وسار وهو يركض مثل الغزلان اما الحرب والقتال فقد دام الى ان ولى النهار واقبل الليل بالانسدال فصار ابراهيم يقتل ويجندل وحمى وطيس المعركة وقد اصيب ايدمر البهلوان بالجراحات فجعل ابراهيم يحمسه ويشجعه على متابعة القتال فصار ايدمر يقاتل على قدر استطاعته حتى سقط من على ظهر الجواد وقد استشهد الاسارى جميعهم وما بقي بالميدان غير ابراهيم وقد انطبقوا كلهم عليه فقاتل وقد اشتد عليه الامر فضعف عزم ابراهيم عن القتال ثم اراد ان يرفع سيفه فلم يقدر ان يرفعه ولحقته الدوخة وسقط الى الارض وكان ذلك قريبا من نصف الليل وصاحت الافرنج على

بعضها وخيل لهم ان ابراهيم ما دام يقاتل فصاروا يقتلون بعضهم البعض الى ان ولى الليل واقبل النهار ثم فتشوا على ابراهيم فما راوا له اثرا وكان السبب في ذلك جمال الدين شيحة كان حاضرا ولكن العين بصيرة واليد قصيرة فلما راى ابراهيم سقط عمل جهده واخذه من قلب المعمعة وذهب به واخفاه ورجع ليأتي بأيدمر فما وجد له اثرا فرجع وصار يعتني بابراهيم اما فقدان الامير ايدمر فسببه ان وزير ملك الانجبار ذهب الى داره وهو فرحان بهذا الانتصار فاستقبلته امراته وكانت ذات عُقل وتدبير فلما رات زوجها الوزير ضاحكا مستبشرا قالت له لاي شيء انت مسرور وفرحان قال لها أما سمعت بهذا الانتصار الذي انتصرناه قالت واي انتصار ولاي شيء ما تسمي هذا الانتصار دمارا وخرابا فعن قريب تجدون الملك الظاهر اتاكم بجيوش كقطع الغمام لانه لا يسكت على هذا العدوان وعلى قتل وزيره ومرافقه المقدم ابراهيم وهو من بني اسماعيل وغدا تراهم مقبلين لاخذ الثأر وهم مثل الاسود الضارية ولماذا قتلتم الاسرى وهم العزل من السلاح هل لكم ثأر عند السلطان الظاهر لماذا ما فكرتم قبل هذه الاعمال التي تجلب لكم البلاء الاعظم والدمار وانا اقول ان هذا الملك لا يستحق ان يكون بواب خان فيا ويلكم من هذه الافعال لانكم جنيتم على الاهالي والاوطان والان اذهب وائتني بالوزير ومرافقه فان وجدنا بهما روحـــــا داويناهما وان وجدناهما فارقا الحياة صبرناهما الى ان يأتي السلطان وان جرى أمر على هذا البلد نفك انفسنا ونفديها بهما من السلطان وان ما اتيت بهم الى هذا البيت انا غدا أرحل عن هذه الديار لاني ارى انه سوف تكون خرابا ينعق فيها البوم والغراب . فلما سمع كلامها الوزير اخذ اثنين من الخدم وذهب الى محل المعركة وصار يدور فما وجد الا الامير ايدمر فعرفه من ملابسه وهو بين الموت والحياة فأمر الخدم بحمله الى بيته وقال لامراته ما رايت الا هذا الامير فصارت امراة الوزير تعتني بأيدمر وتداويه وهو لا يعي على شيء لمدة ثلاثة ايام صحى مما هو فيه وقال اين انا فقالت له امراة الوزير انت عندي فشكرها على اعمالها اما شيحة جمال الدين فصار يـــداوي المقدم ابراهيم حتى صحى وفتح عينيه وقال اين انا قال له انت بين يدي سلطان الحصون ما عليك بأس انشاء الله وانا أفديك بروحي يا ابراهيم فقال له بارك الله فيك يا سلطان الرجال ثم صار يعتني به واما ما كان من سعد فانه صار كل ما مر على بلد او قلعة يدب الصوت ويحكي لهم ما جرى على ابراهيم وأيدمر والاسارى الى ان وصل الى مصر وطلع الى الديوان .

وعندما دخل وجد الطبر الذي كان ينقله ابراهيم معلقا في حائـــط

الديوان فوقع مغشيا عليه فاندهش السلطان الظاهر والوزراء وكل من حضر في الديوان فانعشوه وصحوه قال له الملك ما بالك واين ابراهيم وايدمر فقال سعد سمعنا الفاتحة يا امير المؤمنين انت والسامعين على روح ابراهيم وايدمر وستة آلاف اسير قتلوا جميعهم على جسر الانجبار فلما سمع اهل الديوان بما جرى على ابراهيم وايدمر صار البكاء والنحيب وصارت ساعة يا لها من ساعة عندها صاح الملك الظاهر بصوت دوى منه الديوان وقال ما هذه الافعال التي لا تفعلها الا النساء ان الرجال لا تفعل هكذا بل تأخذ بالثأر وكشف العار ثم ان الملك قال لسعد قل لنا مفصلا عما جرى فصار يسرد للملك ما جرى عليهم بالتمام فقال الملك الظاهر وحق من أولاني رقاب العباد لا بد ان اخرب الانجبار واجعلها ينعق فيها البوم والغراب ثم انه امر بجمع الجيوش والابطال وبعث مكاتيبا الى جميع البلاد والقلاع يأمرهم بالاجتماع على اراضي حلب والتفت الى فداوية بني اسماعيل وقال لهم كل مقدم يذهب الى قلعته ويجمع رجاله ويأتي الى حلب فساروا كما امر السلطان فجمعت العساكر والرجال من كل مكان في مدة اسبوع من الزمان ورحل الظاهر وسار من مصر بجيش كقطع الغمام وكانت تنضم له جيوش اهل البلاد الى ان وصل الى حلب وجد فيها أمما لم يحصها قلم كلهم اتوا لاخذ الثأر لابراهيم ثم انه بعد ثلاثة ايام رحل عن حلب بجيش ليس له اول يعرف ولا اخر يوصف وكلهم ينادون يا لاخذ الثأر من الاعداء اللئام وسار الجيش على عرض البر مسافة نهار ثم ان الملك قال لقادته عندما نتخطى الحدود لا تبقوا على انسان من اللئام وخذوا الاموال والانعام .

اما ملوك السواحل فقد وصلت لهم الاخبار من جواسيسهم بمصر يقولون خذوا حذركم فالملك الظاهر خرج من مصر بجيش جرار وامر بجمع الجيوش على حلب ووجهته الانجبار واقسم بأن لا يبقي من اهل هذه الديار من ينفخ بنار لان ملك الانجبار تعدى بجيشه على وزيره ايدمر والمقدم ابراهيم واخذ الاموال وهي عشر خزنات وقتل ستة آلاف اسير فلما سمعت ملوك الساحل ان خبرهم جواسيسهم لاموا ملك الانجبار على هذه الاعمال التي لا يعملها مجنون فحالا كتبوا المكاتيب واعلموه بأن السلطان آتيك بحملة من الحملات الكبار وحاف انه لا يترك احدا في ديارك والاوطان فكيف تفعل هذه الافعال اما سمعت ما جرى لنا منه خرب بلادنا واخذ الاموال ولولا الملك باش قران ما توسط لنا وخلصنا من الاسر والهوان

ودفع عن كل واحد منا خزنة مال لكنا الى الان في الاسر والهوان فلما قرا ملك الانجبار مكاتيب الملوك قال لوزرائه لقد غشنا جوان وما كنت اظن ان هذا الامر يسبب هذه الاخطار فارسل الى جوان فحضر واعطاه المكاتيب وقال له خذ اقرا ودبر لنا الخلاص مما رميتنا فيه .

فلما قرا المكاتيب قال هذا امر هين لا يزعج فسوف اجمع لك الرجال من كل مكان ثم انه اخذ خزنتين من المال وذهب يجمع الرجال ويرسلهم الى الانجبار وصار جوان يستنجد في الملوك ليرسلوا العساكر والجنود فأرسل كل منهم على قدر حاله الى ان اجتمع على الانجبار جيش للئام عظيم الشأن اما الملك الظاهر ما زال سائرا في جيشه الى ان وصل الى الانجبار فثاني يوم دقت طبول اللئام وبرزت الى الميدان فرسان يطلبون النزال فطلبتهم فرسان بني اسماعيل وصار النزال فارس لفارس وعشرة لعشرة ومائة لمائة الى ان ذهب النهار واتى الليل بالانسدال فتشاور الامراء والمقدمون مع السلطان كيف يكون القتال غدا فقال لهم السلطان بعدما تصطف العساكر والابطال يبرز الى الميدان فارس من صناديد الرجال ويطلب من الاعداء المبارزة فينزلون الى الميدان وبعد مضي ساعة من الزمان قوموا بالحملة جميعكم على الاعداء .

وثاني يوم طلب المبارزة مقدم من بني اسماعيل كما امر الملك وصار يقتل ويأسر من الاعداء قدر ساعة من الزمان واذ دقت العماريات بالحملة على اللئام فدارت الحرب فلا ترى الا خيول غائرة ودماء فائرة ولا تسمع الا رنين السيوف وصياح الابطال فلله در بني اسماعيل وما فعلت بالاعداء وما دامت الحرب قائمة والمعركة دائرة الى ان صارت الشمس في قبة الفلك واذ بكوكبة فرسان آتية من الفلوات تقدر بماية فارس على خيول عربية كالغزلان يتقدمها فارس بالحديد غاطس وهو يصيح بأخذ الثار لابراهيم وكانت هذه كوكبة الشمطا ام ابراهيم ومعها اللبوات وكن يهتفن بأخذ الثار لابراهيم واقتحمن الميدان بسرعة البرق وفتكن بالاعداء فتكا ذريعا فلما رات الرجال والابطال افعال اللبوات هاجوا كما تهوج فحول الجمال وحملوا على الاعداء حملة صادقة وانقضوا عليهم انقضاض العقبان على الحمام فلما رات اللئام هذا الحال وما جرى لهم ولوا الادبار وركنوا الى الهزيمة والفرار فقسم منهم راح طعم السيف البتار وقسم حصل باب البلد ودخل والباقي هج في الفلوات فتبعتهم جيوش الابرار وكل من قصر منهم قتل او اسر الى ان ولى النهار وجاء الليل بالانسدال فرجعت الابطال وصارت تجمع الخيول الشاردة والامتعة المبددة ثم ان السلطان

الظاهر فرح بهذا النصر وجلس بصيوانه يستقبل المجاهدين ويحييهم ويعلق على صدورهم الاوسمة واذ دخل الى الديوان فداوي طويل وقال الطاعة لمولانا السلطان ملأ الله قلبه بالايمان انا عيشة الشمطا ام ابراهيم قال لها الملك اهلا وسهلا بأم الرجال واجلسها الى جانبه وقال لها لاي شيء كلفت نفسك بالمجيء الى هنا اما تعلمين ان ابراهيم يعز عليّ كما يعز علي ولدي السعيد فشكرت الملك وقالت يا مولانا السلطان لم يعد لي اصطبار لما سمعت هذه الاخبار عن ولدي وما جرى له ودمعت عيناها فلما رأت الرجال ان عيشة الشمطا بكت تأثروا وبكوا لبكائها فبينما هم على هذا الحال واذ بشيحة جمال الدين مقبل فاستقبله السلطان وسلم عليه وجميع من كان في الصيوان حياه وسلم عليه ثم ان الملك قال ما وراءك من الاخبار يا سلطان الرجال قال ابشرنا يا امير المؤمنين بأخيك المقدم ابراهيم وانه الحمد لله بخير ومشرف على العافية كما ان الامير ايدمر بخير وبدور النقاهة ومشرف على الصحة والعافية قال الملك واين هما الان فقال في داخل المدينة اما المقدم ابراهيم فهو تحت عنايتي واما ايدمر فاني اكتشفت امره فوجدته عند وزير الملك وامراته وقد اعتنيا به كثيرا حتى اذا وقعوا بين اياديك يا مولانا السلطان يفتدون انفسهم به ولما سمعت عيشة الشمطا بسلامة ولدها فرحت فرحا عظيما وشكرت المولى تعالى وقالت لجمال الدين بارك الله فيك ما خاب راي مولانا السلطان الذي جعلك سلطان الحصون واميرا على بني اسماعيل واذا كنت تطلب ان يطيعك النساء فأنا اول مطيعة لك فقال لها شيحة جمال الدين يا سيدتي انا خادم لبني اسماعيل الكبير منهم والصغير فقالت له وفقك الله في خدمة مولانا الملك والمسلمين ثم ان السلطان سأل شيحة ما رايك يا جمال الدين في امتلاك البلد قال يا مولانا ان القوم مرتبكون مما اصابهم في الميدان لاسيما وقد راوا الملك مقتولا وجوان هربان وهم الان رعية بدون راع يقودهم ويدبر امرهم فرايي ان نهاجمهم قبل ان يطلع الصباح وان الاسوار ما عليها احد فاذا اهملناهم يعودون فيحمون الاسوار ويدافعون عنها ويخلقون لنا الاتعاب .

قال الملك هذا الراي الصواب ثم ان جمال الدين استأذن من الملك وقال له انا راجع الى البلد ومنتظر الهجوم لاجل ان اقوم بما يتوجب عليّ فأذن له السلطان وقال اذهب اصلح الله اعمالك ثم امر الملك بالهجوم واقتحام الاسوار فهجموا هجوما صاعقا فما جاء الصباح الا والاسوار ملكت من دون قتال ثم ان الجيش صاح بصوت واحد الله اكبر وكروا على البلد فلم يجدوا

من مقاوم ولا من مقاتل وصاحت الاهالي والرعية الامان الامان ايها السلطان ثم انهم فتحوا الابواب ورفعوا رايات التسليم فامنهم الملك على ارواحهم ودخل البلد وحوله الجنود والابطال واذ اقبل شيحة جمال الدين فساله الملك اين مكان ابراهيم فدله عليه فلما رآه الملك سلم عليه وعانقه وقبّله وقال لا بأس عليك وكان ابراهيم مستلقيا على التخت وقليل الحيل فأمر الملك ان يخرجوه الى خارج البلد الى الصيوان ثم قال الملك واين ايدمر فأخذه اليه فوجده في سراية وزير الملك وهو بحالة حسنة ومقبل على العافية فسلم عليه وسأله عن حاله قال له بخير يا امير المؤمنين ثم أمر الخدام ان ينقلوه الى الخيام وبعدها توجه الى الديوان وامر بمصادرة اموال ملك الانجبار ثم سأل عن الاموال التي كانت مع ابراهيم فوجدوا منها ثمانية خزنات في خزينة ملك الانجبار ثم ان الملك اراد اخراج الرعايا من المدينة لاجل خرابها على الاطلاق فقال له جمال الدين شيحة الاصوب ايها السلطان ان تتركها عامرة وتفرض عليها المال في كل عام وتصير من رعاياك فقال له الملك انا حالف اني اخربها على هذا العدوان قال له تخرب قسم ضئيل لاجل اليمين وكفاهم ما نالهم من العذاب والذين قاموا بهذا العدوان نالوا جزاءهم وليس على الرعية حق والمسؤولية تقع على رأس الراعي فوافق معه الملك على ذلك وقال من نضعه مكان الملك ويكون عاقلا ويليق بهذا المقام فقال شيحة انا ادبر هذا الامر ثم ان جمال الدين جمع اعيان البلد وقال انتخبوا منكم رجلا يكون حاكم البلد فانتم اخبر ببعضكم فانتخبوا احدهم فقدمه جمال الدين الى السلطان وقال هذا الشخص قد ارادوه حاكما عليهم بأمرك يا ملك الزمان فاملى عليه الملك الشروط وانه يقدم في كل سنة المال الى السلطان وان يحسن الادارة ويحكم بين الناس بالعدل والانصاف وقال له اذا جاءني شكوى عليك بظلم او عدوان صلبتك على باب البلد واشهد عليه وزراءه واعيان بلده في هذا الشان ثم ان الملك ذهب الى صيوانه خارج البلد وامر بصنع تخت لابراهيم وتخت لايدمر وكل واحد يحمله بغلان قويان حتى لا ينزعجان في المسير ثم بعد ذلك دق طبل الرحيل وسار الملك الى ان وصل مع جيوشه الى حلب فاستأذن بعض الرجال من بني اسماعيل من الملك بالمسير الى الديار فأذن لهم بالرواح واعطاهم من الغنيمة والاسلاب شيئا كثيرا وذهبوا الى اهاليهم وثاني يوم ارتحل الملك الى ان وصل الى دمشق فخرجت الاهالي بالاهازيج والمهرجانات لاستقبال السلطان وجيوشه المظفرة واقام في الشام ثلاثة ايام زار الاهل والاصدقاء فبينما هو جالس واذ بالمقدم حسن والد ابراهيم وامه الشمطا داخلين على

السلطان وقالا ائذن لنا ايها الملك بالرواح لحوران وصحبتنا ولدنا ابراهيم لاجل الاستشفاء والاستجمام وعندما يتكلل ابراهيم بالعافية يحضر لخدمتكم فاذن لهم وأعطاهم من الاموال والغنيمة شيئا كثيرا ثم سار الملك الى مصر المحروسة فلما وصل استقبلته الاهالي بيوم يعد من الاعمار واقاموا الزينة في كل مكان ثم طلع الى قلعة الجبل وجلس على كرسيه في الديوان وصار يتعاطى الاحكام وبينما هو جالس في الديوان اذ بنجاب مقبل وهو يقول سبحان هادي الطير قال الملك وراحم الشيب وساتر العيب من اين والى اين قال النجاب من حلب يا مولانا السلطان ومد يده وأعطاه الكتاب ففضه وقرأ فيه خطابا من نائب امير المؤمنين بحلب الى مولانا خادم الحرمين نصره الله الذي نعلمكم به انه بينما نحن جالسين نتعاطى الاحكام واذ بأربعة رجال من التجار بحلب داخلين واخبرونا انه ورد لهم مركب محمل بالبضاعة ومراده الرسو على ميناء السويدية لاجل ان يفرغ بضاعتهم واذ تعرض له مركب زاخر بالرجال المسلحين واخذوه بما فيه من بضاعة وناس وقادوه الى ميناء اللاذقية مأسورا وقد هرب واحد من النوتية واتى الينا واخبرنا ماذا جرى قال بينما نحن في ظهر البحر ووجهتنا ميناء السويدية واذ هاجمنا مركب ملآن عساكر وأجبرونا بارخاء شراعنا والوقوف فأذعنا لهم مرغمين وبعد ان اكتشفوا مركبنا وعرفوا ما فيه اقتادونا الى ميناء اللاذقية وعندما نزلنا الميناء صار لي انا فرصة فهربت وجئت اخبرت التجار اصحاب الاموال قال النائب هذا ما علمناه عرفناكم به ولكم الامر يا جناب السلطان والسلام .

وبعدما قرأ الكتاب أمر حاجب الديوان ان يأخذ النجاب الى دار الضيافة حتى يعطيه الجواب وكتب كتابا وأرسله مع نجاب الى امير البحار ابو علي البطرلي بالاسكندرية ان يحضر بالحال فلما قرأ الكتاب اقبل الى مصر ودخل الى الديوان فسلم على الملك ودعى له بدوام العز والنعم والنصر على الاعداء ثم ان الملك أمر الحاجب ان يخبر جمال الدين شيحة بالحضور لمواجهة السلطان وبعد ان جمع الملك الرجال الذين يعتمد عليهم اخرج الكتاب وقال لاحد الحاضرين اقرأ هذا وسمعه لنا فقراه كما اراد الملك ثم ان السلطان قال لامير البحار ابو علي البطرلي ما تقول في افعال هذا القرنان ملك اللاذقية وما هو رأيك قال يا امير المؤمنين لقد جاءني شكاوى بهذا الشأن وكنت أرسل المراكب تجوب البحر والسواحل ظانا ان بعض مراكب الافرنج هي التي تقوم بهذه الاعمال واذ اتضح لي ان هذه

الافعال من ملك اللاذقية فالواجب علينا ان نغزو مدينة اللاذقية ونفتحها وتكون ميناء لمراكبنا في هذه الجهات ومرسى لسفن التجار وبضائعهم فاذا امرني مولانا السلطان جمعت مراكبي وعساكري وهاجمتها من البحـــر ويحاصرها جيش من البر فقال شيحة جمال الدين اذا امرنـــي صاحب الدولة اجمع الرجال من بني اسماعيل واحاصرها من البر ونفتح البلد ولا نكلف مولانا السلطان بالمشقة فقال الملك بارك الله فيكم ونجح اعمالكم ثم ان جمال الدين قال لابي علي البطرلي انا ابعث اليك خبرا بالهجوم على اللاذقية ويكون هجومنا في آن واحد من البر والبحر فقال ابو علي هذا هـــو الصواب وان شاء الله نكون موفقين في هذه الاعمال وثاني يوم توجه كل منهم الى مكانه وصار يستعد لجمع الرجال والابطال وقد جهز ابو علـــي البطرلي مراكبه بالمدافع والبارود والمؤن وجمع المغاربة من كل مكان الى ان جمع مراكب كثيرة وكلها ملآنة بالرجال المغاربة الاشاوس اولاد عيشة وقعد ينتظر الجواب من جمال الدين شيحة بالمسير الى اللاذقية اما سلطان القلاع والحصون امر الرجال باشعال النيران على رؤوس الجبال وهذه اشـــارة الحرب فاجتمع مقدار اثني عشر الف مقاتل من ابطال بني اسماعيل على قلعة صهيون القريبة من اللاذقية فسار بهم جمال الدين قاصدا اللاذقية وبعث كتابا الى ابو علي البطرلي بالمسير الى اللاذقية فلما صار عنده خبر اقلع في البحر الى ميناء اللاذقية وآن واحد وصلت جيوش بني اسماعيل وحاصرت اللاذقية ووصلت مراكب ابو علي البطرلي وحاصرتها من البحر ثم انهم هجموا على المدينة من البر والبحر معا فرمى القبطان ابو علـــي بمدافعه الابراج وكبس الميناء وملكها بالحال وخرجت رجاله المغاربـــة الاشاوس من المراكب وتصايحوا على اللئام وابو علي قدامهم يقول اولاد عيشة يا ابطال البحار جاهدوا في سبيل الله اما سلطان الحصون جمال الدين فانه هجم برجاله بني اسماعيل وهو بأولهم وتبعه اثنا عشر الفا من صناديد بني اسماعيل واقتحموا الاسوار واعتلوا فوق الابراج وصاحوا الله اكبر ومكنوا السيف برقاب الاعداء وفتحوا ابواب البلد ودخلت الخيل اما ابو علي فملك باب البحر ودخل البلد فما دار الحرب الا ساعات حتى ملكوا اللاذقية اما ملكها عندما راى ذلك ولى هاربا والى النجاة طالبا اما جمال الدين وابو علي البطرلي فقد توجها الى ديوان الملك واستلما المال والارزاق ثم فتحا السجون واخرجا منها الاسارى وكانوا يقدرون بالفي اسير بين رجال ونساء واطفال وكان ملك اللاذقية ياخذ المال ويبيع الناس بيع النعاج ثم ان جمال الدين شيحة وابو علي البطرلي بعد ما استقر بهما الحـــال

واطمأنت الرعية ارسلا كتابا الى السلطان اعلماه بالنصر والفتح المبين فلما وصل الكتاب الى السلطان فرح واستبشر وقال لكاتب الديـــوان اكتب الجواب حالا واعلم سلطان الحصون جمال الدين ان النائب عن السلطان في اللاذقية ابو علي البطرلي وله امر مكرم ودستور معظم من جلالة الملك ان يتصرف بأموال المكوس على البضائع حسب القوانين المرعية الاجراء وان يبني المراكب ويأتي برجال بحرية ويخدمهم وان اللاذقية هي محطة مراكبه وانشائها وقاعدة له ولرجاله شرف فتحها وعليه ان يجتهد في تحصينها وتنظيم مراكب الدولة فيها ويوصي التجار ان يكون سير مراكبهم اليهـــا ويحسن معاملته معهم من اي جنس كانوا واوصيه بالعدل والاحســـان ومراعاة رجاله وتدريبهم ويكثر من انشاء السفن ويؤمن طرق البحـــار ويحافظ على مراكب التجار واموالهم ويضرب بسيفه رقاب القرصـــان واللصوص والسلام على سيد ولد عدنان .

ثم ان الملك اعطى الكتاب الى النجاب وقال لوكيل الخزنة اعط خلعتين واحدة الى جمال الدين شيحة والثانية لابي علي البطرلي واعط النجاب كسوة واكرمه لبشارته لنا بالنصر ، ثم ان النجاب اخذ الجواب والانعام وسار طالب اللاذقية الى ان وصل وسلم الجواب الى سلطان الرجـــال فقراه ثم ان جمال الدين استدعى ابا علي البطرلي واعلمه ما كان مـــن السلطان واعطاه الكتاب وامر الملك ففرح بذلك ابو علي البطرلي واستبشر وبدأ ينشيء ويجهز حسب ما أمره السلطان. هذا ما كان منه ، واما ما كان من جمال الدين شيحة فانه فرق الغنيمة على الرجال كل منهم على حسبه ثم ذهب الى اشغاله .

اما الملك الظاهر بينما كان جالسا بديوانه ، واذ بنجاب مقبل ومعه كتاب قال السلطان من اين قال يا مولانا من ثغر الاسكندرية ثم اخرج الكتـــاب واعطاه الى الملك فأخذه وقراه واذ به من نائب الاسكندرية الى مولانا امير المؤمنين الذي نعلمكم به انه ظهر عندنا اناس يسرقون الاولاد واموال الناس وكثرت الينا الشكاوى من الاهالي ولم نعرف الغريم الذي يفعل ذلك ولما اعيانا الحال ارسلنا لك هذا الكتاب فادركنا يا ملك الزمان ايدك الله بنصره وجعلك ذخرا للمسلمين والسلام على سيد الانبياء والمرسلين ، فلما سمع الملك ذلك قال لا بد لي ان اروح الى الاسكندرية بنفسي واكشف هذا الامر ثم ان السلطان تنكر في صفة تاجر هد ما اوصى ولده السعيد على الملك وركب وسار الى الاسكندرية ولم يعلم بحاله احدا ودخل الى خان ثم اقام

الى الليل لينظر الغريم وكان السبب في ذلك ان جوان لما اعيته الحيل قال للبرتقش سر بنا الى جنوا لعلنا ان نرسل جماعة من عند ملك جنوا الى اللاذقية ليساعدوا ملكها فدخل جوان على ملك جنوا فاستقبله فقال جوان يا ابني انا اتيت اليك لتساعد ملك اللاذقية لان الملك الظاهر ارسل اليها جيشا لامتلاكها فقال له ملك جنوا انا لا أطاوعك ابدا لانه ما طاوعتك الا حصل لي الاذى والضرر واذا كان مرادك مساعدته فاذهب الى حصن السلاسل القريب من هنا وحرض المقدم براميل لعله يساعدك على مرادك ثم انه ارسل معه خادما ليدله عليه فسار الى الحصن فلما وصل استقبله براميل فقال له جوان انت الذي ترجى مساعدته فقال له المقدم براميل اذا كنت تريد خدمة انا حاضر فقال انت عندك اخ اسمه بتوت قال نعم فأمر ان يحضر ولما حضر علمه جوان ما يفعل وعبى مركب تجارة ونـزل بصفة تاجر وكتب له كتابا الى احد التجار في الاسكندرية اسمه علاء الدين الصوري يظهر امام الناس بالصلاح اما بالخفاء فهو لعين غدار ثم ان بتوت اخذ معه عشرة عياق على شاكلته اولاد حرام واخذ كتاب من جوان وتودع من اخيه براميل وسافر على ظهر البحر من حصن السلاسـل طالب الاسكندرية الى ان وصل ونزل بضاعته ثم نقلها الى احد الخانات وصار يتعاطى التجارة وسأل عن علاء الدين التاجر فدلوه عليه فمضى اليه واعطاه كتاب جوان ففرده وقرأ فيه خطابا من جوان الى علاء الديـن الصوري المطلوب منك يا ولدي ان تساعد حامل الاحرف بتوت على اعماله لاني انا ارسلته وعلمته ما يفعل وعليك ان تكرمه وتهديه هو ورجاله العشرة وأن تسكنه في منزل يوافقه على اعماله واني ارسلت معه بضاعة تسترا على عيون الناس فأجابه بالسمع والطاعة وأخذه الى منزله واكرمه ثم سعى له بمحل طبق مرامه فسكن فيه هو ورجاله العشرة وبداوا يعملون فيما امروا بعمله من اخذ اطفال وسرقة اموال الناس الى ان ضجت الاسكندرية من اعمالهم واشتكوا الى نائبها فصار يتعقب الغريم فلم يوفق في القبض فأرسل وأعلم السلطان بهذا الامر والشأن فأتى الملك بنفسه ليكشف عن هذه الاحوال كما ذكرنا سابقا ثم ان الملك صار يدور في البلد في ظلام الليل حتى دخل الى سوق التجار فرأى شخصا رابه امره فتبعه فكان هذا بتوت الغريم الذي يرتكب الجرائم وما زال سائرا حتى وصل الى بيت هناك والملك خلفه فدخل الملعون وقفل الباب اما الملك فانه رفع الباب بيد الدبوس وفتحه ودخل وراءه واذ بباب مفتوح على شمال الملك فدخل ليرى هـل دخل الغريم الى هنا فعندما صار داخل المكان اغلق الباب واظلمت الغرفة

فرموا على الملك البنج والمخدرات التي ترمي الجمال فوقع الى الارض مغشيا عليه فانقض عليه بتوت ورجاله وقيدوه بالحديد من يديه ورجليه وانزلوه الى الطابق الارضي مع الاولاد الذين سرقوهم من الاسكندرية ثم اعطوه ضد البنج حتى صحى فراى نفسه مقيدا بالسلاسل والاغلال فقال من فعل هذه الافعال فقال له بتوت انا يا بيبرس واني سآخذك الى جوان ليفعل بك ما يريد لانه ما سلم احد من اذاك وان هذه الواقعة هي اخر ايامك من الدنيا ثم انهم اغلقوا باب الطابق على الملك والاولاد وذهبوا ليؤذوا عباد الله هذا ما كان من هؤلاء .

قال الراوي : واما ما كان من امر المقدم ابراهيم وسعد فانهما عادا الى مصر بعدما طاب ابراهيم من الجراح فلم يجدا السلطان فسألا الوزير عنه فقال انه اتاه كتاب من نائب الاسكندرية واظن انه توجه اليها لانه ما اعلمني عن مرامه بالتمام قال ابراهيم لا بد لي ان اتبعه ثم انه اخذ سعدا وتوجه طالب الاسكندرية وما دام سائرا حتى وصل وسأل عنـــه نائب الاسكندرية قال يا مقدم ابراهيم ان السلطان ما اتى الى الاسكندرية ولا علمنا به قال ابراهيم كيف ما علمت به وهو خرج من مصر الى هنا من اجل كتابك الذي ارسلته اليه قال ما رايته قط فعند ذلك نزل ابراهيم وسعد وصارا يفتشان عليه في الاسكندرية الى ان وصلا الى خان فدخلا اليه فوجدا السلطان فسأل ابراهيم الخاناتي عن صاحب هذا الحصان قال انه طلع ليلة البارحة ولم يعد فبينما هم في الكلام واذ بضجة بالطريق العام فقال ابراهيم لسعد انظر ماذا جرى للناس فطلع سعد من الخان فراى ريس الميناء الاسطى جمعة قابضا على انسان وهو يصيح ويقول يا ناس هذا هو غريم البلد بعينه فهجمت عليه الناس تريد الفتك به فرجع سعـــد اخبر ابراهيم بما راى فأسرع ابراهيم وخرج من الخان ليرى ويستفسر مـــن الريس جمعة فسأله عن هذا الشخص وكيف عرفه انه الغريم قال يا مقدم ابراهيم رايته غريب الديار فسألته عن حاله فارتبك وما اتانـــي باليقين فحصل لي منه ارتياب لما يحصل بالبلد من الجرائم فأخذه ابراهيم وسعد الى الديوان فسأله ابراهيم اين السلطان فبدأ يتنكر فقال له اين رفقاؤك قال ليس لي رفقاء قال سعد لابراهيم اتركه اليّ وانا اقرره واتى بفحـم واوقده حتى صار جمرا ووضع بالنار قضبان حديد وعراه من ملابســه وصار يكويه بالحديد وهو يصيح وقال اصبروا علي فانا احكي الصحيح ثم انه حكى القصة التي جرت من يوم اقبل من جنوا من قلعة السلاسل

الى ان وصل الى الاسكندرية ووضع تجارته في الخان وسمى اسمـــه والكتاب الذي اتى به من جوان الى علاء الدين الصوري التاجر المعروف بالاسكندرية وسرقة السلطان واولاد الناس فقال له ابراهيم والان اين هم فقال بأحد الدور اهديكم اليهم فقال له ابراهيم وكم هم رفقاؤك فقال له عشرة فقال ابراهيم قم دلنا على السلطان وعلى رفقائك ونهض ابراهيم وسعد ونائب الاسكندرية ولحقهم بعض الرجال الى ان وصلوا الى الدار التي فيها فحالا قبضوا على العشرة ثم انهم دخلوا على السلطان فوجدوه مكبلا بالحديد وداقين له سكك في الحيطان ووجدوا الاطفال المسروقين في اسوأ الحالات فخلصوا الملك والاطفال وسأل الملك ابراهيم كيف عرفت اني هنا فحكى له بما جرى من الاول الى الانتهاء فحالا أمر السلطان بشنق العشرة في الاسواق اما بتوت رئيسهم فأبقاه ليسأله ثم أمر الملك بهـدم الدار وقتل ما فيه من السكان وكلهم افرنج لانهم كانوا يعلمون بأفعال بتوت ورفقائه وساكتين عنهم وما اعطوا خبرا للدولة عنهم ثم سار الى الديوان فقال ائتوني بهذا اللعين بتوت فأتوا به قال له السلطان من اين انت قال من جنوا فسأله ومن الذي بعثك الى هنا تفعل هذه الجرائم قال جوان قال الملك احكي لي بمن اتصلت من سكان الاسكندرية فحكى له على المكتوب الذي اتى به الى علاء الدين الصوري التاجر فحالا أمر الملك باحضار هذا التاجر فحضر فسأله الملك اين المكتوب الذي اتى به اليك هذا من جوان فأنكر معرفته وقال ما اتى لي مكتوب من احد فسأل الملك بتوت اما هذا الرجل الذي قلت عنه واتيت له بالمكتوب قال نعم هذا هو بعينه واستأجر لي الدار التي كنت فيها ودفع الاجرة منه قال الملك انت تعرف الشخص الذي أجركم الدار قال نعم اسمه رفول فبعث الملك رجلا احضر مختـــار الحارة فقال له الملك هل يوجد بالحارة عندك رجل يدعى الخواجا رفول قال نعم يا جلالة السلطان فقال اذهب وائتني به فحالا اتى به فسأله الملك ما اسمك قال رفول يا سيدي السلطان قال انت صاحب الدار قال نعم قال لمن أجرته قال لى علاء الدين التاجر المعروف واعطاني اجرته منه وقال لي عنده ضيوف يريد ان يسكنهم فيه وها هو واقف بين يديك ودل عليه وقال له اليس كذلك فسكت علاء الدين فقال له الملك كيف تنكر انك لا تعرف احدا ولا جاءك مكتوب فسكت ثم ان الملك صرف رفول والمختار وقال لهما اذهبا الى حال سبيلكما ثم ان الملك امر بصلب بتوت والتاجر اللعين وأمر بمصادرة أموالهما وتوزيعها على الفقراء واهالي الاطفال الذي سرقوا ثم ان الملك استقام بالاسكندرية مدة عشرة ايام واذ يسمع صوت مدفع من على

الميناء فسأل ما الخبر قالوا يا جلالة السلطان اتى امير البحار ابو علي البطرلي بمراكبه ومعه مراكب اسارى وهذا صوت مدفع ضربته المراكب تحية له قال آتوني به فحالا حضر وسلم على الملك ودعى له فاستقبله بالترحاب واجلسه جانبه وقال ما وراءك من الاخبار قال كل خير يا امير المؤمنين واعرفكم يا مولاي انه وجد قرصان ولصوص بحار في طريق سفن التجار فجهزت عشرة مراكب كبار واوسقتها بالرجال وصرت اجوب البحار وادور على القرصان اللئام فوجدناهم يعتدون على احد مراكب التجار وكانوا ثلاثة مراكب مسلحة بالمدافع فهاجمناهم واحتطنا بهم من كل جانب فاشتعل الحرب بيننا وبينهم الى ان قضينا على اكثرهم واخذنا الباقي اسارى مع المراكب الثلاثة وسألنا الجنود وجدناهم من مراكب جنوا وقالوا انه بعثهم ملكهم وجوان لاجل يقطعون الطرق في البحار وبالاخص على مراكب رعية السلطان فقال الملك احضر لي الاسارى لأراهم فحالا جاءوا بهم فسألهم الملك من ارسلكم قالوا ملك جنوا وجوان قال وما علموكم قالوا ان نأخذ مراكب التجار واموالهم المتوجهة الى سواحل مصر والشام قال خذوهم الى السجن ثم التفت الى امير البحار قال ما رأيك يا ابو علي بهذا اللعين حاكم جنوا لانه لا يهدأ عن اذيتنا قال يا امير المؤمنين أؤمرني بضربه واطلق يدي في هذا الشأن ترى مني ما يذهل الاذهان فقال له السلطان لك الحرية في ذلك فافعل ما بدا لك اصلح الله اعمالك فاستأذن ابو علي من السلطان بالرواح وبدأ بالاعمال ثم انه فتش الميناء فوجد بها بعض مراكب جنوا فأمر بمصادرتها مع اموالها والرجال ثم بعث الى اللاذقية ان يأتوه بالمراكب الموجودة هناك مع رجالها ثم بدأ يجمع الرجال والمراكب ويجهزها على احسن حال وأعلم السلطان بما كان وقال له ارسل لي العساكر والجنود المجربين في القتال بدون خيل فأرسل الملك الى مصر الى الوزير شاهين ان يرسل العساكر بالحال وأن يخففوا من الاثقال ليكونوا خفافا في التنقل فحين وصول الكتاب الى الوزير شاهين امر بجمع العساكر حسب ما امر السلطان وتوجهوا طالبين الاسكندرية فعند وصولهم ترجلوا عن خيولهم بأمر امير البحار وأنزلهم في المراكب بالحال وهم يقدرون بخمسين الف مقاتل واستلمت قيادة المراكب البحارة المغاربة الشجعان ثم ان امير البحار ابو علي البطرلي استأذن من الملك بالرواح لغزو جنوا وتأديب ملكها فأذن له السلطان بالذهاب ودعى له بالنصر والتوفيق ثم انه اقلع بالبحر الى جنوا الى ان صار على مقربة منها عند

الفسق فوقف هناك وارسل مركبا صفيرا به عشرة رجال على صفة اهل البلاد ومعهم بارود لاجل لغم باب البلد بالبارود وكان الاتفاق بينهم وبين امير البحار ان يولعوا النيران وينسفوا باب البلد عند الفجر ففعلوا ما امرهم الامير ولغموا الباب وقعدوا ينتظرون الصباح واذ ابو علي البطرلي يقتحم الميناء قبل الصباح بساعة من الزمان فاحتل الميناء وعند بزوغ الفجر انفجرت الالغام وخرب باب المدينة فأمر امير البحار بالهجوم على جنوا بالحال فتصايحت الشجعان الله اكبر فتح ونصر ودخلوا المدينة فما نهض اللئام من المنام الا والسيف البتار يرمي الرقاب اما ملك جنوا وجوان والبرتقش فقاموا من المنام على الصياح فذهلوا وقالوا ما هذا الحال ثم انهم رفعوا حجر البالوعة ونزلوا الى السياق خوفا من القتل والاسر اما الاهالي فصاحت الامان الامان فأمنهم امير البحر على ارواحهم ودخل مع الشجعان الى سراية الملك وديوانه وأخذوا خزينة الاموال وكل ما غلى ثمنه وخف حمله اما ملك جنوا وجوان والبرتقش فما راوا لهم اثرا ثم اقتحموا السجون واخرجوا ما فيها من الاسارى وهم يقدرون بألف اسير بين رجال ونساء وهم الذين كانوا يأسرونهم من على المراكب في البحار اما رجال ملك جنوا فقتل منهم كثير والباقون اسروا وهم يقدرون بخمسة آلاف اسير فلما امسى المساء امر امير البحار بالخروج من المدينة من بعد ما اوسقوا المراكب وحملوها من الارزاق والاموال ثم امر بالركوب بالسفن واخذوا معهم الاسارى واركبوا الذين كانوا مأسورين في مراكب الاعداء الراسية على الميناء ثم ان ابو علي كتب كتابا واعطاه الى اسير ضعيف وقال له خذه الى مليكك فأخذه وسار الى ملكه وناوله الكتاب ففضه وقراه وجد فيه خطابا من امير البحار ابو علي البطرلي قبطان امير المؤمنين الظاهر بيبرس اعلم يا قرنان ان الملوك العظام ترسل ابطالها نهارا وتغزو عدوها جهارا اما انت يا جبان فترسل العياق واللصوص لسرقة الاطفال والاعتداء في البحار على المسافرين الضعفاء العزل وتأخذ اموالهم وتاسرهم فاعلم اني واقف لك بالمرصاد في كل وقت واوان واني قادر في كل ساعة ان اخرب بلدك على راسك يا نذل يا أخس الملوك وقد صادرت مراكبك في الاسكندرية مع رجالها وبالاخير لا سلام عليك ولا امان يا لعين يا قرنان . فلما قرا ملك جنوا الكتاب صار يرجف مثل الكلب البردان ثم التفت الى جوان وقال له انت السبب في ذلك لانك ما ارتأيت لي رايا الا عاد علينا بالخراب والدمار وسوء الحال فأخرج من بلدي بالحال لانه في اقامتك عندي هلاك الرجال وخراب الاوطان فاذهب ولا ترني وجهك على طول الزمان فذهب جوان

والبرتقش مقهورين هذا ما كان من هؤلاء .

اما امير البحار ابو علي البطرلي فما زال مقلعا في البحر الى ان وصل الى ميناء الاسكندرية وضرب مدافع السلام فسمع الملك الظاهر وقال ما الخبر فقالوا يا جلالة السلطان عاد امير البحار وهو مؤيد منصور ومعه من الغنائم والارزاق شيء يعجز عن وصفه اللسان ومعه الذين كانوا اسروا في بلاد الافرنج ففرح السلطان واستبشر بهذا الانتصار وبعد قليل واذ بأمير البحار داخل على السلطان فاستقبله الملك واجلسه الى جانبه وهنأه بالسلامة والنصر على الاعداء ثم سأله عن غزوته وما جرى له فبدأ ابو علي يسرد له كيف انه اخذ الاعداء على حين غرة وانه ما نقص من رجاله ولا واحد لان الاعداء عندما بوغتوا في الصباح ذلوا واستسلموا ولا عاد احد منهم يقدر ان يرفع السلاح كل هذا يا مولانا بحسن دعائكم لنا ورضاكم علينا فتبسم السلطان وقال له بارك الله فيك يا ابو علي وأوصيك دائما بتحصين مدن السواحل والاستعداد التام لخوض المعارك البحرية فقال امرك يا مولاي ثم انه استأذن من السلطان وذهب الى اشغاله اما الملك فقد استدعى نائب الاسكندرية ورئيس الميناء وقال لرئيس الميناء تفقد دائما الاجانب عندما يأتون الى الاسكندرية واعلم بهم النائب ليعلم من اتى ومن راح وانت ايها النائب اكثر من الدرك واجعل عليهم رجلا ماهرا يقظا لا تفوته فائتة ودائما يجوب الحارات والشوارع ليلا كان او نهارا واوعز الى مخاتير الحارات ان ينبهوا الاهالي ان يكونوا على استعداد لملاقاة الاعداء اذا خرجوا من البحار ويكون السكان سلاحهم دائما على مقربة منهم ليساعدوا العساكر والجنود الى ان تأتي جيوش السلطان ثم انه صرفهما الى اعمالها وثاني يوم اخذ ابراهيم وسعد وتوجه الى مصر وطلع الى قلعة الجبل وجلس على تخته في الديوان اما امير البحار ابو علي البطرلي فانه فرق الغنائم على العساكر وأبقى الخمس للاستعداد وصرف العساكر والجنود كل منهم الى قاعدته وبدأ يعمل في انشاء المراكب ويخدم المغاربة البحرية واتى بهم من سواحل المغرب الى ان صار عندهم جيش عظيم من البحارة ونظم لهم مراكب قوية بالمدافع وفرقهم على سواحل مصر والشام وامرهم بالتيقظ وان يجوبوا البحار وعين لكل فرقة منهم جهة من البحر يراقبها وهو يتنقل فيما بينهم ويتفقد قواعدهم .

اما المقدم جمال الدين شيحة سلطان الحصون فانه كان يلاقي صعوبة ومشقة من الفداوية الذين كانوا يعودون من التفتيش على المقدم معروف

وكل منهم كان لا يرضى بهذه الاحكام ويظهر العصيان فيجبره جمال الدين بالاطاعة والبعض منهم يقنع باللطف والاحسان الى ان يطيع الجميع ويكرمهم ويجعل لهم مقاعد في الديوان ليكونوا على استعداد للحرب والنزال وعاد اليه كثير من الرجال الاقوياء مثل المقدم جبل واولاد اخته والمقدم صوان والمقدم منصور العقاب وغيرهم .

قال الراوي : وفي بعض الايام دخل الى الديوان نجاب غريب الـزي فتكلم فما فهم كلامه احد الا الملك اجابه بلغته وأمر له بالجلوس واحترمه كثيرا حتى تحيرت اهل الديوان من هذا الشأن ثم ان الملك اخذ منه الكتاب وقرأه فدمعت عيناه فتعجب الوزير شاهين وأهل الديوان وقالوا للملك ما جرى لك يا امير المؤمنين نحن نفديك بأرواحنا فأنبئنا عن احوالك اطال الله عمرك وجعلك ذخرا للمسلمين فقال الملك ان هذا النجاب الحامل الكتاب هو رسول من عند والدي الشاه جمك فلما تكلم عرفت ما تكلم به فاستبشر وقال لي لا شك انك انت ابن سيدنا الشاه فقرات المكتوب وجدت فيـــه بسم الله الرحمن الرحيم خطابا من الشاه جمك حاكم خوارزم العجـــم والدربندات الى بين أيادي ولدنا امير المؤمنين وخادم الحرمين سلطان مصر والشام من اسمه محمود بن جمك وامه السيدة آبق اعلم يا بني انه من يوم الذي قدر الله علينا بفراقك انا ووالدتك ما تهنينا لا بطعام ولا بنوم وامك دائما تبكي وتنوح وانا أصبرها واقول لها انشاء الله اللقاء قريب وفي يوم من الايام ذهب الحجاج من عندنا الى الاراضي المقدسة لاجل الفريضـــة وعند رجوعهم جعلوا طريقهم الى مصر ودخلوا جامع الازهر لاجل صـــلاة الجمعة واذ بك انت مقبل الى الجامع ومحتاطة بك عساكرك وأكابر دولتك فلما رآك الحجاج قالوا ان هذا الملك يشابه ملكنا الشاه جمك وما نحسبه الا ابنه بالذات واذ بهم يسمعون الخطبة والخطيب يدعو لك بالنصر والتأييد ويذكر اسمك ولقبك فلما رجع الحجاج الى البلد دخلوا عليَّ واعلموني بهذا الشأن فأعلمنا يا ولدي هل انت محمود ولدنا ام ان الحجاج اخطأوا فاكراما الى الله انك تعرفنا بالجواب مع حامل كتابنا هذا والسلام عليكم فهذا كان سبب بكائي لما قرات الكتاب ثم ان الملك امر بأخذ النجاب الى دار الضيافة والتفت الى الآغا شاهين وقال له ما الراي عندك ايها الوزير قال يا ملك الزمان اكتب الجواب الان وأرسله مع النجاب الذي اتى بالكتاب وبعدما تهيىء اسباب السفر الى عند والديك وتقيم عندهم شهرا من الزمان لان لهما حق عليك يا مولانا السلطان وطاعتهما من طاعة الرحمن قال الملك هذا هو الراي الصواب ثم ان الملك كتب الجواب لوالديه وأعطاه للنجاب وانعم

عليه وامره بالمسير الى والديه فاخذ الجواب وسار الى ان وصل الى مدينة الدربندات ودخل على الشاه جمك واعطاه الكتاب ففضه وقراه واذ بـــه بسم الله الرحمن الرحيم السلام عليكم ورحمة الله وبركاته نعرفكم يـــا والدنا الشاه جمك اطال الله عمرك انه وصلنا كتابكم فقراناه ونحن مسرورون فحمدت الله الذي انتم ووالدتي بخير ونحن يا والدنا نقول لكم ان الحجاج الذين اتوا من عندكم ومروا بمصر ونظروا اليّ لم يخطئوا الرؤيا والحسبان فأنا ولدكم حقا وانشاء الله في مدة وجيزة من الزمان اكون عندكم وفي خدمتكم واطلب منكم الرضا والدعاء واعلموا يا والدي ان الذي جرى عليّ ما هو الا من مسير الاكوان والا من اين لي ان اكون سلطان مصر والشام لو ما جرت علي هذه الاحكام فهذا مقدر علي من الازل وان المقدر كائن لا ينمحي وان الله سبحانه وتعالى يجزل لكم الاجر والثواب جزاء صبركم مما اصابكم بفقدي من الاحزان واعلمكم يا والدي اني عن قريب اكون عندكم وفي خدمتكم واني مهتم في هذا الشأن والسلام عليكم ورحمة الله .

ثم ان الملك صار يتجهز للسفر الى والديه في مدة عشرة ايام فأوصى الملك لولده السعيد في غيبته ويكون المستشار لديه الصدر الاعظم الوزير شاهين وأوصاه بابنه السعيد وأوصى بالاطاعة للوزير ثم هم بالرحيل الى الخوارزم والدربندات بلاد والديه ثم عين الذين سيذهبون معه وهـــم ابراهيم وسعد وأيدمر وعشرون مقدما من بني اسماعيل والف مملوك من مماليكه وهم في احسن اللباس والسلاح على خيل عربية اصيلة وجمع من الهدايا من كل شيء مستظرف جميل وثمين وعبأ الصناديق مـــن قماش صنع مصر والشام والبعض منه مزركش بالفضة والذهب والبعض حراير وتحف ثمينة مرصعة بالذهب والبعض منها كنوز باديس السبكي واخذ معه صواوين وخياما ومؤنا وذخائر وكلها محملة على بغال واخذ عشية وخداما ثم امر الملك بالخروج الى ظاهر مصر واقام بالخيام فصارت تأتـي الوزراء والامراء واعيان البلاد لوداعه والسلام عليه وهم يدعون له بالسلامة فـي الذهاب والاياب وبعد ثلاثة ايام ركب هو ورجاله وحملوا احمال الهدايا وسار طالب الخوارزم فصار يمر على البلاد وتستقبله النواب الى ان جاوز حدود البلاد ودخل بلاد الاعجام وصار قريبا من مدينة والديه فبعث المقدم سعدا ليعلم والديه حتى لا يكون لهم ازعاج من مفاجأة اللقاء فتوجه سعد بالحال ودخل على الشاه جمك والد السلطان الظاهر فتعجب الشاه من سعد ولباسه الفاخر وطوله الفارع فقال له ماذا تريد ايها الفتى فقال له

سعد انا مرافق ولدك السلطان الظاهر امير المؤمنين جئت لابشرك في قدومه يا حضرة الشاه وهو على بعد فرسخين من هنا فلما سمع الشاه ما قال سعد أمر بالركوب الى ملاقاة ولده السلطان فركبوا بالحال وفي اوائلهم الشاه جمك الى ان وصلوا الى مكان نزول السلطان الظاهر واتباعه وكان السلطان قد خرج من الصيوان وركب هو ومن معه من المقدمين والمماليك واستقبل والده قبل ان يصل اليه ثم عندما تقابلوا وهم على ظهور الخيل ترجلوا واقبل الملك الظاهر وهو فاتح ذراعيه كذلك والده فتح ذراعيـــه وتعانقا باشتياق عظيم وبكيا من شدة الفرح ثم ان السلطان أجلس اباه في الصيوان وجلست الوزراء والامراء وصاروا يهنئون الشاه والسلطان بجمع الشمل بعد الفراق وبعد ان اقاموا ساء من الزمان نهض الشاه والسلطان والوزراء والامراء وركبوا على الخيول وسار السلطان جانب الشاه ومحتاط بهم أكابر دولتهم والعساكر والجنود من ورائهم وساروا الى ان وصلـــوا مدينة الدربندات عاصمة الشاه فاستقبلهم الشعب اعظم استقبال الى ان دخلوا سراية الشاه وبلاط الملك ثم دخلوا الى الديوان وأقام السلطان مع والده الشاه فطلب السلطان الظاهر من والده مواجهة والدته فدخـــل الشاه الى الحرم وأعلم زوجته آيق أم السلطان بأن ولدها محمود يريـــد مقابلتها فقالت ادخله بالحال فرجع الشاه الى ولده وقالله ادخل يا بني لعند والدتك فنهض السلطان ودخل الى عند والدته فهجمت عليه وعانقته وصارت تقبّله وتبكي وتقول انت محمود وحق الرب المعبود وكاد يغشى عليها من شدة الفرح فأجلسها ولدها السلطان بلطف في مكانها واتوا لها بالمنبهات والمنعشات فصحيت مما هي فيه وصارت تشكو له ما لاقت من الاحزان لاجله وانها الان لا تصدق انها تراه وتحسب نفسها بمنام فقال لها السلطان خففي عنك يا أماه وكوني فرحة ومسرورة وخلي عنك الحزن والتحسر من شيء قد مضى والان اريد ان ترفهي عن نفسك بما اتيت لك من الهدايا الفاخرة وأمر باحضار الصناديق فأحضروها بالحال فصار يفتح صندوقا بعد صندوق من الاشياء التي توافق النساء وصار يخرج ما بها من قماش مطرز ومزركش شغل مصر والشام وتحف وعقود تحير العقول ففرحت امه بما قدمه لها ولدها من العطايا الثمينة فصارت تدعو لــــه وتقبله ثم استأذن منها بالخروج لعند ولده لاجل استقبال المهنئين فأذنت له بذلك فخرج وجلس في الديوان وصار يستقبل الوفود من المهنئين ويسلم عليهم ويصافحهم وبعد ذلك قدم لوالده باقي الصناديق وأخرج منها ما يوافق الشاه واكثره من الكنز الذي وجده في بيت باديس السبكي من

سلاح محلى بالذهب والفضة واوان قديمة المثال وتحف لا يقوم لها ثمن مما سر والده الشاه سرورا عظيما ثم اهدى وزراء ابيه اشياء كثيرة نفيسة فشكروه شكرا جزيلا أما الشاه فصار يقدم لهم ما يسرهم واقامهم في اعلى مقام وامر رجاله بمرافقتهم ومؤانستهم واخذوهم الى المنتزهات وعمل لهم الحفلات حتى نسوا بلادهم واوطانهم مما نالهم من الحظ والانشراح في مملكة والد سلطانهم الشاه جمك ثم ان الشاه قال لابيه يا بني ان الملك هلاوون عابد النيران مركب عليّ جزية كل عام وان هذه الجزية ارهقت الرعية فالمراد يا بني ان ترسل اليه ان يمنع عنا هذه الجزية لانه لا يقدر ان يخالفك في هذا المنوال فقال له السلطان على العين ثم الراس فحالا كتب كتابا وسلمه لابراهيم وقال له خذ هذا الجواب واعطه لمقدم من بني اسماعيل وقل لمن يأخذه ان يضعه فوق راس الملك هلاوون وهو نائم ولا يزعجه ولا يفيقه ويرجع حالا فأخذ ابراهيم الكتاب وطلع لعند المقدمين وقال لهم ان امير المؤمنين باعث كتاب الى هلاوون وشرط ان من يأخذه يضعه فوق راسه وهو نائم ويعود فورا فنهض المقدم صوان وخطف الكتاب من يد ابراهيم وقال انا اضعه فوق راسه بدون ان يشعر ففرح ابراهيم بهذا المقدم لانه لا يصطلى له بنار وان هذا الشيء عنده كشرب الماء فأخذ الكتاب وسار الى ان وصل الى توريز العجم عاصمة الملك هلاوون وصبر الى الليل ونصب مفرده وطلع عليه ونزل الى داخل السراية واختفى بها حتى عرف اين مرقد الملك هلاوون فلما أقبل الى قاعة الملك وجد الغفر نائما فوضع منديل البنج على وجهه فصار معه نوم على نوم ثم دخل الى القاعة فوجد الملك نائما على تخت من العاج فوضع كتاب السلطان الظاهر فوق رأسه وخرج حسب ما هو مأمور به ثم انه نزل من السرايا وتوجه الى مدينة الدربندات الى عند ابراهيم وأعلمه انه نفذ المهمة على احسن ما يرام فقال له المقدم ابراهيم بارك الله فيك يا مقدم صوان ثم ان المقدم ابراهيم أعلم السلطان بذلك اما الملك هلاوون عندما أفاق عند الصباح وجد مكتوب السلطان فوق رأسه فتعجب من هذا الامر وقال من وضعه هنا ومن تجرأ ودخل عليّ وانا نائم فخرج من القاعة وجد الغفر لا يعي وهو مثل القتيل فصاح على الخدم ان يصحوه وبعدما صحى سأله من دخل عندي اثناء نومي فقال لا احد يا جلالة الملك فصاح به الملك ايها الخائن كيف تسمح لاعدائنا ان يدخلوا عليّ وانا نائم ارموا رقبته فحالا قطع الجلاد راسه ثم ان الملك هلاوون فض الكتاب وقراه فوجد فيه بسم الله الرحمن الرحيم من

امير المؤمنين سلطان مصر والشام السلطان الظاهر بيبرس بن الشاه جمك ملك الخوارزم والدربندات الى ملك هلاوون بن منكتم اعلم ايها الملك انه عرفني والدي انك في كل عام تأخذمنه الجزية وان هذه الجزية ارهقت رعيته فأنا آمرك ان ترفع عنه هذا الخراج بالحال وانا منتظر جوابك الى خوارزم والدربندات واعلم ان الذي وضع كتابي فوق راسـك قادر ان يأتيني براسك او بشخصك كما ان اي عدوان او اذية تصل منك الى والدي او الى رعيته وبلاده فحالا اجتاز حدودكبجيوشي الجرارة واجعل الحرب داخل بلادك التي اغتصبتها وظلمت اهلها بجمع المال والخراج فأنا عندمـا اسير اليك فانهم يساعدونني عليك فلا ابقي منكم ديارا ولا عابد نار فالحذر الحذر من الغدر والعصيان فلما فرغ هلاوون من قراءة الكتاب جمـع الوزراء واستشارهم في هذا الامر فالبعض منهم قال نهجم عليه ونغدر به وقال البعض لا تفعل ايها الملك لان السلطان ما جاء الى هذه الديار الا وهو على اعظم استعداد والان ابعث له الجواب باللين واجبه الى ما طلب فهو احسن فقال لهم الملك هلاوون هذا هو الصواب فكتب كتابا وارسله مـع نجاب الى خوارزم والدربندات الى ان وصل الى السلطان واعطاه الكتاب ففضه الملك الظاهر وقراه واذ به باسم النار والنور الذي نعرفكم به ايها السلطان انه قرأنا كتابكم فسرنا كثيرا انك قريب من بلادنا واني ادعـوك لزيارتي بعد انتهاء زيارتكم لوالدكم لاقوم بما يجب عليّ تجاهكم ثم انكم عرفتموني من جهة الجزية التي نأخذها من والدكم في كل عام فهي من الان ملغاة ولا عدنا نطلبها منه حسب رغبتكم ونحن لم نعلم ان الشاه جمك هو والدكم والا ما كنا رتبنا عليه مالا ابدا وبالختام تقبلوا منا فائق الاحترام فعندما قراه الملك الظاهر أعلم والده بالحال واعطاه الكتاب ففرح الشاه بهذا الشأن وعلم انه صار له سطوة على عابد النيران وصار يهابه خوفا مـن السلطان الظاهر ولده ثم ان الملك قال لوالديه اني اقمت مكاني حفيدكم على الحكم ولا يزال حديث السن وأخاف ان تكثر عليه الامور او يخطىء مع رعيته وان مملكتي واسعة جدا واعداؤها كثيرون من الافرنج لاسيما على السواحل فالمرجو منكما ان تسمحا لي بالعودة الى مصر لاني اخاف ان تتخذ الاعداء غيابي فرصة وتهاجم البلاد فقال له والده الشاه يسر الله أمـورك ونصرك على اعدائك عد الى مملكتك مصحوبا بالسلامة ولكن لا تطول الغيبة علينا ولا تؤخر عنا المكاتيب قال ان شاء الله ثم ان السلطان قبّل يـدي والديه وطلب منهما الدعاء فتعانقا وتودعا من بعضهم اما الملك الظاهر أعلم جماعته الامراء والمقدمين بالعودة الى الاوطان ثم انه بعد ثلاثة ايام ركب

السلطان وجماعته ووالده الشاه وجماعته وساروا معه مسيرة نهار فحلف السلطان على والده ان يرجع الى مملكته فرجع الشاه ووزراؤه ورجاله الى مدينتهم ولم يزل الملك الظاهر سائرا الى مصر الى ان بقي بينه وبينها نهارا فبعث سعدا أعلم السعيد بن السلطان والوزير شاهين فركبوا واستقبلوا السلطان ورجاله بالترحاب وهنأوهم بالسلامة وسار الموكب الى ان وصل الى قلعة الجبل وضربت المدافع لقدوم السلطان وفي الصباح جلس الملك على تخت ملكه يتعاطى الاحكام مدةمن الزمان الى ليلة من بعض الليالي وهو نائم راى مناما كأنه في بلاد الروم ودخل مدينة وتفرج في شوارعها فرآها مدينة عامرة وراى كأن البحر محتاط بها وقد عطش عطشا شديدا فراى بئرا فنظر فيه لعله يجد فيه ماء فسمع صوتا قريبا من البئر فالتفت فوجد رجلا جالسا على تخت وقد اعتراه المرض والسقام وهو يصيح الي الي يا امير المؤمنين انقذني فاني على وشك الفناء فتأمله السلطان فاذا هو معروف بن جمر الذي كان سلطان القلاع والحصون فلما صحا من نومه تأثر كثيرا وصمم على انقاذه من السجن ولما دخل الى الديوان وجلس على تخته قال لابراهيم انا الليلة رايت معروفا بن جمر في المنام وهو في أشد العذاب وسمعته يقول الي الي انقذني يا امير المؤمنين فقال ابراهيم خير رايت يا امير المؤمنين ان منامك صحيح لانك لا تنام الا وانت طاهر ولو اني اعلم في أي بلد هو لكنت سرت اليه وانقذته ولو كلفني حياتي لان البلاد التي في البر لا تخفى علينا اما التي على البحار فما يعلم عنها الا القبطان الذي عند مولانا السلطان فأرسل اليه فلعله ينبئنا عنها قال الملك هذا هو الصواب فكتب الملك كتابا وارسله الى امير البحار ابو علي البطرلي ان يحضر بالحال فلما وصله الكتاب توجه الى المثول امام السلطان ودخل الى الديوان وسلم على الملك فأمر له بالجلوس وقال له يا امير البحار هل تعرف جميع المدن التي على البحار قال ابو علي نعم اعرفها يا امير المؤمنين فاسألني عما تريد فقال له الملك يوجد مدينة على جزيرة والبحر محتاط بها من ثلاث جهات وهي عمار هكذا رايتها في المنام فقال ابو علي خيرا رايت يا مولانا السلطان وارجو ان تمهلني قليلا لاحضر الخارطة التي فيها مواقع البلدان التي على البحار فغاب وعاد ومعه كتاب كبير فيه جميع ما حول البحر من بلاد ففتح الكتاب وصار يبين للسلطان بلدا بلدا وقال يا مولانا اظن ان هذه هي البلد التي رايتها في المنام واسمها مدينة القطلان لانها هي التي يحيط بها البحر من ثلاث جهات فقال الملك اذهب يا ابو علي الى هذه المدينـــة

واكشف لي عن اخبار اخيك المقدم معروف بن جمر هل هو مسجون في هذ البلد حتى نسعى انشاء الله في خلاصه وان قلبي يحدثني انه فيـه فقال امير البحار امرك يا جلالة السلطان فاني من الان ذاهب واركب البحار وانظر هذه المدينة التي وصفتها لي في المنام وامر على القطلان وافتش على معروف فقال له الملك بارك الله فيك يا ابو علي فذهب في الحال له معنى كلام اما الملك بينما هو جالس في ديوانه واذ بنجاب يدخل الديوان ويقول سبحان هادي الطير فقال الملك من اين والى اين قال يا مولانا من دمشق الشام وحامل كتاب من نائبها الى امير المؤمنين فأخذه الحاجب منه واعطاه الى السلطان ففضه وقراه فوجد فيه بسم الله الرحمن الرحيم خطابا من نائب الشام الى مولانا السلطان امير المؤمنين وخادم الحرمين الذي نعرفكم به انه يوم تاريخه بينما نتعاطى الاحكام واذ بالوالي داخل ومعه رجل فداوي من بني اسماعيل واحد التجار بالشام فسألت الوالي ما الخبر فقال لي ان هذا الفداوي معه عملة مزيفة ويريد ان يمشيها بالسوق الى التجار بالقوة فشكوا لي التجار بهذا الامر فأتيت لك بالعملة وبالذي يريد ان يمشيها فلما اخذت العملة منه وجدت مكتوبا على الوجه الاول يا قاضي الحاجات وعلى الوجه الثاني ضرب هذه العملة السلطان عماد الدين علقم سلطان الدنيـا والدين فسألت الفداوي من اين لك هذه العملة ومن هو السلطان عماد الدين فقال عماد الدين سلطان القلاع والحصون وسائر بلاد المسلمين فقلت له واين يقيم هذا السلطان قال في قلعة صهيون فحالا وضعنا الفداوي فـي السجن وعرفناكم في هذا الامر والذهب الذي عرضه ارسلنا لكم منه قطعة مع النجاب والامر امركم مولاي فلما قرأ الملك الكتاب وفهم معناه سـأل النجاب اين قطعة الذهب المرسلة معك فأخرجها واعطاها الى السلطـان فوزنها فوجدها ثقل الدينار الظاهري فسأل الملك بني اسماعيل من هو عماد الدين علقم قالوا يا مولانا هو ابن اخت المقدم معروف وانه كان من المفتشين على المقدم معروف فقال الملك لا بد لي ان اذهب الى الشام وارى هذا الشأن ووصى ابنه السعيد بالجلوس على كرسي مصر واخذ ابراهيم وسعدا مرافقيه وسار الى دمشق الشام اما سبب ضرب العملة من المقدم عماد الدين بن فخر الاصيل ابن اخت معروف انه لما قدم من التفتيش عن خاله ووصل الى قلعة صهيون راى الشعار مغيرا ومكتوبا على باب القلعة اسم شيحة جمال الدين سلطان القلاع والحصون فتعجب وسأل الرجال من هذا شيحة فأخبروه عن المقدم شيحة جمال الدين واعماله واوصافه وان الذي سلطنه الظاهر سلطان مصر والشام ثم سأل عن خاله معروف حضر ام

لا فأعلموه انه لم يظهر فقال شيحة مقتول والظاهر معزول وما احد سلطان الارض بالطول والعرض الا السلطان عماد الدين بن فخر الاصيل ثم انه قال ارفعوا هذا الشعار وامحوا هذه الكتابة واحضر رجلين يعرفان بصنع قوالب العملة فأمرهما ان يصنعا له قالبا لدينار ويكون اسمه مكتوبا عليه فصنعوا له ما أمر فضرب عليه عملته واخذ يفرقها في القرى والمدن الى ان وصلت الى الشام اما ما كان من الملك فانه ما زال سائرا الى ان وصل الى الشام ونزل في قصر الابلق وضربت المدافع اشعارا بقدومه ثم أقبل عليه نائب الشام وأعيان دمشق والامراء وسلموا عليه ودعوا له بدوام العـــز والنصر على الاعداء ثم ان الملك بعدما اخذ راحته من عناء السفر أمــــر باحضار الفداوي الذي مراده ان يمشي عملة سيده عماد الدين فأحضروه بالحال فرآه الملك رجلا مسنا فقال له من انت قال انا المقدم شاهين ابو غطاس قال له من اين هذه العملة التي مرادك ان تمشيها بين الناس قال هذه عملة السلطان عماد الدين علقم فقال له ومن سلطنه قال لقد عزلك وصار هو السلطان فتأثر الملك من كلامه وقال له لو لم أحترم شيبتك لقطعت راسك بالحال وأمر ان يطلقوا سراحه فقال ابراهيم قصف الله عمر عماد الدين اما وجد غيرك ايها الجاهل لترويج عملته انصرف فقد عفا عنك جلالة السلطان اما الملك بعد ثلاثة ايام أمر ابراهيم وسعدا ان يتنكرا فتنكر هو بصفة تاجر كردي وساروا طالبين قلعة صهيون وما زالوا سائرين الى ان قاربوا الوصول اليها فبعث الملك ابراهيم ليعلم عماد الدين بقدومه فدخل القلعة وسأل عن المقدم عماد الدين اين هو قالوا له في القاعة وعنده الرجال فدخل ابراهيم على عماد الدين وسلم عليه وقال له انهض استقبل السلطان ها هو قادم اليك فقال عماد الدين ومن يكون سلطانا غيري فقال له ابراهيم قم بلا ثرثرة وكلام فارغ ما تلفظه المجانين فقال له عماد الدين لو لم تكن داعسا على بساطنا لكنت أدبتك على هذا الكلام قال له ابراهيم اترك هذا البساط واخرج لبساط الفلا الأريك فعل الرجال .

الخيل والليل والبيداء تعرفني والرمح والسيف والقرطاس والقلم

فنهض عماد الدين واخذ سلاحه وركب مهرته وقال لأريه شقشقـــة لسانه وادع أمه الشمطا تندب عليه وخرجا الى الفلاة واصطدما معا واشتد بينهما الخصام والقتال وتضاربا بشجاعة نادرة وشخصت لهما الابصار وطال بينهما المطال وايقنا بالزوال فشعر عماد الدين انه كلما اراد ان يبطش بابراهيم يراه ثابتا لايتزحزح فانحمق منه وسدد اليه ضربة قاتلة ابطلهـــا

ابراهيم بالحال فبينما هما على هذا المنوال من الحرب والطعان واذ بفارس يصيح بهما ما هذا قفا عن القتال ودخل بينهما حاملا الدبوس ومنعهما من متابعة القتال فترجل ابراهيم عن فرسه اما عماد الدين فقال لابراهيم لولا هذا الكردي لاريتك قيمتك بين الرجال فقال له ابراهيم تأدب يا عماد الدين امام امير المؤمنين فخجل عماد الدين وترجل عن مهرته واعاد سيفه الى قرابه وتقدم من الملك وقبّل يده فترحب به الملك والتفت الى ابراهيم وقال لماذا القتال فقال ابراهيم كنا نسلم على بعضنا ايها السلطان فقال لهما أصلحكما الله أيكون السلام بالسيف والسنان ثم ان عماد الدين دعـــى السلطان الى داخل القلعة ليقوم بما يتوجب عليه من الضيافة والاكرام وقال يا مولاي قدومكم الى قلعتي وضيافتكم عندي افتخر بها على جميع الاقران ثم ان عماد الدين ارسل رجلا الى القلعة لينبه الرجال لاستقبال جلالة الملك الظاهر فأسرع الرجل ونبه الرجال فتأهبوا واتوا مسرعين ثم انهم دخلوا القلعة باحتفال عظيم وذبحوا الذبائح قدام السلطان فسر الملك ورضي عن عماد الدين واقام ثلاثة ايام في قلعة صهيون وكل يوم يزيد اكرام عماد الدين عن يوم وفي هذه الاثناء وردت بنو اسماعيل من القلاع وصار سباق خيل ولعب سيف ومهرجانات الى ان كان يوم الرابع من اقامة الملك عند عماد الدين فقال له مرادي الذهاب الى مصر الان وتكون برفقتي يا عماد لاني مهتم بالتفتيش عن خالك المقدم معروف واني رايته في المنام يستجـــير ويقول الي الي يا امير المؤمنين وقد بعثت امير البحار ابو علي البطرلي ليرى هذه المدينة ويكشف لنا الاخبار قال عماد الدين السمع والطاعة لك يا امير المؤمنين ما انا الا خادم ركابك والاعتاب ثم ان السلطـــــان ركب وركبت الرجال واخذ معه عماد الدين وسار الى مصر فلما وصل طلع الى قلعة الجبل وجلس على تخته في الديوان واذ بأمير البحار ابو علي البطرلي داخل الى الديوان فسلم ودعى للسلطان وجلس ثم قال للسلطان ذهبت كمـــا امرني مولاي وجبت البحار وتفقدت البلاد بالعيان الى ان وصلت الى مدينة القطلان فوجدتها تطابق الوصف بالتمام وان البحر محيط بها من ثـــلاث جهات ثم اني نزلت الى المدينة وتجولت فيها الى ان وصلت الى قرب سراية كنيار القطلان فوجدت السرايا متاخمة للبحر ومياه البحر تغمر نصف الحيطان ورايت البئر الذي وصفته لي في المنام فقال له الملك صفه لي لارى هل هو بالذات فقال ان البئر مدور الاركان وله ثلاث درجـــــات مدورات حول البئر وله خرزة من حجر اسود وفوق الخرزة قنطرة حديد بعرض الكف وبنصف القنطرة حلقة مدورة حديد لاجل وضع الحبل للدلو

فقال له الملك هذا الذي رايته انا بالمنام بالذات وما هذا البئر الا علامة على مكان السجن الذي فيه المقدم معروف ثم ان الملك امر باحضار سلطان الحصون شيحة جمال الدين فحضر بالحال وسلم على السلطان والرجال ثم جلس وقال امر يا امير المؤمنين قال السلطان اسمعه يا امير البحار ما رأيت بالعيان فحكى له مفصلا ما قاله للملك فقال شيحة هل انت متاكد ان معروفا مسجون عند كنيار القطلان قال الله اعلم ولكن الذي وصفه لي امير المؤمنين ورآه في المنام رايته بالعيان وهذا سر الهي ليكون دليلا لنا لنسعى بخلاص المقدم معروف من سجنه وانه لا شك على قيد الحياة لانه يستنجد بأمير المؤمنين في المنام وهذا دليل على انه حي وانه آن الاوان لخلاصه من السجن فقال الملك ما رايك يا جمال الدين قال سوف نرى يا امير المؤمنين ما يقتضيه الحال واشار للسلطان ان البحث في هذا الموضوع ينبغي ان يكون سرا فأخذ الملك شيحة جمال الدين ودخل به الى قاعة الاسرار ثم ارسل الى الوزير شاهين وأبي علي البطرلي امير البحار وابراهيم وعماد الدين ان يحضروا بالحال فلما حضروا قال السلطان ما الرأي عندكم بخلاص المقدم معروف من الاسر قال سلطان الحصون شيحة ها هو ابن اخته عماد الدين يا ملك الزمان يسعى لخلاصه قال الملك ولماذا لم تتعاونا معا قال يا امير المؤمنين ان عماد الدين لم يطعني وهو ينافسني في سلطنة القلاع والحصون فاذا كان ولا بد كل واحد منا يذهب بطريق لخلاص المقدم معروف والذي يقدر على خلاصه يكون له السلطنة فقال السلطان ان امر سلطنة القلاع والحصون هي في الاصل للمقدم معروف فعند خلاصه نرى ما يكون وان جمال الدين وكيل عنه الى حين حضوره يستلم سلطنته على القلاع فالان اذهبا معا واسعيا في خلاصه من الاسر وزيلا عنكما هذه الاحقاد فقال عماد الدين ولماذا يا مولانا السلطان نحقد على بعضنا طالما السلطنة موقوفة حتى خلاص خالي المقدم معروف قال الملك بارك الله بكما حيث صفت قلوبكما اما شيحة فقال لامير البحار هيىء لنا مركبا يكون كمراكب الافرنج وتكون النوتية متنكرين بألبستهم وعلى صفاتهم ثم انهم تعاهدوا على ان يكونوا يدا واحدة ويتعاونوا باخلاص على خلاص المقدم معروف من الذل والهوان ثم ذهب كل واحد الى مكانه والملك دخل سراية الحريم .

قال الراوي : بعد ثلاثة ايام دخل شيحة وعماد الدين وابو علي البطرلي على السلطان واستأذنوا بالمسير فأذن لهم فتوجهوا طالبين الاسكندرية وما

زالوا سائرين الى ان وصلوا فهيأ ابو علي البطرلي مركبا على صفة مراكب الاعداء وجعل فيه نوتية اشداء والبسهم ثياب الاعداء واعلم شيحة جمال الدين انه تم كل شيء على المرام ثم انهم نزلوا الثلاثة في المركب وساروا مدة عشرة ايام في البحار الى ان اقبلوا على القطلان ورسوا على الميناء فتنكر جمال الدين شيحة على صفة اهل البلد ونزل من المركب وقال لعماد الدين وأبو علي انتظراني في المركب لارى البلد وافتش عن المكان المسجون فيه المقدم معروف ثم ان جمال الدين اخذ يدور في البلد من مكان الى مكان فرأى عجوزا محنية الظهر وشعرها ابيض ولابسة خراطات كثيرا وفي يدها عصاة منحنية وكل من رآها يناغشها ويمزح معها ويسلم عليها والكل ينادون لها بأم طنوس فهذا ترد عليه وهذا ترفع عليه عصاتها وهي سائرة في طريقها الى ان وصلت الى بيتها ففتحت الباب ودخلت فدخل شيحة وراءها والتفتت وأغلقت الباب فكان شيحة يبرم خلفها بخفة ولا يدعها تراه الى ان دخلت غرفة من البيت واخرجت من جبتها الطعام وقعدت تأكل وشيحة يراها ثم فتحت صندوقا ووضعت فيه دراهمها التي جنتها في نهارها وأقفلت صندوقها .

وأقبلت الى تختها وتمددت عليه أما شيحة فانه صبر الى ان غفلت فقام اليها وخنقها وجردها من ثيابها ودفنها بالحوض ولبس ثيابها وصار يقلدها بالذات وربط صرة وضعها في ظهره ليكون مثلها وقص شعرها الشايب ووضعه على رأسه وتلفع بملفعتها ولبس خراطاتها واخذ عصاها وخرج والذي يراه يعتقد انه أم طنوس وسار في الازقة فصارت الناس كعادتهم مع أم طنوس يناغشونه ويمزحون معه الى ان وصل الى سراية الملك كنيار فرأى الناس مجتمعين ومحتفلين فعلم انهم في عيد اكثرهم سكارى من شرب الخمر فصار شيحة يتنقل وهو في صفة أم طنوس الى ان توغل في السرايا وهو يفتش عن مكان المقدم معروف فرأى جارية حاملة طعاما وبيدها شمعدان فقال لها الله يعطيك العافية يا مسكينة فالتفتت الجارية فرأت أم طنوس فقالت لها اهلا وسهلا بأم طنوس قالت لها الى اين ذاهبة يا مسكينة بهذه الحملة قالت الجارية آه يا أم طنوس ما كنت اموت واستريح فهذا الاكل الى السجين المسجون في سجن الحسرات من سبعة عشر عاما فلا كان يموت ويخلص من هذا العذاب ولا كان احد يسأل عنه ويخلصه من ظلم كنيار وانا مليت من هذا الحال فقالت أم طنوس هاتي لاعاونك بهذه الحملة فقالت لها الجارية خذي احملي الشمعدان واضوي قدامي فأخذ شيحة الشمعدان ومشى معها الى ان وصلت الى باب حديد مصفح واخرجت

المفتاح وفتحت القال وقالت لأم طنوس ادخلي قدامي بالشمعدان لارى واغلقت الباب وقالت لأم طنوس انتبهي على الدرج فنزلت ام طنوس على الدرج ثم مشت في دهليز طويل الى ان وصلت الى باب من النحـــاس وفتحت باب غرفة مظلمة فراى شيحة معروفا وهو سارد فصارت الجارية تصرخ عليه وتسبه ليصحى فأخرج شيحة سكينة من حزامه وذبحها واخذ منها المفاتيح واغلق الابواب وخرج وهو بزي ام طنوس الى ان وصل الى الميناء وقال لعماد الدين وابي علي البطرلي ان يلحقاه بالحال واوصاهما ان يمشيا وراءه على بعد عشر خطوات عنه وكأنهما ثملان زي اهل البلد ففعلا كما امر شيحة الى ان وصلوا الى سراية كنيار ودخل شيحة قدامهم وعماد وابو علي بعده وسار شيحة الى اول باب وفتحه وادخلهم ثم فتح باقـــي الابواب الى ان وصلوا الى معروف فقال لهما خلصاه من الاغلال وانـــا احرس الباب فصاح عماد من فرحه ابشر يا خالي فقد جئنا نخلصك من السجن فظن معروف ان الصياح من الجن عمار السجن فقال يا عمار هذا المكان انا عند نزولي عاهدتكم على ان لا تؤذوني فلأي شيء هذا الصياح اتريدون أن تنقضوا العهد والميثاق فقال عماد الدين لا حول ولا قوة الا بالله ثم قال يا خال انا ابن اختك عماد الدين فقال له اذا كنت تقول فائتني عن اليمين فسار عماد في جهة اليمين فوصل الى خاله ووقف بجانبه فقال له خذ الشاكرية من على الجدار واقطع بها القيد فمد غماد يده واخذ الشاكرية وصار يضرب بها القيد حتى فككه وخلص خاله فحمله ابو علي البطرلي على ظهره وخرج من الابواب اما عماد الدين اخذ عدة سلاح خاله معروف وخرج وراءهم الى ان خرجوا من المكان وجدوا شيحة جمال الدين ينتظرهم وبيده حرام وضعه فوق المقدم معروف وقال لهم اصبروا لارى باب السرايا هل يوجد عليه غفراء فوجد عليه غفرا فرجع وقال انا رايح اسحب لكم الغفر الى بعيد وانتم تخرجون بسرعة وتقدم جمال الدين وهو على صفة أم طنوس الى الغفر وناغشه وضاحكه وسحبه بعيدا عن الباب وفي هذه الاثناء خرجوا وتبعهم جمال الدين الى ان وصلوا الى شاطىء الميناء وجدوا الشختورة واقفة بانتظارهم فركبوا وذهبوا الى المركب ثم ان جمال الدين شيحة قال لعماد الدين أرجع معي لأريك فعل الرجال وانتقم لخالك معروف بالحال وآخذ كنيار اسيرا مهانا فحالا رمى ما عليه مـــن كراكيب ام طنوس وتصفى بصفة خادم من خدم القصر وابقى عماد بزي اهل البلد واخذه وسار ودخلا سراية الملك كنيار ووضع عمادا في مكان

وقال له انتظرني ولا تبرح هذا المكان وسار طالبا مكان كنيار فوجد قريبا من المكان غرفة كبيرة معدة للغفراء ووجدهم يشربون المدام وهم عشرون جنديا فدخل عليهم جمال الدين وهو بصفة خادم خفيف الروح وصار يمازحهم ويرقص لهم فقاموا وعربدوا وفي هذه الاثناء غافلهم ووضع لهم البنج في البرميل الذي يشربون منه الخمر وصار يسقيهم فصاروا يشربون فما استقر في جوفهم الخمر الا وصاروا كأنهم اموات عندها أغلق الباب وطلع الى غرفة كنيار فوجد غفرا على الباب وهو سكران وقاعد على كرسي ونائم فأخرج منديل البنج ووضعه على منخريه فصار معه نوم على نوم ثم دخل على كنيار وجده نائما من كثرة الشراب فوضع البنج على وجهــه وخرج فذبح الغفير الذي على الباب ثم دخل الى عند الخفراء السكرانين وجدهم كالاموات من تأثير المخدرات فجرد سكينه وصار يذبحهم كذبــح الغنم في المسلخ الى ان ذبح الجميع ثم ذهب وأتى بعماد الدين ومرا على غرفة الغفراء فنظر عماد المذبوحين في الغرفة فتعجب من مقدرة شيحة الفائقة وجراته النادرة ولما وصل الى قاعة كنيار وجد الغفير مذبوحـــا وكنيارا مبنجا فكتب شيحة كتابا وضعه على تخت كنيار قال فيه ما فعل هذه الفعال وخلص معروفا من السجن واخذ كنيارا الا سلطان الرجـــال جمال الدين شيحة ثم قال لعماد احمل كنيار واتبعني فحمله عماد ولحقه فصعد شيحة على درج الى الاساطيح وتبعه عماد فوصلا الى سطح يشرف على البحر فقال شيحة لعماد الدين انزل وتدلى لأدلي لك كنيار فنزل عماد على الحبال الى الارض فدلى له شيحة كنيارا وسار ولحقهم ثم انهم ركبوا شختورة الى ان وصلوا الى المركب وطلعوا اليه ومعهم كنيار ففردوا قلوعهم وسافروا على البحار ثم صحوا كنيار من البنج بعد ان قيدوه ثم قال جمال الدين لابي علي البطرلي وجه المركب على غير طريقنا الذي اتينا منه لان الاعداء سيلحقوننا فساروا على هذا المنوال مدة خمسة ايام اما الاعداء فلما اصبح الصباح وجدوا الغفراء مذبوحين ولم يجدوا الملك كنيار ووجدوا على تخته كتابا فقراوه فعرفوا من الذي فعل هذه الافعال ووجدوا ابـــواب سجن معروف مفتوحة والجارية مذبوحة فيه ومعروف مطلق السراح فجن جنونهم وطار عقلهم واحتاروا في امرهم فاجتمع وزراء كنيار وتذاكروا بهذا الشأن فأجمع رايهم على ان يسيروا وفدا منهم الى الملك مغلوين وكان يحكم على اربعين مدينة وكل مدينة لها ملك من تحت امره وكان له سيطرة على كنيار وله عليه كل سنة جزية فساروا اليه وشكوا امرهم فلما سمع منهم مقالهم وما فعل شيحة جمال الدين ارغى وازبد وتكبر وتجبر وقال لا بد

ان اغزوا بلاد المسلمين واخربها على راس ملكهم وراس شيحة ثم انه ارسل رسلا الى أتباعه الملوك بأن يرسل كل منهم الف فارس مجهزين بكامل سلاحهم ويكون على كل الف ابن ملك المدينة بالذات فيكون جملة ما يرسلوه اربعين الف مقاتل مع اولاد ملوكهم وهو قد جهز قدر ما جهزوه كلهم اربعين الف فارس وجعل القائد على الجيش ولده عرنوسا اما ما كان من جوان والبرتقش فيوم من الايام وهما في احد البلاد سمعا بهذه الحملة لغزو بلاد المسلمين ففرح جوان وتوجه طالبا الملك المغلوين ومعه البرتقش فلما وصلا اليه دخلا عليه استقبلهما بأحسن استقبال ثم اجلسهما بجانبه فقال جوان قد بلغني خبر الحملة العظمى التي ستغزون بها بلاد المسلمين فسررنا لذلك جدا فهل من سبب لهذه الحملة فحكى له ما جرى في القطلان وما فعله شيحة وانه اخذ كنيارا اسيرا وقد فعل هذه الفعال انتقاما من كنيار لانه سجن عنده معروفا سلطان الحصون فجاء اليّ اهل القطلان وشكوا لي من هذا الحال وان شيحة هددهم بخراب الديار فقمت انا بناصرهم وخبرت الاقران الذين لي عليهم سيطرة بأن يبعثوا لي فرسانهم ولبست ولدي عرنوسا قائدا على هذا الجيش وكل ملك من الذين تحت يدي يبعث ابنه مع جيشه والان ولدي عرنوس خارج المدينة وناصب الخيام وقائم بترتيب الفرسان وتنظيم الجيش فقال جوان قم يا سيف الروم لنرى هذا الجيش ونشجع قائده وذهب جوان ليراه بالعيان وعندما وصل اخبروا عرنوسا بمجيء جوان فقال عرنوس ولاي شيء يأتي لعندي فلما دخل جوان لم يقم له عرنوس ولا اعتبره فجلس جوان وتعجب من جبر عرنوس فقال له عرنوس ما تريد يا ديان هل لك حاجة عندي قال جوان جئت لاشجعك على غزو الاعداء واحذرك من حيلهم فقال عرنوس لا لزوم لذلك فأنا عندي ضرب سيف وطراد خيل فلا تكلف نفسك الحضور الى هنا فنهض جوان ومعه غلامه سيف الروم وصارت ترجف ذقنه مما اعتراه من عرنوس فقال له البرتقش بخورك ما قطع مع عرنوس يا جوان وانه ما تشرك ولا نزلت له على معدة وانا اقول لك يا جوان انه عاقل ومصيب لانك ما تدخل بين اثنين الا وتفرقهم فكيف اذا توغلت في هذا الجيش وصرت صاحب الامر والنهي فقال جوان للبرتقش والله انه قطع قلبي ولا رايت مثل جبره لا قادة ولا ملوك فقال البرتقش اني استبعد ان يكون عرنوس ابن الملك مغلوين فهذا الطين ليس من هذا العجين فمغلوين أصفر رقيق وقصير وما له شبه بعرنوس فكيف يكون ذلك الثعلب أبا لهذا الاسد فالثعالب لا تلد الاسود اما

عرنوس فهو طويل القامة جميل الطلعة والصورة وله شامة على كرسي خده قدر قرص العنبر عريض المنكبين واسع الصدر قوي الزندين سريع الحركة وهو كأنه النمر وله سطوة تقطع الظهر والشجاعة تشهد له لا عليه فلما سمع جوان من غلامه البرتقش هذا الكلام قال صدقت ونظرك في موضعه وانا اوافق معك بهذا الراي بأن عرنوسا ما هو ابن مغلوين لانه بعيد الصفة عنه ثم قال له جوان انهض معي لأرى واتدبر. وعاد جوان مع البرتقش الى ان وصلا الى ديوان الملك مغلوين ودخلا عليه فقال الملك كيف رايتما هذا الجيش قال جوان كل شيء فيه على غاية ما يرام الا القائد عرنوس فهو متكبر متجبر فقال مغلوين هذا ابني قال جوان معاذ الله ان يكون ولدك او ينسب اليك فقال مغلوين الحقيقة ان كل الناس تعرف ان عرنوسا ولدي مع انه ليس لي اولاد لا ذكور ولا اناث ولكني ذهبت في يوم من الايام الى القطلان لعند كنيار فوجدت عنده هذا الغلام وهو ابن خمسة اعوام فتعلق قلبي به فقلت له من اين لك هذا الغلام فقال كنيار وجدته في جزيرة العرانيس في جرن الدير المهجور وكانت الجان تحرسه لاني عندما اردت اخذه منعوني من اخذه فقلت لهم مرادي ان آخذه لامه تربيه فما منعوني عنه فأخذته وجئت به الى القطلان وعند وصولي اعطيته الى اسيرة عندي فأرضعته وكنت اكرمها لاجله الى ان صار عمره ثلاث سنوات فرتبت له خادمة ومربيا يعلمه وقد سميته بعرنوس نسبة للجزيرة التي وجدته بها قال الملك مغلوين فلما علمت قصة الغلام قلت لكنيار القطلان أعطني هذا الغلام وانا اعفيك هذابالعام من الخراج لانه ليس لي اولاد وأريد ان اتبناه ليخلفني في ملكي فرضي وسمح لي به فكيف عرفت يا جوان انه ليس ابني قال جوان لانه ليس يشبهك وأنت تعزني وتكرمني وهو اهانني وطردني كأني حيوان اجرب فلما سمع الملك مغلوين من جوان هذا الكلام تأثر وبعث لى عرنوس ان يحضر فلما حضر قاموا له ثم جلس وقال لوالده ما تريد مني يا ابي ولماذا طلبتني قال له يا ولدي لماذا طردت جوانا ولم تحترمه قال انا لست بحاجة اليه يا ابي فما عندي الا فرسان وابطال وطعن رماح وضرب سيوف وطراد خيل فقال له هذا لا يكفي يا ولدي اريد منك ان تحترمه وتعمل برايه ومشورته لانه يعرف كثيرا عن البلاد التي انت قاصدها قال عرنوس كما تريد يا ابي ثم قال مغلوين لجوان سامح عرنوسا ولا تؤاخذه وزوده بنصائحك الثمينة فهو يجهلك قال جوان سامحته بشرط ان يقبل نصائحي فقال مغلوين نعم يسمع كلامك ولا يخالفك في امر هذا ما كان من هؤلاء واما ما كان من شيحة ومعروف وابو علي البطرلي عندما ساروا من

ميناء القطلان وغيروا اتجاههم خرج عليهم ريح عاصف وهاجت البحـــار وتلاطمت الامواج وكادوا ان يغرقوا اولا لطف الله ولما هدأ البحر وجدوا انفسهم قريبا من خليج مسيسبي وجبل النار فسار ابو علي بالمركب نحو الميناء وارخى المراسي لاجل الراحة وطلعوا الى اليابسة فوجدوا في بلدة حمامات معدنية وماؤها سخن فأدخل شيحة جمال الدين المقدم معروف الى هكه الحمامات وصار يغسله ويعتني به فلانت عروقه وتمددت أعصابه ودهن جسمه بمراهم وكحل له عينيه وصار يغذيه ويطبخ له الدجـــاج ويسقيه مرقه حتى قوي واشتد ساعده ثم اقلعوا في البحار ووجهتهم الاسكندرية فاما وصلوا ضربوا مدافع السلام فجاوبتهم المراكب من على الميناء بمدافعها واستقبلهم نائب الاسكندرية وهنأهم بالسلامة فأقاموا ثلاثة ايام في الاسكندرية وبعدها ساروا طالبين مصر الى ان وصلوا ثم توجهوا الى الديوان فنهض الملك واستقبلهم احسن استقبال وعانق المقدم معروف وسلم على جمال الدين وسلم على امير البحار وعلى عماد الدين ثم امر لهم بالجلوس .وأجلس معروف بجانبه وصار جمال الدين شيحة يحكي للسلطان ما جرى معهم من وقت ما فارقهم ففرح الملك بمجيئهم سالمين وبخلاص معروف من سجنه ثم قال جمال الدين وقد اسرنا ملك القطلان كنيار فقال الملك احضروه لاراه فلما احضروه بين يديه قال له لماذا سجنت عندك المقدم معروف هذا الزمن هل لك عليه ثأر يا ظالم يا عديم الوجدان والضمير فقال كنيار كان عندي ولد عزيز علي عمره ثلاث سنوات وجدته في جزيـــرة العرانيس في جرن الدير المهجور فجاء المقدم معروف وصار يكرمه ويقول له انت ولدي فأعلمني مربي الغلام بهذا الامر فخفت ان يأخذ عرنوسا مني وهو العزيز علي فحبسته لهذا السبب فلما سمع معروف من كنيار اين وجد هذا الغلام قال هذا ولدي ورب الكعبة لان امه أعلمتني انها وضعته في جزيرة العرانيس في جرن الدير المهجور فذهبت الى الجزيرة ودخلت الدير المهجور واتيت الى الجرن فما وجدته فقال الملك لكنيار والان اين الغلام قال في جزائر الغلف عند الملك مغلوين قال الملك ومن أوصله الـى مغلوين قال كنيار ان مغلوين له علينا كل سنة جزية فيوم من الايام مـــر بمراكبه على القطلان ونزل ضيفا عندي فراى الغلام وسألني عنه فحكيت له اين وجدته واني سميته عرنوسا نسبة للجزيرة فقال لي ان قلبي احب هذا الغلام وانا ليس لي اولاد لا اناث ولا ذكور فاعطني اياه لاجعله ولدي واخلفه على ملكي من بعدي وانك معفى هذا العام من الخراج فأعطيته اياه

فأخذه الى بلاده ورباه وجعله ابنه وكل الرعية تعرف عرنوسا ابن مغلوين وولي عهده وصار عمره ما ينوف عن العشرين عام فهذه قصة الغلام بالتمام ايها السلطان .

فلما سمع جمال الدين كلام كنيار قال للسلطان يا امير المؤمنين ضعوا كنيارا بالسجن لنرى عرنوسا ونرده الى ابيه عن قريب انشاء الله امـا المقدم معروف فانه اقام في ضيافة السلطان مدة شهر تمام فقال له عماد الدين متى تذهب الى القلاع يا خالي لتفرح بك الرجال لانهم بعثوا لي خبرا انهم في انتظار قدومك اليهم قال لنأخذ اذنا من السلطان يا عماد ثم قال المقدم معروف للملك اتأذن يا امير المؤمنين بالرواح الى القلاع لنرى الاهل والاحباب وانا بشوق عظيم لرؤياهم وهم بانتظارنا فسمح له الملك فسافر الى القلاع ويكون لنا معه كلام اما ما كان من عرنوس فانـه لا زال يرتب جيشه وينظمه ويعلمه الضرب والطعان فقال له جوان الى متى هذا الحال اعلم انه ما كل العسكر تحارب فاجمع عساكرك وسر في الحال قبل ان تصل اخبارك الى اعدائك انك آت الى قتالهم فيستعدون لقتالك بتجهيز الجيوش والعساكر فقال عرنوس لقد تكلمت بالصواب ثم انه امر جيوشه بالمسير الى ان ظهرت لهم مآذن حلب واسوارها فسأل عرنوس جوان مـا اسم هذه المدينة فأخبره ان هذه حلب الشهباء فان اخذتها تأخذ بعدها حماه وحمص والشام ومن بعدها تأخذ القدس وغزة وتملك مصر واقطارها فأمر عرنوس بنزول العساكر ونصب الخيام فلما راى نائب حلب عماد الدين ابو الخيش تلك العساكر حصن الابراج وقفل الابواب وأمر الرجال بالطلوع على الاسوار ونصب المنجنيقات فلما نظر عرنوس هذا الحال وان البلد استعدت للقتال كتب كتاب وأعطاه الى نجاب وسار الى تحت الاسوار وقال لهم انا نجاب وحامل كتاب من عند الملك عرنوس فتناولوا منه الكتاب واعطوه الى نائب حلب فقرأ الكتاب واذ به من الملك عرنوس الى نائب حلب اعلم انني انا قاصد حرب السلطان فان انا انتصرت عليه تبقى انت على ما انت عليه وان أسرني وغلبني اكن تحت حكمه فالرإي عندي ان تفتح البلد وتدع الناس تبيع وتشتري على عساكري وانا مسؤول وملزوم بكل شيء يفقد واقوم بالتعويض لبينما يأتي السلطان فانظر ما ترى وارسل لي الجواب فكتب نائب حلب الجواب قائلا هذا لن يكون ابدا وان هذا المكر والاحتيال لا يمشي على مثلي فان اردت القتال فنحن مستعدون وان اردت الرواح فارحل بسلام فأخذوا الكتاب واعطوه للنجاب فأخذه وسار اما نائب حلب فكتب كتابا الى السلطان وأرسله مع نجاب فلما وصل الى الملك قال من

اين قال من حلب يا امير المؤمنين ففضه وقراه واذ به بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على البشير النذير خطابا من خادم امير المؤمنين نائب حلب عماد الدين ابو الخيش الذي تعلمكم به انه يوم تاريخه ظهر لنا في الفلا غبار سد منافس الاقطار واذ انكشف الغبار عن عسكر جرار واقام الخيام فاستحضرنا للقتال ثم ارسلنا جواسيس يكشفوا لنا اخبار هـذا الجيش فأتوا واخبرونا ان هذا الملك عرنوس ابن مغلوين ملك ملوك البرتغال وصحبته اولاد ملوكها وجيش عدده ثمانون الف مقاتل بين فارس وراجل فأدركنا يا امير المؤمنين والسلام على من ظلله الغمام وبعد ما قرأ الملك اعطاه الى قارىء الديوان فقراه على الخاص والعام قال الملك ما عندكم من الراي والتدبير قال الوزير شاهين الراي الصواب ان نجمع العساكر بالحال ونرحل بعد ثلاثة ايام ويكون مسيرنا بالسرعة قبل ان يضايق هذا الجيش اهل البلاد ويؤذي العباد قال الملك هذا هو الصواب فحالا امر الوزير شاهين بجمع الجنود والعساكر وأمر السلطان بالنفير العام لكل من يقدر يركب الخيل ويحمل السلاح فاجتمع الجيش ظاهر مصر وتجهز على قدم وساق ثم رحل الجيش وجد المسير الى ان وصل الى حلب ونصب الخيام مقابل الاعداء والحرب كان قائما بين اللئام واهل حلب اما الاعداء فلم يقدروا ان يصلوا الى الاسوار اما معروف فأعلموه انه ركب على حلب جيش من جزائر الغلف بقيادة عرنوس فلما سمع المقدم معروف بذكر عرنوس قال هذا ولدي يا رجال فانهضوا وشعلوا النيران على رؤوس الجبال لجمع الرجال من كل حدب وصوب وركب المقدم معروف في اوائلهم وتبعتهم اهل الرتب والابطال وهم يقدرون بخمسة عشر الف مقاتل من بني اسماعيل الاشاوس وسار طالبا حلب الى ان وصل فراى جيش السلطان وعساكره ناصبة الخيام فترجل ودخل الى الصيوان لعند الملك الظاهر فترحب به السلطان واجلسه بجانبه فقال المقدم معروف يا امير المؤمنين ان عرنوسا قائد هذا الجيش هو ولدي فقال السلطان نرجو الله ان يكون هذا ولدك وأن يهديه على يديك فيساعدنا على اعدائنا ثم ان الملك كتب كتابا وارسله مع ابراهيم للملك عرنوس فسار ابراهيم واخذ سعدا بركابه الى ان وصل الى جيش عرنوس ترجل عن ظهر فرسه وسلمها لسعد وسار الى ان وصل الى الصيوان وصاح رسول وما على الرسول الا البلاغ سلامي على من اهتدى وخشي عواقب الردى واللعنة على من كذب وتولى ثم دخل الصيوان فوجد عرنوسا جالسا وجوانا بجانبه قال عرنوس

ماذا تريد قال له معي كتاب من امير المؤمنين قال هاته لنقرأه فأعطاه الكتاب ففضه وقراه واذ فيه خطابا من امير المؤمنين الملك الظاهر بيبرس الى الملك عرنوس اعلم انك من نسل الامام امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام ولست من نسل اللئام والواجب عليك يا ولدي ان تعرف اصلك لتكون على بينة من امرك فأبوك المقدم معروف بن جمر سلطان القلاع والحصون صاحب الاصل الاثيل فاترك الان اعداءك وأعداءنا واحضر الى عندي واحسن اسلامك واطلب الرضا من والدك وهو الان موجود عندي اني انصحك ولن اغشك ولا تظن اني اقول ذلك لاخدعك او اني خائف منك فأنا اعرف انك لا تحتمل جولة او جولتين حتى تكون في قبضة يدي انت وجيشك وبالختام السلام على من اهتدى وخشي عواقب الردى واللعنة على من كذب وتولى فلما قرأ عرنوس الكتاب تعجب وقال لجوان اسمع ما يقول لي الملك الظاهر قال انا ابن المقدم معروف قال له جوان هذا كله خوف منك لئلا تملك البلاد منه فاكتب له الجواب بالحرب فكتب الجواب مثل ما قال جوان واعطاه لابراهيم واعطاه خمسين دينارا فأخذها وسار الى عند سعد وركب فرسه وعاد الى ان وصل الى السلطان فأعطاه الجواب فقراه ووجده بالحرب والطعان فمزقه ورماه ثم اصطفت العساكر على الجانبين وقرعت الطبول فخرج من جيش الاعداء فارس في الحديد غاطس صال وجال في الميدان وطلب المبارزة فغار عليه مقدم من بني اسماعيل وزعق فيه وضربه بالحسام على رقبته ازاح راسه عن جثته فنزل له الثاني الحقه بأخيه والثالث دحاه والرابع ارماه والخامس كذلك وما دام يقتل ويجندل من اللئام الى ان قتل منهم ثلاثين فوقفت عنه فرسان الاعداء مما لاقوا من شجاعته وقوة زنده فلعب في الميدان وصار يعير عليهم وكان هذا المقدم حسن المشناتي فلما اعياه الامر ولم ينزل احد الى الميدان رجع الى الخيام فهنأه الرجال بالسلامة وترحب به السلطان وتشكره على فعاله وعلق له على صدره وسام الفرسان وثاني يوم نزل حسن النسر ابن عجبور وفعل افعالا في الميدان تعجز عنها صناديد الرجال ورجع الى عند السلطان فترحب به واكرمه وعلق له الوسام على صدره قال ابراهيم أريد من مولانا السلطان ان يسمح لي غدا بالنزول الى الميدان لاني تشوقت للقتال قال له الملك مقامك محفوظ عندي يا ابراهيم لمقاتلة الابطال والمعارك الكبرى فسكت ابراهيم ودام الحرب بالمبارزة مدة عشرين يوما وكل يوم تخسر الاعداء جملة فرسان حتى ضجت الافرنج وشكوا للملك عرنوس فقال جوان يا ملك هذا شيء يطول شرحه اؤمر العساكر بالحملة جملة حتى

تبلغ الارب قال عرنوس حتى انزل انا والتقط فرسانهم وبعدها تحمـــل العساكر جملة وفي الصباح اعلم الملوك ان لا احدا يبرز الى الميدان لان الملك عرنوس يريد النزول الى الميدان فنزل عرنوس وهو راكب جواد متقلـــد بسلاحه ومصفح بالحديد ولما توسط الميدان صال وجال وطلب مبـــارزة الفرسان وقال دونكم والقتال فبرز له ايدمر البهلوان فتضاربا وتقاتـــلا وتباعدا وتقاربا قدر ساعة حتى تعب ايدمر فانقض عليه عرنوس واقتلعه من سرجه واخذه اسيرا فبرز له الامير علاء الدين فما جال معه الا قليلا حتى طعنه بكعب الرمح شقلبه فنزل اليه الامير سنقر وبعده الامير بشتـــك والجاولي اخذهم كلهم اسارى وثاني يوم نزل المقدم النسر بن عجبور وتقاتل مع عرنوس ساعة فعرف عرنوس انه بطل شجاع وقرم مناع فاستل من تحت فخذه حربة ماضية وقذفها على المقدم بن عجبور فأصابت فخذه فقال له عرنوس اذهب الان داو جرحك فعاد النسر من الميدان وهو مكسوف فلما راى معروف فعال ابنه عرنوس سر وابتهج ثم دقت طبول الانفصال فلما علم السلطان افعال عرنوس غضب غضبا شديدا وقال لابراهيم جاء دورك فانزل غدا لعرنوس وائتني به ذليلا مهانا قال السمع والطاعة يا امير المؤمنين وثاني يوم من الغد برز عرنوس الى الميدان وطلب الفرسان للمبارزة فتأهب ابراهيم للنزال واراد ان يركب فرسه واذ بالمقدم خاله معروف اتى اليه وقال يا ابن الشمطا مرادك تنزل لولدي عرنوس وتكسر نفسه وهو ابن خالك قـــال ابراهيم امرني الملك قال لو امرك ضيعها لاني اخاف عليه منك لانه لم يزل طري العود قال كيف نعمل يا خال قال المقدم معروف دعني انا انزل اليه وانت واجه السلطان ودبرها قال ابراهيم لخاله معروف تفضل انزل اليه وحسبي الله ثم ان معروفا عندما نزل ولده عرنوس الى الميدان برز اليه فقال له عرنوس من انت ايها الشيخ قال انا معروف ابو عرنوس الواقف امامي لقتالي اسمع يا ولدي انا ابوك وامك مريم بنت ملك جنوا والان هي موجودة عند والدها وقاعدة حزينة مقهورة لاجل فراقك والان انا جئت اليك راجيا ان ترحم شيبتي وتطيع امري واعلم انك انت ولدي وهذه العلامة التي في وجهك بوجهي مثلها بالذات وانت لست ابن مغلوين فمن اين للقرود ان تلد الاسود فأنا عندما رايتك تفوقت على الفرسان فرحت بك وسررت والان قاتلني لأرى ما تعرفه من ابواب الحرب والطعان ثم ان عرنوسا يقاتل اباه ويضربه ضربات صائبات وابوه يبطلها ويعلمه الذي لا يعرفه من فنون الحرب الى ان زال النهار ورجع معروف من الميدان اما ابراهيم فسار الى

السلطان فقال له الملك اين عرنوس يا ابراهيم قال يا امير المؤمنين ان عرنوسا فارس شديد وبطل صنديد وان شاء الله غدا آتيك به اسيرا مهانا فاطمأن الملك الى ثاني يوم اراد ابراهيم ان ينزل الى الميدان عندما برز عرنوس واذ بالمقدم معروف اقبل وقال لابراهيم ارجوك ان تسمح لي ان انزل الى ابني فسمح له فبرز معروف الى ابنه وصار يعلمه ابواب الحرب الى ان زال النهار رجع من الميدان ودام هذا الحال ثلاثة ايام فغضب السلطان وقال غد انا ابرز الى الميدان فخاف معروف على ولده من السلطان فكتب كتابا وارسله الى عرنوس وقال له خذ حذرك فان السلطان غدا سيبرز لـــك ويأسرك فاربط وسطك بالسلاسل الى السرج فاذا اراد ان يقتلعك من فوق السرج ويأسرك تكن ثابتا فكن على حذر منه لانه جبار لا يصطلى له بنار فلما وصل مكتوب معروف الى ابنه عرنوس اتى بسلسلة من حديد ولفها على خصره وجعل لها اربع حلقات وعمل لكل حلقة سلسلة وثبتها فـــي السرج حتى صار هو والسرج قطعة واحدة وثاني يوم برز الى الميدان وقال لا يبرز لي الا السلطان فاعلموا الملك ان عرنوسا برز الى الميدان وقال لا يبرز له الا انت يا مولانا فتعجب السلطان وقال كيف صار عنده خبر ان مرادي أبارزه في الميدان فنهض السلطان الظاهر واستعد للقتال وقدموا له الجواد الادهم فركب وانحدر الى الميدان وصار يتقاتل مع عرنوس مدةساعة من الزمان الى ان رفع الملك الدبوس وضرب به عرنوسا فتلقى عرنـــوس الضربة بالترس فثنت يده الى كتفه فشعر ان كتفه انخلع من قوة الضربة اما عرنوس فضرب السلطان بالسيف على راسه فتلقى الظاهر الضربـــة بالدبوس فانكسر السيف وما بقيت بيد عرنوس الا قطعة من السيف فعند ذلك انقض عليه السلطان وقبضه من خصره واراد ان يقتلعه من بحـــر سرجه واذ هو والسرج قطعة واحدة فعرف السلطان انه مثبت نفسه بالسرج عند ذلك قوى عزمه وشده بساعده وقلعه هو والسرج من ظهر جواده وغار به وهو رافعه بيده الى ان وصل الى باب الصيوان ورماه الى الارض وقال ضعوه على نطع الدم فاذا لم يطع أباه ويسلم اقتلوه اما عرنوس فانه صحى من غشيته فراى نفسه في محل الاعدام والسياف منتظر امر السلطان بقطع راسه فغمض عرنوس عينيه ونام سبحان الذي لا ينام ففي هذه الاثناء راى جده الامام علي امير المؤمنين يقول له اعلم ان اباك معروف من اولادنا وانت ابنه فأسلم فقال له عرنوس ومن انت يا زينة الاخيار قال له انـــا علي بن ابي طالب فقال عرنوس اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمدا رسول الله فأسرع ابراهيم الى خاله معروف وقال اريد منك البشارة يا

خالي ان ولدك عرنوسا اسلم في هذه الساعة فقال له اطلب مني ما تريد قال يا خال بعد عمر طويل اطلب منك ان توصي لي ببذلة السلاح وذي الحيات قال هما لك يا ابراهيم ولا يلبس بدلة الزرد وينقل ذا الحيات الا انت لانك انت السابع بنقلهم فتقدم ابراهيم ووضع يده على جبهة عرنوس فأفاق من سهوته واقر بالشهادتين فلما سمع ابوه المقدم معروف كان افرح الناس بولده عرنوس وتقدم وخلصه من نطع الدم وصار يقبّله ثم اخذه لبين أيادي السلطان وقال يا امير المؤمنين ولدي عرنوس اسلم فنهض الملك واستقبله وصافحه وقال له هنيئا لك بما اعطيت يا بني فاطلب مني ما تريد ثم أجلسه بجانبه وقال عرنوس اريد يا امير المؤمنين ان اسير الى الجيش الذي معي واعرض الاسلام على العساكر فمن اسلم قبلناه ومن ابى رحلناه الى بلاده ومن طغى وتجبر واراد القتال قاتلناه فقال السلطان افعل ما تريد نجح الله اعمالك فركب عرنوس جواده ورجع الى جيشه اما جوان قال له غلامه البرتقش اظن ان عرنوسا اسلم وتعرف على والده وها هو قادم فلما وصل دخل صيوانه وجلس فجلس معه اولاد ملوك البرتغال قال له جوان الحمد لله على السلامة يا ملك قال عرنوس مرادي ان تذهبوا معي الى عند السلطان في أمر من الامور العظام قالوا له سمعا وطاعة ثم ان عرنوسا اخذ اولاد ملوك البرتغال وجوان الى السلطان فاستقبلهم السلطان بالترحاب وأجلسهم فقال عرنوس لجوان من هو ابي قال جوان ابوك المقدم معروف فقال والكلام الذي كنت تقوله قال كله زور وبهتان فتبسم السلطان فقال جوان وأمك مريم بنت ملك جنوا وحكى جوان لعرنوس على اخذ مريم الى القدس واسلامها وجوازها من المقدم معروف وسرقتها من عند والده وهي حامل وقد ولدتك في دير العرانيس فتعجب عرنوس مما جرى ثم قال لجوان لقد منّ الله علي بالاسلام فأسلمت فهل لك ان تسلم فقال جوان أهذا الامر المهم الذي دعوتنا اليه قال نعم قال لا أريد قال له اذهب الى حال سبيلك ولكن اياك ان تدخل الجيش فما تعرف ما يجري عليك ثم التفت الى اولاد ملوك البرتغال فقال لهم انا اسلمت وبالله آمنت فمن يريد ان يتبعني فيسلم ومن ابى فليرحل الى بلاده فقالوا نحن خرجنا من بلادنا معا فلنبق معا فقال لهم انا اسلمت فأسلموا مثلي فأسلموا كلهم وقالوا نحن نعرض الاسلام على اتباعنا فمن اسلم قبلناه ومن ابى طردناه الى بلاده ثم نهضوا وساروا طالبين الجيش واول شيء عملوه اطلقوا الاسارى الذين اسرهم عرنوس وعرضوا الاسلام على العساكر فأسلموا الا قليل منهم ثم

قالوا لمن ابى الاسلام ارحل الى بلادك بسلام ثم انهم امروا بهد الخيام ونصبوها بجانب خيام عسكر السلطان وصاروا مثلهم لهم ما لهم وعليهم ما عليهم ففرح الملك الظاهر بهم ثم ان السلطان دخل حلب واقام بها سبعة ايام وبعدها دق طبله وارتحل طالبا مصر ومعه عرنوس واولاد ملوك البرتغال وعساكرهم صحبة عساكره وما زال سائرا الى ان وصل مصر المحروسة وامر بنزول عساكر عرنوس في قلعة الكبش واخلى لعرنوس واولاد ملوك البرتغال بيت ابن باديس السبكي اما معروف طلب من السلطان الاذن بأن يأخذ ولده عرنوس الى جنوا الى عند امه بنت ملك جنوا ليتعارفا فأذن لهما السلطان بالرواح فسارا الى مدينة جنوا ودخلا ديوان الملك فلما رآهما استقبلهما وامر لهما بالجلوس فقال له معروف اما عرفتني قال نعم عرفتك انت صهري المقدم معروف ولكن هذا الشاب لم اعرفه فمن هو قال هذا الملك عرنوس ابن بنتك مريم ففرح بهما وامر بضرب المدافع وزينت جنوا لقدومهما ثم ان معروفا سأل الملك اين زوجتي مريم قال ان زوجتك حاضرة ولكنها في قاعة الاحزان فقال معروف بشرها بابنها انه حضر ومراده يراها حتى لا نفاجئها مفاجأة فبعث الملك خادما اعلمها بقدوم ابنها عرنوس وزوجها المقدم معروف فما صدقت الخادم وصارت تبكي من شدة الاشتياق ثم ان معروفا وابنه سارا الى قاعة الحسرات وصاح معروف اين انت يا مريم قالت من انت قال انا معروف وهذا ولدنا الملك عرنوس اتيتك به لتفرحي وتتركي الاحزان والحسرات فقالت له يا سيدي معروف انا لي علامة بولدي فان وجدتها فيه يكن ولدي وهي شامة كبيرة في وسط خده ثم قامت تجري وهي فرحانة باللقاء ورات ابنها عرنوسا فنظرت اليه فعرفت انه ابنها فهجمَت عليه وعانقته وغابت عن الوجود من شدة فرحها واشتياقها اليه فحملها ابنها عرنوس بين يديه وادخلها القاعة واجلسها على تختها واتوا لها بالمنعشات والمنبهات الى ان زال ما بها ثم انها قبَّلته وفرحت به وكانت لا تصدق انها تراه فزال عنها الم البؤس والفراق وجلست في قصرها يحيط بها الاحباب ورجعت اليها صحتها وانقلبت من حال الى حال وقعد ولدها عرنوس الى جانبها واقبل الناس يهنئونها برجوع ولدها عرنوس اليها وصارت تقدم لولدها من كل شيء احسنه ودام هذا الحال مدة عشرين يوما .

اما معروف فقال لابنه وامراته هيا بنا لنرجع الى الاوطان فقالا له كما تريد فعرضوا على الملك هذا الشأن فقال لهم شأنكم وما تريدون فحزمت الملكة امتعتها وانزلتهم في المركب وثاني يوم ركب معروف وعرنوس وامه

وساروا طالبين ميناء اللاذقية الى ان وصلوا وطلعوا من البحر وتوجهوا طالبين حصن صهيون فوصل الخبر الى بني اسماعيل فهرعوا لاستقبالهم وقرعت الطبول وقامت الافراح والمهرجانات وادخلوهم الى القلعة وذبحت الاغنام وكثرت الضيافات مدة سبعة ايام وصار طراد خيل ولعب سيف وتهريج وهم جالسون يشاهدون هذه الاحتفالات بهم وهم بغاية السرور والفرح اما رجال بني اسماعيل فقالوا للمقدم الحمد لله على سلامتك وجمع الشمل يا سلطان الرجال فقال لهم يا بني اسماعيل الذي يطيع شيحة جمال الدين يسلم عليّ والذي يأبى يرحل من قلعتي فتركوا ما كانوا عازمين عليه .

اما الملكة مريم وعرنوس طلبا الاذن بالذهاب الى مصر من معروف قال لهما وانا ذاهب الى مصر معكما ثم انه اقام ابن اخته عماد الدين نائبا عنه في القلعة وثاني يوم ركبوا طالبين مصر ولما وصلوا نزلوا في بيت ابن باديس السبكي وفي الصباح طلع الملك عرنوس الى الديوان فاستقبله السلطان احسن استقبال وأجلسه قريبا منه وأمر له بخلعة ثمينة وضعت على اكتافه وقال له انت ملك من تحت امر امير المؤمنين وأولاد الملوك الذين معك كل واحد منهم امير وانت قائدهم وملكهم ولك كرسي في الديوان بين كبار الوزراء ومن اهل المشورة في الاحكام ودام هذا الحال مدة من الزمان الى يوم من بعض الايام والسلطان جالس في الديوان واذ بنجاب دخل الى الديوان قال الملك من اين قال من بورصة يا امير المؤمنين واخرج الكتاب فأخذه منه الحاجب واعطاه الى السلطان ففضه وقراه ، واذ به بسم الله الرحمن الرحيم من الامير مسعود حاكم بورصة شقيق الوزير الآغا شاهين الى سيدنا امير المؤمنين وسلطان المسلمين وخادم الحرمين الشريفين الذي نعرفكم به يا مولانا السلطان انه توجد قريبا منا مدينة الرخام والحاكم على هذه المدينة ملكة لعينة تسمى شمقرين الساحرة ، وقد جاءنا منها كتاب تطلب منا الجزية وقالت اذا لم ترسلوا لي المال بعد ثلاثة ايام اهاجمكم واخرب بلادكم فبعثت لها جوابا يا امير المؤمنين انه ليس لها عندي مال وما عندي الا ضرب البتار فحصنت مدينتي وجهزت العساكر والجنود وارسلت الجواسيس ليأتوني بأخبارها فرجعوا واخبروني ان اللعينة شمقرين طلبت من الملوك الافرنج بأن يساعدوها بالرجال والتجهيزات فأرسلوا لها طلبها لانهم يخافون منها لانها لئيمة ماكرة فتجمعت عندها فرسان ورجال ومرادها غزونا وقتالنا فأطلب منك يا امير المؤمنين مساعدتنا

على هذه الفاجرة اللعينة والمسلمون كالبنيان يشد بعضه بعضا والامر لكم يا مولانا السلطان والسلام عليكم .

فلما قرأ الملك الكتاب اعطاه لقارىء الديوان فقراه وعرف ما فيه كل من كان حاضرا قال الملك عرنوس مولاي امير المؤمنين ارجو ان ترسلني نجدة انا وعساكري الى الامير مسعود حاكم بورصة لافتح مدينة هذه العاهرة واجعلها مدينتي ومحل اقامتي انا وعساكري فقال الملك لك ذلك وانا اساعدك فيما يلزمك لهذا الشأن .

اما الوزير شاهين فقال ايأمرني امير المؤمنين ان اذهب انا وعساكري مع الملك عرنوس في هذه الغزوة لاني من اهل تلك البلاد واعرف اهلها فأدافع عن بلدي بورصة واساعد الملك عرنوس واكون نجدة للامير مسعود فقال السلطان لا مانع من ذهابك مع عرنوس بهذه الغزوة فحالا امر السلطان بتجهيز الجيش وجمع الرجال والابطال واذن لعرنوس بالخروج الى ظاهر مصر لترتيب جيشه وتنظيمه وأمر له بخيام وجمال وبغال وتجهيزات وصارت ترد عليه الرجال والفرسان بأمر السلطان مدة عشرة ايام ثم سار الملك عرنوس والوزير شاهين بالجيوش فدعا لهم الملك بالنصر والتوفيق وما زالوا سائرين الى ان قطعوا مدينة حماه بعث عرنوس مكتوبا الى بني اسماعيل قال فيه انفروا معي وجاهدوا في سبيل الله لفتح مدينة الرخام لان مرادي ان اجعلها بلدي ومسكني .

فلما وصل المكتوب الى بني اسماعيل اشعلوا النار على رؤوس الجبال علامة لجمع الرجال من القلاع فاجتمع ما ينوف عن عشرة آلاف من المقدمين والابطال وساروا طالبين جيش الملك عرنوس للانضمام اليه .

اما الملك الظاهر بعدما سار جيش عرنوس طالب بورصة بعث طلب جمال الدين شيحة فحالا حضر لمواجهة السلطان فأعطاه الملك المكاتبة التي وردت من بورصة واستنجاد الامير مسعود به وارساله عرنوس والوزير شاهين نجدة للامير مسعود قال يا مولانا السلطان ليس لي خبر بشيء من هذا لاني كنت غائبا عن مصر واليوم وصلت قال الملك مرادي ان تلحق بهم وتساعدهم على هذه اللعينة شمقرين قال جمال الدين لا يكون لك فكرة يا امير المؤمنين ان شاء الله عما قريب اكون معهم واساعدهم اما الملك عرنوس والوزير شاهين وجيشهما ما زالوا سائرين والابطال تنضم اليهم من جميع البلاد الى ان وصلوا الى قرب بورصة وكان قد امسى المساء فباتوا هناك على انهم يأتوا بورصة صباحا فلما اصبحوا ركبت الفرسان وتوجهوا الى بورصة وقبل وصولهم بساعتين راوا المعركة دائرة حول

اسوار بورصة والامير مسعود وعسكره والرعية في اشد الضيق وكانت الاعداء محاصرتهم من مدة خمسة عشر يوما وهم يكافحون الاعداء ويردونهم عن الاسوار الى ان يئسوا من الحياة وهم على اخر رمق من الضيق ويدافعون دفاع المستميت فلما راى عرنوس والوزير شاهين ان الاعداء مسيطرة على المعركة ومحتاطة بالاسوار أمر الجيش بالهجوم على الاعداء حالا فانقضوا عليهم مثل الصواعق وفتكوا فيهم فتكا ذريعا فلما رات جنود شمقرين الساحرة هذه الغارة عليهم وجدوا انهم ليس لهم طاقة بالثبات امام جيوش الابرار ركنوا الى الفرار وولوا الادبار طالبين النجاة فتبعتهم الابطال وصاروا يقتلون منهم ويأسرون الى ان ولى النهار فرجعت الابطال عنهم وصارت تجمع الخيول الشاردة والعدة المبددة الى ان طلع النهار فخرج الامير مسعود من بورصة واستقبل اخاه الوزير شاهين والملك عرنوس وصار يتشكرهم ويحييهم ويدعو للسلطان الظاهر وجيوشه بالنصر فأقام عرنوس والوزير شاهين في بورصة سبعة ايام ثم نظموا جيوشهم ورتبوا صفوفهم وركبوا وساروا طالبين مدينة الرخام وهم على أتم استعداد الى ان وصلوا اليها فخرج عليهم من ابراج المدينة نار ودخان وشرار فوقعوا بعيدا عنها واذ بعسكر شمقرين الساحرة خارجين من باب البلد يريدون القتال فأمر عرنوس الجيش بالهجوم عليهم فانقضت عليهم الابطال انقضاض العقبان فما دام الحرب معهم الا ساعة حتى ولوا الادبار فلحقتهم الابطال الى ان قاربوا الابواب خرج عليهم من الاسوار والابراج نيران وشرار ودخان فرجعوا عنهم ودخلت اللئام البلد ودام هذا الحال مدة شهر من الزمان وكلما خرجوا من البلد تتلقاهم جيوش عرنوس وتردهم بعدما تقتل منهم وتأسر ومتى قاربوا البلد تخرج عليهم النيران الى ان مل الملك عرنوس من هذا الحال واحتار كيف يعمل اما جمال الدين شيحة فأخذ ابنه محمد السابق وتوجه الى مدينة الرخام ودخل صيوان عرنوس فاستقبله بالترحاب هو والوزير شاهين وسلم عليهم فقالوا ما رايك بهذه اللعينة شمقرين كيف نعمل معها لانها واضعة ارصاد على الابراج وكلما اقتربنا من الاسوار والابراج تطلع النيران علينا من الارصاد والدخان يكاد يعمينا حتى لم نعد نرى بعضنا فدبرنا يا ابو الهمم بهذا الامر فقال جمال الدين ابشروا بالنصر والتوفيق عن قريب ان شاء الله وانا ذاهب اليها انا وابني محمد السابق ونقضي عليها فادعوا لنا بالنصر على اللعينة شمقرين واخذ ابنه وسار الى مدينة الرخام وعمل له حيلة ودخل المدينة هو وابنه وصارا يتواريان حتى

لا تراهما شمقرين ثم ان شيحة تصفى بصفة بطرك يوناني ودخل على شمقرين وابنه امامه حامل مبخرة وصار يقرا لها قداديس ويبارك لها فاستقبلته شمقرين واجلسته وقالت له مرادي تقيم عندي وتساعدني حتى انال النصر فقال لها انا اتيت لهذه الغاية لما سمعت انك محاصرة ففرحت به شمقرين وصارت تعمل بمشورته وخطر ببالها ان تعرف نتيجة هذه الحرب فضربت الرمل فظهر لها نحس وبسببه تفتح البلد ويكون على راس الجيش الفاتح ملك يسمى عرنوس بن معروف ويسكنها ويجعلها قاعدة لجيوشه يغزون منها الافرنج في البحار فقالت لا بد لي ان اعرف من هو هذا الذي يأتيني عن يده هذا النحس فاختلت في غرفتها وصارت تحلل وتشتغل بالسحر فظهر لها ان البطرك اليوناني هو شيحة وانه آتي لقتلها وفتح مدينتها فعملت اشباحا ووضعتهم في ثلاث غرف وصار كل من رآها في غرفة من الغرف يحسبها هي بالذات اما شيحة تنكر بصفة خادم هو وابنه وصارا يدوران على شمقرين واوصى جمال الدين ابنه ان لا يترك الممرات التي تمر بها شمقرين وقال له ان رايتها مارة فاطعنها بالسكين عدة طعنات وسار شيحة يفحص الغرف والاركان لاجل ان يقضي عليها فدخل الى غرفة من هذه الغرف فراى شمقرين نائمة على سرير وهي تشخر فظنها هي بالذات فمد يده وسحب سكينا ماضية وذبحها من الوريد الى الوريد فما راى الا الراس قام من الارض وانتصب في اعلى مكان من الغرفة وصار الدم يتدفق من فمه مثل الانبوب فأراد شيحة ان يهرب واذ بالباب اغلق في وجهه وارتفع الدم حتى ملأ الغرفة فصار يسبح الى ان وصل الى سلسلة في سقف الغرفة وتعلق بها وهو يستغيث بالله ويتلو اسم الله الاعظم فعرفت اللعينة شمقرين ما جرى على شيحة جمال الدين فأرادت ان تمضي اليه لترى انها انتقمت منه فمشت في ممر فلمحها محمد السابق ابن شيحة فقفز وراءها وطعنها عدة طعنات فهوت على الارض وماتت فحالا غار الدم من الغرفة المعلق بسلسلتها جمال الدين وبطلت أفعال الارصاد فعند ذلك شدها محمد السابق من رجلها واخفاها تحت الدرج وصار يدور على ابيه فرآه في غرفة من غرف القصر معلقا بالسقف فقال ما هذا يا ولدي فقال له شيحة جئني بشيء انزل عليه ثم احكي لك فجاء بمنضدة وقف عليها محمد السابق وتناول اباه بيديه وانزله فحكى له ما جرى فقال محمد السابق لم ار اثرا للدم هنا فأين راح قال شيحة السحر أوهام يتخيلها الانسان حقائق كما فعل سحرة فرعون واتوا بالعصي والحبال وخيل للناس انها احناش وحيات تسعى وهي حبال وعصي

والان اذهب الى الملك عرنوس والوزير شاهين وقل لهما ان يهاجموا المدينة قبل الصباح وقل لهم ابي يسعى لكم بفتح ابواب البلد وبلّغ الملك عرنوس ان الارصاد على الاسوار والابراج بطل مفعولها لان الساحرة قتلت وقل لهم ان يهاجموا الاسوار لان الاعداء مؤمنين بالارصاد تحميهم فسار محمد السابق وأعلم عرنوسا بما قال له ابوه اما جمال الدين فانه تصفى بزي خادم شمقرين الساحرة وحمل زقا من الخمر وذهب الى الابواب بعدما وضع البنج في الزق وصار يسقي الجنود الذين على الابواب ويقول لهم ان سيدتي شمقرين بعثتني اليكم لاسقيكم وكان لمدينة الرخام بابان فسقى جنود الباب الاول وذهب فسقى جنود الباب الثاني فلما رجع الى الاول رآهم مطروحين على الارض فحالا فتح الباب على مصراعيه ورجع الى الثاني رآهم كذلك وفتح الباب فما انتهى من هذه العملية الا وجيوش عرنوس مطبقة على الابواب وعلى الاسوار وصاحوا الله اكبر فتح ونصر فما تضاحى النهار الا وصاح اللئام الامام فأعطاهم الملك عرنوس الامان وبعد ما استقر الامر صار يستقبل الرجال والابطال وينعم عليهم واذ بشخص من بني اسماعيل يسمى نصير بن داغر العنيد قال الحمد لله على النصر يا مولاي الذي اعلمك به اننا من بني اسماعيل ومن الذين ابوا ان يطيعوا شيحة جمال الدين الا سلطانهم الاصلي المقدم معروف بن جمر والدكم والان المقدم معروف تنصل من السلطنة علينا وأعطاها لشيحة فالبعض من بني اسماعيل ابوا ان يطيعوه والان والحمد لله ظهر خلفه وهو ابن سيدنا وسلطاننا الملك عرنوس ومرادهم ان يطيعوك ويكونوا من رجالك ويقاتلوا في سبيل الله تحت لوائك خير لهم من التشرد والعصيان فقال الملك عرنوس لاعرض هذا الامر على جمال الدين سلطان القلاع والحصون وارى رايه فحالا أرسل اليه بالحضور فحضر فاستقبله بالترحاب واجلسه بجانبه فهنأه جمال الدين شيحة بالنصر والتوفيق ثم انه عرض عليه هذا الامر فقال له شيحة لا بأس ولا ضرر وهذا مما يسرني واذا اراد سيدي الملك عرنوس ان اكون انا في خدمته فعلت فتشكره الملك عرنوس وقال له بارك الله فيك يا سلطان الرجال وصار الملك عرنوس يرتب الجنود ويحصن المدينة ويؤمن الرعية ويحكم بالعدل والانصاف اما الوزير شاهين بعدما فتحت مدينة الرخام بعشرين يوما طلب الاذن من عرنوس بالرجوع الى مصر مع جيشه فأذن له وثاني الايام تهيأ وسار هو وجيشه الى مصر وجعل طريقه على بورصة فاستقبله اخوه الامير مسعود اعظم استقبال هو

وعساكره واضافهم ثلاثة ايام بعز واكرام وبعدها سار الوزير شاهين طالب الاوكان فسار اخوه الامير مسعود معه مسافة نهار للوداع فحلف عليه اخوه شاهين بالرجوع الى مدينته فرجع اما الوزير شاهين فسار الى مصر ودخل في يوم يعد من الاعمار واستقبله الشعب بالترحاب لانه محبوب ومحسن للناس فلما وصل الى قلعة الجبل دخل الديوان فاستقبله السلطان الظاهر وسلم عليه ثم جلس في مكانه وحكى للسلطان ما جرى عليهم وكيف تم الانتصار على الاعداء بحسن دعاء امير المؤمنين ففرح الملك وانشرح لما سمع هذه الاخبار من الوزير شاهين فتشكره السلطان وقال له جزاك الله خيرا.

قال الراوي : اما ما كان من بني اسماعيل الفداوية فقد حان وقت ميعادهم للرواح الى قلاعهم فطلبوا الاذن من السلطان فأذن لهم بالذهاب فتوجهوا الى وكيل الخزينة ليأخذوا مرتباتهم من المال فقال لهم ليس في الخزينة مال الان فاذا امكنكم ان تنتظروا عشرة ايام يكون جاء الخراج من البلاد فقالوا له نحن اخذنا الاذن من السلطان بالذهاب الى القلاع والديار فليس من المناسب ان ننتظر المرتبات فالان نحن سائرون الى القلاع فاذا امكنك ارسالها لنا الى الديار او نرجع ونأخذها فقال لهم انا ارسلها لكم وانتم في اماكنكم فقالوا بارك الله فيك ثم ساروا الى الاوطان وبعد مرور عشرة ايام ورد المال من البلاد فجمع وكيل الخزينة مرتبات الفداوية من بني اسماعيل ووضعها في صناديق وارسلها مع عشرة خيالة محملة على البغال وامرهم بالسير الى قلعة صهيون الى عند عماد الدين نائب الجبل ليفرقها على الرجال اصحاب المرتبات فساروا كما امرهم وعندما قاربوا قلعة صهيون على مسافة نهار خرج عليهم مقدم من العاصيين على سلطان الحصون ومعه رجاله فتصدى لهم وقال الى اين يا رجال وما الذي محمل على البغال فقالوا له نحن قادمون من مصر ومعنا المرتبات من المال الى المقدمين ومرادنا الوصول الى قلعة صهيون فقال لهم خلوا عنكم هذه الصناديق المحملة وانجوا بأنفسكم بالحال ، فقالوا كما تريد يا مقدم ولكن اذا سئلنا من اخذ منكم المال وما اسمه فما نقول في الجواب قال لهم معكم حق والذي يفعل هذه الفعال لا يسأل عن رجال ولا عن سلطان اعلموا اني انا منصور العقاب مقدم قلعة الكهف والقدموس هكذا اعلموا عني واذهبوا بسلام فذهبوا الى قلعة صهيون الى ان وصلوا واعلموا عماد الدين نائب الجبل بما جرى عليهم من المقدم منصور العقاب فأعلم عماد الدين المقدمين ان مرتباتهم من المال اخذها منصور العقاب هذا ما جرى والسلام وكان هذا الفداوي ظهر من جديد وهو صاحب قلعة الكهف والقدموس جبار

من الجبابرة العظام وكان من المفتشين عن المقدم معروف فلما اتى الـــى قلعته ودارت من حوله الرجال سأل عن المقدم معروف ظهر أم لا وعن السلطنة فقالوا له اما المقدم معروف فقد ظهر وظهر له ولد يقال له عرنوس واما السلطنة على الجبل فتنازل المقدم معروف عنها لشيحة جمال الدين وهو الان سلطان القلاع والحصون فقال لهم ومن يكون هذا شيحة مــن الرجال قالوا له هذا رجل من عرب غزة نصبه علينا السلطان الظاهر بيبرس ملك مصر والشام فقال لهم شيحة مقتول والظاهر معزول ثم انه ركب من ساعته وكان قصده ان يدور على شيحة ويقتله فرأى الخيالة العشرة ومعهم المال المرسل الى المقدمين من بني اسماعيل الى الجبل فأخذه فلما علموا ان المال اخذه منصور العقاب قالوا من اين له حق يأخذ مرتباتنا من المال اذا كان هو عصيان على شيحة والسلطان فلأي شيء يأخذ مالنا فتشاوروا فيما بينهم وقرروا انهم يذهبون اليه ويطلبون منه مالهم فانتدبوا منهم عشرة مقدمين وساروا الى قلعته وعندما وصلوا الى قرب قلعة الكهف بقـــدر ساعتين نزلوا على ماء هناك ليستريحوا ونصبوا لهم خيمة واذ بالمقـــدم منصور العقاب مقبل اليهم وبيده الرمح فلما رآهم ورأوه نهضوا له على الاقدام وقالوا له حول يا مقدم قال لهم لا لزوم لذلك ولكن الى ايـــن ذاهبون قالوا اليك قال ولأي شيء قالوا لترد لنا مالنا الذي اخذته مــن النجاب قال لهم ولماذا لا تقولون هذا ثمن مروءتنا وشهامتنا التي بعناها الى شيحة والظاهر قالوا له أتكلمنا بهذا الكلام ونحن ضيوفك وقاعدون في ارضك كنا نأمل منك وقد رأيتنا ان تدعونا الى قلعتك وتكرمنا قال لهم ان ما قلته لكم قليل بحقكم لانكم صرتم مهزلة امام الناس انهضوا واقلعوا هذه الخيمة وارحلوا من هذا المكان لان ارضي لا يدوسها الا اصحاب الشهامات والمروآت ثم غار عليهم فتصدى له مقدم منهم فطعنه منصور بالرمح بكتفه وسار بحاله اما المقدمون فضمدوا جرح رفيقهم ثم ساروا الى قلاعهـــم وجمعوا رجالهم ومرادهم الهجوم على قلاع منصور العقاب وبعثوا كتابا الى الملك الظاهر بصورة الواقع وقالوا مرادنا نغزو منصورا العقاب ونؤدبه لانه اهاننا ونهب اموالنا فلما قرأ السلطان الكتاب خاف من وقوع الفتن بينهم وتزيا بزي تاجر كردي وركب جواده الادهم وسار طالب القلاع عن طريق الساحل الى ان وصل الى سهل النواعير القريب من عكا فرأى خيالا مقبلا عليه فلما قاربه قال الملك بنفسه اظن ان هذا منصور العقاب العاصي والله لاعمل جهدي وآسره وأريح الناس من شره اما هذا الخيال فكان منصورا

العقاب بنفسه لانه علم ان المقدمين سيأتون اليه فصار يستعد لقتالهم ويجمع الرجال وصار يقصد ملوك الافرنج الذين على السواحل لاجل مساعدته في قتاله مع ابناء عمه بني اسماعيل الموالين الى الملك الظاهر وفي اثناء خروجه من عكا بعدما استنجد في ملكها راى السلطان في سهل النواعير فقال له اين يا آغا ساير وحدك في سهل النواعير أما تخاف عدوا يأخذ منك هذا الجواد فقال له الملك خفت على الجواد وما خفت على هذا الخرج الملآن ذهبا فلما سمع منصور هذا الكلام امتشق الحسام وقال للكردي انزل عن الجواد واترك خرج المال واذهب بسلام اما الملك فصار يتلطف معه بالكلام وصار يترجاه ان يتركه بحال سبيله وصار يدنو منه بالجواد لعله يستحكمه بضربة بالدبوس الدمشقي ويرميه عن ظهر جواده اما منصور فكان حذرا منه فغار على السلطان وضربه بسيفه فتلقى الملك ضربته بالترس ثم تقاتلا مدة ساعة من الزمان فسدد الملك الظاهر ضربة بسيفه لمنصور فأراد منصور ان يردها بالترس فسقط السيف على رقبة فرسه قطعها قال منصور ويلك اعدمتني الفرس وارتمى الى الارض وصار يقاتل السلطان فخاف الملك على الجواد من ضربات منصور فنزل عنه وصار يقاتله اما منصور العقاب قفز من الارض الى ظهر جواد الملك وسار بسرعة وترك الملك يمشي على رجليه ثم نظر الى الجواد وتأمله فوجده من خواص الخيل فقال الله عوض علينا بهذا الحصان فهو احسن من فرسي بكثير اما ابراهيم استفقد الملك فما وجده فسأل عثمان قال له ان الملك ركب حصانه وذهب وهو متخف فقال ابراهيم لسعد اظن ان السلطان ذهب الى القلاع لاجل منصور العقاب ثم ان ابراهيم ركب فرسه واخذ معه سعدا وسارا على اثر الملك عن طريق الساحل وفي اثناء سيرهما رأيا خيالا مقبلا فتأمل ابراهيم الخيال واذ به منصور العقاب راكبا على جواد الملك قال ابراهيم اظن ان هذا منصور متقاتل مع الملك وآخذ جواده فحالا اخرج منديلا ابيض ولفه على راسه وعمل نفسه عويقل وتعرض لمنصور العقاب وقال يا عيني من اين طريق الناقورة فالتفت منصور الى ابراهيم وجد تحته فرسا تقطع الزرد وهي من اطايب الخيل فطمع منصور بأخذ الفرس منه فقال له انزل عن الفرس يا عويقل فقال لاي شيء يا عيني انزل عنها قال منصور لاني عاوزها انزل بالحال قبل ان اقطع راسك وسحب سيفه وهجم عليه فتلقاه ابراهيم بقلب اقوى من الحجر ووقع بينهما القتال فصار منصور يوجه ضرباته الى فرس ابراهيم فخاف عليها ونزل عن ظهرها وصار يقاتل منصورا وهو راجل والثاني نزل عن الجواد وصارا يتقاتلان بدون خيل ففي

اثناء قتالهما هجم الحصان على فرس ابراهيم فجاء سعد وابعده عن الفرس فقفز منصور على الفرس وصار بظهرها واسرع بالهرب فلما صار بالفلا تأمل الفرس فأعجبته فقال من اين هذه الخيل عند الدروز والاكراد والله تغيرت الدنيا وانقلب الزمان في مدة غيبتي عن الاوطان ثم سار طالب قلعته اما ابراهيم فركب جواد الملك وسار مع سعد واذ بالملك وهو ماش على رجليه فلما اجتمعوا حكى ابراهيم للملك ما جرى بينه وبين منصور العقاب وقال لسعد اذهب وائتنا بدابة نركبها فذهب سعد واستأجر له بغلة من عند الفلاحين وأتى بها فركبها ابراهيم وساروا طالبين جيش الفداوية المرابط على قلعة منصور العقاب الذي سار يستنجد بباقي ملوك السواحل ففي اثناء مسيره واجه رجلا محمد برميلين على بغلة فقال له ما معك يا معلم قال له هذا خمر يا سيدي لانه عندي كرم وكل سنة اعمله خمرا وانزل ابيعه في المدينة فقال اسقني جرعة منه لاذوق خمرك فقال الرجل امرك يا سيدي وناوله زقا به خمر فأخذه منصور وصار يشرب حتى ارتوى ثم ناول الزق للرجل فما سارا غير قليل الا ومنصور كبا على قربوس السرج عن بغلته وبرم منصور بالعرض على الفرس وربطه من يديه ورجليه من تحت بطن الفرس وربط الفرس بالبغلة وركب وسار طالب جيش الفداوية على قلعة الكهف وما عمل هذا العمل الا جمال الدين شيحة اما الملك وابراهيم وسعد ما زالوا سائرين الى ان وصلوا الى جيش الفداوية فاستقبلوا الملك وسألهم ماذا جرى بينهم وبين خصمهم قالوا يا مولانا لم يجر شيء بيننا وبينه الى الان ثم ان السلطان جلس في الصيوان واحتاطت به رجال الفداوية من بني اسماعيل وبعد قليل اتى جمال الدين سلطان الرجال ومعه منصور العقاب محمل على فرس ابراهيم فترجل شيحة عن البغلة وسلم على السلطان وصافحه فقال الملك ما هذا يا سلطان الرجال قال عدوك يا امير المؤمنين فسر الملك وقال بارك الله فيك يا جمال الدين ثم انزلوا منصور العقاب عن الفرس ووضعوا القيود في يديه ورجليه اما جمال الدين حكى للسلطان ما جرى له مع منصور العقاب وانه كان يستنجد بملوك السواحل ليساعدوه على حربه ضدك يا امير المؤمنين وضد بني اسماعيل ابناء عمه وكنت الاحقه اينما سار الى ان وقع وها هو ذليل مهان فقال الملك ما رأيكم يا بني اسماعيل برجل اظهر العصيان وقاتل السلطان واستباح اموال رجاله وطلب المعونة من الاعداء ليحارب مليكه امير المؤمنين وابناء عمومه بني اسماعيل فما جزاؤه بحكم الشرع الشريف قالوا

القتل يا امير المؤمنين فحالا امر الملك بوضعه في نطع الدم فقاموا اليه ووضعوه ونبهوه فانتبه وصحى مما هو فيه فوجد نفسه في نطع الدم والسياف منتظر امر السلطان بضرب عنقه فالتفت فراى الرجال من بني اسماعيل واقفين وراء السلطان والمقدمين جالسين حواليه وجمال الدين سلطان الرجال جالسا جانب الملك فصاح بأعلى صوته الجيرة يا بني اسماعيل فما ردوا عليه بل اطرقوا رؤوسهم الى الارض فوقف احد المقدمين وقال انت لم تترك مجالا لاحد يشفع فيك لدى جلالة الملك فلما يئس منهم قال انا في جيرتك يا امير المؤمنين اجعلني عتيق سيفك وخادمك وروحي فداؤك ما دمت حيا وانا انشدك بالله ان تعفو عني فقال له الملك عفوت عنك على شرط تقدم الطاعة الى جمال الدين شيحة سلطان القلاع والحصون فقال الف طاعة لمولانا امير المؤمنين وسلطان الحصون جمال الدين فقال فكوا قيده واطلقوه ففكوا قيده وقالوا وأموالنا التي اخذها يا امير المؤمنين قال السلطان سامحته بها وانا أعوض لكم بغيرها عند حضوركم الى مصر ان شاء الله ثم قال له الملك صافح المقدمين اخوانك وصالحهم فتقدم منصور العقاب وصافح الملك ثم المقدمين فردا فردا وصار يستسمح منهم عما جرى منه ثم قال ارجو من امير المؤمنين السلطان ان يمن علي بزيارة قلعتي ويكون ضيفا عندي ثلاثة ايام هو وكل من حضر من الرجال والمقدمين من بني اسماعيل قال الملك لك ذلك يا منصور ثم ساروا مع الملك وجمال الدين الى القلعة فصار يذبح الذبائح ويقدم كل ما لذ وطاب واجتمعت الرجال والناس من كل مكان وصارت المهرجانات وطراد الخيل ولعب السنان والسيف بحضور السلطان مدة ثلاثة ايام ثم ان السلطان امر ابراهيم وسعدا بالمسير معه فوقف المقدمون والرجال لوداعه فقال للمقدمين عند رجوعكم الى مصر ليكن برفقتكم المقدم منصور العقاب ليفرغ عليه المناصب والرتب ثم انهم دعوا للسلطان بالنصر والتأييد وبدوام العز والنعم فركب الملك واخذ معه ابراهيم وسعدا وسار طالب دمشق الشام لان قلبه دائما معلق بها ثم ان السلطان بعدما اقام بالشام سبعة ايام ركب وسار طالبا مصر المحروسة صحبة ابراهيم وسعد وما زالوا سائرين الى ان وصلوا وثاني يوم طلع الملك الى الديوان وصار يتعاطى الاحكام مدة من الزمان الى ان كان يوم من الايام بعدما انفض الديوان ودخل الملك الى الحرم فراى ابنه السعيد سكران وهو يعربد ويشتم الجواري والخدم فغضب السلطان واخذ قضيبا من الخيزران وصار يضرب ابنه السعيد على راسه وعلى بدنه الى ان تدخلت امه في الامر ووقفت بينهما وأبعدت ابنها عن والده فصار

السعيد يبكي ويهدد فراحت من الملك التفاتة وجد ابنه السعيد يكوز يده ويقول انا له ثم ان السعيد بات ليلته وهو يفكر ويدبر امره الى ان صمم على ان يرحل عن والده فنهض قبل الفجر ولبس لبس الدراويش وأخذ معه من المال ما وصلت اليه يده وفتح باب السرايا وسار طالبا البر الاقفر وما زال سائرا الى ان وصل الى بورصة وصار يدور على مكان ينزل فيه فلما رأوه مرتديا لبس الدراويش ظنوه درويشا فأرشدوه الى التكية فدخل وقعد في زاوية من زواياها منفردا ذليلا فرآه شيخ التكية الموكل عليها قاعدا منفردا عن الدراويش ومنطويا على نفسه فتعجب منه فسأل من اي البلاد انت قال من مصر وسايح في ملك الله فقال له الشيخ قم يا بني اقعد بين اخوانك الدراويش وأمر الخدم ان يأتوه بالطعام فأكل ثم نهض فتوضأ وصلى وقعد بين الدراويش وصار يتذاكر معهم ويروي لهم من الاحاديث والتفاسير فسروا منه كثيرا الى ان سمع عنه شيخ التكية انه مهذب ومتعلم فجعله وكيلا عنه في التكية فأقام السعيد بها مدة من الزمان اما السلطان فانه سأل عن ولده السعيد فما عرف احد اين ذهب فأوصى الوزير شاهين بالملك وأجلسه مقامه واخذ ابراهيم وسعدا وساروا ليفتشوا على السعيد ويسألوا عنه ودخلوا بلادا كثيرة فلم يقعوا له على اثر حتى دخلوا مدينة بورصة ولم يعلموا مسعودا حاكم بورصة بمجيئهم وصاروا يتجولون في بورصة وهم متخفون فسمعوا رجلا يقول لرفيقه سر بنا لنصلي العصر بالتكية ونسمع الدرس من عالم جاء من مصر حديثا فلما سمع الملك ذلك قال لرفيقيه لنذهب الى التكية لنرى من هذا الشيخ الذي جاء من مصر فساروا الى ان وصلوا الى التكية فما كان الشيخ الا السعيد فلأجل المقدور وان شقاء السعيد لم ينته لمحهم السعيد من غرفته اثناء دخولهم فلبس ثيابه وخرج ولا يدري اين يذهب وما زال يمشي على غير هدى الى ان دخل بلاد الروم فرآه قطاع الطرق فسألوه من انت ولاي شيء سائر وحدك في هذه الفلاة قال لهم انا سايح في هذا الكون قالوا ما دينك قال مسلم فقيدوه واخذوه اسيرا ثم انهم باعوه بخمسين دينارا لوزير ملك الافلاق فأخذه ووضعه في مزرعته يرعى الخنازير الى يوم من الايام وهو يرعاهم تفكر بحاله وما وصل اليه فتأسف وبكى حتى غفل ونام فلما افاق من نومه لم يجد الخنازير فخاف على نفسه من الوزير ورأى خنزيرة عرجاء فأخذ العصا وصار يضربها ويقول لها لاي شيء ما ذهبت معهم فصارت تصيح من شدة الضرب واذ بالخنازير اتت اليه من كل حدب

وصوب على صوت الخنزيرة فساقهم الى الزريبة فصار كـــل يوم يترك الخنازير تذهب ويربط الخنزيرة ويحط راسه وينام وفي اخر النهـــار يضربها فيجتمعون فيسوقهم الى الزريبة ودام على ذلك الحال . اما الملك وابراهيم وسعد دخلوا الى التكية وتوضأوا وصلوا ثم بعد ما انتهوا من الصلاة قال ابراهيم انا قائم أسأل عن الشيخ المصري لعله يكون السعيد فقام وصار يسأل عن الشيخ فأعطوه اشارته فعرف انه السعيد فقال واين هو قالوا له كان موجودا وقت صلاة الظهر والان لا ندري أين ذهب فرجـــع ابراهيم واخبر الملك بما سمع وان الوصف الذي وصفوه به هو السعيد بالذات ولا نعلم اين ذهب قال الملك لا حول ولا قوة الا بالله ثم انهم صاروا يسألون عنه مدة شهر زمان الى ان دخلوا بلاد الروم فطلع عليهم قطاع الطرق فتلقوهم بضرب أحر من الجمر وقتلوا منهم ما ينوف عن العشرة والباقون هربوا فراى ابراهيم جريحا بين القتلى فضمد له جرحه وسأله من انتم فقال نحن قطاع طريق ودائما مرابطين في هذا الوادي الذي يتصل ببلاد المسلمين وكل ما مر احد من هنا اذا كان مسلما اخذناه هو وماله وان كان غير مسلم اخذنا ماله وتركناه قال ابراهيم هل مر عليكم درويش من مدة شهرين قال نعم مر هذا الشخص واخذناه اسيرا وبعناه الـــى الوزير مرين وهو عنده يرعى الخنازير ومزرعته تبعد عن هذا المكان يومين فتركه ابراهيم واعلم السلطان بما قال الجريح ثم انهم ساروا مسافة يومين على ظهور الخيل الى ان وصلوا الى مزرعة الوزير مرين فحولوا على عين ماء وبعث الملك سعدا يفتش على السعيد فذهب يفتش عليه فراى رجلا نائما تحت شجرة فتامله سعد فاذا هو السعيد ابن الملك بذاته فما نبهه من منامه ورجع فأخبر الملك وابراهيم انه وجد السعيد نائما تحت شجرة وما نبهه فساروا اليه فوجدوه نائما وبجانبه خنزيرة كبيرة فتعجب السلطان من هذه الحال وقال لابراهيم نبهه فنبهه ابراهيم ففاق وصار يلتفت يمينا وشمالا هل هو في منام فصاح فيه الملك ما هذا الحال الذي انت فيه فبكى السعيد وارتمى على ابراهيم قال ابراهيم للملك ان ما جرى على السعيد مقدور من الازل يا جلالة الملك فاحمد الله الذي وجدناه ولو قتله اللصوص كنا خسرناه دون ان نعرف من قتله فاعف عنه فالعفو من شيم الكرام وفجاة اقبل الوزير مرين وهو راكب جواده وحين وصوله ترجـل واقبل الى السلطان وقبّل يده وقال ايها الملك وحق من اولاك على رقاب العباد لم أعلم ان هذا ولدك الا في هذه الساعة فقد كنت نائما فرايت رجلا لابسا ثوبا اخضر وقال لي قم يا مغرور قابل ولدي الملك الظاهر وسلم

عليه فان ولده عندك اسير فسلمه له واتبعه لعلك تكون من الابرار فانشرح صدري ودخل الايمان الى قلبي وها انا اقول على يديك اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمدا رسول الله فقال له الملك افلحت فهنيئا لك فقال يا مولاي اريد ان اكون تحت حكمك وفي خدمتك حتى اموت ومرادي ان اجمع اموالي واسافر من هنا والحقك الى بلاد الاسلام قال له السلطان افعل ما تريد ثم ان السلطان اخذ السعيد وسار وقال له من الذي اغراك حتى تسافر الى هذه الارض ويستعبدوك اقسم بالله العظيم انك لا تسافر معي الا ماشيا على الاقدام ولا تقلع ثياب الاسر الا في مصر وركب الملك من الافلاق وسافر السعيد بركابه يتكبد مشقات السفر ماشيا حتى وصلوا الى مدينة الرخام عند ذلك قال ابراهيم يا سعد اسبق واعلم خالنا المقدم معروفا وابنه الملك عرنوسا بقدوم الملك الى مدينة الرخام لاجل ان يأخذ السعيد الراحة فسار سعد واعلمهما بقدوم السلطان وابنه وابراهيم فركبوا وطلعوا من المدينة واستقبلوا السلطان ثم ضربت المدافع لقدومه وكان يوما عظيما هذا والملك الظاهر متغير على ولده السعيد فسأل عرنوس الملك الظاهر عن القصة فحكى له ما كان من السعيد وكيف اتبعه مدة اربعة اشهر في البلاد والقفار وقال الملك انا حالف ان لا يخلع لباس الاسر الا في مصر فقال عرنوس اسمح لي يا جلالة الملك ان البسه ثياب المملكة فوق ثياب الاسر حتى لا تشمت به الاعداء اذا راوه بهذا الحال فقال السلطان افعل ما تريد وبعد تمام الضيافة سافر الملك الى مصر هو وابراهيم وسعد وسار عرنوس والمقدم معروف معهم مسافة نهار فحلف عليهما السلطان ان يرجعا الى مدينتهما فتودعا من الملك ورجعا الى مدينة الرخام والملك يتنقل في البلاد الى ان وصل الى مصر والسعيد يمشي في ركابه حتى طلع الى قلعة الجبل وطلع السعيد الى السرايا ومن شدة حيائه اقام في السرايا لم ينزل منها ابدا الى يوم والملك جالس في الديوان واذ بنجاب داخل ومعه كتاب من الاسكندرية قدمه للسلطان واذ فيه بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيد ولد عدنان خطابا من نائب الاسكندرية الى بين ايادي امير المؤمنين انه يوم تاريخه ورد علينا مركب من ظهر البحر وبه مرين وزير ملك الافلاق يريد القدوم الى مصر لمواجهة مولانا السلطان ادام الله ملكه وايده بنصره فلما قرا الملك الكتاب قال لولده السعيد اركب الى الاسكندرية واحضر سيدك مرين الى هنا وانزله في دار الضيافة فسافر السعيد الى الاسكندرية وسلم على الوزير ثم ركبوا في النيل طالبين بولاق

وانزله دار الضيافة وثاني يوم طلع الوزير الى الديوان وقبّل يد السلطان ودعى للملك بدوام العز والنعم فأسر الملك الى ابراهيم هل اسلامه صحيح فقال لا يعلم بالباطن الا الله يا امير المؤمنين ولنا الظاهر فأمر السلطان لمرين بخلعة افرغوها عليه وقال له انت امير من جملة الامراء في الديوان وكان لمرين زوجة اسمها مرينة فلما باع املاكه قالت له ما مرادك فقال لها قصدي اذهب الى القدس فامتثلت له ولم تعلم انه أسلم وركب في البحر وركبت معه الى ان صار في مصر واقام بها فأقامت معه فقال لها انا اسلمت فأسلمي فاذا علم السلطان انك على غير دينه يقتلك فلم تجب وبينما كان مرين ذاهبا الى داره رآه شيخ جليل القدر ووراءه تلميذه فقال الشيخ السلام عليكم فرد عليه السلام باحترام فقال له الشيخ هنيئا لك يا بني بما اعطاك ربك ولكن يلزمك ان تتعلم أمور دينك وتتفقه في الاسلام فاذا اردت اتطوع انا لك واعلمك في بيتك كل يوم بعد رجوعك من الديوان فقال له مرين تفضل الى عندي من الان فسار معه الشيخ وتلميذه الى البيت وهو فرحان لانه سيعلمه أمور دينه فلما دخلوا البيت رفع الشيخ العمامة وشلح الجبة وقال اعلم يا مرين ان الذي يكلمك جوان فكيف تركت دينك وأسلمت فهل تريد ان تزود المسلمين وما زال جوان يطغيه بدهائه ويغريه حتى ارتد لدينه ثم قال لمرينة وهل اسلمت انت قالت كلا انا لم أسلم فقال مرين والان ما العمل قال له جوان اطلع غدا الى الديوان واطلب من السلطان ان يسمح لزوجتك بالدخول الى السرايا عند الحريم عسى يميل قلبها للاسلام فاذا وافق السلطان فتقيم اياما قلائل وتسلم اسلاما باطلا فاذا سألها الملك عن سبب اسلامها تقول له رايت الملك الصالح ايوب في المنام واسلمت على يده واذا قال لها تمني عليّ تقول أتمنى على مولاي ان اكون مرتبة المائدة للملك فاذا بلغت ذلك فهذه زجاجة السم ضعي منها في طعام الملك فان فعلت ذلك رضيت عليك فأخذت مرينة الزجاجة منه وبات جوان تلك الليلة وعند الصباح ركب وسار الى حال سبيله اما مرين دخل ثاني يوم الى الديوان وقال للملك ان زوجتي لم تسلم فاذا سمح لها الملك ان تحضر في السرايا لعلها تهتدي عند الحريم وتسلم فأمر السلطان بدخولها السرايا اما مرينة فانها اقامت شهرا كاملا وبعده اسلمت ونطقت بالشهادتين فقالوا للملك اسلمت مرينة فأحضرها بين يديه وسألها عن سبب اسلامها فقالت له ان الملك الصالح ايوب اتاني في المنام واسلمت على يده وقد افقت من نومي وانا انطق بالشهادتين ففرح الملك بها ولم يعلم ان هذه من مكايد جوان وتعليمه فقال لها السلطان تمني عليّ قالت أتمنى على مولانا امير المؤمنين ان

ارتب له المائدة فاعطاها طلبها وصارت المشرفة على الطعام والشراب الى يوم من الايام رتبت المائدة حسب عادتها وبسرعة سكبت سما من الزجاجة على قطع البطيخ وغطتها ومضت فدخل السعيد غرفة الطعام واراد ان ياكل فشعر بالملك مقبل فخجل وخرج اما الملك دخل الى المحل وجلس ليأكل فمد يده الى البطيخ واخذ قطعة فأكلها واتبعها الثانية فشعر بالالم في معدته فصرخ صرخة عالية فأدركوه وقالوا ما الخبر يا مولانا قال لهم شعرت بألم شديد عندما تناولت من هذا البطيخ فحالا اخبروا رجال الدولة ان الملك تسمم فحضر الوزير شاهين وابراهيم وشيحة جمال الدين فقال شيحة احضروا لنا طبيب الملك فورا وقولوا له احضر معك خرزة ضد التسمم فحالا حضر وقال هاتوا حليبا ثم أخرج الخرزة وصار يحكها بالحليب وجعل يسقي الملك عدة مرات وكل مرة يستفرغ الى ان فرغت معدته وخرج السم مع الطعام ثم صار يعطيه من لبن الجاموس الى ان زال المه وبرىء من السم فأنعم الملك على الطبيب انعاما زائدا واذن له بالانصراف ثم قال الملك لابراهيم من هو المجرم الذي دس لي السم يا ترى قال يا امير المؤمنين اظن انها مرينة مرتبة المائدة فقال الملك لا اظن انها تتجرأ على هذا المنكر لاني ما اسأت اليها قط ولكني متأكد تماما ان ابني السعيد هو الذي فعل هذا الفعل لاني رايته بعيني ينسل من غرفة الطعام اذن هو الذي وضع لي السم فقال ابراهيم معاذ الله ان يفعل ابنك هذا الفعل فاكراما الى الله ان تخفف من غضبك ولا تظلم ولدك فهو بريء ثم ان الملك امر ابراهيم باحضار السعيد فمضى ليأتي به من السرايا وطلب السعيد ليواجه السلطان فقالت الملكة لابراهيم ان ابني السعيد بريء من هذا الفعل الخطير وعليك ان تقنع السلطان انه مظلوم قال ابراهيم سأبذل جهدي وأفديه بروحي لاني اعلم يقينا انه لم يفكر بهذه الامور ثم اخذه واوقفه امام السلطان قال له الملك ما حملك على ان تضع لي السم في الطعام قال السعيد معاذ الله ان أقترف هذا الذنب العظيم يا مولاي واني اسأل الله العلي المتعال ان يجعل عمرك أطول من عمري انه سميع مجيب قال له الملك انا بعيني رايتك تنسل من غرفة الطعام ايها العاق قال السعيد لقد خرجت من غرفة الطعام خجلا من نفسي ان امد يدي الى الطعام قبل ان ياكل جلالة الملك فلم يقتنع الملك بهذا الجواب وقال لابراهيم خذه واقطع راسه قال مهلا يا امير المؤمنين ان ولدك السعيد مظلوم ولم يفعل هذا المنكر فاغتاظ الملك من ابراهيم وصاح به ائتني براسه فورا والا انتقمت منك

افظع انتقام فقال ابراهيم اكتب لي حجة بخطك اني لست مسؤولا عن راس السعيد ابنك لانك لا تعفو عني اذا ظهرت لك براءته بعد موته فأعطاه الملك ما طلب وقال له اذهب الان وائتني براسه فأخذه ابراهيم واخفاه عن اعين الناس واوصاه ان لا يخرج من مكانه ووكل به خادما يأتيه بما يلزمه ونزل الى السجن وطلب مجرما محكوما عليه بالاعدام فدله السجان على احـد السجناء فأخذه ابراهيم وقطع راسه وقدمه في طست بين يدي الملك وقال هذا هو عدوك يا ملك الزمان قال الملك من خان لا كان ولا عمرت به أوطان خذه يا ابراهيم وادفنه مع الجثة ولا تغسله ولا تكفنه ولا يصلى عليـه ففعل ابراهيم مثل ما أمر السلطان اما الملك فانه بقي في السرايا منزويا لا يكلم احدا ولا يطلع الى الديوان مدة سبعة ايام وبعدها طلع الى الديوان وقعد على تخت ملكه وهو مقهور مما جرى الى يوم من الايام بينما الملك يتعاطى الاحكام واذ بالملك عرنوس داخل الى الديوان ومعه والده المقدم معروف فنهضوا لهما ونسلموا عليهما اما الملك فاستقبلهما بالترحـاب والبشاشة اما سبب مجيء عرنوس ووالده معروف فقد اتاهما خبر تسمم الملك وان المتهم هو ابنه السعيد قال عرنوس لوالده مرادي ان نذهب الى مصر لنزور الملك ونحقق في مسألة التسمم قال كما تريد فثاني يوم ركبا وسارا طالبين مصر وما زالا الى ان وصلا الى الديوان واستقبلهما السلطان واجلسهما فسأل عرنوس السلطان عن ولده السعيد فحكى له السلطان بما جرى وما كان من السعيد ولده فتأسف عرنوس وقال لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ثم قال اما كان ينبغي ان تتمهل في الحكم يا امـير المؤمنين لعله كان يظهر لنا الدافع في هذا الشأن قال السلطان هكذا توضح لي ان السعيد هو اكبر اعدائي فانتقمت منه قال يا مولاي مرامي ان ادخل الى السرايا واتحقق من الموجودين في القصر عن هذا الامر فقال له الملك افعل ما تريد فأرسل الى السرايا من يخبرهم ان لا احد يخرج منها ابدا لان عرنوسا مراده ان يحقق فيما جرى ثم استأذن عرنوس من السلطان وذهب الى السرايا وعند وصوله سأل من المسؤول في قصر السلطان فدلوه على الرئيس قال عرنوس اعلموه ان يحضر الى هنا فأخبروه فترحب به عرنوس وقال له اريد منك ان تأمر الخدم الموجودين في قصر السلطان ان يمروا من قدامي واجلس انا وانت ازاء بعضنا وكلما مر احد منهم تنبئني عنه وعن عمله في القصر قال له أمرك فحالا بلغ كل من في السرايا ان يمروا أمام عرنوس ورئيس الخدم وصار كل ما مر احد منهم يسأله عرنوس من هذا فينبئه عنه من اين هو وما مصلحته في القصر وكيف اخلاقه الى ان

برت مرينة زوجة مرين فعندما وصلت امام الملك عرنوس صارت ترتجف وكادت ان تقع من عظم ما نالها من سطوة عرنوس فسأله من هذه قال هذه دخلت الى السرايا بأمر السلطان وبعد اقامتها بالسرايا شهرا من الزمان قالوا انها اسلمت واعطاها امير المؤمنين تمنيتها وهي ان تكون مرتبة مائـــدة السلطان وهي زوجة الامير مرين ثم ان عرنوسا اتم التحقيق عن باقـــي الخدم بصورة سطحية واخذ مرينة الى غرفة من غرف القصر وصـــار يسألها كيف اسلمت وما مرادها من اسلامها قالت له اني رايت فـــي منامي رجلا مرتديا ملابس خضراء وعلى راسه طاقية خوص وقال لـــي اسلمي يا مرينة خير لك قلت له من انت قال انا الصالح ايوب فانتبهت من نومي وانا انطق بالشهادتين فعندما سمع منها عرنوس ذلك الكلام عرف انها متعلمة هذا الكلام تعليما قال لها ومن علمك هذا الكلام وانه لا شك هو الذي اعطاك السم ودربك هذا التدريب فقولي الصحيح ولا تخافي والا وحق الملك العزيز الجبار ونهض على الاقدام ومد يده على الحسام وقال اضربك ضربة اعملك قطعتين وزمجر ووقف شعر راسه وتمثل بالنمر الكاسر قبل الوثوب فلما نظرته مرينة على هذه الصفة كاد يغمى عليها مما نابها من سطوته فصارت ترتجف وتتوسل اليه ان لا يفعل لانها ستعترف له بكل شيء ثم قالت ان جوان دخل الى بيتها بصفة شيخ وكان الذي جاء به هو زوجها مرين وحكت كيف علمها جوان واعطاها السم وعلم زوجها مرين ان يطلب ويستأذن من السلطان بدخولي الى الحريم ثم قالت انا التي وضعت السم في لب البطيخ وليس للسعيد علم بذلك ابدا فلما سمع عرنـــوس اعترافها بعث الى السلطان انه عرف الغريم وقال له اقبض على مرين بالحال يا امير المؤمنين وارسله لي لاجل تتميم التحقيق فلما عرف السلطان ان ابنه السعيد بريء تأسف على حكمه بقتل ابنه وقبض على مرين وارسله الى عرنوس فقال له اسمع ما تقول زوجتك قال عرنوس لمرينة احكي له مـــا فعلت بالذات فقالت لزوجها انت اتيت بجوان الى بيتي فأعطاني السم وقال لي ضعيه في شراب السلطان قال له عرنوس وكنت السبب بدخولها الـــى الحريم بأمر الملك اليس كذلك فسكت مرين ولم يجب بشيء فامر عرنوس ان يأخذوهما الى الديوان مقيدين وسار الى الديوان وحكى للسلطان كل ما جرى فلما اتوا بمرين ومرينة الى الديوان قال عرنوس لمرينة احكي للسلطان ما جرى مفصلا فسردت القصة كما ذكرنا سابقا فتعجب الوزراء والامراء ومن حضر في الديوان ودمعت عين السلطان على قتل السعيد وهو بريء

من هذه الفعال فقال عرنوس وانت يا مرين ما حملك على ان تتنكر للسلطان وتتلاعب بالاديان قال انا كنا مخطئين انا وزوجتي ولكن الذي حرضنا على هذا الفعل الخطير هو جوان والان اطلب من جلالة امير المؤمنين ان يترفق بنا ويعفو عنا فقال الملك لقاضي الديوان ما تقول يا استاذ بهذه القضية وما جزاؤهما في الشريعة الاسلامية قال قاضي الديوان حيث اقدما مختارين على وضع السم لقتل جلالة الملك وايضا ازهقت نفس بريئة بسببهما فجزاؤهما القتل شرعا فأمر الملك بقتلهما ومصادرة اموالهما واملاكهما وانفاقها على الفقراء والمساكين والايتام فنفذ امر السلطان بهما حالا وبعد ذلك تراكمت الاحزان والهموم على الملك وندم اشد الندم على قتل ولده البريء وكلما دخل السرايا يجد امراته تبكي وتنوح على ولدها فقال لها السلطان الى متى هذا يا بنت الكرام قالت لا يشفى لي غليل حتى تقتل الذي قتل ابني قال وما ذنبه وقد اخذ مني امرا سلطانيا في قتله فقالت اطرده من خدمتك لاني لا اقدر ان اراه واسمع باسمه قال سوف ابعده فهدئي روعك .

قال الراوي : اما ابراهيم فصار يشعر بجفاء من السلطان وعدم التفات اليه الى يوم من الايام قال له الملك اعلم يا ابراهيم اني سمحت لك بالذهاب الى ديارك حوران ومتى ارسلت اليك بالحضور فلا تتأخر بالمجيء الينا فقال ابراهيم هل ابعادي بسبب تنفيذ امركم بقتل ولدكم السعيد فان كان لهذا السبب فأنا معي امر من جلالتكم بقتله وبخط يدكم الكريمة وانا تحت امركم افعل ما تأمرني به فسكت السلطان اما الوزير شاهين فقال الحق عليك يا ابراهيم كان يجب عليك ان تحقن دم السعيد وتنفذ امر السلطان بأحد المجرمين المحكوم عليهم بالاعدام الى ان تظهر ثورة الملك وتظهر براءة السعيد عند ذلك تأتي بابن الملك حيا يرزق وتنال الاكرام والانعام الجزيل من الملك والوزراء قال ابراهيم اجمعوا لي هذا الاكرام والانعام وانا اطلب من المولى ان يحييه فقال له الوزير هل انت سيدنا عيسى عليه السلام حتى تحيي الموتى وهنا دخل رئيس الخدم في السرايا وقال ان والدة السعيد قالت انها تدفع لابراهيم عشرة آلاف دينار اذا كان ولدها حيا قال الملك ولك مني قدرها ومن الوزراء كل واحد على قدر استطاعته قال ابراهيم اجمعوا لي المال لابشركم ان السعيد حي يرزق وهو عندي بأمان قال السلطان اذهب وائتني به لاراه والمال الذي قلنا لك عليه لا ينقص منه درهم وتبسم الملك وقال ان ابراهيم يحب المال كثيرا فذهب ابراهيم ليأتي بالسعيد فدخل الى السرايا وبشر الملكة بابنها وطلب منها

بذلة السعيد الملوكية ثم قال احضري المبلغ الذي قلت عليه ففرحت واعطته البذلة فأسرع ابراهيم الى السعيد والبسه البذلة وسار به بموكب عظيم لانه قد شاع الخبر عند العوام ان ابراهيم الحوراني احيا السعيد بعد ما قطع السلطان راسه وفرح الناس بسلامته وسلامة السلطان وصارت المهرجانات الشعبية في كل مكان وكثرت الاحتفالات والدق والرقص والغناء والزغاريد وازدحم الناس ليتفرجوا على السعيد وهم يتعجبون ويستغربون كيف عاش السعيد بعدما قطع راسه ومات ثم ان السعيد طلع الى قلعة الجبل ودخل الديوان وسلم على والده وقبّل يده فضمه والده الملك الى صدره وجعل يقبّله وسقطت دمعة الفرح على خديه ثم صافح السعيد الامراء والوزراء والمقدمين اما ابراهيم فأقسم انه لا احد يخرج من الديوان الا ويدفع ما عليه حسب ما قال الملك وأمر السلطان وكيل الخزينة ان يدفع لابراهيم عشرة آلاف دينار فأخذ ابراهيم الاموال وذهب الى السرايا فترحبت به الملكة واعطته عشرة آلاف دينار وخلعة فأخذهما وهو مسرور .

قال الراوي : اما الفداوية من بني اسماعيل فصاروا يفدون على مصر ومعهم المقدم منصور العقاب فلما دخلوا الديوان البس الملك خلعة سنية لمنصور العقاب وقال هذا مقدم وله كرسي في الديوان وله المرتبات مثل اخوانه المقدمين وهو امير الف كأمثاله فانسر منصور العقاب ودعا للسلطان بالعز والنصر وأما الملك عرنوس فصار يبني المراكب الكبار ويجهزها بالمدافع والرجال ويغزو بلاد الافرنج ويأتي بالاسارى والاموال حتى ضجرت الافرنج منه واشتكوا عليه للملك باش قران صاحب رومة المدائن وطلبوا منه ان يتوسط لهم عند السلطان لاطلاق أسراهم من عند عرنوس فكتب باش قران كتابا الى السلطان الظاهر وارسل مع الكتاب هدايا وخزنة مال الى عرنوس ليفك الاسارى وأبناء الملوك وارسلها مع وزير من وزرائه فركب في مركب الى الاسكندرية فلما وصل الميناء رفع علم السلام فاستقبله رئيس ميناء الاسكندرية فأعلم به النائب فقال احضره الى الديوان امام النائب فسأله ما تريد قال انا مرسل من عند الملك باش قران ومعي كتاب وهدايا الى السلطان فلما سمع النائب ذلك انزله في دار الضيافة وارسل خبرا للسلطان به فجاء الجواب من مصر بحضوره بالحال عند ذلك اركب وزير باش قران في مركب في النيل هو وجماعته والهدايا وارسلهم الى مصر فطلع الوزير الى الديوان ودعا للسلطان ثم اخرج الكتاب واعطاه للسلطان

فأمر له بالجلوس وقرا الكتاب واذ به خطابا من الملك باش قران صاحب رومة المدائن الى السلطان الملك الظاهر الذي نعلمكم به ان نائبكم عرنوس صاحب مدينة الرخام قد تعدى على ملوك الافرنج وهو يغزوهم ويقتل رجالهم ويأسرهم ومن جملة الاسرى ابناء ملوكهم فاتوا يشكون الي جـور نائبكم عرنوس ويطلبون فك اسراهم فالرجاء ان تمنعوه عن هذه الاعمال وأن تطلقوا سراح الاسرى وقد قدمنا لكم فكاكهم خزنة مال وتقبلوا منــا هديتنا مع فائق التحية والاحترام فلما قرا السلطان كتاب باش قران امر كاتب الديوان ان يكتب كتابا الى الملك عرنوس ويطلب منه الحضور الى مصر لاجل المذاكرة في هذا الشأن فأخذ النجاب الكتاب وسار الى مدينة الرخام واعطى الكتاب الى عرنوس فلما قراه وعرف انه يلزم حضوره لمصر لمقابلة السلطان ركب وسار الى مصر وطلع الى الديوان فترحب به السلطان وامر له بالجلوس ثم قال له ان باش قران ارسل لنا مكتوبا يقول فيه ان عندك أسارى من الافرنج وقد ارسل لنا مع وزيره هدية وخزنة مال لفكاكهم من الاسر فقال عرنوس اين وزير باش قران فأمر السلطان باحضاره فحضر فقال له عرنوس انتم ارسلتم تطلبون اسراكم فلماذا لم تذكروا اسرانا والقتلى الذين قتلتموهم ظلما وعدوانا فكان الواجب على باش قران ان يفاوضني على هؤلاء اولا وليعلم ان الذين اشتكوا له عن افعالي انهم هم المعتدون ولنا عندهم رجال مأسورون بالغدر فلأي شيء لم يذكرهم في كتابه ومرسل لي خزنة مال يعطيني بها انا أرسل له عشر خزنات فكاك المأسورين عندهم على شرط ابقي اسراكم واولاد الملوك عندي فقال وزير باش قران ان مليكي قادر ان يخلص الاسرى منك بالقوة ويخرب مدينة الرخا ولكنه بعث رسالة يفاوض فيها الملك الظاهر بهذا الخصوص ولم يرسلها اليك ليفاوضك انت.

قال الراوي : فما أتم كلامه الا وسيف عرنوس رمى عنقه فوقع الراس في حضن ايدمر البهلوان وتلطخ وجهه وصدره بالدماء فنهض بالحال وثيابه ملوثة بالدماء وقال ما هذه الفعال ان الرسول لا يقتل ولكنك لا تلام لان حليبك رديء فقال عرنوس انا ابن معروف والذين تربيت عندهم ملوك اما انت فليس لك اصل يعرف لانك رقيق تباع وتشترى فاغتاظ منه ايدمر وتقدم الى عرنوس واراد ان يمسك بخناقه فتكامشا بالايدي فخاف عليهما الملك فتقدم وفي يده قضيب خيزران فضرب ايدمر فزاغ عن الضربــة فأصابت راس عرنوس فرفع السلطان يده واراد ان يضرب ايدمر كما ضرب عرنوس فزاغ عنها ووقعت على عرنوس فظن عرنوس ان الملك الظاهر بيبرس يضربه عمدا فقال له ايها الملك يا من اسمك العادل كان الواجب عليك ان

تضرب أيدمر الذي اهانني بكلامه البذيء لا ان تضربني وحدي ولكن سوف ترى نتيجة اعمالك ثم انه نزل من الديوان غضبان وركب جواده وخرج من القلعة فاعترض طريقه رجل وقال السلام عليك يا ملك عرنوس ارايت تقلبات الزمان «الذي اصله مملوك يهين الملوك» فقال له انا كنت في بلادي محفوظ المقام معزوز الكرامة فقال له اعلم اني انا جوان وكل الذي جرى في الديوان رأيته بعيني ولو كنت تطيعني لجعلت ملوك الافرنج تحت يدك وطوع أمرك ولكنت تنتقم من بيبرس افظع انتقام فقال له من اي ملك اطلب المساعدة فقال له من الملك باش قران فقال عرنوس ان باشر قران ناقم عليّ بسبب الاسارى الذين عندي لاسيما واني قتلت وزيره قال جوان اما الاسرى فأطلق سراحهم واما الوزير فنقول قتله ايذمر وانا اصالحك مع الملك باش قران وتكون قائد جيشه فقال عرنوس انا ذاهب الى مدينة الرخام لاطلق الاسرى وانت اسبقني الى رومة المدائن ودبر الامر بمعرفتك فذهب جوان الى رومة المدائن ودخل الى ديوان باش قران وحكى له ما جرى ثم قال انا قصدي ارد عرنوس الى ديننا فيساعدك في الحروب والقتال فقال له ليتك تستطيع ان تقوم بهذا العمل .

قال الراوي : اما الملك عرنوس فانه اطلق الاسرى واركبهم في المراكب وسار معهم الى رومة المدائن بعدما اوصى وزيره محمد وردوش على بلده ونسائه وعندما وصل الى الميناء سار الاساري واعلموا الملك باش قران بقدوم عرنوس فنهض الملك والوزراء وجوان واستقبلوا عرنوس ورحبوا به واوصلوه الى الديوان باحتفال عظيم قال جوان لباش قران اجمع الجيوش ايها الملك من الان لاخذ الثأر لوزيرك الذي قتله السلطان في ديوانه ولم يحسب لك حسابا واجعل قائد جيوشك وسيف نقمتك الملك عرنوس فاستشار الملك باش قران وزراءه فقالوا لا تفعل شيئا الان لنرى ماذا جرى ولاي شيء قتل وزيرك في ديوان السلطان فقال الملك باش قران هذا هو الصواب وعلينا ان ننتظر . اما الملك الظاهر فأمر باحضار رفقاء وزير باش قران فلما حضروا أعلمهم بموت الوزير واعطاهم كتاب وسلمهم الوزير نوضعوه في صندوق وساروا في البحر الى رومة المدائن وصعدوا الى الديوان واعطوا الكتاب الى باش قران واخبروه بموت الوزير فقرأ الكتاب نوجد فيه خطاب من امير المؤمنين الملك الظاهر الى الملك باش قران الذي نعلمكم به انه صار في ديواننا فتنة كان المتسبب في ايقاظها وزيركم لطول لسانه وغروره فكانت النتيجة انه ذهب ضحية طيشه وتهوره فاذا كنت

تعرف ان وزيرك احمق وثرثارا فلماذا ترسله لديوان الملوك كان الاجدر بك ان ترسل غيره من ذوي العلم والخبرة وادب الحديث في مجالس الملوك والوزراء وهذا ما جرى والسلام فلما اتم قراءة الكتاب قال لوزرائه ولجوان اسمعوا محاولة السلطان بيبرس كيف يتنصل من قتل وزيري في ديوانه ويقيم التبعة عليّ ولكن وحق ديني لا بد من اخذ الثأر من السلطان الظاهر ثم أمر باقامة جناز واحتفال بدفن الوزير فاحتفلوا به احتفالا مهيبا ودفنوه ثم كتب المكاتيب الى الملوك الموالين له وطلب النجدات من الرجال والابطال وجهز الجيش لمحاربة الظاهر ثم ركب عرنوس جواده وجوان بغلته وصارا يتفقدان تلك الجيوش ويسلمان على ملوكها وقادتها ويحييان رجالها وابطالها ثم ركبت العساكر وارتفعت الاعلام على رؤوس الملوك والقادة وساروا من ارض الى ارض الى ان قربوا من مدينة حلب فوصل الخبر الى جمال الدين شيحة ان الجيوش آتية من رومة المدائن وقائدها الملك عرنوس لمحاربة الملك الظاهر فتعجب جمال الدين من ذلك لانه لا يعرف ماذا جرى في ديوان مصر فسافر الى مصر ليعلم السلطان ليستعد لملاقاة الاعداء فطلع الى الديوان واعلم السلطان فلما سمع الملك الظاهر هذه الاخبار أمر بالنفير العام وخبر جميع العربان وأهل الحصون والقلاع وجمع الجيوش من جميع البلدان في مصر والشام ثم انه ضرب مدافع الرحيل فركبت العساكر والجنود والمتطوعون للجهاد في سبيل الله وسار الملك الظاهر بجيوشه بعدما أجلس ولده السعيد على كرسي المملكة واوصاه بالعدل والانصاف وسار يقطع البراري والفلوات متوكلا على الله ان ينصره على الاعداء .

قال الراوي : اما عماد الدين ابو الخيش نائب حلب لما وصل اليه خبر زحف جيوش الاعداء اغلق الابواب وحصن الاسوار بالمنجنيقات واقام الحصارات وجاءته الاخبار ان جيوش الاعداء مؤلفة من سبعة ملوك والمقدم عليهم عرنوس فكتب كتابا الى الملك الظاهر يعلمه بهذا الشأن فأخذ النجاب الكتاب وسار وعندما وصل الى دمشق رأى السلطان فيها فأعطاه الكتاب فلما قراه امر بالرحيل ليقاتل الاعداء ويطردها عن حلب فسارت الجيوش بهمة عالية للجهاد في سبيل الله هذا وقد وصل خبر عصيان عرنوس الى ابيه معروف فقال اللهم لا كفر بعد ايمان ولا ضلال بعد الهدى ثم امر عماد الدين ابن اخته بجمع الرجال فاجتمعوا كأنهم العقبان ثم سار المقدم معروف الى حلب وارتفعت فوق راسه راية الامام علي عليه السلام مطرزة بالحرير والقصب مكتوب عليها نصر من الله وفتح قريب فلما وصل الى

حلب التقى بجيش السلطان ونصب الخيام ودخل صيوان الملك الظاهر وسلم عليه وقال له هذا يوم المنى الذي ننتظره طول عمرنا ثم قال هذه ارادة الله واني ارى يا مولانا ان تكتب كتابا الى عرنوس فكتب الملك كتابا وسلمه الى ابراهيم وقال له اعط الكتاب الى عرنوس وهات الجواب فأخذ ابراهيم الكتاب وسار الى ان وصل الى عرنوس سلمه الكتاب فقراه واذ به بسم الله الرحمن الرحيم خطابا من الملك الظاهر الى عرنوس اما بعد فقد أغراك الشيطان فجمعت هذه الجموع تريد ان تنتصر بها علينا ولكن خيب الله مسعاك فسوف ترى ما يحل بجيوش الاعداء بقوة الاله الجبار فان اردت السلامة فاقلع لباس الغرور وعد الينا ولا تتبع خطوات الشيطان فتهلك وتهلك من معك من المتهورين فان خالفت نصيحتي سوف ترى نتيجة اعمالك والسيف أصدق أنباء من الكتب والسلام على من اتبع الهدى فلما قرا عرنوس الكتاب سلم جوابه الى المقدم ابراهيم واعطاه الف دينار فأخذها وعاد الى السلطان اعطاه الجواب واذ فيه الى الملك الطاغي الذي يدعي المقدرة ويفتر بنفسه اعلم انك ان كنت في دعواك صادقا فلا تتكل في الحرب على بني اسماعيل لانهم رجالنا فانزل انت واضربني بالحسام كما ضربتني بالخيزرانة امام الناس فأنا وانت أخصام فاحقن دماء عساكرك وانزل الى الميدان بنفسك لاعرفك مقامك في الحرب والقتال فلما قرا الملك الكتاب مزقه ورماه وقال هذا ولد جاهل وسوف يرى ثم انه امر بدق طبول الحرب فجاوبته طبول الافرنج واصطفت الصفوف وترتبت المئات والالوف وبرز الى الميدان الملك عرنوس ولعب بالسيف والسنان وطلب مبارزة الفرسان فبرز له أيدمر البهلوان فقال له عرنوس ارجع وقل للملك ان ينزل للملك فعاد أيدمر ووقف بين يدي الملك وقال له لم يشأ ان يقاتلني في الميدان وقال دع الملك ينزل الى الملك فنزل الملك الى حومة الميدان وانطبق الاثنان على بعضهما ودوت اصواتهما كدوي الرعد وتضاربا بالسيوف وتطاعنا بالرماح وهمهما همهمة الاسود وايقن كل منهما ان خصمه مفقود وداما في حرب وقتال وكفاح الى ان اتى الليل فافترقا على ان يعودا صباحا فاستقبل معروف وابراهيم واكابر الدولة الملك الظاهر فرحين مبتهجين بسلامة الملك ثم قال المقدم معروف للملك اسمح يا مولاي ان انزل غدا الى الميدان فقال الملك هذا لن يكون لئلا ينظر لي ابنك بعين النقصان ولو كان من الاعداء لكنت قتلته لكن لي امل ان يعود للصواب لذلك ارجو ان آخذه اسيرا اما الملك عرنوس فكان يظن انه تغلب على الملك الظاهر اذا حاربه ويأخذه اسيرا

او يجندله على الارض قتيلا فلما جرب حربه ذلك اليوم علم انه منى نفسه بالمستحيل لان الملك الظاهر بطل جليل لكن عرنوسا اخفى الكمد واظهر الجلد ولما عاد من الميدان استقبله السبع ملوك وما كانوا يظنون انه يرجع سالما من بين يدي السلطان وفي الصباح برز الملك الظاهر الى الميدان وتقاتل مع عرنوس وكان بينهما يوم عبوس وداما على ذلك الحال الى ان ولى النهار وظلا ينزلان الى الميدان مدة عشرة ايام اما عرنوس فأحضر خمسة حراب وركبها وسنها ومسحها بيده وتركها لوقت الدماجة ثم ذهب لينام فراى جوان ما فعل عرنوس ففهم المقصود فقال للبرتقش هات لي هذه الحراب التي مسحها عرنوس فذهب البرتقش واحضرها لجوان فوجد امامه طشتا فيه ماء اصفر وموقدا من نار الفحم فأخذ الحراب وقلع اسنانها ووضعها في النار حتى حميت ثم طفاها في ذلك السم فعل ذلك سبع مرات ثم ركبها كما كانت ومسحها وقال للبرتقش ارجعها الى مكانها فقال له البرتقش ما فعلت بها قال له جوان سممتها فقال له البرتقش حقيقة يا جوان انك بذرة حرام وفي الصباح ركب السلطان ونزل الى الميدان فنزل اليه عرنوس وتقاتلا ساعة من الزمان ثم ان عرنوسا أوتر القوس ووضع فيه حربة وأطلقها على الملك فتبسم الملك وابطلها واخذ عرنوس حربة ثانية واطلقها عليه فأراد الملك ان يبطلها فرفع الحصان يديه فجاءت الحربة في فخذ السلطان فشعر بالالم الشديد لان الحربة كانت مسمومة فأسرع ابراهيم وسعد الى السلطان وأدركاه قبل ان يقع وعادا به من الميدان .

اما عرنوس لما نظر هذا الحال ندم أشد الندم لانه لم يعلم ان الحراب مسمومة فعاد وهو في غم شديد ، اما ملوك الافرنج ففرحوا وسألوا عرنوسا ان يكبسوا جيش السلطان فقال لهم لا احد يتحرك منكم .

اما الظاهر بيبرس فأحضروا له الاطباء والجراحين وصاروا يحكمونه ويزيلون السم من لحمه فلما افاق على نفسه قالوا له زال الالم ان شاء الله، فقال ادخلوا حلب فاني اخاف من هجوم الاعداء فأدخلوا السلطان الى قلعة حلب ودخل معه الامراء والفداوية ثم دخل الجيش واقام شيحة عند السلطان يعتني به ، ولم ينس ان ينسل الى جيش العدو ويتسقط الاخبار وفي ليلة من الليالي اتى جمال الدين الى السلطان وهو بالغيظ ملآن وكان الملك الظاهر قد تحسنت صحته وشفي من مرضه فقال شيحة ان جوان والملوك الافرنج لما رأوا عساكرنا دخلت حلب وتحصنت فيها ظنوا اننا فعلنا ذلك خوفا منهم فرتب لهم جوان ان كل ملك يأخذ عساكره ويحاصر بابا من ابواب حلب ويهاجم الاسوار وعند الصباح يكون الهجوم فلما سمع

السلطان هذه الاخبار جمع المقدمين فقال الى حسن النسر بن عجبور خذ عشرة من المقدمين وكل مقدم معه الف بطل مقاتل وامسكوا باب الطوابي ثم قال للمقدم جبل خذ معك عشرة مقدمين وكلّ مقدم بألفي جنــــدي وامسكوا باب القلعة وقال لمنصور العقاب ان يأخذ عشرة آلاف مقاتـــل ويمسكوا باب الشيخ يبرق وقال لصوان ابن الافعى ان يمسك باب النهر مع عشرة آلاف فارس وموسى القصار يمسك باب البستان وسليمـــان الجاموس يمسك باب الشام اما المقدم معروف فيمسك باب انطاكية ، فقال معروف انا حمي باب انطاكية وحدي ولا يتبعني احد من الجنود ، قال ابراهيم دعنا نساعدك يا خال انا وسعد على مهمتك ، فقال لا وحق سيد الاكوان الا ان تأتيني وقت المساء بالطعام والماء قال ابراهيـــم على العين والراس ، وانتظر المقدم معروف هجوم الاعداء فلما اقبلوا جرد سيفه ذا الحيات وصاح صيحة دوى لها السهل والجبل وقال الله اكبر وهجم على الاعداء وفتك فيهم كما يفتك الذئب بالغنم وصار يحصدهم حصدا بسيفه البتار وفي ساعة واحدة علموا ان ليس لهم طاقة على حربه فابتعدوا عنه وولوا الادبار فلما رآهم هربوا جلس على حجر يستريح واذ بسعـــد وابراهيم مقبلين بالطعام والماء فسلما عليه وقدما له الطعام والماء فقال لهما ابعدا عني هذه الجثث فأبعداها عنه ووسعا له الطريق ثم سألاه هل يحتاج الى خدمة او مساعدة ، فقال سلما لي على السلطان فعادا الى السلطان واعلماه بنتيجة المعركة بين المقدم معروف والاعداء وانتصاره عليهم فقال الملك انه بطل الزمان وفارس الاوان ولكني خائف عليه من غدر الاعداء فقد رايته بنومي يتودع مني ويوصيني بولده عرنوس ، وقال لي انـــي مسافر ورايته حاملا علما اخضر وبعد ان تودع مني غاب عني فلم اعد المحه، فقال ابراهيم خيرا رايت ان شاء الله ايها الملك ، اما المقدم معروف فانه جلس يتناول الطعام ، ثم توضأ وصلى ما عليه من الفرائض وداوم على هذه الحال اربعة ايام وهو ينتصر على الاعداء فشكوا امرهم لجوان مما لاقوه من المقدم معروف على باب انطاكية فأخذ جوان النظارة ومشى الى ان قرب من باب انطاكية وصار ينظر فراى ابراهيم وسعدا حاملين الطعام والماء الى خالهما فعرف انهما كل يوم يحملان له الطعام والماء هذا هذا الوقت فعاد جوان الى ملوك الافرنج وقال لهم غدا ادبر لكم في هلاك معروف وفي اليوم الثاني احضر جوان اثنين من العياق وغيَّر ملابسهما وحمل الواحد طعاما والثاني ماء وقال لهما عندما ينتهي القتال ويقعد معروف على الحجر

ليستريح فقدما له الطعام والشراب واحد من ورائه وواحد من الامام فالذي من الامام يلهيه بالكلام والذي من ورائه يضربه بالحسام فذهبا ليفعلا كما دربهما جوان اما المقدم معروف بعدما شتت الاعداء بضرب الحسام جلس على الحجر كعادته ينتظر الطعام وتقدم شخص وقال خذ دورق الماء يـــا خال فانكر المقدم معروف هذا الصوت ونهض وقال من انت ومد يده الى سيفه ليمتشقه واذ بضربة من قفاه تقطع الدرع وتنزل على عنق معروف فتجرحه جرحا بليغا فالتفت ليضربه بالسيف فضربه الذي امامه على فخذه فقطع اللحم ووصل الى العظم فصاح معروف من شدة الالم الى ان وقع على الارض والدماء تسيل من جراحه ثم انه اسند رأسه الى الجدار واسلم الروح وفي هذه اللحظة كان الشقيان قد هربا الى جوان واعلماه بما جرى فلما اقبل ابراهيم وسعد حاملين الطعام والماء الى خالهما المقدم معروف راياه مفارق الحياة فانكب عليه ابراهيم وسعد وهما يبكيان ويصيحان ما جرى لك يا خال ليتنا كنا فداؤك ، ثم ان ابراهيم قال لسعد اجلس على ركبتيك فجلس ورفعه ابراهيم على ظهره فحمله واغلق ابراهيم الباب ، ثم أوصلاه الى القلعة وشاع الخبر ان المقدم معروف قد استشهـــد فأقبلت ابطال بني اسماعيل واقبل السلطان الظاهر وكشف عن وجه معروف وقبله وبكى عليه ، ثم قال لو كنت تفتدى لفديتك بالروح والمال رحمك اللـــه رحمة واسعة ، الوداع يا معروف هذا يومك الذي وعدك الله فيه وكان معروف لا يزال قابضا على السيف فارادوا ان يأخذوه فما امكنهم وتقدم عماد الدين واراد ان يأخذه منه فلم يستطع فتأخر وتقدم كثيرون ممـــن حضروا فما استطاع احد ان يقلعه من يده فتقدم ابراهيم وقرا الفاتحـــة واستغاث بجده الامام ابي السبطين عليهم السلام ، ثم قال كنت وعدتنـــي به يا خالي معروف فاوف بوعدك يا ابن الكرام ومد يده فأخذه بكل سهولة فقال بارك الله في اصلك فانك وعدت ووفيت ، ثم احضروا المغســـل وشلحوه البدلة وغسلوه وكفنوه ووضعوه في النعش وحملوه على الاعناق ومشى خلفه السلطان الظاهر والوزراء والامراء والمقدمون والاهالي ثـــم انهم صلوا عليه وحملوه على الايدي ليدفنوه في المقبرة اذ بامراة شريفة يقال لها الست ابارة اقبلت الى السلطان وقبلت يده وقالت يا مولاي انا قد وهبت هذه الزاوية للمقدم معروف فادفنوه فيها فقبل الملك منها هـــذه الزاوية ودفنوه فيها، رحمة الله عليه ثم امر السلطان المؤذن ان يبلغ الناس ان الصباحية ستكون بأخذ الثار وكشف العار وان يكونوا على حضر لاننا نهار غد ان شاء الله نخرج الى الاعداء .

قال الراوي : اما جوان فارسل واحدا من اللذين قتلا المقدم معروف الى عرنوس يبشره بقتل معروف فذهب اليه وقال له البشارة يا ملكنا عرنوس فقد قتلنا لك المقدم معروف حامي باب انطاكية ، فقال وكيف قتلتموه فحكى له مثلما علمه جوان ، فقال عرنوس ارني الحسام الذي قتلتم به معروف فأعطاه الحسام فاخذه منه وضربه به رماه قطعتين على الارض وخرج من الصيوان وركب جواده فراى ابواب حاب مفتوحة وجيوش السلطان الظاهر وعساكره تخرج منها وهم هاجمون يصيحون الله اكبر ففرح عرنوس واستبشر بالنصر ورمى نفسه على الاعداء الافرنج وصار يضرب بهم ذات اليمين وذات اليسار من عظم حزنه على والده فرآه الملك الظاهر فقال لقد اخبروه باستشهاد والده فهو ينتقم منهم هذا وقد دارت رحى الحرب وكثر القتل والضرب والتحمت العساكر ببعضها البعض وغنى سيف اليمان فقطع الاعناق والابدان ونفذت الاسنة في الاكباد وظلت الحرب على أشدها من الصباح الى عصر النهار واذ بهجوم صاعق من ابطال على خيول عربية ومن هجانة على نوق وجمال يقدرون بعشرين الف مقاتل هجمو على الاعداء اللئام وكسروا شوكتهم فذهل الاعداء من هذا الهجوم المفاجىء وهذا الطعن المتواتر فنفرت خيول الاعداء وجفلت من الجمال وتراجعوا الى الوراء وقسم جيشهم الى قسمين قسم ولى هاربا وقسم انحصر بين الهجانة وبين جيش السلطان فاستسلم منهم ما ينوف عن ثلاثين الفا ثم ان الهجانة لحقت القسم المنهزم وظلت تطارده وتفتك به مدة ثلاثة ايام حتى بطلت حركة خيلهم وضعفت لان الهجن اثبت على الطراد فصارت العربان تذبحهم ذبح الغنم الى ان اخلوا منهم الديار فرجعوا وصاروا يلمون الاسلاب والخيول الشاردة اما السلطان فأمر ان يقيدوا الاسرى بالاغلال ويفتشوا على ملوك الافرنج وعلى جوان فوجدوا اثنين منهم بين الاسرى وثلاثة بين القتلى وقد هرب جوان مع الاثنين الباقيين من السبعة فأمر السلطان باحضار الملكين الاسيرين وخمسمائة من امرائهم فلما حضروا قال ارموا رقابهم في الموضع الذي قتل فيه المقدم معروف فنفذ هذا الامر بالحال اما العربان فسبب نجدتهم للسلطان انهم لما علموا ان حلب محاصرة اجتمعت شيوخ قبائل الجزيرة والصحراء وقالوا يجب علينا ان ننتصر لحلب ونخلصها من هذا الحصار ونساعد الملك الظاهر فوافقوا على نجدتها . ثم انهم ذهبوا الى عشائرهم وخطبوا فيهم ونفروهم للجهاد في سبيل الله ، وبعد ما اجتمعوا وكانوا على اتم استعداد جاءتهم الاخبار ان

المعارك محتدمة خارج مدينة حلب بين جيوش السلطان وبين الاعـــداء فركبوا بالحال وساروا باقصى سرعة وفاجأوا الاعداء وهزموهم وعنـــد رجوعهم استقبلهم السلطان احسن استقبال وعلق الاوسمة على صدورهم وأعطاهم من الغنائم حتى ارضاهم ثم اوصاهم ان يكونوا دائما على استعداد فاذا دهم الاعداء مدينة حلب فلينجدوها فورا ثم تودعوا من السلطـــان ورجعوا الى بلادهم وسأل السلطان عن عرنوس فلم يجدوه ولم يعرفوا عنه اي خبر ، ثم ان السلطان سلم نائب حلب الفي اسير وقال له اصلـــح الابراج والاسوار وصهاريج المياه وعمق الخندق حول الاسوار وحسن مدينة حلب ولو صرفت جميع مواردها عليها واقم الارصاد مسافة ثلاثة ايام حولها حتى لا تؤخذ على غرة ويجب ان تكون الحواصل مملوءة من المؤن لاجـل المفاجآت والحصار واقطع دابر اللصوص ، وامن الطرقات واعدل بين الناس ولا تظام احدا ، فقال النائب سمعا وطاعة لمولانا السلطان وسوف اقوم بما امرتم به على احسن ما يرام ثم ان السلطان دخل الى مقام المقدم معروف وقرا الفاتحة وامر النائب ان يصلح زاويته ، ثم انه امر بالرحيل فركبت العساكر والجنود وساروا طالبين مصر فدخلها السلطان بلا موكب ولا زينة حزنا على المقدم معروف اما الملك عرنوس لما كان يحارب الاعداء وينتقم منهم رأى السلطان يراقبه فخجل من نفسه على فعاله وما جرى علــى والده بسببه واستحى ان يقابل السلطان فعندما انتهت المعركــة بنصر السلطان وجيوشه على الاعداء هام الملك عرنوس على وجهه سائحا فــي البراري والقفار وصار يأكل هو والحصان من نبات الارض ويشرب مـــن الينابيع والغدران حتى قطع بلادا بعيدة فوصل الى ارض زائدة الحر لا وحش فيها ولا طير ورأى نفسه بين جبلين جبل اصفر وجبل اسود وقد قصر حصانه واشتد بهما العطش فعلم انه هالك لا محالة فبسط يديه الى الملك العلام وصار يتضرع ويستجير بالله فغيمت السماء وحصل الرعـــد ونزل المطر وامتلأت الحفر بالماء فشرب حتى ارتوى هو وحصانه ثم ركبه وسار حتى ضاق به الطريق فنزل وسحب الحصان بيده طول الليل ولما طلع النهار وجد نفسه في برية متسعة الجنبات ورأى اناسا كثيرين . فلما راوه نفروا منه وهربوا وصاروا يراقبونه عن بعد فتعجب منهم عرنـــوس واشار لهم اشارة فهموا منها لماذا انتم خائفون فتقدم اليه رجل كبـــير السن فسأله عرنوس لاي شيء هربتم مني ، قال لان هذا الوادي لا يخرج منه الا الجان وظنوك جنيا فهربوا منك فهذا سبب هروبنا منك فقال عرنوس وما اسم هذه المدينة ، فقال اسمها مدينة الجهجير والبر الطويل واســـم

ملكها صنهاجير ، ثم ان عرنوسا ركب جواده ودخل المدينة ونزل في خان وسلم حصانه للخاناتي وطلب منه غرفة للسكن فأعطاه غرفة ، فقال له عرنوس خذ هذا الدينار وهات عليقا للجواد وطعاما لي فاخذ الدينار واتى له بما طلب فأكل عرنوس قليلا وكان قد انهكه التعب من مشقات السفر فارتخت أعصابه وشعر بالحمى تدب في جسده فاضطجع على التخت فأتاه صاحب الخان وقال له هات اجرة الغرفة فقال عرنوس خذ هذا الكيس واصرف علي وعلى الحصان وخذ اجرة الغرفة فاخذ منه الكيس فاذا هو مملوء ذهبا وغاب اسبوعا واتى اليه وطلب منه اجرة الغرفة ومصروفه ومصروف الحصان فقال له اصرف ما بقي بالكيس ، فقال له الكيس فرغ فقال له خذ الحصان بعه ، فأخذه وباعه بمائة دينار ثم عاد اليه بعد اسبوع وطالب منه الاجرة وهكذا حتى بيعه عدة الحصان والسيف والترس ، ثم عاد اليه فبيعه القلنسوة والدرع الكنوزي ، ثم عاد اليه وطالبه باجرة الغرفة ، فقال له لم يبق عندي شيء اعطيك اياه ، فقال له وانا لا ابقيك في الغرفة بدون اجرة ، ثم حمله واخرجه من الخان ووضعه على قطعة حصير وغطاه بخيشة جنفاص وتركه ، اما عرنوس فقد اشتد به المرض وهو مطروح في الطريق وفي احدى الليالي راى والده في المنام يقول له انت جنيت على نفسك بمخالفتك لي ومخالفة امير المؤمنين ولكني ابشرك بأن الفرج قريب فانتبه عرنوس من نومه مستبشرا بقرب الفرج وبعد قليل سمع مناديا ينادي يا معشر الناس ان الملكة نور بخت خارجة من سرايتها الى البستان فلا يكن احد في الطريق وكل من وجد بطريقها يسبب لنفسه الجزاء الصارم فأغلقت جميع الاماكن ولم يبق احد في الاسواق وفي الوقت المعين اقبل موكب الملكة نور بخت فلفت نظرها شخص ملقى بجانب الطريق فقالت من هذا المطروح في الطريق فذهب الامناء وسأل احد الجوار عنه ، فقال له انا اعرف سبب رميه في الطريق ، فقال له تعال معي الى الملكة واحك لها قصته فسار معه الى الملكة وقال لها اني لا اعرف هذا الرجل من اين ولكن عندما دخل مدينتنا كان راكبا جوادا من افخر الخيل ولباسه يدل على انه من اولاد الملوك الكبار فنزل عند الخاناتي ابونوره وسكن عنده مدة شهرين ثم القاه في الطريق كما ترين ايتها الملكة ولما سألنا الخاناتي اين جواده وسلاحه ولباسه وامواله اجاب صرفها على طعامه وثمن ادويته واجرة سكنه فلما سمعت الملكة ذلك امرت بحمل عرنوس الى قصرها وقالت لمن حمله احضروا طبيبي الخاص يعتني به

ويداويه وقبل ذلك ادخلوه الحمام ولبسوه افخر الثياب وضعوه في غرفة صحية من غرف القصر فقالوا سمعا وطاعة لجلالة الملكة ثم اخذوه الى السراية واعتنوا به كما امرت الملكة مدة سبعة ايام فرجعت اليه صحته واقبلت اليه العافية ولما عادت الملكة من نزهتها امرت باحضاره فأتوا به اليها فأمرت له بالجلوس وصارت تسامره وتتحدث معه فكان يجيب على اسئلتها اجوبة سديدة بأدب واحترام فعرفت انه ابن ملك حقا فسألته عن سبب قدومه الى هذه البلاد فحكى لها عن سبب موت ابيه وقدومه الى جبال الكبريت وعطشه ودخوله الخان وعن مرضه وضياع ماله وعدة سلاحه وحصانه ومعاملة الخاناتي السيئة له وكيف رماه في الطريق ثم قال ولولا قلب الملكة الحنون الرؤوف لكنت قضيت نحبي على اسوا حال فتأثرت الملكة جدا لما سمعت حكايته وارسلت الى ابيها الملك ترجوه ان يشرف الى قصرها فحضر والدها فنهضت واستقبلته وقبّلت يده ثم حكت له عن عرنوس وما جرى معه ثم اخذته الى غرفة عرنوس فنهض عرنوس واستقبله وسلم عليه ثم جلسوا يتحادثون فانسر الملك من عرنوس لادبه ولطف حديثه اما الملك فأرسل الى الخاناتي من يأتي به حالا فأحضروه فسأله عن الحصان وعن اموال وسلاح عرنوس قال الحصان وعدته قد بعتها للوزير فأحضر الوزير وطلبها منه فأتى بها جميعا فقال له الملك ان هذه الاشياء تساوي خزنة مال فكيف ابتعتها منه بأبخس الاثمان ولماذا لم تقل لي عليها لاعرف صاحبها ثم ان الملك امر بقطع راس الخاناتي وعزل الوزير واقام عرنوس محله فأقام عرنوس عند الملك صنهاجير .

قال الراوي : اما الملك الظاهر بينما كان جالسا في الديوان واذ بمقدم داخل الى الديوان وهو في سن الشيخوخة وكثير الشبه بالمقدم معروف فتقدم الى السلطان وسلم عليه ودعا له بدوام العز والنصر على الاعداء فلما رآم المقدمون من بني اسماعيل وثبوا على الاقدام اجلالا له وصاروا يسلمون عليه ويسلم عليهم فسأل الملك من هذا المقدم قالوا هذا اسماعيل ابو السباع اخو المقدم معروف فترحب به السلطان وسلم عليه وامر له بالجلوس ثم سأله من اين جئت ايها المقدم قال انا الان جئت من القلاع وكنت افتش على اخي معروف وعندما رجعت اخبروني ان اخي ظهر واستشهد في حلب على باب انطاكية وظهر له ولد يسمى عرنوس فجئت لارى ابن اخي واكسب رؤياكم يا امير المؤمنين واقدم لكم الطاعة واني ارجو من جلالة الملك ان يأمر لي بسلاح اخي معروف وهو الحسام ذو الحيات وبذلة الزرد والخوذة لاني انا اولى بسلاح اخي من ابراهيم فقال ابراهيم

ولماذا كلفت نفسك بالمجيء يا خال من اجل سلاح المقدم معروف كنت ارسل لي كتاب فأبعثها لك ثم ان ابراهيم احضرها له قائلا تفضل يا خالي خذها بارك الله لك فيها وانت ضيفي لحين تسافر وبعد ان انفض الديوان سار المقدم اسماعيل مع ابراهيم وضاف عنده فراى في المنام اخاه المقدم معروف يقول له انا اهديت اسلحتي لابراهيم فأرجعها اليه وان لم ترجعها اليه تندم ويلزم عليك ان تفتش عن عرنوس ابن اخيك معروف لانه غريب وحيد في بلاد الناس وليس له ناصر ولا معين فلما افاق المقدم اسماعيل من نومه انتظر حتى حضر الملك الى الديوان فطلع اسماعيل الى الديوان وبعد ان سلم وجلس قال لابراهيم انا تنازلت لك عن هذه الاسلحة يا ابراهيم فخذها قال ابرهيم السلاح عندي كثير وليس لي حاجة بها فقال له الملك خذها يا ابراهيم فأخذها امتثالا لامر الملك ثم ان المقدم اسماعيل طلب الاذن من السلطان ليفتش على عرنوس فأذن له الملك وأمر له بعشرة مقدمين من بني اسماعيل يذهبون معه وامر لهم الملك بما يلزمهم من مال وغيره واعطاهم امرا بالعفو عن عرنوس فليرجع الى مدينة الرخام وعليه الامان وفي اليوم الثاني ذهبوا للتفتيش عن عرنوس وصاروا يتنقلون في البلاد مدة من الزمان الى ان وصلوا الى مدينة الجهجير والبر الطويل فنزلوا بها وصاروا يفتشون عنه واذ بموكب ملك المدينة خارج الى الصيد وبجانبه الملك عرنوس فلما راوه عرفوه فسلموا عليه باشارة منهم فأتى اليهم فقالوا له هذا عمك المقدم اسماعيل فسلم عليه فاستقبله وتعانقا ثم رجع الى الملك وقال له ان هؤلاء الرجال جاءوا يفتشون عني فسلم عليهم الملك ودعاهم بالذهاب معه الى الصيد فذهبوا مع الملك ومع عرنوس الى الصيد ولما عادوا من الصيد سألهم الملك عرنوس عن لملك والجنود والعساكر فقالوا الحمد لله كلهم بخير وقد اعطانا الملك امرا بالعفو عنكم ثم قدم له المقدم اسماعيل ابو السباع امر السلطان بالعفو عن عرنوس فلما قراه قال لنطلب الاذن من الملك صنهاجير بالعودة الى الاوطان فاستأذن منه فأذن له وفي اليوم الثاني تودع من الملك وسار مع عمه اسماعيل ورفقائه طالبين بلادهم وظلوا يطوون الارض والآكام الى ان وصلوا مدينة الرخام فطلع الملك عرنوس الى الديوان فاستقبله وزيراه محمد الطونش واردونش بالترحاب وكذلك المقدم نصير النمر واولاد ملوك البرتغال واقام عنده عمه المقدم اسماعيل ابو السباع اما المقدمون الذين كانوا معه عادوا الى مصر واعلموا السلطان بمجيء عرنوس الى مدينة الرخام فحمد الله تعالى الذي رد عرنوس الى الصواب وفي يوم

من الايام دخل نجاب ودعا للسلطان واعطاه كتابا واذ فيه خطاب من نائب الاسكندرية الى امير المؤمنين الملك الظاهر الذي نعلمكم به اننا يوم تاريخه مقيمون اذ اقبل من البحر مركب من بلاد الافرنج وبه نجاب معه كتاب من الملك مغلوين ومعه كلب ضخم الجثة جنس بيلماني ومراده الحضور الى بين ايادي مولانا السلطان فأرسلنا نعلمكم بذلك ونحن منتظرون الجواب والسلام عليكم فلما قرأ الملك الكتاب أمر بحضور النجاب وصحبته الكلب المذكور فلما وصل الامر الى نائب الاسكندرية أرسل النجاب ومعه الكلب الى مصر فلما وصل طلع النجاب الى الديوان وسلم كتاب الملك مغلوين الى السلطان فلما قراه وجد فيه انه مرسل الكلب للمراهنة على اي حيوان ان يغلبه فاذا غلبه حيوان من الحيوانات المفترسة تترتب للسلطان خزنة مال كل عام على الملك مغلوين واذا هو غلب غيره فيكون للملك مغلوين خزنة مال كل عام على الملك الظاهر فقال السلطان هذا امر سهل ثم انه كتب كتابا الى الملك عرنوس يقول فيه ان الامر الجأ لحضور عمك المقدم اسماعيل ابو السباع الى مصر لامر مهم والسلام واعطى الكتاب لسعد وامره بالمسير الى مدينة الرخام وان يسلم الكتاب للملك عرنوس فسار الى ان وصل المكتوب للملك عرنوس فلما قراه قال لعمه ان السلطان الظاهر طالبك لامر مهم فقال المقدم اسماعيل على الراس ثم العين سر قدامي يا سعد فسارا حتى وصلا الى مصر وطلعا الى قلعة الجبل ودخلا الديوان فسلم المقدم اسماعيل ابو السباع على الملك فأمر له بالجلوس ثم اخبره السلطان بالكلب وقال له اريد منك اسدا يقتله فقال حتى انظره يا امير المؤمنين فقال الملك اروه الكلب فذهب ورآه وعاد الى الملك وقال قد رايت الكلب فاذا هو ضخم الجثة هائل مرعب لا يقدر اي سبع من السباع عندي ان يغلبه او يجرحه وهذا النوع من الكلاب يستخدم لصيد الاسود فاستغرب السلطان وقال ان الاسد سلطان الوحوش فكيف يتغلب عليه الكلب فقال المقدم اسماعيل لما كنت افتش على اخي المقدم معروف مررت على غابة قرب الشام وكان فيها سبع احول وهو من السباع الضواري فأردت ان اقبضه فلم اقدر عليه فان استطعنا ان نقبض عليه الان فانه يغلب كلب مغلوين فقال السلطان وما هي الحيلة في القبض عليه فقال فصنع له شركا من الحديد ونصطاده فقال الملك نكتب كتابا الى نائب دمشق ليعطيك ما يلزمك واني لا اطلب هذا الاسد الا منك لاجل ان يقتل كلب مغلوين فقال السمع والطاعة لامير المؤمنين ثم ان الملك كتب كتابا الى نائب دمشق يأمره بمساعدة المقدم اسماعيل ابو السباع فأخذ الكتاب وسار الى دمشق واعطى الكتاب للنائب

فلما قراه قال على الراس ثم العين اطلب ما تريد قال له اسماعيل ابو السباع احضر لي شيخ الحدادين فلما حضر قال له اصنع لي شركا من الحديد ووصفه له واعطاه مائة دينار فأخذها وصار يشتغل فيه حسب الطلب حتى انتهى فذهب المقدم اسماعيل الى جزار واتفق معه ان يذبح له كل يوم ذبيحة ليطعمها الاسد في الغابة حتى يتمكن من صيده واخذه وذهب به الى النائب وقال له اعطه مائة دينار ليشتري بها غنما وبقرا فأعطاه ما طلب فقال المقدم للجزار اشتر بخمسين دينارا غنما وبقرا وخذ خمسين دينارا اجرتك ثم قال المقدم اسماعيل للنائب اريد عشرة رجال واربعة بغال ليحملوا القفص وجملين وحصانين وعليقا للدواب وخيمة لاجل الاقامة في ذلك المكان فأحضر له ما طلب وساروا وحملوا القفص واوصلوه الى الغابة فنصبه ابو السباع ونصب الخيمة وعمر بجانبها مكانا وضع فيه الغنم والبقر وامر الجزار ان يذبح ثورا من البقر فذبحه وقطعه ووضع قطعة كبيرة في طريق الاسد فلما دخل الليل اقبل الاسد وعيناه تقدحان نارا وهو بقدر فحل الجاموس واظافره كأنها الكلاليب وانيابه احد من الخناجر فلما وصل الى القطعة اخذها وعاد من حيث اتى فقال المقدم اسماعيل لمن معه هذا هو الاسد الذي اتينا لصيده فاذا قبضنا عليه رجعنا الى الشام وتعودون انتم الى اعمالكم فقالوا حقا انه مرعب وفي اليوم الثاني وضع المقدم قطعة لحم اكبر من الاولى وقربها من القفص فجاء الاسد واخذها ثم توغل في الغاب وفي اليوم الثالث علق المقدم قطعة من اللحم على الفخ فجاء الاسد وجذبها بأظافره وعاد يتوغل في القفار ثم امر المقدم الجزار ان يذبح كبشا من الغنم فذبحه واكلوا منه والباقي وضعه للاسد وهكذا ظل يطعم الاسد مدة عشرين يوما حتى تعود الاسد على هذا المكان وعلى الشبع وقد كبر جسمه عن الاول وصار يزار زئيرا يزعج الغاب وكأنه يقول هل من مبارز وعندما حان صيده لم يضع له المقدم ذلك النهار شيئا من اللحم حتى جوعه فلما اتى الاسد ليأكل اللحم لم يجد شيئا وصار يفتش على الطعام ويدور حول القفص فما وجد اللحم فعاد مقهورا اما المقدم اسماعيل امر الجزار ان يذبح خروفا ويعلقه داخل القفص فذبح خروفا واكلوا منه كفايتهم ثم وضع الجزار الباقي داخل القفص وترك الباب مفتوحا فاتى الاسد ليلا فرأى اللحم داخل الفخ فوقف ولم يدخل وصار يحوم حول الفخ ويفتش عن اللحم فما وجد الا الذي داخل القفص فلشدة جوعه دخل القفص وبسرعة وخطف اللحم واراد ان يعود بالغنيمة

كعادته ولكن الفخ كان قد اطبق عليه ووقع في الشرك ففرح المقدم اسماعيل بصيده وامر العشرة رجال ان يحملوه على البغال بغلين من الامام وبغلين من الوراء والقفص في الوسط وساروا به الى ان وصلوا الى الشام فذهب الجزار لعمله والعشرة رجال رافقوا المقدم اسماعيل ابو السباع فسحبوا البغال وهي حاملة الاسد الى ان وصل الى مصر ودخل في يوم مشهود الى قلعة الجبل ومعه السبع الاحول ففرح السلطان بنوال مراده وشكر المقدم اسماعيل واثنى عليه وامر بصنع حاجز يكون ارتفاعه عشرة اذرع وهو مستدير الشكل ومساحته الف متر مربع وامر بصنع مقاعد على الدائر ايجلس عليها المتفرجون وعمل له بابين بابا للاسد وبابا للكاب فلما اتم المهندسون هذا الحاجز امر الملك نجاب معلوين ان يحضر الكلب لاجل المبارزة بينه وبين الاسد فأحضره ثم امر السلطان ان يحضر القناصل والسفراء والاجانب ليكونوا شاهدين على النزال والمصارعة بين الاسد وكلب مغلوين واعلن الملك ان الدعوة عامة فاقبلت الناس من كل حدب وصوب في الوقت المعين وجلس الملك والوزراء والامراء في محلاتهم المعدة لهم وبعد قليل اقبل السايس ومعه الكلب منقاد في جنازير من الحديد واتى المقدم اسماعيل ابو السباع بالاسد وهو داخل القفص ففتح له القفص فقفز منه الى الباحة وصار يدور فيها ويزار زئيرا عاليا فهو يريد ان ينتقم ممن احتال عليه وحجز حريته وحبسه في ذلك الفخ الكريه في ذلك الوقت اطاق خادم مغلوين كلبه من السلاسل وهيجه وسلطه على الاسد فكشر انيابه وهجم على السبع الاحول بقوة واراد ان يطبق عليه بأنيابه فتلقاه السبع بضربة من يده القته على الارض فنهض الكلب وانقض على الاسد وعضه من فخذه فلقطه السبع بعضة من عنقه وغرز انيابه بلحمه وصار يدور به ثم تركه والدماء تسيل من عنقه ثم عجل الاسد بضربة من يده على راس الكلب فقضى عليه عند ذلك امر الملك كاتب الديوان ان يكتب حجة بما جرى وامره ان يوقعها بأسماء القناصل والسفراء واختامهم ليكونوا شهودا على ما راوه بأعينهم فشهدوا بذلك ووقعوا على الحجة بخط يدهم ثم امر السلطان الكاتب ان يكتب الى مغلوين ويعلمه بقتل كلبه وانه ترتب عليه كل عام خزنة مال يقدمها للملك الظاهر وقل له ان يرسل خزنة هذا العام الان ثم اعطى الحجة والكتاب الى نجاب مغلوين وامره بالمسير الى ملكه ليعلمه بواقعة الحال فأخذ معه اعوانه وسار يطوي الفيافي والبحار حتى وصل الى مدينة مغلوين وهو مقهور لفشله في مهمته فلما وقف بين يدي مغلوين اخبره بما جرى واعطاه الكتاب والحجة التي بها اختام القناصل

وسفراء الدول وشهاداتهم فلما قرا الكتاب وجد فيه من امير المؤمنين الملك الظاهر الى بين ايادي مغلوين ملك البرتغال الذي نعلمك به ان كلبكم المرسل الينا للنزال حسب شروطك فقد غلبه اسدنا بحضور قناصل الدول والسفراء وخادمكم ايضا وقد ارسلنا لك الحجة موقعة بأسمائهم فصار مرتبا عليك ان تدفع لنا خزنة مال كل عام فلما قرا مغلوين الكتاب اعطاه لجوان قائلا خذ واقرا نتيجة مشورتك المعكوسة لقد كنا بغنى عن هذه الاحوال فارحل عنا بسلام فلما سمع ذلك جوان اخذ غلامه البرتقش وسار الى غير بلاد ليعمل على اذية العباد اما مغلوين فأحضر خزنة مال وارسلها الى الملك الظاهر .

قال الراوي : وفيما كان الملك الظاهر يستلم خزنة المال اذ بنجاب يدخل الى الديوان ومعه كتاب قدمه للسلطان فأخذه قارىء الديوان وقراه واذ فيه خطابا من نائب القدس علي القيمري الى مولانا امير المؤمنين الملك الظاهر نعلمكم يا مولانا انه ويوم تاريخه وصلتنا اخبار بقدوم جيش من البحر على ميناء يافا ووجهته بيت المقدس فأرسلنا من يكشف لنا الخبر فأعلمونا ان هذا الجيش اتى من جزائر الفلف والمقدم عليه الملك اصطالود الفلفي ومراده امتلاك بيت المقدس وقد اتى معه بكلاب كبيرة تساعد جيشه في الاعتداء على الناس فأقمنا الحصار والمنجنيقات على الاسوار واغلقنا الابواب فأدركنا يا امير المؤمنين والسلام عليكم فلما سمع الملك الظاهر قراءة الكتاب أمر بجمع العساكر والابطال ثم توجه بهم الى القدس الى ان وصل بجيشه الجرار مع ابطال بني اسماعيل اما سبب هذه الحملة ان جوان عندما طرده الملك مغلوين صار ينتقل من بلد الى بلد ومن ملك الى ملك وكان يغريهم على الحرب فما سمعوا منه الى ان وصل الى جزائر الفلف فوجد البلاد عامرة وغنية وعايشة بأمان فأخذ غلامه البرتقش وطلع الى ديوان الملك اصطالود فسلم عليه فاستقبله الملك ورحب به فقال له جوان يا ولدي انت الذي دلت عليك الدلائل فقم واركب بجيش على بيت المقدس وافتحه فتنال الشرف العظيم وسوف تعلو وتتفوق على جميع الملوك الافرنج وقد سمعت ان عندك عددا وافرا من الكلاب الضوارب ضخام الاجسام حادة الانياب تهجم على الاسود في عرائها فلو ارسلتها وحدها لحاربت جيشا عظيما فانفر الملك اصطالود من كلام جوان وصار يجمع الجيوش والعساكر ويستعد للحرب وفتح بيت المقدس ثم انزل جيوشه في المراكب وسار في البحار الى ميناء يافا فلما وصل الملك الظاهر الى القدس وجد جيش

الافرنج محتاطا بها ومحاصرها فحالا امر جيشه بضرب الاعداء حتى ازاحهم عن اسوار القدس ونصب الخيام ثم كتب كتابا الى الملك اصطالود واعطاه لابراهيم فأخذه واوصله الى الملك اصطالود الفلفي ففتحه وقرأ فيه من امير المؤمنين الملك الظاهر الى اصطارد المغرور الذي يريد امتلاك مدينة القدس التي هي امنع من نجمة المريخ اعلم ان الذي أغراك على هذه الحملة قد غشك واراد هلاكك ودمار بلادك فاذا اردت السلام من العطب فاقبل الى عندي ومعك جوان لاحاسبك على كلفة الجيش ومعداته ثم ترحل الى بلادك وتؤمن على حياتك وان ابيت ذلك فسوف ترى ما يحل بك وببلادك والسلام فلما قرأ اصطالود الكتاب اعطاه لجوان وقال له اقرأ كتاب السلطان فقال له انا اعرف ما يكتب السلطان فلا تهتم بشقشقة اللسان اكتب له ما عندي الا الحرب فكتب له الجواب ما عندي الا الحرب والقتال واعطى الكتاب الى ابراهيم ثم اعطاه حق الطريق وعاد ابراهيم فأعطى السلطان رد الجواب فلما رآه بالحرب مزقه ورماه وامر بدق طبول الحرب في الصباح خرج من جيش الافرنج فارس وصال وجال وطلب مبارزة الابطال فبرز اليه ايدمر البهلوان فتقاتلا وتضاربا قدر ساعة من الزمان فاستظهر ايدمر على خصمه فقتله فنزل لايدمر فارس اخر الحقه بأخيه والثالث اورده حتفه فنزل له كلب بيلماني ضخم وعض بأنيابه عنق الحصان ورماه فخاف ايدمر فخاف ايدمر على نفسه وترك الكلب يكمل على الحصان واعطى ساقه للريح فلما رآه السلطان قال له خفت من الكلب فقال هو كلب لا كالكلاب المعروفة فنزل علاء الدين فهجم عليه الكلب وخدشه في وجهه ولولا ما عليه من الزرد لمزقه تمزيقا فرجع علاء الدين دون ان يقتله ثم نزل اليه سنقر الرومي فضرب الكلب بسيفه القاه قطعتين عند ذلك برز له كلبان وهجما عليه فانقض احدهما على الحصان وعضه من عنقه ورماه الى الارض فلما وقع سنقر اراد ان يقوم فكان الكلب الثاني أسرع منه فعضه من عنقه ولم يتركه حتى فارق الحياة رحمه الله تعالى عند ذلك امر السلطان الامير سنبل بالنزول الى الميدان ليأخذ بثأر اخيه سنقر فنزل الى الميدان فبرز له اربعة كلاب ولما اراد ان يهجم عليها سبقه اليها فداوي وضرب الكلب الاول رماه قطعتين فهجم عليه الثاني فضربه على عنقه اطار راسه وضرب الثالث بين عينيه فشطره قسمين والرابع الحقه برفقائه ثم صاح على اللئام ابرزوا انتم ودعوا الكلاب فلا يستعين بها الا الجبناء فلم ينزل اليه احد عند ذلك قال انا والله اخجل ان اذهب الى السلطان واقول اني كنت اقاتل الكلاب وقتلت اربعة منها ثم عاد الى البر من حيث اتى وفي

اليوم الثاني امر السلطان الامير سنبل ان ينزل الى الميدان فعندما نزل حضر الفداوي بسرعة وهجم على الكلاب وقتل اربعة منها بضرب احر من الجمر فاغتاظ اصطالود وامر ان ينزل الى الميدان من الكلاب عشرة عشرة فقتل الفداوي منها عشرين كلبا في ثلاثة ايام وظلت الكلاب تنزل اليه وهو يقتلها حتى أفنى جميع الكلاب فلما علم اصطالود انه لم يبق عنده كلاب تحارب نتف لحيته ولطم وجهه وقال لجوان انت الذي اغريتني على هذه الحملة فقال جوان اي شيء جرى عليك فقال ان طال الحال يقتلوننا اما الفداوي فلم يعلم ن الكلاب انقطع دابرهم فسار الى السلطان وسلم عليه فرحب به ورآه رجلا مسنا فقال له ما اسمك ايها البطل قال انا المقدم صارم الدين النابلسي وكان هذا الفداوي لم يطع قط سلطانا ولم يطع المقدم معروفا لما كان سلطانا مع ان جميع الرجال اطاعوه ففي زمن سلطنة المقدم معروف طلب معروف من اتباعه ان يأتوه بالمقدم صارم الدين فلما علم بذلك صارم الدين سافر وغاب عدة سنوات وحضر في تلك الايام اما المقدم جمال الدين شيحة فانه حضر ورأى هذا الفداوي وتركه وسار الى جيش الافرنج فرأى جوان يتناقش مع اصطالود الغلفي ثم اتفقوا على ان يقوموا غدا بالحملة جميعا فلما علم شيحة بذلك رجع الى السلطان وأعلمه بهذه الحملة فنبه السلطان القادة والفداوية والعساكر ان يكونوا على أهبة القتال لئلا يأخذهم العدو حين غرة وباتوا على اتم الاستعداد لخوض تلك المعركة الكبرى وفي الصباح هجم الاعداء بجميع جيوشهم وعساكرهم فتلقتهم الابطال بضرب البتار وحملوا حملة صادقة على الاعداء فلله در بني اسماعيل فقد أرووا الارض من دماء الاعداء وجعوا ذلك النهار يوما منحوسا على الاعداء ودام القتال والنضال وسفك الدماء الى ان انحلت عزائم اللئام وولوا الادبار فتبعتهم جيوش الابرار تضرب في اقفيتهم والخيول غائرة وراءهم تدعسهم الى ان أوصلوا فلولهم الى ميناء يافا فرفع السلطان اعلامه على ارض يافا وطلب ملكها رودفيل فحضر بالحال فقال الملك كيف سمحت لهذا الجيش بالنزول الى مينائك فقال ليس لي مقدرة ان امنعهم فقال لو اخبرتني بمجيئهم لعذرتك وكنت سلمت من انتقامي فقال رودفيل الحق معك في هذا ايها السلطان فاذا علمت مرة اخرى بأن احدا اراد النزول او نزل ومراده الاعتداء خبرتكم بالحال فقال السلطان اذهب الان ولكن اياك ان تعمل ضدي او تتعاون مع احد علينا فاني اقتلك ولا ابقي على احد في بلادكم فذهب رودفيل وهو ينفض غبار الموت عن كتفيه ثم ان السلطان

جمع الاسلاب وفرق الغنائم على المجاهدين واراد الفداوية ان يسافروا الى بلادهم واذ بغلام قال للمقدم صارم الدين انا لي عندك ثار واريد ان آخذ بثأر منك لانك قتلت والدي ظلما وعدوانا فابرز الى الميدان فاما ان اقتلك او تلحقني بأبي فقال له من انت قال انا كامل بن الخطاب فنهض صارم الدين على غير ارادته واعتلى فرسه وبرز الى كامل وصارا يتقاتلان وكان صارم يدافع عن نفسه فقط وما كان يسدد ضرباته الى الغلام لانه لا يريد ان يقتله كما قتل اباه وكان يشير لبني اسماعيل ان يتوسطوا بينهما ويردوا الغلام عنه خوفا من ان يلحقه بأبيه فما عرفوا ذلك منه فالتفت قليلا ليقول لهم ابعدوا عني هذا الغلام فهو ليس من رجالي فحانت للغلام فرصة فضرب عنق صارم الدين بالسيف أطاح راسه عن جثته ثم قال الغلام اشهدوا يا بني اسماعيل انا كامل بن المقدم خطاب قد قتلت صارم الدين النابلسي قاتل ابي وقد اخذت بثأر ابي فأسرع ابراهيم بن حسن وأحضر الغلام الى بين ايادي السلطان وقال هذا قتل صارم الدين النابلسي خصمه فقال له كيف تقتل خصمك دون ان تعلمني فقال الغلام لانه قتل ابي وحرمني عطفه وعشت يتيما ذليلا محروما وهذا الرجل المسن عنده خبر ذلك فاسأله يا حضرة السلطان فقال الملك تكلم ايها الرجل بما تعرف عن هذا الغلام وعن ابيه فقال الرجل كان المقدم خطاب ابو هذا الغلام عاصيا على المقدم معروف فلما اطاعه قدم له هدية مهرة أصيلة فقبلها منه وعاد الى قلعته فرآه صارم الدين راكبا المهرة فطمع بها وتبع اثر خطاب ونزل عليه في قلعته وذبحه وأخذ المهرة فربت زوجته هذا الغلام عند اخوانها فلما كبر ارسلته امه الي ليسألني عن قاتل ابيه فقلت له هو في التفتيش عن المقدم معروف فما رايناه الا في هذه الايام فأخذ الغلام منه بثار ابيه وهذا ما جرى واذ بالمقدم جمال الدين شيحة أقبل وسمع الحديث وطاب من المقدم كامل الاطاعة فأطاع فأنعم عليه ثم ان السلطان أحضر اصطالود ورتب عليه الخراج وضمنه شيحة وسافر الى بلاده والسلطان سافر الى مصر وسار المقدم كامل بن الخطاب صحبة الفداوية اما الفداوية من بني اسماعيل لما رجعوا الى قلاعهم مروا على قلعة الرصافة وجدوها معلنة العصيان فسألوا ما الخبر قالوا لهم ان المقدم سعد الدين الرصافي عاد من التفتيش وسأل عن الرجال والقلاع وعن المقدم معروف فقالوا له ان المقدم معروف ظهر واستشهد على باب انطاكية بحلب فقال من هو سلطان القلاع والحصون قالوا رجل من عرب خان يونس اسمه شيحة جمال الدين فقال المقدم الرصافي وهل يقابل شيحة في الحرب الفا او الفين من الفرسان

فقالوا له هذا لا ينزل الى ميدان ولا يقاتل احدا ولكنه يحتال على خصامه ويغلبهم بدهائه وشطارته فقال ان هذا المنصب لا يؤخذ بالحيل والألاعيب بل يؤخذ بالفروسية والشجاعة والبطولة ومن يتفوق بهذه الاوصاف يكون سلطان مصر والشام واطاعتهما الرجال والمقدمون وكل من اطاعهما له كرسي في الديوان فقال سعد الدين انا لا اطيع فشيحة مقتول والظاهر معزول وما احد سلطان الارض بالطول والعرض الا المقدم سعد الدين الرصافي اما المقدمون من بني اسماعيل عندما سمعوا ان المقدم سعد الدين عاد من التفتيش واعلن العصيان قالوا لبعضهم لندخل عليه في القلعة ونسلم عليه وننصحه ان لا يفكر بالعصيان لان كثيرين من المقدمين قبله اعلنوا العصيان فما استفادوا شيئا وندموا على ما فعلوا ثم اطاعوا جمال الدين بالرغم منهم .

قال الراوي : وتم الاتفاق بين المقدمين من بني اسماعيل ان يدخلوا على المقدم سعد الدين الرصافي وينصحوه ان يطيع جمال الدين شيحة فدخلوا القلعة وسلموا عليه فاستقبلهم بالترحاب ثم قال لهم اريد منكم ان تساعدوني وتعلنوا العصيان مثلي فنقتل شيحة ثم تبايعوني على سلطنة القلاع والحصون فعندما سمعوا منه هذا الكلام ندموا على دخولهم القلعة وعلى مواجهته ولم يجيبوه شيء فقال لهم ما بالكم لا تتكلمون هل اخافكم شيحة فقطع قلوبكم أم خفتم على رواتبكم ان تنقطع عليكم فقالوا ما خفنا على شيء ولكن كل منا جرب نفسه مع جمال الدين فما قدرنا عليه والان جئنا نسلم عليك وننصحك ان تطيع جمال الدين ولا تباديه بالعصيان فما يعود عليك الا بالخسران فقال سعد الدين انا ابن عمكم فساعدوني على هذا الامر لعلي انجح فيه واخلص هذا المنصب من شيحة فقالوا له ان شيحة محظوظ ومسعود واذا ساعدناك وقمنا ضده اهلكنا جميعا وخسرنا مركزنا فلا تغتر بنفسك لانك لم تر شيئا من افعاله ولم تجربه فقال اذن نذهب انا وانتم الى مصر ونحكي للسلطان بهذا الخصوص فينصف بيني وبين شيحة على هذا المنصب فقالوا له اركب فنركب معك فركبوا وساروا الى مصر ودخلوا الى الديوان وسلموا على الملك ثم اعلموه بحضور المقدم سعد الدين الرصافي وهو يطلب من مولانا السلطان ان ينصفه مع جمال الدين شيحة من جهة السلطنة على القلاع فقال الظاهر ما تقول يا جمال الدين قال شيحة يلزم على المقدم سعد الدين ان يقدم لنا برهانا على كونه قادرا ان يقوم بهذا المنصب وانه اهل له وان هذه السلطنة لها مهر فقال

سعد الدين وما مهرها فقال شيحة جمال الدين يوجد في خزائن ميخائيل ملك القسطنطينية طير ناطق وسيف زاعق فاذا اتيت بهما تكون انت سلطان القلاع وانا معزول وان انا اتيت بهما تطيعني وتكتب اسمي على سيفك فقال الرجال راحت السلطنة من يد شيحة فقال سعد الدين يمكن يعرقل لي اعمالي فقال شيحة انا لا اسافر من مصر الا بعد ثلاثين يوما من سفرك واذا رايتك لن اتخلى عنك واني اساعدك بما ينجح مسعاك فاذهب بسلام عند ذلك استأذن سعد الدين الرصافي من السلطان وسافر الى القسطنطينية وصار يسعى ويفتش عن الطير الناطق والسيف الزاعق مدة عشرين يوما فما عرف مكانهما وقد كثر تردده على ديوان ميخائيل وكان بعض جماعة الملك يترصده فحكوا عنه للملك ميخائيل فقال لهم بنجوه وقيدوه بالاغلال واحضروه لنحقق معه ونعرف مرامه وكان سعد الدين قد أعياه الامر وندم على ادعائه بمقدرته امام الملك والمقدمين فجلس في غرفته بالخان وهو يقول بنفسه كيف ارجع بدون الذخيرتين وكيف امثل امام السلطان والمقدمين فسوف ينحط مقامي واصير اضحوكة امامهم وفيما هو يفكر بذلك دخل عليه الخاناتي وقال له الطعام جاهز فقال له احضره فلما اكل منه داخ ووقع على الارض فقد اثر فيه البنج الذي وضعه في طعامه جماعة الملك ميخائيل فحالا قيدوه بالاغلال من يديه ورجليه واخذوه الى الملك ميخائيل ثم انهم صحوه فراى نفسه مقيدا بالسلاسل والاغلال وهو بين يدي الملك ميخائيل فقال له من انت ومن ارسلك الى هنا قال له انا من بني اسماعيل وانا من العاصين على سلطان القلاع والحصون شيحة وقد هربت منه خوفا على نفسي من بطشه والتجأت اليكم فقال الملك ضعوه في السجن فأخذوه ووضعوه في السجن اما شيحة جمال الدين لما مضى شهر على سفر سعد الدين توجه الى القسطنطينية وغيَّر هيأته وملابسه بصفة بطرك جليل القدر ثم توجه الى ديوان الملك ميخائيل ودخل عليه فلما رآه الملك وقف له على قدميه واستقبله اعظم استقبال وقبَّل يده ثم قال له من اين تشريفكم يا ابانا فقال له من دير نجران واسمي الهول الطيار فقال له اهلا وسهلا ارجو ان تطول اقامتكم عندنا لتحل علينا بركتكم فأقام عنده اياما وفي احد الايام قال له البطرك اتاني هاتف ليلة امس واعلمني ان بعض اللصوص يحاولون ان يدخلوا الى خزينتك ليلا ويسرقوا التحف الموجودة بها وهي عزيزة عليك هذا ما قاله لي الهاتف فما هذه الذخيرة التي عندك ارني اياها لابارك لك فيها فتكون في حرز امين فقال له الملك تعال معي لترى اني محافظ عليها ولا يمكن لاي انسان ان يصل اليها فسار معه في دهليز طوله

عشرة أذرع فكبس الملك زرا في حائط فانزاحت ثلاثة احجار وظهر مدخل مثل الباب ثم مد يده في طاقة بالجدار واخرج شمعة واشعلها فظهر درج مركب من درجات بيض ودرجات سود فقال الملك اياك ان تدعس على الدرجات البيضاء لانها مهلكة انظر اذا دعس عليها انسان كيف تهلكه ثم ان الملك تعلق في الدرابزين ودعس على الدرجة البيضاء فانقلبت على حفتها وبان تحتها جورة ملساء عمق قامتين وبأسفل الجورة حراب كحراب الرماح ثم ان الملك أرجع الدرجة كما كانت ثم قال انظر هذه الارض المبلطة ببلاطات كبيرة هي مهلكة وضررها بعكس الدرج تماما فاذا دعس الانسان على البلاطة البيضاء سلم وأما اذا دعس على السوداء هلك لا محالة فقال البطرك ارني كيف عملها فدعس عليها الملك دعسا خفيفا فانحرفت وانقلبت على طرفها فنظر البطرك ما تحتها فراى جورة بعمق عشرة اذرع وبجوانبها حراب ونصلات كالخناجر والسكاكين ثم ارجع البلاطة كما كانت وصارا يدعسان على البلاط الابيض الى ان وصلا الى باب مصفح بالنحاس فمد الملك يده الى جانب الباب وقال للبطرك قف على طرف بعيدا عن الباب ثم كبس زرا نفتح الباب وخرج سهم من الداخل بسرعة البرق لو دخل بجسم انسان لقضى عليه بالحال وصبر الملك قليلا حتى خرج سهم مثل الاول حينئذ دخل الملك ودخل معه البطرك فراى غرفة واسعة ليس فيها شيء ورفع الملك يده على جدار وكبس زرا فانفتح باب فدخلا به وسارا به الى ان وصلا الى خزانة من الحديد فقال الملك هذه الخزانة لا تفتح الا عن بعد ومد عصاة ووضعها على يد الخزانة وكبسها فسقطت من السقف بلاطة عريضة وطويلة معلقة بسلاسل لو سقطت على راس احد لمات في الحال ثم قال الملك لم يبق الا مهلك واحد ونصل الى الذخائر قف جانبا وانظر ثم انه شد باب الخزانة وفتحه فخرج من الداخل سهمان متتابعان وبعدها دخل الملك والبطرك فراى قفصا مدورا له تاج مرصع بالاحجار الكريمة وهو مصنوع من الذهب وفيه طير غريب الشكل ذيله كذيل الطاووس واجنحته مرصعة بالياقوت وراسه متوج بريش مرصع بالماس من صنع الحكماء وميزة هذا الطير انه ينطق بالحكمة ويوحد المولى تعالى ويخبر الانسان عن اشياء تفيده في دينه ودنياه اما السيف فهو معلق في صدر الخزانة وقبضته من ذهب مرصع بالاحجار الكريمة ونصله من حجر الصاعقة اذا ضرب به فانه يقطع الحديد والبولاد عند ذلك بدأ البطرك يتلو بعض التعاويذ وينفخ على الطير والسيف ثم قال للملك ميخائيل حقا انهما في حرز امين وقد قرات لك

عليهما حتى لا تمتد اليهما يد السارق ثم ان الملك رجع هو والبطرك من حيث اتيا واستاذن البطرك من الملك بالذهاب فقال له اقم عندنا حتى تحصل لنا البركة بوجودكم فقال بارك الله بكم اسمح لي بالذهاب لانه لا يمكنني ان اقيم في بلد واحد لاني انتقل من بلد الى بلد قاصدا نفع خلق الله ثم ودعه وذهب يفتش عن المقدم سعد الدين الرصافي فوجده في السجن فانسل الى السجان وصرفه واقام محله اما سعد فصار يتأوه ويتأسف على وقوعه في السجن وصار يفكر بحيلة ليهرب من السجن فتذكر ان جمال الدين شيحة قال له اذا وقعت في ضيق فاطلبني فاني اساعدك ولا اتخلى عنك فقال لاجرب واطلبه فان انقذني من السجن فاني اطيعه ثم صاح انت فين يا جمال الدين ساعدني وانقذني من هذا السجن فرد عليه السجان قائلا ماذا تريد فقال للسجان انا لم ادعك ولم اطلب منك شيئا ثم قال يا شيحة يا سلطان القلاع والحصون فكني من اسري فدخل السجان وقال له لبيك يا مقدم سعد الدين انا شيحة اخوك اما عرفتني قال الان عرفتك ثم انه فكه من القيود وقال له اتبعني فسار الى ان وصل شيحة الى جدار الطابق الذي فيه الطير الناطق والسيف الزاعق فكبس بيده على زر في الجدار فانزاحت الاحجار عن موضعها وانفتح الباب فدخلا وصار جمال الدين يمشي ويقول لسعد الدين ادعس محل دعستي تماما والا هلكت فقال له لله درك من بطل ومن اين لي ان اعرف هذا المكان وهذه الاسرار فلما تخطيا المهالك وصلا الى الطير والسيف فأخذهما شيحة وسلمهما الى سعد الدين وصار يخرب المهالك الى ان خرجا فأحضر شيحة حصانا وخرجا وضع فيه القفص والسيف وقال لسعد الدين سر الى مدينة بورصة وتوجه الى الحاكم مسعود وقل له عن لساني ان يضعها لك في الخزينة ثم تستريح ثلاثة ايام وبعدها تأخذ القفص والسيف وكل ما وصلت الى مدينة تودعهما في الخزينة الى ان تصل الى مصر فسار وصار يعمل كما قال له شيحة اما ميخائيل ملك القسطنطينية استفقد السجن فما راى السجين وما راى السجان فذهب الى محل الذخائر فراى المهالك مخربة والطير والسيف مفقودين فطار عقله وصار يفتش عليهما في كل مكان وارسل فرسانا تفتش عليهما في جميع الجهات فما وجدوهما ولا عرفوا من اخذهما اما سعد الدين فوصل الى قرية (يعزة) فشعر بالتعب والنعاس فنزل عن الجواد وعلق له وأكل ثم اضطجع ونام وكان قد رآه عايق رومي يقال له فريعة اليفروي فتبعه حتى حانت له الفرصة فراى سعد الدين نائما فتقدم اليه واخذ منه القفص وسار وهو فرحان بنيل المراد ورآه

جمال الدين شيحة ومعه القفص فعرف انه سرقه من سعد الدين فسلم عليه وصار يباسطه في الكلام ثم غافله وطعنه بالخنجر في جنبه أورده حتفه فمات واخذ شيحة منه القفص وسار فالتقى بسعد الدين وهو يلطم وجهه وينتف شعره ولكنه لما راى القفص مع شيحة تبدل حزنه فرحا فأخذه منه ثم قال له انا اول من اطاعك لانك تستحق هذا المنصب عن جدارة فقال له شيحة سر الان الى مصر واحذر ان تغفل او تنام الا بعد ان تودعهما الخزينة كما اوصيتك فركب سعد الدين وسار الى ان وصل الى حماه فودعهما في الخزينة واخذ راحته ونام وفي اليوم الثاني لما اخذ الطير من الخزينة غرد الطير وقال الله حق ما فيه شك تنبه ايها الغافل وقد سموا حماه الطير الناطق لهذا السبب اما سعد الدين فسافر الى مصر وقصد الديوان ودخل على السلطان ودعا له بالنصر وقال هذا هو الطير الناطق وهذا هو السيف الزاعق الساحق فما انتم قائلون يا بني اسماعيل فقالوا له انك تستحق السلطنة واذ بشيحة داخل الديوان فنهض سعد الدين وقال الف طاعة لامير المؤمنين ولجمال الدين سلطان القلاع والحصون ثم قال اشهدوا يا بني اسماعيل اني انا طائع للمقدم جمال الدين ما دمت حيا فتبسموا وقالوا الان عرف الحقيقة .

قال الراوي : اما الملك مغلوين بينما كان جالسا في ديوانه اذ دخل عليه جوان وسلم عليه فقال مغلوين لجوان مرادي هلاك الظاهر بيبرس ولكن ليس لي قدرة على حربه فقال جوان انا اشير عليك ان تشحن تجارة من بلادك الى الاسكندرية وبعدها تأخذ معك مراكب وتملؤها عساكر واسلحة وتجتهد في دخولها الى الاسكندرية وانت بصفة تاجر حتى تملكها حينئذ تستطيع ان تملك مصر بمدة وجيزة وهذا ما عندي من الراي فقال مغلوين هذا امر هين ثم انه جهز تجارة وسار بها الى الاسكندرية ودفع الجمرك واستأجر خانا وصارت ترد عليه البضائع بموجب قوائم بكشف السلع وعندما يقابلونها يجدونها صحيحة تماما فصاروا يصدقونه ويأخذون منه الجمرك على موجب القوائم من غير كشف او مقابلة فلما عرف انهم امنوا من طرفه صار يدخل رجالا وسلاحا ويعطي قوائم باسم بضائع ويدفع الجمرك حتى اجتمع لديه ما ينوف عن الفي رجل فكاتب جوان فجهز له مائة مركب بالسلاح والعساكر فعندما وردت المراكب مع جوان على الميناء اوقف مغلوين العساكر الذين عنده على الميناء حتى طلع من في المراكب ليلا ودار السيف بالاسكندرية وقبض على النائب فهرب اهلها الى مدينة رشيد واحتل مغلوين

المدينة وانتشرت عساكره في البلد ولم يبق له مقاوم وقد ارسل اهالي الاسكندرية كتابا الى الملك الظاهر اعلمــوه باعتداء مغلوين واحتلالـــه الاسكندرية فلما قرأ الملك الظاهر الكتاب امر العساكــر بالمسير الــى الاسكندرية وسار بهم بسرعة زائدة وعندما وصل جيش السلطان راى جيش العدو ظاهر الاسكندرية ومستعد للحرب وللقتال فهجم عليهم بنو اسماعيل وسائر العساكر والجنود بضرب الرقـاب الى نصف النهار فأرغموهم على التراجع الى داخل المدينة فدخلوها وتحصنوا فيها وأقام الملك الظاهــر يحاصر الاسكندرية ثلاثة ايام ثم انتخب رجالا من الابطال وقال لهم ادخلوا البلد وافتحوا الباب بالقوة حتى نهجم عليهم ونفنيهم عن آخرهم فنصب الرجال والفداوية مفاردهم على الاسوار ومعهم ابراهيم وسعد وجماعــة ابطال يعتمد عليهم ودخلوا عنوة الى البلد وقصدوا مغلوين في الديــوان ودخل ابراهيم فقال جوان هذا ابن الحوراني فصاح مغلوين دونكم واياه فما أتم كلامه الا وسيف ابراهيم ذي الحيات اطاح راسه فانطلق اللئام على ابراهيم فالتقاهم مع بني اسماعيل بضرب احر من الجمر فهرب الاعداء من بين أيديهم فأسرع ابراهيم وأبطال الموحدين الى الباب وقتلوا الحراس عن آخرهم وفتحوا الباب ودخل الملك الظاهر وخلفه العساكر والجيوش وغنى الحسام برقاب اللئام حتى مضى الليل وأقبل النهار اما ابو علــي البطرلي القبطان امر بالهجوم على الميناء فلما وصل اليها ملكها من الاعداء وغنم اكثر مراكبهم واسر رجالهم وكان السلطان وعساكر الموحدين قــد انتقموا من الاعداء الافرنج أفظع انتقام والملك الظاهر يصيح بهم لا تبقوا منهم اي انسان فصاح اللئام الامان الامان ايها السلطان ورموا سلاحهم عند ذلك قادتهم جنود السلطان ووضعوهم في القيود والاغلال ثم ان السلطان فرق الغنائم والاسلاب على المجاهدين وعلى المتضررين من اهالي الاسكندرية وخلع على نائب الاسكندرية وأوصاه باليقظة بعد ما أنبه على اهماله واقام السلطان في الاسكندرية عشرة ايام وهو يصلح حالها ثم سافر الى مصر مع جيشه وقاد الاسرى الى مصر فاستقبله الاهالي بالاهازيج والمهرجانات الى ان وصل الى قلعة الجبل ودخل الديوان وجلس على تخته يتعاطى الاحكام الى يوم من الايام وهو في ديوانه اذ بعشرة من العبيد يدخلون الديوان وقدموا للسلطان هدية وكتابا فقرأ في الكتاب من ملك الحبشة والسودان سيف الملك الى بين ايادي الملك السلطان الظاهر بعد السلام والتحية نعلم جلالة الملك اننا قد ارسلنا لكم هدية مع الكتاب. فتفضلوا بقبولها ولكــم الشكر فقال الملك الظاهر الهدية مقبولة فأين هي فقدموها له وهي شجرة من

الذهب الاحمر بثلاثمائة وخمسة وستين فرعا وتحتها شخص من فضة وسبع من ذهب والسبع واضع يديه على كتفي الرجل وغارز انيابه في عنقه ويوجد تحت الشجرة حبوب كثيرة فلما رآها الوزير قال هذه الهدية مصممة على الغاز ينبغي لنا ان نفكر فيها ونعرفها فقال الملك وما هي الالغاز التي نقتبسها منها قال الوزير يقصد ملك الحبشة بهذه الشجرة ان بلاده لها ثلاثمائة وخمسة وستون اقليما على عدد ايام السنة ويمثل نفسه بالاسد اما الشخص الذي يفترسه الاسد فهو امير المؤمنين لا سمح الله واما الحبوب فهي كثرة جنده وعساكره فقال الملك صدقت فيما قلت وعلينا ان نرد له الجواب فأحضر الوزير أرباب الصنائع وامرهم ان يصنعوا له شجرة بثلاثمائة وخمسة وستين فرعا من الفضة وكل فرع بثلاثمائة وخمسة وستين عودا وجعل تحت الشجرة شخصا من حديد مرتديا ثياب ملك الحبشة وجعله مقيدا وجعل صورة السلطان من فضة بيده حربة رأس سنها في عين ملك الحبشة ووضع حبوبا وديوكا تحت الشجرة والديوك تلتقط الحبوب بمناقيرها ثم كتب كتابا لملك الحبشة قال له قد فهمنا ألغاز هديتكم بحذافيرها وقد أرسلنا لكم الجواب هدية اعظم من هديتكم وبها الغاز وأسرار سنبينها لكم وهي ان مملكتنا شجرة تحتوي على ثلاثمائة وخمسة وستين قطرا بكل قطر ثلاثمائة وخمسة وستون تختا وكل تخت له قلعة ومدينة .

اما عساكركم فهي كالحبوب وأبطالنا كالديوك تلتقط الحبوب في لمح البصر اما صورتي وصورتك فهي تمثل مقابلتنا في الحرب وان حربتي ستخرق عينك وتقضي عليك فان اردت خراب بلدك فدونك وما تريد ، ثم انه وضع الشجرة في صندوق وأعطى الكتاب والصندوق الى العبيد وامرهم بالعودة فعادوا الى ملكهم وأعطوه الكتاب والصندوق ففتح الصندوق ورأى الشجرة فقال الوزير لقد عرفوا حكاية الهدية وارسلوا لنا الجواب مزعجا.

قال الراوي : سبب ذلك ان الاحباش كانوا مارين في أسواق مصر نهجم كلبهم على الخبز وعض رغيفا فأخذ الفران قطعة من حديد من الاوزان وقذفها على الكلب فجاءت على راسه فمات بالحال فجرد احد الاحباش سيفه وضرب الخباز فقتله فهب اهل السوق وهجموا على الاحباش وقتلوهم عن آخرهم وكانوا عشرة اشخاص وفي اثنائها كان السلطان بالحملة على الاسكندرية والشعب ثائر من عدوان الافرنج على الاسكندرية فلما نقلوا قتلى الاحباش من السوق كان بينهم رجل مجروح

فلما بريء من جرحه ذهب الى بلاده، وأعلم صمصاما ملك حصباء العين ان ولده قتل هو ورفقاؤه فلما سمع الملك ذلك ثار ثائره وغضب وهـــدد وقال سوف نرى ولما رجع الملك الظاهر من الاسكندرية مؤيـــدا منصورا خبروه بما جرى من الاحباش وكيف اعتدوا على الخباز وهب اهل السوق عليهم فقتلوهم وبينهم ابن ملك حصباء العين فقال السلطان وما العمل فقال الوزير احضر الشهود واكتب لملك حصباء العين صورة ما جرى مفصـــلا وليوقع الشهود عليها وارسلها الى صمصام ملك الاحباش فان قبل ذلـك واقتنع ان ولده مات بسبب تعديه كفى الله المؤمنين القتال وان افترى علينا فنسأل الله ان ينصرنا عليه فأمر الملك باحضار الشهود وكتب حجة بما جرى ووقعوا عليها بأختامهم وارسلها الى الملك صمصام مع كتاب يعتذر فيه وقال ان الامر جرى قضاء وقدرا من دون قصد او تصميم فلما وصل الكتاب والحجة الى الصمصام زاد غيظه واراد ان يركب وكان له اخ يقال له القمقام وهو وزير سيف الملك ملك بلاد الحبشة فأرسل صمصام يقول لاخيه القمقام ان ولدي قتل في مصر ثم قال له ومرادي أسير اليه بعساكر السودان وآخذ بثأر ولدي فعرض القمقام الكتاب على سيف الملك فأشار عليه ان يرسل الشجرة للسلطان فأرسلها وجاء له ردها ونظرها سيف الملك فقال وحق زحل لا اتركهم حتى املك بلادهم واهلك عساكرهم وابطالهـم وضرب الطبول فارتجت بلاد السودان وكادت تصدر الاوامر بالسير لولا ان الملكة ميمونة اخت الملك سيف الملك وصلت في ذلك الوقت ومرادها ان تسلم على اخيها فلما علم الملك بقدوم اخته وكانت غائبة عند ابن عمها الملك برقان قام اليها واستقبلها وسلمت عليه وسلم عليها فقالت ما لي اراك منزعجا فقال لها ان الملك الصمصام ارسل ولده الى مصر فقتلوه فأردت ان اساعده بحملة عليهم فقالت له اقعد ولا تكلف نفسك وجهز لي عشرة آلاف من السودان وانا أقابلهم بالحرب والطعان ثم انها ذهبت لملكتها مدينة الايوان ووضعت فيها نائبا عنها ورجعت الى مدينة حصباء العين ونزلت بجيشها فبلغ ابا عمرو امير بلاد السودان المصري قدوم هذه الكاهنة وهو يعلم انه لا طاقة له على حربها فقال لعساكره هذه اللعينة اذا سارت الينا وهاجمتنا فانها تكبدنا الخسائر فالاحسن ان نذهب لمصر ونعلم السلطان بهذا الامر ثم انه اخذ عشرة من الاعيان وسار الى مصر ودخل على الملك وسلم عليه فسأله الملك الظاهر عن حالهم وما هي اخبارهم فقال ابو عمرو ان البلاد مهددة بالدمار من قبل جيوش الاحباش وذلك بأمر اللعينة ميمونة الحبشية الساحرة فقال السلطان ان الله تعالى وعد المؤمنين بالنصر فلا

تخف يا ابا عمرو ثم قال يا معشر الامراء من يريد منكم ان اجعله مقدما على هذه الحملة الى بلاد الحبش والسودان واذا فتح بلدا تكون له فقام الامير بكتمر السعدي وقال انا لها يا امير المؤمنين واني ابذل نفسي ومالي في سبيل الله وسأعود منصورا باذن الله عند ذلك خلع عليه الملك وأكرمه ثم قال ان الامير بكتمر السعدي قائد جيش وعساكره سبعة آلاف بخيلهم وسلاحهم فالواجب عليكم ان تساعدوه بمماليك وعساكر وخيل يستعين بها على الحرب والقتال فقالوا سمعا وطاعة فأعطاه ايدمر البهلوان الف مملوك بخيلهم وسلاحهم وخمسة آلاف دينار وخمسين خيمة وقال الامير قلاوون وانا ادفع كما دفع أيدمر ودفع بقية الامراء كل واحد قدر استطاعته فصار جيش بكتمر السعدي سبعين الف مقاتل وقدم له السلطان اثنين وعشرين مدفعا بخيولها وبارودها وسار الامير بكتمر السعدي الى ان التقى بعساكر الملكة ميمونة التي اتت بعساكر تزيد على المائة الف ولما التقى الجيشان بدأ القتال وعلا الصياح والتحمت العساكر ببعضها البعض وتطايرت الرؤوس عن الابدان وتكسرت السيوف على السيوف وخرقت الرماح اجسام الخيل والفرسان ودام القتال الى اخر النهار اما الاعداء فلم يأمروا بالانفصال بل تابعوا الحرب والقتال عند ذلك أمر بكتمر السعدي ان يضربوهم بالمدافع فلما أتم كلامه حتى خرجت الحمم والنيران على الاعداء فتطايرت اشلاؤهم وتقطعت اجسامهم ودام ضرب المدافع مدة ساعتين فتشتت الاحباش في الاودية والجبال فأيقن الامير بكتمر بالنصر والظفر فأمر العساكر بجمع الاسلاب والغنائم ثم أمر الجيش بالسير الى حصباء العين اما السودان والاحباش الذين انهزموا الى حصباء العين فلما رات ميمونة ان جيشها هلك منه اكثر من نصفه دخلت بيت الارصاد وولولت ثم عزمت العزائم وجمعت خدامها وأمرت أعوان الجان ان يرموا النار على عساكر بكتمر فلما وصل الامير بكتمر السعدي ولم يعلم بذلك الامر أمر بنصب الخيام واذا بالزوابع والعواصف ثارت في وجوههم فمزقت الخيام ثم خرجت عليهم نار وشرار فتشتت العساكر في القفار وكان الامير بكتمر يصيح بهم ارجعوا الى القتال وجاهدوا في سبيل الله فما استطاعوا فلما تكاثر الدخان والشرار عليه داخ ووقع مغشيا عليه فلما أفاق من غشيته ظن ان القيامة قامت ثم انه قام ومشى فاشتد به العطش ثم جلس يستظل تحت شجرة واذ بحية بيضاء خائفة ومرعوبة وكأنها اتت اليه تستجير به وخلفها ثعبان سود يطاروها فلما وصل الى تحت الشجرة ضربه بكتمر السعدي بالسيف قطعه نصفين

فانقلبت الحية البيضاء آدمية وقالت يا سيدي لقد انقذتني من هذا العفريت فقال بكتمر ومن انت قالت له اعلم يا سيدي انا مرجانة بنت الملك البرهجان وهذا العفريت شيشير الذي قتلته كان قد خطبني من ابي فأبى والدي ان يزوجني منه فحلف ان يأخذني غصبا عني فكنت اتوارى منه ولا امكنه من رؤيتي ابدا واليوم اردت ان اذهب الى نزهة فجعلت نفسي حية فعرفني وجعل نفسه ثعبانا ولحقني فشكرا لك الذي خلصتني منه فانتظرني لاحضر لك سيفه لانه يكون ذخيرة لك واذا جردته في الميدان فانه يقطع في الانس والجان وغابت قليلا وأتته بالسيف وجلست بجانبه تسامره قالت انا قصدي ان تذهب معي الى امي وابي لانهما سيكرمانك لانك انقذتني من هذا العفريت فاذا قال لك ابي تمن علي فقل له اتمنى ان تكحلني بكحل الجلالات فاذا تكحلت به ترى الانس والجان واذا قالت لك امي تمنى علي فقل لها اتمنى ان تلبسيني ثوب الوقاية فاذا لبسته لا يضرك السحر ولا تدنو منك الجان فقال لها وهل تعلمين اين عساكري الان فقالت مرجانة لا تخف عليهم ففي هذا اليوم سأرسل لهم ما يكفيهم من المؤن فقم معي الى ابي وأمي فسار معها وادخلته على ابيها وحكت له انه خلصها من شيشير العفريت فقال له تمن علي يا انسي قال له كحل عيني بكحل الجلالات فكحله فصار ينظر الجن والعفاريت ثم اخذته مرجانة لامها وحكت لها كيف قتل العفريت وخلصها منه فقالت له تمن علي يا انسي فطلب منها ثوب الوقاية فأعطته اياه فلبسه فرأى نفسه اعظم من جميع المخلوقات فقالت له مرجانة اعلم ان هذه الذخائر الثلاثة لا يملكها غيرك من انس او جان فلا تفرط فيها قال لها كملي جميلك ومعروفك وأوصليني الى عسكري فحملته وسارت به الى عسكره فرآهم مشتتين في الجبال والوديان بلا خيام ولا طعام بحالة يرثى لها فجمعهم فقال لمرجانة اسرعي واحضري لهم كل ما يلزمهم فأمرت خدامها ان يحضروا لهم الخيام والاسلحة وكل ما فقد منهم في حصباء العين واحضرت لهم الطعام فأكلوا وشربوا وعادت لهم قوتهم واسلحتهم وما مضى النهار الا وتكامل الجيش وكان قد مات منهم ثلاثة آلاف رجل وفي الصباح امر عسكره بالسير الى حصباء العين فقالت له مرجانة ايها الامير لا تضرب الا بسيف العفريت ثم ودعته وغابت عنه اما ميمونة الساحرة فلما رات العساكر مقبلة امرت جيوشها بالخروج فخرجوا فنزل الامير بكتمر الى الميدان وتبعته العساكر وصاروا يجولون في الاعداء يقطعون الرؤوس الى اخر النهار دق طبل الانفصال فافترقوا عن بعضهم اما ميمونة فقالت لعساكرها الا تخشون العار وأنتم اولاد حام تعجزون عن قتل فرقة صغيرة فقالوا لها هذا الامير

يحاربنا بالنهار بالسيف واما بالليل فيضربنا بالمدافع التي تقذف علينا النيران وتهلكنا فهذا الذي نحسب حسابه فقامت ودخلت بيت رصدها وارادت ان تستعمل باب السحر فقال لها خدامها ليس لنا مقدرة على بكتمر فقد استحصل على سيف شيشير العفريت من الملكة مرجانة وابوها الملك البرهان كحله بكحل الجلالات فصار يرانا كما نراه ويضربنا بذلك السيف فيمحقنا وأم مرجانة البسته ثوب الوقاية المطلسم فلم ينفع معه علم الاقلام والسحر والشعوذة وليس امامك الا الهرب فانحمقت الملعونة وخرجت من بيت رصدها وركبت على جوادها وجذبت السيف وصاحت يا ابناء حام فجاوبتها فرسان الاحباش كأنهم العقبان وزحفوا على الأمير بكتمر فأمر بكتمر المدفعية ان تطلق نيران المدافع على الاحباش فأطلقوا عليهم حمم النيران من المدافع حتى أفنوا منهم خلقا كثيرا فلما نظرت ميمونة ما حل بجيشها فما وجدت افضل من الهزيمة فولت الادبار وتبعها الاحباش وهم ينهزمون خلفها وتبعهم الامير بكتمر الى حصباء العين فملكها ثم دخل الى مدينة الايوان وملكها وملك القلاع التي حولها وغنم أموالها ثم سار بعساكره الى مدينة الدور والسبع قصور فلما علم الملك سيف الملك بهزيمة اخته احضر عساكره وأراد ان يحارب واذ بالامير بكتمر اقبل فراى امامه اناسا لا تعد ولا تحصى فوضع المدافع وسط الميدان وقسم العساكر قسمين ميمنة وميسرة وأحضر قطع احجار وامرهم ان يملؤا المدافع احجارا وأن يضربوها بدلا من القلل وكان سيف الملك قد صف عساكره وانتظر الهجوم فما نظر الا والمدافع قذفت أحشاءها على عساكره وراى رجاله تتساقط كما تتساقط اوراق الشجر ايام الخريف فقال ان دمنا على هذا الحال أفنونا عن آخرنا ثم أمر بالتراجع والانسحاب من مدينة الدور ولما راى بكتمر ان اعداءه انهزموا دخل على مدينة الدور واحتلها وقال لاهلها عليكم الامان لانكم صرتم من رعايا السلطان وجلس على الكرسي وكتب كتابا الى الملك الظاهر يبشره بالفتح المبين وجمع الاموال وفرق منها قسما على العساكر وارسل باقي الاموال وكتابا الى السلطان مع احد الامراء وصحبته عشرة فرسان فلما وصلوا الى مصر قدموا المال للسلطان واعطوه الكتاب فقرأ فيه من خادمكم بكتمر السعدي الى بين يدي امير المؤمنين حرسه الله ونصره على اعدائه الذي نعلمكم به ان ميمونة الساحرة قد تشتتت عساكرنا بسحرها ثم انتصرنا عليها واخذنا منها البلاد والقلاع التي كانت اخذتها من ابي عمرو وبعدها اخذنا منها حصباء العين فهربت ميمونة الى مدينة

البدور والسبع قصور فتعرض لي سيف الملك فقابلته بالمدافع فانهزموا فأخذت مدينته والان نحن منتظرون اوامركم بما ترونه موافقا فنعمل بموجبه ادام الله عزكم ونصركم فلما قرأ الملك الكتاب سر سرورا عظيما وخلع على النجاب ورفقائه وامر بدخول الاموال الى الخزينة وكتب امرا سلطانيا الى الامير بكتمر السعدي ان يكون اميرا على جميع بلاد السودان ويعين من يشاء على القلاع والقرى والبلدان ثم سير له النجاب بهذا الامر فلما وصل اليه وقراالامر السلطاني اقام يحكم في البلاد بعدل وانصاف واطاعته ملوك السودان فافتخر على ابناء جنسه واعجبته نفسه لانه اذل ملوك تلك البلاد وفي يوم من الايام ركب في جماعة من خواصه وقصد التسلي بالصيد واغتنام اللذة واللهو وتفرقت عساكره في البراري والآكام لاجل الصيد والقنص فرأى الامير بكتمر غزالة تسرح فسار خلفها ليصيدها فما لحقها ووقفت الغزالة بعيدا عنه فلحقها وكاد ان يصيدها ولكنها قفزت من بين يديه ووقفت بعيدا عنه فطمع في صيدها ولحقها ثانيا وثالثا ، فلم يستطع صيدها ودخل الليل فغابت عنه .

وفي الصباح اراد ان يرجع الى جماعته فما عرف من اين الطريق فضاع في البر الاقفر واشتد به العطش وظل تائها مدة ثلاثة ايام فرأى جبلا وسار اليه فوجد حوله اشجارا وطيورا فنزل عن الجواد واخذ يرعيه ساعة من الزمان فرأى عن بعد نارا ودخانا فركب الحصان وسار الى تلك الجهة فرأى جواري مقيمات في سفح الجبل وبينهن جارية حبشية لها جبين انور ولفتتها كلفتة الظبية والنار تضرب تحت قدر فلما وصل اليهن بكتمر وقفت له تلك الجارية وقالت اهلا وسهلا بملك البلاد ثم تقدمت اليه وقبلت يده فقال لها هل عندك ماء بارد فأتت له بالماء فشرب حتى ارتوى ومدت له فراشا على ضفة النهر وقالت اجلس يا سيدي فان الطعام جاهز فجلس عندهن وقدمت له الجارية الحسناء الطعام وكان من لحم النعام فأكل حتى اكتفى وبعدما اكل وشرب وتمدد على الفراش ليأخذ راحته فنام فأسرعت الجارية الى سيفه وكسرته وشلحته ثوب الوقاية وحرقته ثم شدته كتافا ماكنا فصحى من النوم وصاح ماذا تفعلين فقالت له واخيرا وقعت بين يدي ميمونة الساحرة فابك على نفسك فلم يبق لك خلاص مني ثم ان الجواري شددنه على الحصان بالعرض وسارت به ميمونة الى الملك سيف الملك وكان مقيما مع عسكره وراء ذلك الجبل فقالت له خذ هذا عدوك بكتمر الذي احتل بلادك واهلك عساكرك وجنودك فقال هذا غاية ما اتمناه وان هذا الجميل الذي قمت به لاجلي لن انساه لك مدى العمر ولكن كيف تغلبت

عليه واسرته فقالت لقد رايته في المروج يصيد الارانب والغزلان فجعلت نفسي غزالة فلحقني ليصطادني فقفزت من امامه ووقفت بعيدا عنه فطمع في صيدي ودنا مني ، وهكذا طمعته في صيدي ثم ابتعدت عنه حتى ضاع في البراري والآكام ولم يعد يعرف الطريق فجلست في سفح الجبــــل واضرمت نارا فرآها فأقبل عليها فاحتفلت به وسقيته واطعمته وبعد ذلك اخذ راحته ونام فكسرت سيفه وحرقت ثوبه وكتفته واحضرته بين يديك فافعل به ما تريد فعند ذلك امر بضربه فضربوه بالسياط ولما ارادوا ان يقتلوه قال ان قتلتموني سيأتيكم الملك الظاهر ينتقم منكم ويخرب بلادكم ويذبح رجالكم وأولادكم فقال له سيف الملك اتهددنا بملك مصر ولكن لا بد ان احضره امامك واقتلكما معا ثم وضعه في السجن وامر جيشه بالمسير الى مدينة الدور فلم يجدوا فيها أحدا فانتقلوا الى قلعة الايوان فوجدوها خالية ثم الى حصباء العين فلم يجدوا فيها الا الرعية فسألوهم عـــن العساكر فقالوا لهم ذهبوا منذ ثلاثة ايام الى الشلالات ولم يعودوا وسبب ذلك ان وكيل بكتمر السعدي لما غاب سيده بعث جواسيس ليكشفوا لــه الخبر ولما رجعوا اخبروه ان الامير بكتمر قد عمل له السودان مكيدة وأهلكوه والان متوجه الينا الملك سيف بجيوشه فلما علم ذلك وكيل بكتمر قال الرأي عندي ان نرحل الى الشلالات فان كان الامير بكتمر حيا يجد الامـــوال والرجال بين يديه وان كان استشهد نكون خلصنا اموالنا وانقذنا انفسنا من الاعداء ثم نرسل كتابا نعلم به السلطان فقالوا له افعل ما تريد فحمل الاموال وسار مع الرجال الى ان وصل الى الشلالات ثم كتب كتابا الى الملك الظاهر قال فيه الذي نعلمكم به يا مولانا السلطان ان الامير بكتمر بعدما ملك البلاد وجلس في مدينة الدور والسبع قصور واقام بها وفي احد الايام طلع الى الصيد والقنص ولم يعد فبعثنا من يكشف لنا خبره فأخبرونا انه وقع في مكيدة نصبها له الاحباش وهم متوجهون الينا بجيوش كقطع الغمام فلما سمعنا هذه الاخبار تركنا البلاد التي اخذناها واقمنا بالشلالات خوفا على العساكر والاموال وهذا ما حصل اخبرناكم به والامر امركم مولاي والسلام عليكم فلما سمع السلطان هذا الخطاب حزن وتأسف تأسفا شديدا على الامير بكتمر ثم ان السلطان الظاهر ارسل كتابا الى الملك عرنوس يأمره بالقدوم في بعض عساكره وبرز السلطان بعساكره الى الجيزة وكذلــك الفداوية قدمت من القلاع وامتلأت السهول بالعساكر ثم اقبل الملك عرنوس في عساكره وسار الجيش من الجيزة يقطع الفيافي والوهاد الى ان وصل

الى اول شلال فقال عرنوس الراي عندي ان نترك هنا الاشياء الثقيلة ونسير على ظهور الخيل والاثقال تتبعنا فوافق السلطان وسار عرنوس وتبعه بنو اسماعيل وعسكر بكتمر واتوا الى مدينة الايوان حاصروها وهدموا اسوارها واخذوها وبعدها حصباء العين الى ان وصلوا الى مدينة الدور والسبع قصور فالتقاهم سيف الملك ووقع القتال بينه وبين عسكر الملك الظاهر وتحمست بنو اسماعيل والابطال وفتكوا بالاعداء فتكا ذريعا وكان الملك الظاهر يصيح بالفرسان اهجموا على الاعداء وخذوا بثأر الامير بكتمر ودام القتال الى اخر النهار فانفصلوا عن بعضهم ودخلت الاحباش المدينة وتحصنوا فيها فقال سيف الملك انا ارسل احضر اختي الميمونة حتى تساعدنا اما الملك الظاهر لما عاد من الميدان لم يشتف من الاعداء. فقال له عرنوس نحن الغالبون ان شاء الله فقال جمال الدين انا كنت عندهم وسمعت ملكهم يقول لا بد ان ارسل الى اختي ميمونة تحضر وتساعدني ثم ان شيحة نزل الى البلد بصفة عبد اسود فرأى سيف الملك يكتب الكتاب ثم التفت حوله وقال من يذهب بكتابي هذا الى اختي ميمونة ويأتيني منها برد الجواب فقال شيحة انا اذهب اليها ولا اعود الا بها وبرجالها وابطالها فأعطاه الكتاب واخذه واخذ معه خمسة من العبيد وسار الى ميمونة فوجدها عند خالها برقان وناولها الكتاب فقرأته ووجدت فيه من الملك سيف الملك الى اختي الملكة ميمونة اعلمي ان ملك البيض اتاني في عسكر جرار وأنا تحت الحصار فأدركيني فقالت له هل اخي محاصر في مدينة الدور قال نعم يا ملكة وأرسلني اليك بهذا الكتاب حتى تنجديه فقامت ودخلت بيت رصدها واحضرت خدامها الجان وسألتهم هل اخي محاصر قالوا نعم ولكن احذري النجاب الذي اتاك بالكتاب فهو جمال الدين شيحة فقالت امسكوا شيحة فما يشعر شيحة الا وهو في الحديد وقالت للملك برقان احفظه عندك حتى اعود من عند اخي ثم ركبت وسارت الى مدينة الدور اما الملك الظاهر فدخل عليه خمسة من العبيد وهم اولاد شيحة واعلموه بما جرى على ابيهم وان ميمونة قادمة ثم قالوا قد جئنا نعلمك لتأخذ حذرك ونحن راجعون الى ابينا لعلنا ندبر امرا لخلاصه ثم انهم رجعوا الى بلاد ميمونة فالتقوا بها ومعها خمسة عبيد فتقدم السابق وقال يا بني حام هل بينكم الملكة ميمونة قالت انا ميمونة فماذا تريد قال الحقي اخاك فقد قتل على يد ملك البيض وامتلكت البلاد فنهضت ميمونة وصاحت اخي قتل وامتلكت البلاد قال لها نعم وانتهز فرصة المفاجاة وطعنها بالخنجر في صدرها قضى عليها ثم هجموا على عبيدها فقتلوهم عن آخرهم ثم قطعوا رأس ميمونة واخذوه

ورجعوا الى السلطان وقالوا يا مولانا هذا راس ميمونة التي حبست أبانا ونحن ذاهبون نفتش على ابينا فعلق السلطان راس ميمونة على بـــاب الصيوان ونادى المنادي يقول يا معشر الاحباش اعلموا ان ميمونة قتلت وهذا راسها فسلموا انفسكم فلما علم سيف الملك ان اخته ماتت جن جنونه فقال لوزيره هل نستطيع ان نتابع الحرب والقتال فقال له وزيره ارسل الى الملك برقان خال ميمونة ان يرسل لك غرطالا الوحشي ويخطف لك ملـك البيض ويلبسه ثوب الريش فيطير به ويوصله الى قلعة شنهاب وبـرج العقاب لعند الملك فرطوس ابو الرؤوس فيلبسه ثوب القنفذ ويضعه فـي التابوت المجنج ليذيقه اشد انواع العذاب .

اما الملك سيف الملك لما قال له وزيره ذلك الكلام كتب الى برقان يقول له اعلم اني بليت بملك البيض فانه يحاربني بعساكر جبابرة فجار علـى فأرسلت لاختي ميمونة لتساعدني عليهم فصادفها في الطريق شيطان منهم نقتلها ، فأريد ان تلبس غرطالا ثوب الريش ليخطف ملك البيض ويطير به الى قلعة شنهاب وبرج العقاب عند الملك فرطوس ابو الرؤوس فيلبسه ثوب القنفذ ويضعه في التابوت المجنح والسلام ثم اعطى الكتاب للنجاب فأوصله للملك برقان فلما قراه أمر غرطالا ان يلبس ثوب الريش ويحضر ملـك البيض فصدع بالامر وسار الى جيش السلطان ونادى مظلوم يا ملـك الزمان فقال السلطان من ظلمك فقال له ان سيف الملك ملك السودان أمرني ان اخطفك هكذا ، ووضع يده تحت ابطيه وانفرد ريشه ورفرف بسرعة البرق وارتفع مقدار عشرة أذرع ثم طار في الجو في علم السحر فدهشت الجنود والعساكر واشرأبت أعناقهم الى السماء ينظرون غرطالا يطير بالملك الظاهر الذي صاح يقول ماذا فعلت ايها الساحر والى اين تطير بي فقال له غرطالا سوف ترى ثم أوصله الى برقان وقال له خذ هذا عدوك ملك البيض نقال له سر به الى الملك فرطوس يفعل به ما يشاء فأخذه وطار به الـى قلعة شنهاب وبرج العقاب ودخل على الملك فرطوس ابو الرؤوس وقال له هذا ملك البيض أرسله لك الملك برقان ألبسه الثوب وضعه في التابوت فاخذه منه وعراه من ملابسه والبسه ثوب القنفذ فدخلت رؤوس شوك القنفذ في بدنه مثل الابر فغاب عن الوجود ثم وضعوه في التابوت المجنح اما عساكر السلطان بينما هم متحيرون من خطف ملكهم اذ بفداوي مقبل وعليه بدلة كاملة من الزرد والحديد وكان هذا المقدم من بني اسماعيل يقال له الهول بن شاكر وسبب اقامته في هذه البلاد انه لما ذهب يفتش عن

المقدم معروف طالت عليه الايام ولما وصل الى هذه البلاد استطاب هواءها وأقام فيها وتعلم لسان اهلها وصار كأنه منهم فلما دخل على صيـــوان السلطان ورآه العساكر ظنوه الذي خطف الملك فقاموا اليه بالسيوف فصاح انا فداوي مثلكم واسمي الهول بن شاكر فلما سمعوا كلامه كفوا عن اذاه وقالوا من اتى بك الى هذه البلاد فحكى لهم سبب اقامته بها فقال واين السلطان فأخبروه انه انخطف فقال هذا غرطال الذي خطفه وانا اكشف لكم خبره ثم انه ركب وسار الى بلاد برقان فاجتمع بغرطال الوحشي وسلم عليه ثم قال له انت اخذت ملك البيض قال نعم اخذته واوصلته الى الفرطوس فلبسه ثوب القنفذ ووضعه في التابوت وهو مثلنا تماما الا انه ابيض اللون فقال له الهول اريد ان اتفرج عليه ثم انه سار الى ان وصل الى قلعـــة شنهاب ودخل الى ديوان فرطوس فعرف من يأخذ الطعام للملك الظاهر فسار معهم حتى وصلوا الى التابوت المجنح ففتحوا بابا صغيرا فبان وجه السلطان فصاروا يطعمونه لقمة لقمة وعندما شبع قال لهم الهول يا بني الخال اصبروا حتى أكلمه بلسان البيض الذي تعلمته وانا صغير فقالوا كلمه فتقدم اليه وقال له بلسان التركي اعلم يا ملك اني من بني اسماعيل اتيت من عندك الملك عرنوس لاعرف مكانك وعن قريب نخلصك فقـــال السلطان اذا وصلت الى رجالي قل لهم ان السلطان مات فلا تتعبوا فـــي خلاصه وقل للوزير شاهين وابراهيم الحوراني ان يتوصـــوا في اولادي والسلام فلما نهض الهول راى العبيد يضحكون على لغته فضحك معهم ثم ركب فرسه وعاد الى ان وصل الى جيش السلطان ودخل على الوزير وقال له ولبني اسماعيل الغارة على خيول تركبونها وأموال تغنمونها وتخلصون ملككم وتعودون الى اماكنكم فقالوا سر امامنا واضرم النار ونحن ندوس عليها فقال اركبوا فركبوا في موكب واحد والامراء في موكب واحد والتزم الملك عرنوس ان يقيم على مدينة الدور مع عسكره وايدمر البهلوان مع عساكر بكتمر وقال الهول بن شاكر خلصوا أولا الملك ثم بكتمر من عند سيف الملك ثم سافر بهم الهول من طرق يعرفها حتى نزل بهم على قلعة شنهاب فلما رآهم الملك فطروس صاح بوزيره انظر عساكر الملك الظاهر اتونا لاجـــل خلاص ملكهم فقال له وزيره لا تتركوهم يستريحوا اركب بالحال وانزل اليهم ثم انه خرج في عسكره يريد القتال فاستقبله أبطال بني اسماعيل وصاحوا بهم صيحة ارتجت منها الارض وخرقوا الصفوف يضربون بالسيوف وتبعهم الامراء وبقية العساكر بطعن الرماح في الصدور وقطع الجماجم وكان هجوما صاعقا انتصر فيه الفداوية وعساكر الملك الظاهر مما اجبروا الملك فرطوس

على الهرب فتراجع هو وجيشه الى الوراء ودحرهم بنو اسماعيل عند الباب وقتلوا منهم خلقا كثيرا وما دخل البلد الا قليل فقال فرطوس لوزيره حاربنا البيض فغلبونا وانتقموا منا افظع انتقام فقال له انت لك كبير يحميك وهو الملك الاكبر الذي يأخذ منك الخراج فأرسل اليه وقل له أسرت ملك البيض وان جيشه محاصرنا فحالا يركب ويأتي يحارب لك البيض ويكسرهم وفي الصباح أرسل الملك فرطوس الى جيش الملك الظاهر يقول أمهلونا حتى يأتي صاحب البلاد ولكم عن كل يوم عشر أوقيات فقبل الوزير شاهين هذه الهدنة بعدما استشار أمراء الجيش والمقدمين وبعث الى الملك فرطوس في القبول فأرسل فرطوس مائة أوقية ذهبا عن عشرة ايام فوقف القتال ثم كتب كتابا وأرسله مع وزيره صمصام وقال له سر بالحال الى الملك الاكبر وحثه على الاسراع بجيشه ليساعدنا فسار الوزير بالكتاب الى مدينة الحبشة وسلمه الى الملك طارود الملك الاكبر وكان فارسا شجاعا ومن العمالقة اصحاب القلاع يقاتل على فيل لان الخيل لا تقدر على حمله واذا نزل الى الميدان تجفل الخيل من صراخه ولا تقف امامه فلما قرأ الكتاب أمر الوزير ان يجمع أبطال الحبشة في كل مكان فاجتمع عنده خلق لا يحصى لهم عدد وركب وسار بهم الى جيش الملك الظاهر فلما وصلوا ركب السودان فتلقتهم أبطال بني اسماعيل وجيش الامراء بضرب اقوى من سياط النار فلما رأى الوزير شاهين عساكر متتابعة ضاق صدره وعيل صبره فكتب كتابا واعطاه الى ابراهيم وقال له أوصله الى الملك طارود فأخذه ابراهيم وسار به فالتقى بالهول بن شاكر فسأله الى اين ذاهب قال الى ملك السودان فقال انا ذاهب معك فسار معه حتى وقف قدام الملك فأعطاه الكتاب فقراه فوجد فيه من وزير الملك الظاهر الى بين أيادي الملك طارود اعلم انه ليس لنا مصلحة ببلادكم وانما ملكنا محبوس عندكم فاطلقوا سراحه واحقنوا دماء الابطال منا ومنكم والسلام ختام فقال الملك طارود انا لا اطلقه لهم حتى انزل الى الميدان واحاربهم ويحاربونني هذا جواب كتابهم وفي الصباح برز طارود الى الميدان وهو راكب على فيل وبيده عامود وطلب مبارزة الفرسان فبرز اليه المقدم عاصف وتقاتل معه ساعة من الزمان فضربه طارود بالعامود قتله ثم برز اليه المقدم عجبور فألحقه بعاصف ثم قتل اربعة ابطال من بني اسماعيل فقال الوزير شاهين انزل اليه غدا يا ابراهيم واكفنا شره فنزل ابراهيم الى الميدان بعدما افرغ على جسمه درعا متينا لا يعمل به الصارم الهندي ونزل اليه طارود وتقاتلا قتالا شديدا مرة بالسيوف

ومرة بالرمح والعامود الى اخر النهار فافترقا على سلام ولكن طارود عاد الى جيشه مكسوفا لانه لم يقتل ابراهيم كما قتل من قبله وبيت النية على ان يقتله في الغد مهما كلفه الحرب من جهد وعند الصباح برز الى الميدان فبرز له ابراهيم وقال له ابشرك ايها الملك فاستبشر خيرا وقال له وما هي البشرى فقال هي رمي رقبتك فاغتاظ منه طارود وانطبق عليه وتقاتلا أشد قتال واظهرا العجائب والاهوال ثم ضربه بالعامود فتلقاه ابراهيم بطارقة البولاد فانثنت فضربه ابراهيم بذي الحيات فتلقى طارود الضربة بالعامود فزحل السيف على عنق الفيل فقطعه فوقع الفيل على جنبه وكانت رجل طارود تحت الفيل فلم يستطع القيام بسرعة فما كان من ابراهيم الا ان انقض عليه وضربه بسيفه ذي الحيات على هامه أخمد انفاسه فلما رای وزير طارود ذلك الحال أمر العساكر بالهجوم فحملت على بعضها الفرسان واشتد الحرب والطعان وتمكن الفداوية من ضرب الرقاب ودام الحرب والقتال الى ان ولى الاعداء الفرار فلحقتهم عساكر السلطان الابرار وملكوا بلد الملك فرطوس فقال ابراهيم للمقدم الهول اين الملك الظاهر فسار به الى ان اوقفه عنده ففكه ابراهيم وخلصه من ثوب القنفذ وهو يقول لا بأس عليك يا مولاي فقال السلطان يا ابراهيم انا عدمان وجسدي مشوه فلا تدع احدا يراني قال ابراهيم ستبرأ من آلامك واوجاعك بأقرب وقت باذن الله ثم انه نقله الى غرفة في الصيوان ومنع الدخول عليه اما شيحة فقد خلصه اولاده من الحبس فأتى ليرى السلطان فاستقبله ابراهيم وقال ان حالة السلطان محزنة جدا ويلزمه عناية فائقة ليشفى بأقرب وقت فلما رآه جمال الدين قال له روحي فداك يا ابا السعيد والحمد لله على سلامتك وستشفى عن قريب باذن الله ثم انه خلع عنه الثياب فوجد بدنه معملا فصار يعصر كل غرزة وحدها وينظفها حتى نظف جميع جسده ثم غطس السلطان بالماء الساخن وصار يفرك بدنه ثم اخرجه واضجعه على الفراش وصار يدهن الجروح بدهن النسر ثم لفه بالشراشف وصار يسقيه الحليب واللبن وصار يغذيه بمرق الديك الحبشي وظل يغير له كل يوم ويعتني به حتى شفي وشعر الملك بالصحة والعافية وصار يجلس في الفراش ويستقبل زائريه ثم انه صبر عشرة ايام بعد شفائه ثم أمر الجيش بالرحيل بعدما غنموا بلاد فرطوس وساروا طالبين بلاد برقان الى ان وصلوا اليها ثم ان جمال الدين شيحة غيَّر زيه ودخل بلد الملك برقان اما الذين انهزموا بعد قتل طارود فانهم وصلوا الى الملك برقان وهم يصرخون من اعمال البيض ثم قالوا له لقد اطلقوا سراح ملكهم ولا بد ان يأتوا ويحاربوك فذعر الملك

برقان وقال كيف نعمل وليس لنا طاقة على حرب البيض فقال غرطـــال الوحشي انا غدا اخطف ملكهم فتنكسر شوكتهم وتضعف قوتهم عند ذلك يمكنك التغلب عليهم فاطمأن الملك برقان وقال له اسرع واياك ان تفشل اما شيحة جمال الدين فكان واقفا يسمع الكلام ولما ذهب غرطال لحقه شيحة وعرف مسكنه فدخل عليه في نصف الليل وذبحه ثم ذهب الى محـــل برقان فوجده نائما فألقى على وجهه منديل البنج وكتفه ثم فيقه وقال له انا جمال الدين شيحة أريد منك ان تنهي الحرب وتصالح السلطان وتدفع له الجزية كل عام فتنقذ نفسك من الموت وبلادك من الدمار وأن تسلم وتؤمن بالله وبمحمد رسول الله وتأمر اهل بلدك ان يؤمنوا ويتركوا عبادة زحل وعطارد والمريخ فانها كواكب لا تضر ولا تنفع فاحمرت عينا برقان وابى ان يعمل بما طلب منه شيحة عند ذلك ضربه شيحة جمال الدين على رقبته ازاح رأسه عن جثته وعاد شيحة الى جيش السلطان وأعلمه بما فعل وأخذ مائة من الابطال وادخلهم البلد ومضوا الى الباب وذبحوا الحراس وأرسل بالحال أعلم السلطان ان يأمر جيشه بالهجوم على البلد ولم يطلع النهار الا والسلطان على كرسي الملك برقان فلما عرف الاهالي ذلك طلبوا الامـان فقال السلطان من ترك عبادة الكواكب وآمن بالله أمن على نفسه ومالـه فآمنوا كلهم فأقام عليهم نائبا الهول بن شاكر ثم ان الملك الظاهر اخـذ أموال برقان وسار الى مدينة الدور فوجد أيدمر البهلوان والملك عرنوس ومعهم عساكر بكتمر السعدي وهم في قتال مع الملك سيف الملك فأمـر السلطان الفداوية ان يهجموا ميمنة والامراء ميسرة فهجموا عليهم وأراد سيف الملك ان يهرب فأدركه السلطان وضربه بنصلة باديس اطاح رأسه ثم دخلوا مدينة الدور وغنموها وخلصوا بكتمر السعدي من الاسر ولما تـم النصر والظفر للسلطان أمر بالرحيل الى مصر وما دام يقطع الاراضي والبلاد الى ان وصل الى الديار المصرية فانعقدت له المواكب واقاموا له الاحتفالات الى ان جلس في قلعة الجبل يتعاطى الاحكام وفي احد الايام وهو جالس واذ بنجاب يدخل ويقول سبحان هادي الطير فقال السلطان وراحم الشيب وساتر العيب من اين انت قادم فقال من الاسكندرية ثم قدم له الكتاب نقرأ فيه من نائب الاسكندرية الذي نعلمكم به يا مولانا السلطان انه كثرت عندنا سرقة الناس في هذه الايام ولم نعرف من يقترف هذه الاعمال وقد كثرت الشكاوى من الرعية وضاق بنا الحال فأدركنا ايها الملـــك قبل ان يستفحل الامر ادام الله نصركم وعزكم والسلام عليكم فلما قرأ الكتاب أحضر

ابنه السعيد واجلسه على كرسي مصر واوصاه بالعدل والانصاف وركب السلطان واخذ معه المقدم ابراهيم والمقدم سعدا وساروا الى الاسكندرية فسأل الملك النائب عن هذه القضية فقال له ان من يقوم بهذا العمل داهية من اعظم الدهاة لانه يأخذ اموال الناس بدون ان يشعروا وبدون ان يكسر بابا او يفتح قفلا مع اننا طول الليل ندور في الشوارع وفي كل مكان فلم نلتق بأحد وعند الصباح نسمع الصياح والشكاوى من الناس بفقد اموالهم وامتعتهم فما ندري هل هذا فعل انس ام جان فتعجب الملك ثم نزل ومعه ابراهيم وسعد وداروا في الاسواق فلم يروا احدا وفي الليلة الثانية والثالثة كذلك وهم يدورون ويفتشون فكان كل شيء هادئا وطبيعيا ولكن امتنعت السرقات وبطلت الشكاوى من حين قدوم السلطان واذ في اليوم السادس ورد كتاب من السعيد ابن الملك الظاهر يقول فيه ان تجار مصر يتشاكون من سرقة اموالهم ودورهم ليلا ونهارا ولم نعلم الغريم فأدركنا يا امير المؤمنين فقال ابراهيم هذا العايق الجبار علم بقدومنا الى الاسكندرية فانتقل الى مصر واغتنم الفرصة في غيبة السلطان عند ذلك رجع السلطان وابراهيم وسعد الى مصر وصاروا يفتشون ليلا نهارا مدة اربعة ايام فلم يعثروا على احد ثم اقبل كتاب من الاسكندرية يخبر بأن الغريم عاد الى الاسكندرية فسافر الملك اليها فلحقه خبر من مصر بأن الغريم عاد اليها فعاد الى مصر ثم عاد الى الاسكندرية وهكذا سبع مرات فضج الملك من السفر والعودة على غير طائل وبينما هم يفتشون على الغريم رأوا رجلا يسرع في سيره ويكاد يختفي عن أنظارهم فلحقوه الى ان وقف الرجل في حارة فتقدم الملك اليه ويده على قبضة السيف فاذا هو رجل معه قفة ملآنة بامية قال له الملك الى اين سائر في الليل قال له يا سيدي انا رجل خضري وأنا شيحة فقال السلطان حيث انك هنا اما عرفت الغريم قال عرفته فهو قوي جبار ومعه اربعون عائقا فاتبعوني وانظروهم فذهبوا معه الى الميناء وأوقفهم في منعطف وبعد قليل اقبل مركب صغير وفيه عشرة اشخاص طلعوا الى البر ومشى امامهم رجل طويل القامة غليظ البدن وساروا في حارة طويلة ودخلوا في بيت وقد تبعهم السلطان ومن معه الى البيت الذي دخلوا فيه ووقفوا يتشاورون ماذا يعملون ليلقوا القبض عليهم واذ خرج منهم خمسة اشخاص بزي اهل الاسكندرية فصاح السلطان قفوا وارفعوا ايديكم فما كان منهم الا ان جردوا سيوفهم ولكن السلطان وجماعته كانوا اسرع منهم بضرب السيف فقتلوا الخمسة كلهم واقتحموا البيت ودخلوا فلم يروا فيه احدا ووجدوا المسروقات كلها

موجوذة في هذا البيت فامر الملك بارجاعها لاصحابها وراوا كتابا للسلطان يقول فيه انا لم اتخل عن القتال ولم اغدر بالرجال وان كان مرادك تحمي بلادك مني فاني ذاهب الى حلب واسمي المقدم عزائير اليغروي فقال شيحة هذا خصمك قد عرفته فاركب الى حلب واسأل الله ان ينصرك عليه فكتب الملك كتابا الى ولده السعيد يأمره ان يجلس اخاه احمد شلامش على تخت مصر وان يلحق أباه بالعساكر الى حلب واعطى الكتاب الى سعد وقال له اعطه الكتاب واحضر معه الى حلب ثم ان الملك اخذ المقدم ابراهيم وخمسين مملوكا وساروا الى الشام واقام بالشام ينتظر قدوم العساكر مع السعيد وفي يوم من الايام والملك جالس في الديوان اذ بعزائير داخل ومجرد سيفه وصاح صيحة ارتج لها الديوان وقال انا لم اتخل عن القتال فانزل الى الميدان لترى افعال الفرسان ثم تقدم واراد ان يضرب السلطان فحالت المماليك بينهما فحكم الضرب في المماليك فقتل منهم اثنين وجرح ثلاثة فحمل عليه المقدم ابراهيم وتعاركا وتضاربا بالسيوف فخاف عزائير ان يتكاثروا عليه فانسل من المعركة وهرب وفي اليوم الثاني هجم عزائير الى الديوان فصدمه ابراهيم وضربه عزائير بالسيف اخذها ابراهيم على المانعة فقطعها ووقعت على كتفه فقطعت الزرد فقام السلطان ويده على الدبوس الدمشقي فنزل عزائير من الديوان وهو يقول اللقاء بيني وبينك في حلب وها انا سابقك اما السعيد فأقبل بالجيش وامر الملك بالمسير الى حلب وقال الى سعد قل للفداوية المقيمين بالحصون ان يسافروا الى حلب وما زال الملك سائرا الى ان وصل الى حلب فالتقى بعزائير اليغروي وجماعته وهم لا يزيدون عن الالف وصحبته جوان والبرتقش .

قال الراوي : اما سبب قدوم عزائير انه كان مقدما على جميع العياق التي في بر الروم وكانت جميع ملوك الروم تهابه وتدفع له الجزية كل عام وله ولد اسمه حرب مثل ابيه بالشجاعة والجبروت ولكنه اعقل من ابيه فمر جوان على مدينة يغرة فراى عزائير في هذه العظمة فقال له جميع الملوك تخافك وترهبك الا الملك الظاهر فقم حاربه واقتله وخذ الجزية التي يأخذها من ملوك الروم وانا سوف احرض لك ملوك الافرنج ليساعدوك عليه فلما سمع عزائير ذلك الكلام قال انا لا اهدأ حتى اقتل السلطان الظاهر واهلك رجاله ثم انه جمع اربعين عائقا واخذهم الى الاسكندرية وجرى ما جرى له مع السلطان اما جوان فسار الى ملوك الافرنج وقال لهم ساعدوا عزائير على حرب الملك الظاهر والان راكب على حلب برجاله فما

يزال يلح عليهم ويغريهم بالركوب حتى اجابه الى طلبه الملك جونش فركب بجيشه واتى الى حلب فما كان جونش الا ابن اسماعيل ابو السباع فلما تسلطن اخوه معروف وسجن كان اسماعيل اخوه يفتش عليه فدخل مدينة تسمى البرق فراى بنت ملكها فتزوجها واعطاها نسبه وقال لها انا عن قريب آتي وآخذك ومتى وضعت الولد علقي عليه هذا النسب وهي قطعة من الفضة مكتوب عليها اسم اسماعيل ابو السباع بن جمر وتركها وسافر يدور على اخيه معروف اما البنت فولدت ولدا ذكرا سمته جونش وتربى في حجر جده فلما مات الملك تسلطن جونش على تلك المدينة وجاءه جوان فأغراه على هذه الحملة التي سار بها الى حلب اما امه رومة سألت البرتقش اين يوجد اسماعيل ابو السباع فقال لها في مدينة الرخام مع الملك عرنوس فتوجهت الى مدينة الرخام ودخلت على المقدم اسماعيل وقالت له انا زوجتك رومة بنت ملك البرق وابنك جونش راكب الان على حلب ليساعد عزائير بالحرب على السلطان الظاهر ففرح اسماعيل بولده وحكى الى ابن اخيه الملك عرنوس فقال لعمه يتحتم علينا ان نركب بالعساكر لنساعد السلطان ونعرف ولدك جونش عليك فركب عرنوس في عساكره واخذ معه اسماعيل وامراة عمه ام جونش وسار الى حلب اما الملك الظاهر لما وصل الى حلب نصبت الخيام وصنعوا للملك تختا في وسط الصيوان لينام عليه واحتاط العساكر بالصيوان خوفا على الملك من غدر عزائير وكان جاسوس عزائير حاضرا فعاد اليه واخبره بما فعل السلطان فقال انه يخافني ولا بد من قتله ثم انه ركب فرسه ونزل الى الميدان وطلب مبارزة الفرسان فنزل اليه ابراهيم الحوراني وصاح به وانطبق عليه بقلب اقوى من الحديد وكانت لهما ساعة حرب تقشعر منها الابدان وما زالا يتقاتلان الى اخر النهار فافترقا على سلام ففرح السلطان بسلامة ابراهيم ثم طلع الملك لمحل نومه اما عزائير فانه صبر الى الليل ودخل الى جيش السلطان ووصل الى الصيوان فقلع وتدا ودخل فوضع يده على التخت فأفاق السلطان فقبض على السيف وضرب عزائير على يده فقطعها فصاح من الم وطلب البر فأمر الملك بايقاد المشاعل فراى يد عزائير مقطوعة ومرمية على الارض فلما رآها ابراهيم قال لقد ارحتنا من هذا الجبار يا امير المؤمنين اما عزائير فكانت الدماء تسيل من يده اليمنى فأيقن انه اذا صفي دمه يموت لا محالة فاسرع الى دير النحاس القريب من المدينة وطرق الباب ففتح له راهب الدير ولما رآه قال له اهلا وسهلا فقال له اسرع داو لي يدي فلو لم اكن قابضا عليها بقوة عزمي لصفي دمي ومت فأضرم الراهب النار وغلى عليها

الزيت وربط يده ثم غطها بالزيت فالتحمت عروق الدماء ثم دهنها بمرهم وشعر عزائير بالراحة بعد الآلام ثم احس بالجوع فقال للراهب هل عندك طعام قال نعم وقدم له الطعام فاكل وتبنج لان الذي داواه واطعمه جمال الدين شيحة فلما رآه لا يعي على شيء حمله على بغلة واوصله الى جيش السلطان اما الملك الظاهر فانه امر ان يعلقوا يد عزائير لتتفرج عليها الجنود والعساكر فبينما هم يتفرجون عليها واذ بجمال الدين شيحة محمل عزائير على بغلة فنهض الملك وراى عزائير مع شيحة فأمر ان يضعوا القيد في رجليه ويصحوه وسمع ضجيج في جيش الاعداء فأسرع شيحة الى جيش الاعداء فعلم ان نجدة اتت اليهم بقيادة الملك جونش فرجع شيحة واخبر السلطان اما عزائير فوضعه السلطان في السجن فجاء ابنه وخلصه من السجن واعاده الى جيشهم واما الملك عرنوس وعمه اسماعيل ابو السباع ركبوا وصحبتهم الجيش من مدينة الرخام الى حلب فلما وصلوا استقبلهم السلطان بالترحاب فحكوا له عن سبب مجيئهم وقالوا له ان الملك جونش هو ابن اسماعيل ابو السباع وهذه امه صحبتنا .

قال الراوي : اما الملك جونش فانه أمر بدق طبول الحرب وانحدر الى الميدان وطلب المبارزة فنزل اليه ابوه اسماعيل ابو السباع فما كان من الملك جونش الا وصدم ابو السباع فالتقى صدمته بصدمة اقوى منها وتقاتلا قتال الابطال وكان اسماعيل من الابطال الموصوفين بالشجاعة وزاد عليها شجاعة الوالد على الولد فضايقه ولاصقه ومد يده وقبض عليه وجذبه فاقتلعه من على السرج وقدمه الى السلطان قائلا هذا ولدي اسير بين يديك فقال له الملك خذه لوالدته لتعرفه انك والده فأخذه لصيوان عرنوس وأحضر والدته وقال لها عرفيه اني والده فلما راى والدته في جيش عرنوس تعجب وقال من اتى بك الى هنا قالت لاعرفك على والدك فقال لها والدي ملك مدينة البرق قالت له هذا والدي انا اما والدك انت فهو المقدم اسماعيل ابو السباع والملك عرنوس هو ابن عمك فقال ولاي شيء كتمت عني ذلك طول عمري فقالت لان والدك ليس له مقر معروف فاذا ذهبت تفتش عنه اخاف عليك ان تقع بيد الاعداء والان هذا ابوك بدون شك وهذه العلامة من يده من يوم تزوجني واخرجت قطعة الفضة واطلعته عليها فقال وهل انت مسلمة قالت نعم وأريد منك ان تكون على دين والدك لانه من الاشراف فلما تيقن ان اسماعيل ابو السباع والده أسلم وقبّل يده وقبّله ابوه من وجنتيه ثم صافح ابن عمه عرنوس ثم قال قوموا بنا الى صيوان الملك فذهبوا

ودخلوا الى الصيوان وسلموا على الملك ثم قال له ابو السباع ان ولـدي جونش اسلم ولله الحمد ففرحوا به وهنأوا والده اما عزائير فقال لولده مرادي آخذ بثاري فقال له ابنه اخاف عليك ان لا تقدر عليه وانت بيد واحدة فقال له عزائير اتعيرني بفقد يدي وسوف ترى ثم صبر الى الليل وذهب الى صيوان الملك الظاهر فرآه الحرس وصاحوا عليه فنهض الملك من نومه واخذ الدبوس وخرج اليه وضربه على ظهره رماه الى الارض فأوثقوه كتافا اما السلطان فأرق ولم ينم الى الصباح فأمر ان يغرزوا خشبة في الارض ويربطوه بها وامر عشرين جندنا ان يرشقوه بالنبال ففعلوا كما امر الملك ورشقوه بالنبال الى ان مات اما الملك جونش فأرسل كتابا الى وزرائه وقادة جيشه ان يأتوا اليه ليعرض عليهم امرا هاما فلما وصل اليهم الكتاب قرأوه وذهبوا الى عند جونش فقال لهم اعلموا اني قد ظهر أصلي وان والدي اسماعيل ابو السباع فاريد منكم ان ترجعوا الى أوطانكم وتنصبوا عليكم ملكا يرضيكم واذا ابيتم ذلك فلا تلوموني ولوموا انفسكـــم فاذهبوا الان واعلموا عساكركم بما قلت لكم فعادوا فسألهم جوان ما قال لكم جونش قالوا نصحنا ان نرحل الى بلادنا وننتخب لنا ملكا فقال لهم جوان نصبوا عليكم ملكا من الان وحاربوا السلطان واملكوا بلاده فلم يقبلوا ثم انهم اعلمــوا العساكر بالرحيل ففرحوا ودقوا طبل الرحيل وعادوا الى اوطانهم اما حرب ابن عزائير فوجد عساكره قليلة فان قاتل بهم لا يثبتوا ولا ساعة امام جيش السلطان فتحير في امره وما عرف ما يأتي الغد ثم انه نام فراى في منامه الملك الصالح يقول يا حرب انت غدا تؤمن بالله وتكتب مع المجاهدين الابرار فهنيئا لك بما تنال من الدرجات العليا فانتبه حرب متعجبا من هذا المنام ثم قال لانزل الى الميدان واتقاتل مع ابراهيم الحوراني لارى هل أقدر عليه ثم انه دق طبل الحرب ونزل الى الميدان وطلب المبارزة وقال لا يبرز الي الا المقدم ابراهيم فنزل اليه ابراهيم وانطبق الاثنان على بعضهما وتضاربـــا بالسيوف والرماح واشتد بينهما القتال وقل الكلام ودام في نضال وعراك الى ان حكمت الشمس في قبة الفلك فعرف حرب نفسه انه دون ابراهيم ولكنه ثابر على الكفاح وصار يدافع عن نفسه دفاع الابطال الى ان شعر ابراهيم ان حرب قد تعب وكلّ فمد يده واقتلعه من بحر سرجه واخذه الى بين يدي السلطان فقال السلطان اقطع راسه يا ابراهيم فصاح حرب ولماذا يا مولاي تقتلني وانا لم اقتل احدا منكم حتى تقتلني بدلا عنه فقال له لو امكنك ان تقتل احدا منا لما قصرت فقال حرب اني اشعر بنفسي ميلا للاسلام فقال له قل اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمدا رسول الله

فقالها حرب وآمن فقال السلطان هنيئا لك سبقت لك السعادة فتمن علي قال اتمنى على مولانا السلطان ان اكون مرافق المقدم ابراهيم واريد ان اتشرف بخدمة جلالة السلطان وان اكون مرافق بني اسماعيل واكون فداويا مثلهم قال السلطان لك ما طلبت اما عساكر حرب لما راوا مقدمهم حرب مأسورا رفعوا راية التسليم فتقدم جيش السلطان واسرهم جميعا امـــا ابراهيم فقال للسلطان ارجو من مولاي ان يشرف قلعتي بحوران ويأكل من ضيافتي ومعكم الوزير شاهين والامراء والمقدمون والفداوية فقال السلطان انا لا يمكنني الاقامة اكثر من هذه المدة فخذ المقـــدم سليمان الجاموس والفداوية من بني اسماعيل وبعد انتهاء الضيافة الحقونا الى مصر ثـــم سافر الملك والجيش الى مصر اما ابراهيم فأخذ بني اسماعيل الى قلعته بحوران وعمل ضيافة كريم لا يبخل بعطاء وعملوا حفلة لقبول حرب كواحد منهم وان يكون مقدما مثلهم وبعد انتهاء لضيافة توجهوا الى مصر اما الملك عندما وصل الى مصر انعقد له الموكب وسار الى قلعة الجبل وجلس السلطان على عرش مصر واقام يتعاطى الاحكام بالعدل والانصاف وفجأة ظهر الحزن والالم في وجه الملك عند ذلك سلم ابراهيم الطبر لعيسى الجماهيري وتقدم يلاطف الملك ويسأله عن سبب حزنه والمه فقال له الملك اني رأيت الليلة الماضية مناما تأثرت منه وهذا سبب المي قال ابراهيم خيرا رأيت ان شاء الله قال الملك رأيت نفسي في بستان ورأيت عرنوس له اجنحة ويريـــد الطيران فخفت عليه فوضعته في قفص فأتت طيور سود وصارت تدور حوله فأردت ان اطردها عنه فما لحقت ان ادركه الا والطيور مالوا عليـــه وقطعوه وانا خايف على عرنوس قال ابراهيم العمر بيد الله فلا تخف عليه.

قال الراوي : اما الملك عرنوس فقد اقبل من مدينة الرخام ومعه عمه ابو السباع وابنه جونش والمقدم نصير النمر واولاد الملك عرنوس الاربعة فترحب بهم السلطان وأجلس عرنوس بجانبه وآنسه وباسطه فقال له يا امير المؤمنين انا رأيت مناما من مدة وارغب ان تسمعه مني فقال السلطان خير لنا وشر لاعدائنا فما رأيت يا ولدي قال رايت والدي المقدم معروف في المنام يقول لي انا مشتاق لرؤيتك يا ولدي ومنتظر زيارتك فقلت له وأنا اريد ان اترك عيالي واولادي وأقيم معك فقال لي عيالك واولادك سوف يتبعونك ولك عندي زوجات ينتظرنك وهن من بنات الحور العين فأرغب في الجهاد والقتال لتنال لذة الوصال ثم ضمني الى صدره فانتبهت وانــا مشتاق لرؤيته فقال السلطان على المرء ان يزهد في الدنيا لينال النعيم

في الآخرة وفيما هما كذلك واذ بنجاب داخل من باب الديوان ومعه كتاب قدمه للسلطان ففتحه وقرا فيه من عماد الدين ابو الخيش نائب حلب اننا يوم تاريخه راينا البر امتلأ بالغبار ثم انكشف عن جيش جرار وعلى راسه الملك رومان الازرق ومعهم جوان فأقمنا الحصارات الى ان تأتينا النجدات فأدركنا يا امير المؤمنين قبل ان يحل بنا ريب المنون والسلام فلما قرا الملك الكتاب أمر ان تستعد العساكر للسير الى حلب واذ بنجاب قادم من الشام ومعه كتاب يقول فيه انه حط على الشام جيش من اللئام وهـي تطلب النجدة من السلطان وورد كتاب ثالث من اللاذقية ويذكر فيه ان اللاذقية محاطة بعساكر تسد منافس الهواء ويطلبون النجدة من السلطان فقـال عرنوس انا اول من يركب ويجاهد في سبيل الله فان انتصرت فذلـك الفضل من الله وان مت شهيدا فهذا غاية ما اتمناه لانال مقامي الذي اعده الله لي في الآخرة عند ذلك بدأ السلطان يؤانس عرنوس ويلاطفه ويسليه الى ان قدم الطعام للسلطان وقال لعرنوس تفضل كل معي فأكل معه ثم قدموا لهما الشراب فشرب عرنوس وداخ وصار لا يعي على شيء لان الشراب الذي قدم لعرنوس كان مبنجا بأمر من الملك ثم وضعه في السجن وصحاه فقال عرنوس لماذا سجنتني يا مولاي اتمنعني عن الجهاد فبكى السلطان وقال ان اباك كان عزيزا عليّ وكنت أسر بحديثه وبشجاعته فغدر به الزمان وحرمني منه وانت خلفه من بعده وكلما نظرت اليك كأني انظر الى ابيك واني خائف عليك من هذه الحملة ولا اريد منك ان تراها فلا تخالفني فيما أريد فقال عرنوس اطلقني يا مولاي لانه ليس لنا مفر من القضاء والقـدر والذي له عمر طويل لا تقطع به صوارم الحديد فقال له صدقت ولعـل اقامتك هنا الان فيها الخير والصلاح والسلامة ثم تركه الملك وعاد الـى الديوان وقال للوزير شاهين الى اي جهة نسير اولا فقال الوزير نجعلهـا حملة واحدة الى الشام فاذا انكسر الذين في الشام نسير الى حلب ونكسر الاعداء ان شاء الله ثم نسير الى اللاذقية حتى يتم لنا النصر باذن اللـه فوافق السلطان وامر العساكر بالسير الى ارض الشام فلما وصلوا نصبوا الخيام امام جيش اللئام اما الملك عرنوس فقد اتى اليه السعيد ابن الملك الظاهر يزوره ويأخذ بخاطره وينصحه بأن لا يغتم ولا يحزن فقال له عرنوس انا لم اعمل ذنبا مع السلطان حتى يضعني في السجن كأني مجرم فاشفق عليه السعيد وقال احلف لي انك لا تذهب الى الجهاد في هذه الحرب وانا اطلق سراحك فقال عرنوس اذا اطلقتني من هذا السجن لا اذهب الـى الجهاد الا اذا قلت لي انت اذهب وحلف على ذلك ففكه السعيد واخـذه

معه واحضر له الطعام واكل معه اما عرنوس فقد زاد شوقه الى الجهاد وخوض المعارك والمعامع ومساعدة السلطان الظاهر فقال للسعيد قل لي توجه للجهاد والحق السلطان والا قتلتك فقال له لا تقتلني ولا اقتلك اذهب وجاهد في سبيل الله فركب عرنوس جواده وطار به مثل البرق اما الملك الظاهر لما وصل الى الشام قال جوان لرومـــــان الازرق لا تدع جيش السلطان يأخذ راحته خذوهم على غفلة فأمر حالا بالزحف على عساكـر السلطان فالتقتهم الابطال الابرار من جيش السلطان الظاهر وحصـــل القتال الشديد بحد الحسام وطعن الرماح وكثرت القتلى والجرحى ودام الحرب بينهما الى ان ولى النهار فدقت طبول الانفصال فصاح جوان على رومان الازرق قائلا لا تدع العساكر تنفصل عن الحرب فلن يتح لك فرصة مثل هذه الفرصة وهز جوان العلم وقال يا ابناء الافرنج بيعوا ارواحكـــم وقاتلوا اعداءكم عند ذلك داوموا على متابعة القتال ولم ينفصلوا وصاح السلطان بأبطاله يقول اهجموا عليهم ومكنوا السيوف من رقابهم فالجنة تحت ظلال السيوف قاتلوا بعزم واباء وخوضوا في صفوفهم وشتتوا شملهم وخاض السلطان معهم في صفوف الاعداء وطير الجماجم عن الابدان وكانت ليلة مظلمة حجب الغبار الجو بين الارض والسماء وتكحلت الاجفان بمراود العمى ودام الامر على هذا الحال الى ان ذهب الليل واقبل النهار بنوره ولاح وكان قد وصل الملك عرنوس وراى الحرب دائرة فحمل على الاعداء يقطع الرؤوس ويخرق الصدور وصاح انا الملك عرنوس قاهر الاعداء اللئام عند ذلك اتسع المجال لابطال الاسلام واستظهروا على الاعداء حتى اجبروهم على دق طبول الانفصال فأدارت الاعداء رؤوس خيلها ورجعت الى الخيام وعادت ابطال المسلمين الى الخيام اما عرنوس فظل يصول ويجول بين عساكر الاعداء ويضرب فيهم بالحسام فخاف عليه السلطان وقال له يا ولدي فاذا فاتك القتال اليوم فلن يفوتك غدا فقال سمعا وطاعة وعاد مع السلطان الى الخيام وجلس بجانبه فقال له السلطان ان طعم الموت مر لا يقبله عبد ولا حر فقال عرنوس ومن يستطيع الهروب من الموت ان لم يمت الانسان في الجهاد في سبيل الله مات على فراشه فظل الملك يباسطه ويسليه الى ان حضر الطعام فقال لعرنوس تفضل كل معنا فقال عرنوس اني لا اشتهي الاكل الا مـــن ثمار الجنة فلما رآه مصمما على خوض المعارك قال للوزير شاهين مـــا العمل فأشار عليه ان يضعه في السجن حتى تنقضي هذه الحملة فأمـــر الملك بالقبض عليه ثم قال له ليس عندي اعز ولا اغلى منك ولا يهون علي ان

يقتلك الاعداء ثم سلمه لنائب الشام وقال له احفظه في القلعة معزوزا مكرما اما رومان الازرق فانه لم يستطع الثبات امام قوات السلطان فأمر بهد الخيام والسير الى حلب فلما وصلوا تجهزوا للحرب فلما علم السلطان ذلك تبعهم بالجيش الى ان وصلوا الى حلب فلما رآهم جوان قال لرومان قاتلهم قبل ان يأخذوا راحتهم فقال له ان العساكر منهوكة القوى من مشقات السفر فيلزم ان يستريحوا حتى تعود لهم قواهم ليستطيعوا الثبات امام اعدائهم فسكت جوان ثم ان السلطان كتب كتابا وأرسله مع ابراهيم لرومان الازرق قال فيه اعلم يا رومان انه لا بد من قتلك في هذه الحملة اما اذا قبضت على جوان وسلمته الينا لانه هو سبب هذه الحروب فنتفق معك على سلامتك وسلامة جيشك بالمال والجزية اما اذا اطعت لجوان وتابعت القتال فسوف ترى ما يحل بك وبجيشك من الاهوال فلما قرأ الكتاب قال لجوان ان لم تدبر لي امرا على هلاك السلطان قبضت عليك وسلمتك اليه واتفقت معه فقال جوان عندي عشرون بطلا مغوارا وهم سيوف بلاد الروم لهم سطوات تزعزع الجبال فينزلون الى الميدان وينصروننا على الاعداء اما المقدم ابراهيم فاستبطأ رد الجواب فصاح في وجه رومان قائلا اين جواب السلطان أسرع هات رد الجواب وحق الطريق والا فقال رومان ما يقول هذا فقال جوان اعطه الجواب وحق الطريق واصرفه عنا فأعطاه الجواب وأكرمه وسار ابراهيم الى السلطان واعطاه الكتاب فوجده بالحرب فمزقه ورماه ودق طبل الحزب وكان جوان قد أحضر العياق وطلب منهم الحرب والطعان وقال لهم انتم ذخيرتي لهذا اليوم فابذلوا جهدكم لتشهد لكم الاقران بتفوقكم على جميع الفرسان فقالوا سمعا وطاعة ونزل منهم فارس وصال وجال وطلب مبارزة الفرسان فأمر السلطان أيدمر البهلوان ان ينزل اليه واذ بغبار علا وثار وانكشف عن فارس بالحديد غاطس وهجم على ذلك العايق وضربه بالسيف على عاتقه ارداه قتيلا فنزل اليه الثاني الحقه بالاول وكذلك الثالث والرابع الى ان قتل عشرة ثم انه طلب مبارزة الفرسان فقال جوان للعشرة الباقين انزلوا اليه وانتقموا لرفقائكم فانه تعب ولم يبق فيه قوة ليتابع القتال فنزل اليه بطل وصدمه الابطال فتلقاه عرنوس بالسيف اطاح راسه ولم يزل يقتل واحدا بعد واحد حتى قتل العشرين فلما رأى السلطان هذه البسالة والبطولة حقق النظر في ذلك الفارس فاذا هو الملك عرنوس فقال لابراهيم اذهب واحضره واذ بجوان هز العلم وصاح ازحفوا يا ابناء القبانية عليه جميعا فزحفوا وتلقاهم عرنوس ولعب سيفه في رقابهم وصاح السلطان بجنوده عليهم ايها الابطال يا عصبة النبي المختار

فهجمت الفداوية والامراء والوزراء وفي مقدمتهم السلطان وتبعتهم العساكر والجنود وانطبقوا على الاعداء ولعبت السيوف في الرقاب والكفوف وعلا الغبار وقدحت حوافر الخيل الشرار وعميت الابصار وقصرت الاعمار ودام عرنوس يقاتل حتى قرب من علم الاعداء الكبير فضرب حامله قتله وصاح في الملك رومان الازرق فخبله وضربه بالبتار فوقعت الضربة على عنق الجواد فوقع رومان الى الارض فثار اللئام وانطبقوا على عرنوس فلحقته رجال بني اسماعيل ودافعوا عنه دفاع الابطال الى ان ولى النهار واقبل الليل بالاعتكار فدقت طبول الانفصال وعاد السلطان وعرنوس وابراهيم وسعد وباقي الابطال الى الخيام وهم مثل شقائق الارجوان مما سال عليهم من دماء الاعداء وبعد ما بدلوا ملابسهم جلس السلطان وجلس عرنوس بجانبه فقال عرنوس لماذا تمنعني من الجهاد في سبيل الله وتحبسني فاني اتأثر جداً ولا يهدأ لي بال من هذا الحال فقال له انت تعلم السبب هو خوفي عليك من الاعداء ولكن قل لي من الذي اطلقك من السجن بالشام فقد اطلقتني جارية كان نائب الشام جعلها لخدمتي واسمها جوهرة فقلت لها ان خلصتني من السجن اتزوجك ففكتني فلما خلصتني من السجن قلت لها الان مرادي الحق السلطان ولما اعود من هذه الحملة آخذك الى مدينة الرخام وأجعلك عندي في أعز مقام وتركتها وأتيت وجاهدت معكم على قدر استطاعتي فقال له السلطان بعد انتهاء الحملة قم بوفاء وعدك ثم قال له انت لا تطيعني اما تعلم ان اطاعة الملك فرض مطلوب فقال نعم ولكن الجهاد فرض على كل مسلم فأرجو ان لا تحرمني من أداء فريضة الجهاد في سبيل الله .

قال الراوي : اما رومان الازرق فتفقد عساكره فرآهم على اخر رمق فقال لجوان انت كنت السبب في تفريق جيشي على ثلاثة فرق انظر الى العساكر كيف يئنون من جراحهم عدا عن الذين فقدوا واني اراهم لا يستطيعون ان يثبتوا امام جيش السلطان فالاجدر بنا ان نرحل الى اللاذقية قبل ان يشعر بنا الاعداء فقال جوان اسرعوا الى اللاذقية فحملوا ورحلوا ولما اصبح الصباح تفقد جيش السلطان عساكر رومان الازرق فما راوا الا خياما منصوبة تحتها المجاريح التي لم تقدر على السير معهم فركب السلطان ولحق الاعداء اما عرنوس فقد امره السلطان ان يقيم في حلب عند نائبها بدون حبس فلما وصل السلطان الى اللاذقية نصبوا الخيام امام خيام الاعداء واول من نزل الى الميدان الملك عرنوس فقد لحق بجيش

السلطان وهجم على الاعداء فاحتاطوا به فلحقته ابطال الملك الظاهر الذي خاف على عرنوس فخرج من تحت البيرق وجال بين الاعداء يبري الرقاب ويكردس اعداءه بعضهم فوق بعض ودام الحال على هذا المنوال الـى ان انهزمت الاعداء وقد القى الله الرعب في قلوبهم فولوا الادبار فقال الملـك لعرنوس اصلحك الله اما اتفقنا ان تظل بحلب بدون حبس فكيـف اتيت واصليت الحرب بنفسك وان قلبي لا يسلم بك لاني خائف عليك فقال شيحة جمال الدين الحذر لا يمنع القدر والراي عندي انه كلما دارت رحى الحرب ضع برجليه ويديه القيود واتركه بالصيوان حتى ينتهي القتال تفكه فأمر السلطان بقيد عرنوس ووضعه بالصيوان وعين له خدما وحراسا وكان قد شاهد هذا الامر جاسوس من الاعداء فذهب واعلم جوانا والملك رومان بأن عرنوسا مقيد وهو في الصيوان فقال جوان لولا عرنوس كنا انتصرنا على الملك الظاهر فالان صارت لنا فرصة لقتله وهي انني غدا عندما اهز العلم وتحصل المعارك تذهب ايها الملك مع الف فارس من وراء جيش السلطان وتدخل الخيام وتقتل عرنوسا فهو بالصيوان مقيد بيديه ورجليه ثم تعود بأمان وفي اليوم الثاني هز جوان العلم فابتدأ القتال وهجمت الطائفتان على بعضهما البعض وبدأوا يجزون الرؤوس ويبقرون البطون عند ذلك اخذ رومان الف فارس وسار من وراء جيش السلطان ودخل الخيام فقـاوم الحرس والخدم ولكن بدون جدوى ودخل رومان الصيوان فرآه عرنوس فصاح به والله يا ملعون لولا المنية حملتك الى هذه المكان وانا مقيد اليدين والرجلين لقطعت منك الراس والاوصال ثم انه نطق بالشهادتين وتقـدم رومان الى عرنوس وضربه بالسيف على راسه شقه نصفين فمات شهيدا ثم عاد رومان بعسكره الى جيشه وقاتل الى ان انفصلت الجنود وعادت كل طائفة لمكانها فلما رجعت عساكر السلطان الى خيامها راوا هذ الفاجعة فرمى المقدم اسماعيل نفسه على ابن اخيه وبكاه بالدموع وقال المقدم نصير النمر ليت يومي قبل يومك والله كان سببك هذا القصير شيحة امـا السلطان فكان اشد الجميع حزنا ولوعة على عرنوس فبعد ان هملت دموعه على خديه كفكفها ثم وقف بين الجميع وخطب فيهم خطبة بليغة حمسهم فيها على الجهاد وعلى الانتقام للملك عرنوس ثم قال لا احد منكم يأخذ اسيرا بل عليكم بضرب الاعناق لاننا لن ندفن عرنوسا حتى نأخذ بثأره وننتقم من ملوك الاعداء وعساكرهم اشد الانتقام فلما سمعوا خطبة الملك الظاهر هاجوا وماجوا واشتاقوا الى خوض المعارك والفتك بالاعداء ولم يصبروا الى الصباح بل دقوا طبول الحرب وزحفوا على الاعداء وفي اوائلهم السلطان

وبنو اسماعيل والفداوية وكانهم الاسود الضواري وتبعتهم الوزراء والامراء وعساكرهم وصاح الاسطى عثمان هيا يا غلماني ابذلوا جميع قواكم وقاتلوا الاعداء حتى نكسب العز والفخار وفضل الجهاد في سبيل الله ثم انهم كبسوا الاعداء وصاحوا فيهم صيحات ارتجت لهولها السهول والجبال وارعبت الاعداء فما لحقوا يركبون خيولهم الا والسيوف تلعب في اعناقهم والرماح تخرق صدورهم واصوات المجاهدين تهتف بالثارات للملك عرنوس ولله در الملك الظاهر فكان اشد من السبع الكاسر فخاض بجواده الصفوف يقطع الجماجم ويبتر الايدي ودام على ذلك الحال الى ان وصل الى العلم الكبير فضرب حامله بنمشة باديس قسمه نصفين وتقدم الى الملك رومان الازرق وقال له يا ملعون قتلت الملك عرنوسا وتظن انك تنجو ثم ضربه بالدبوس الدمشقي على راسه طبق طاسة الفولاذ على دماغه ثم قبض عليه من عنقه وسلمه لسعد ابي رياح قائلا له احفظه عندك حتى نذبحه على قبر عرنوس فلما علمت الاعداء بأن رومان الازرق اسره السلطان حملوا بكل قواهم واجتهدوا على نا يخلصوه من الاسر فما استطاعوا لان سيف المقدم ابراهيم لعب في رقابهم وقتل اثنين من ملوكهم وأسر واحدا وقد قتل في هذه الحملة ما يزيد عن اربعين الفا من الاعداء وخمسة آلاف من عساكر السلطان الظاهر وقتل من ملوك الافرنج عشرة وأسر اثنان عند ذلك انهزم الباقون من الاعداء وتبعهم الابطال يضربون في اقفيتهم حتى اخلوا منهم الديار وعاد المسلمون منصورين مؤيدين فجمعوا الخيول الشاردة والعدد المبددة والغنائم ثم أمر السلطان ببناء قبر لعرنوس ثم غسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه وذبحوا على قبره رومان الازرق والملك الذي اسره ابراهيم الحوراني اما اسماعيل ابو السباع فانه بعدما فرغ من العزاء ذهب الى قلعته بارة يقيم فيها اما اولاد عرنوس فأقاموا في مدينة الرخام وحلف السلطان انه اذا وقع جوان في يده يقطعه تقطيعا ثم كتب الى جميع الملوك يقول الذي نعلمكم به ان كل من اعتمد على جوان وقربه اليه ليس له عندنا الا قطع راسه وبلغ الخبر الى جوان فخاف من الملوك ان يمسكوه فغير زيه ولبس ملابس المجوس وكهان عباد النار وسار قاصدا بلاد العجم فلما وصل الى مدينة توريز العجم دخل الى معبد النار فقال له الكاهن ما تريد قال له انا مظلوم واسمي جوان وقد اطلعت على جميع الاديان فما رايت احسن من عبادة النار فهي الاله الكبير فعلم بي النصارى فطردوني وكان مرادهم ان يسلموني للمسلمين فيقتلوني لانهم يكرهونني ويقولون جوان منحوس وسبب

ذلك اني قتلت ملكهم عرنوس ولما ضاقت عليّ البراري والقفار دخلت الى بيوت النار واحتميت بها وشكوت لها هذه الاضرار وها اني اعلمتك الخبر اليقين فأسألك بحق النار والنور ان تساعدني وتقدمني للملك هلاوون فقال، له ان كنت دخلت في حماية النار فاني اساعدك بما تريد فقال جوان وحق النار ومن اوقدها وسجد لها وعبدها انني تابع لها ولا يمنعني عنها مانع فقال له قم الان معي لاجمعك بالملك هلاوون بن منكتم ملك العجم لعله ينجدك فسار معه الى ان دخلا على الملك هلاوون فقام واستقبل الكاهن وسلم عليه فأخبره عن جوان انه اتبع عبادة النار واحبها فقال له هلاوون ما سبب مجيئك الى هذه البلاد وما قصدك فقال جوان وحق النار لا اتخلى عنك حتى املكك بلاد العرب والروم اذا كنت تغزوهم فالتفت هلاوون الى وزيره رشيد الدولة وقال له ما رايك في هذا الشأن فقال له اني لا ارى سببا لحرب ملك لم يعتد علينا ولم يحصل لنا منه اي ضرر فالصواب ان تطرد جوانا لانه سبب الفتن والحروب فتركه هلاوون والتفت الى وزيره ثقلون الزمان وقال له وانت ما رايك فقال له اقبل نصيحة جوان حتى تملك البلاد وتطيع لك العباد من عجم وعرب وروم وترك وديلم فعندها أمر الملك ارباب معابد النيران ان يضعوا جوانا في معبد النار ويروه هل يعبدها حقا فأخذوا جوانا معهم وادخلوه الى بيوت النار فطاف حولها سبع مرات وسجد لها وصار يتلو عليها من آيات المجوس بصوت رخيم تشتاق سماعه النفوس فأذهل بعبادته خدام المعبد فقالوا للملك هلاوون ما راينا اعبد للنار منه لانه يعبدها حق عبادتها فاطمأن هلاوون وأكرم جوانا ورفع قدره وقال سأجمع لك جيشا من العساكر بمائة الف جندي بخيلها وعددها وما تحتاج اليه من اسلحة وذخائر لعلي ابلغ الارب واقتل ملك العرب ثم ارسل المكاتيب لجميع البلدان التي يحكمها ان يتجهزوا للقتال فقدمت اليه العساكر والجنود حتى صار عنده مائة الف مقاتل وبرز بالخيام والسرادقات والاعلام واندقت طبول الرحيل وساروا يقطعون القفار حتى قربوا من حلب فلما راى نائب حلب هذه الجيوش والعساكر قفل الابواب وركب المنجنيقات على الاسوار وجاءته الاخبار ان هذا جيش التتر والمغول والملك عليهم هلاوون وهم مجـــوس يعبدون النار فحالا كتب كتاب وارسله الى مصر يعلم السلطان فلمـــا وصل النجاب ودخل الى الديوان واعطى الكتاب للملك الظاهر قائلا هذا الكتاب من حلب الشهباء من النائب عماد الدين ابو الخيش فلما فتحه قرأ فيه الذي نعلمكم به يا مولانا السلطان انه يوم تاريخه راينا عسكرا جرارا آتيا من جهة العجم بنحو مائة الف فارس وملكهم هلاوون بن منكتـــم

وصحبته جوان عابد النار فلما راينا تلك العساكر عباد النار اغلقنا الابواب واقمنا الحصار واعلمناكم بذلك فادركنا يا امير المؤمنين قبل ان يحتلوا بلادنا والسلام عليكم فحالا امر السلطان بتجهيز العساكر ثم أقسم بالله انه اذا قبض على جوان لا بد ان يقطعه تقطيعا ولا يقبل به شفاعة احد وان وقع هلاوون في يدي لانشره بالمنشار كما ينشر الخشب بعد ذلك سار جيش السلطان قاصدا مدينة حلب اما جوان فقال لهلاوون أرسل كتاب الى نائب حلب ان يسلمنا المدينة والا نهاجمه ونحتلها بالقوة فكتب كتاب الى نائب حلب وارسله مع نجاب فأخذوا منه الكتاب واوصلوه الى النائب وقالوا ان النجاب منتظر الجواب تحت الاسوار فقرأ الكتاب يجد فيه من الملك هلاوون حامي عبادة النار الى نائب حلب حين اطلاعك على كتابي هذا تفتح ابواب البلد وتأتي لي طائعا مختارا فأجعلك نائبي على حلب كما كنت نائب السلطان واعلن بين الرعية الامان والسلام فالحذر الحذر من المخالفة والعصيان فبعدما قرا نائب حلب الكتاب كتب له الجواب يقول فيه من نائب امير المؤمنين الملك الظاهر الى هلاوون المغرور اعلم انك اذا عملت بآراء جوان فان عاقبتك تكون وخيمة جدا وستعود جميع الاضرار على عساكرك وبعدها على خراب بلادك اما ان نفتح لك حلب فهذا بعيد عنك بعد الارض عن السماء فان اسوار حلب منيعة والمؤن فيها كثيرة ومياهها غزيرة ورجالها موصوفين بالشجاعة والبطولة فارجع الى بلادك ولا ترم برجالك في حرب لا طاقة لكم بها وقد أعذر من انذر فلما قرأ هلاوون الكتاب اعلم جوانا بما فيه فقال جوان هاجمه بالحال ودع عساكرك تعتلي الاسوار وتنصب المنجنيقات فأمر هلاوون ان يحاصروا حلب ويهجموا على الاسوار ويحتلوها نبدأ الهجوم وضرب النبال والمنجنيقات تضرب الاحجار على الابراج وكان حماة الاسوار والابراج على استعداد فقابلوهم بالمثل واهلكوا منهم خلقا كثيرا لانهم يضربون من الاعلى فيصيبون الهدف تماما اما نائب حلب فنفر الرعية لتساعد العساكر والجنود في الدفاع عن الاسوار فنفرت الاهالي وصارت تضرب الاعداء من على الاسوار والابراج مما أجبر الاعداء على تخفيف هجومهم وتراجعهم الى الوراء ودام هذا الحال مدة عشرة ايام اما جوان فأرسل جواسيس يراقبون له طريق الشام حتى اذا راوا جيش السلطان قادم الى حلب أخبروه وظل جوان ينتظر الجواسيس حتى عادوا واخبروه ان جيش السلطان وصل قريبا من حلب وانه على وشك ان يحط الرحال فقال لهلاوون هذه فرصة يجب على عباد النار ان ينتهزوها

وان الحرب خدعة وفرص لاسيما اذا كان العدو غافلا ومنهوك القوى من مشقة الاسفار وقد وصل جيش السلطان الان وهو تعبان والعساكر التهت بشؤونها ففاجأهم بهذه الحملة تنجح بدحرهم وتشتيتهم اما جيش السلطان لما وصل انزل الاحمال والاثقال وحولت الفرسان عن الخيول وارخت لها الاحزمة ونزعت لجاماتها ووضعوا لها العليق ولا احد حاسب حساب لغدرات الزمان وكان جوان يراقبهم فلما رآهم على هذه الحالة هز العلم وصاح بجيش هلاوون يقول النار وشرارها ودخانها تأمركم بالحملة على الاعداء وان تأخرتم تغضب عليكم فما رات عساكر المسلمين الا والاعداء عباد النار هاجمين عليهم من جميع الجهات فكانت مفاجأة محزنة للسلطان الذي صاح بعساكره اعتلوا خيولكم ايها الابطال وجاهدوا في سبيل الله فما لحقت الفرسان تركب خيولها الا ونزل عليها الطعن والضرب مثل زخ المطر ولم يكن باستطاعتهم الثبات فولوا الادبار وتشتتوا في البراري والقفار مسيرة يومين وصار السلطان يأمرهم بالوقوف وجمع الشمل وذلك قريبا من معرة النعمان فلما اجتمعوا نظر اليهم السلطان فراى مفقودا منهم كثيرا من العساكر والجنود والخيل والمؤن والخيام فتأسف السلطان ثم قال الحرب سجال يوم لك ويوم عليك وحالا ارسل الى جميع البلدان التي يحكمها ان يمدوه بالعساكر والمؤن والخيام وارسل الى ابنه السعيد بمصر ان يضع اخاه شلامش على عرش مصر ويجيش عساكر الاحتياط ويأتي بهم بالعجل ثم بعث المكاتيب الى شيوخ العربان في بادية الشام والجزيرة وشط الفرات بأن يغزوا الاعداء عباد النار ولا يدعوهم يستقرون وارسل مكتوب الى نائب حلب عماد الدين بالثبات في الدفاع عن مدينة حلب وان الفرج قريب ثم ذهب الملك الى الشام وطلب فتوى من العلماء بالنفير العام وجمع الاموال من الناس لتقوية المجاهدين في سبيل الله والدفاع عن الاوطان فوافقوا على طلبه واعطوه الفتوى .

قال الراوي : اما هلاوون بعدما كسر جيش الملك قال له جوان احمل على حلب حملات صادقة ودك أسوارها واستول عليها بالقوة فأمر هلاوون بالهجوم على حلب من جميع الجهات ومقاتلة رجالها على الاسوار ففعل الجيش فقابلتهم ابطال حلب بالمثل ودام هذا الحال مدة عشرة ايام واذ بجيش الملك الظاهر مقبل وهو على اتم استعداد وصدم الاعداء حتى أبعدهم عن حلب ثم ان الملك اتى بشيوخ العربان من سائر الجهات وعمل مجلسا حربيا وقال علينا ان نمكر بالاعداء كما مكروا بنا وغدرونا والحرب خدعة فأمر كل واحد من الامراء ان يقوم بتنفيذ ما يتوجب عليه اتم قيام وعين

الزمان والمكان وقال انها الموقعة الفاصلة بيننا وبين التتر عباد النار الى يوم من الايام وقد اجتمعت العربان والعشائر وتم كل شيء حسب ترتيب الملك ثم أمر العساكر ان تنقسم الى قسمين الاول يختفي عن الانظار والقسم الثاني تنزل منه الفرسان وتطلب المبارزة وبعد ساعة من الزمان يتقاتل مع الاعداء ثم يولي الادبار الى ان تصير الاعداء وسطا بين الجيشين ثم يرجع القسم الثاني ويكر على الاعداء ويفتك بهم بضربات قاطعات والقسم الاول عندما يرى عباد النار هاجمين على جيش المسلمين يهجمون عليهم من الخلف ثم أمر العربان ان تنقسم الى قسمين قسم يهجم على خيام الاعداء بضربات قاطعات وقسم يتلقى الهاربين من الاعداء ويفتك بهم بالبتار وعند الصباح فرق العساكر حسب الخطة المرسومة فدقت طبول الحرب وبرز فارس من جيش السلطان فبرز له فارس من الاعداء فتقاتلا الى ان غلب فارس المسلمين فأرداه قتيلا ونزل اليه فارس اخر فقتله ولم يزل يقتل فارسا بعد فارس حتى قتل عشرة فرسان عند ذلك انحمق هلاوون وأمر بالهجوم فهجم الاعداء وتقاتل الفريقان اما جيش السلطان فأظهر الضعف ثم ولى هاربا فلحقهم جيش التتر عباد النار ظانين انهم يكسرون جيش السلطان كالمرة السابقة فلم يشعروا الا وعساكر المسلمين فاجأتهم من الخلف تضرب في اقفيتهم وتطعنهم بالرماح فأداروا رؤوس الخيل ليقاتلوهم فارتدت عليهم العساكر المنهزمة مثل الاسود يحزون منهم الرقاب حتى ضاق على الاعداء المجال ورفرف عليهم طير المنايا وحام وتنكست أعلامهم وغنى الحسام الصمصام وتكومت القتلى من الاعداء اكواما اكواما ولله در الملك الظاهر فانه استظهر على عباد النار بضرب البتار وكذلك ابطال المسلمين بذلوا نفوسهم في الجهاد ودام الحرب على ذلك الحال الى ان مالت الشمس للنزول وكان الملك هلاوون وجوان منتظرين نتيجة هذه المعركة واذ بصيحة العربان منهم على خيول عربية ومنهم هجانة هاجمين على خيام الاعداء فما ابقوا على احد في طريقهم من عباد النار فلما رأى جوان هذه الاحوال ثبت عنده انها خدعة حربية فتوارى عن العيان وانسل مثل الشيطان ، اما العربان فقتلوا حراس هلاوون واخذوه اسيرا وقيدوه في قيد جمار وتابعوا المسير الى جهة السلطان وساعدوه على الاعداء وكانت وقعة عظيمة انتصر فيها المسلمون وهلك عباد النار الاشرار عندها صاح الباقون منهم الامان، الامان ، ورموا اسلحتهم فأسروهم وقيدوهم وربطوهم بالحبال اما السلطان فذهب الى الخيام وصار يستقبل الامراء وابطال جيشه واذ

بشيوخ العربان مقبلين بالاهازيج على ظهور الخيل وعلى الجمال يقولـون لعينيك يا سلطان وسائقين قدامهم الملك هلاوون ووزراءه واعيانه مثل الكلاب فاستقبل الملك العربان وحياهم وحيا مروءتهم ونخوتهم وشهامتهم وقال بارك الله فيكم يا سباع البر ، ثم استلم منهم هلاوون وامر ان يربطوا رجليه بخشبتين ثم قال انشروه فنشروه من مقعده الى راسه وقدموا له الوزير رشيد وكان مسلما ، قال له الملك عرفنا انك انت مسلم فكيف تساعـــد هلاوون عابد النار على المسلمين الابرار ، قال كلا يا مولاي اني لم اساعده ابدا وكنت أنصحه ان لا يحاربك فما سمع مني واتبع مشورة الوزيـــر ثقلون الزمان الذي قال له اتبع نصيحة جوان فتملك البلاد وتطيعك العباذ من عجم وعرب وروم فقال السلطان هاتوا الوزير ثقلون فقدموه اليه فقال له لاي شيء حرضت هلاوون على غزو بلادنا ، قال يا مولاي هذا جوان الذي دخل في ديننا وخرض هلاوون وحبذ له هذه الحملة فقال السلطان امـــا استشارك هلاوون بهذا الامر ، قال نعم يا مولاي استشارني فقال له : واشرت عليه ان يحاربنا ويغزو بلادنا ويقتل رجالنا فسكت ثقلون فقـال السلطان أعدموه كما أعدمتم هلاوون فنشروه بالحال ، ثم سأل بقيـــة الوزراء والامراء فقالوا يا مولانا السلطان نحن فوجئنا بهذه الحملة ولـم يستشرنا هلاوون في هذا الامر لاننا مسيرون كما يريد ، فما ذنبنا ايهـا الملك ، فقال قيدوهم ، ثم ان السلطان أطلق الوزير رشيد الدولة واثنين من الامراء واعطاهم كتابا من يده الى اولاد هلاوون وامرهم بالعودة الى بلادهم وقد جاء في الكتاب أرسلوا لنا عشر خزنات من المال غرامة حربية وعشر خزنات مال ثمن أرواح الاسرى من الوزراء والامراء والعساكر الذين هم في حوزتنا والمهلة لكم في ذلك ثلاثة اشهر والا فنذبح الجميع ونركب على بلادكم ونطردكم منها ونريح العباد من جوركم وظلمكم ، ثم ان السلطان امر بتوزيع الاسلاب والغنائم واعطى شيوخ العربان وجيوشهم ما أرضاهم من خيول وخيام ومؤن وسلاح فركبوا وتوجهوا الى اراضيهم واقـــام السلطان في حلب مدة اسبوعين وصار يمر على البلاد ويعوض على الناس ما اخذه منهم ولما وصل الى الشام فرح الناس به واستقبلوه بالاهازيـج والعراضات وهم يدعون له بالنصر فشكرهم على ذلك وابطل الضريبة التي طلبها منهم واطلق من في الحبوس ، ثم توجه الى مصر بجيشه وساقوا الاسارى أمامهم ويقدرون بثلاثين الف اسير مقيدين في الاغلال فلمـــا وصلوا الى مصر انعقدت المواكب وقامت الاحتفالات لاستقبال الملك الظاهر المنتصر الى ان طلع الى قلعة الجبل وجلس على عرش مصر مؤيدا منصورا

واطلق من في الحبوس واقام يتعاطى الاحكام وفي قلبه لهيب النار على اللعون جوان وسأل عن جمال الدين شيحة فاعلموه انه ذهب يفتش عن جوان وحلف ان لا يعود الا به ليقطعه امام حضرة السلطان .

قال الراوي : اما جمال الدين فانه سار الى يغره بلد جوان وصار يدور عليه فلم يجتمع به وبينما السلطان جالس في يوم من الايام واذ بنجاب يدخل الديوان وهو يقول سبحان هادي الطير ، قال الملك وراحم الشيب وساتر العيب من اين ، قال من حلب الشهباء واخرج الكتاب وسلمه للسلطان ففضه وقرأ فيه من نائب حلب عماد الدين ابي الخيش الى مولانا امير المؤمنين السلطان الظاهر الذي نعلمكم به انه ورد علينا يوم تاريخه وزير من بلاد العجم مع خمسمائة فارس ومعهم مائة بغل محملة بالاموال والهدايا ليقدمها الى السلطان وهي المطلوبة من ابرهة ابن هلاوون فاقمناهم في دار الضيافة واعلمناكم بذلك والامر امركم والسلام عليكم فلما قراه الملك قال لأيدمر البهلوان خذ معك الف فارس وتوجه الى حلب وائتنا بهذا الوزير وزمرته واينما حل يكون بضيافة السلطان هو وجماعته فركب الامير ايدمر وسار الى حلب فلما وصل دخل على النائب واعلمه بأمر السلطان وانه سيرافق الوزير الى مصر ليحافظ عليه وعلى المال فجمعه بوزير ابرهة وسلم عليه وبعد ثلاثة ايام حملوا المال وركبوا وساروا الى مصر وطلع الامير ايدمر الى الديوان واعلم السلطان بمجيء وزير الملك ابرهة فأذن له الملك بالدخول فدخل وسلم ودعا للملك بدوام العز والنعم فاستقبله السلطان بالبشاشة فأخرج الوزير كتاب الملك ابرهة واعطاه الى السلطان فقراه السلطان واذ فيه باسم النار والنور الذي نعلمكم به يا مولانا السلطان اننا تأسفنا على هذه الحملة التي كان سببها جوان وجرى ذلك على غير ارادتنا والان قد ارسلنا لكم عشرين خزنة من المال مع وزيرنا حسب طلبكم وارسلنا لكم بعض الهدايا الامل قبولها وفي الختام تقبّلوا منا فائق الاحترام فأمر السلطان وكيل الخزنة ان يستلم المال والهدايا وامر باطلاق سراح جميع الاسرى وتجهيزهم بالمؤن والملابس والركوب ثم سلم الاسرى لوزير ابرهة واذن لهم بالرحيل صحبة الوزير وارسل معهم الفي فارس للمحافظة عليهم حتى يخرجوا من الحدود بأمان فتودع الوزير من السلطان ومن الوزراء والاعيان وسار الى بلاده ومعه الاسرى .

قال الراوي : اما شيحة جمال الدين فظل يفتش على جوان مدة طويلة في جميع البلاد بالكنائس والمعابد فما كان يجد له اثرا الى يوم من الايام

كان شيحة مرتديا ملابس امراة عجوز محنية الظهر وعلى راسها حرام صوف وبيدها عكاز فدخل شيحة بهذه الهيئة الى كنيسة فـــراى البرتقش بين الناس فصار يراقبه الى ان خرج من الكنيسة فتبعه شيحة وسمـــع البرتقش صوت امراة تناديه يا سيف الروم فالتفت فراى العجوز فقال لها ما تريدين يا خالة فقالت له من انا يا برتقش لعلك نسيتني فدهش البرتقش وقال عرفتك انت جمال الدين شيحة فما هي مهمتك الان فقال شيحة ان السلطان ناقم على جوان فكم أصلى من حروب وسبب من فتن وازهق من ارواح قد تعهدت للملك الظاهر ان أجيء له بجوان وصار لي ستة اشهر أفتش عنه انا وأولادي فما رايناه ولا سمعنا عنه اي خبر فدلني عليه والا وحق الاله لا ادعك تسلم مني ومن اولادي الذين يراقبوننا عن كثب فقل لي اين جوان وعليك الامان فقال البرتقش ان جوانا موجود بالكنيسة بمكان لا يراه فيه احد فاتبعني لأدلك على مكانه فتبعه الى ان دخلا الى الكنيســـة فأشار له على باب قصير مصفح بالنحاس فصبر شيحة الى الليل وغـير هيئة العجوز واتى الى الباب فعالجه فانفتح ودخل فأخرج شمعة وشعلها ومشى في دهليز طويل فراى بابا فعالجه بعدة العياقة وفتحه ودخل فوجد اربعة لواوين وفي العالي قبة مبنية لها اربع شبابيك وراى ضوءا ينبعث من احد اللواوين فنظر الى داخله فراى جوانا جالسا على سرير مطعم بالعاج وأمامه فتاة مثل البدر في تمامه وهي تملأ الكأس وتقدمها لـــه وسمعه يقول لها وهل لهذا القصير شيحة ان يعرف مكاني وراى شيحة كتابة باللغة اليونانية فقرأها فاذا هي تقول يا واصل الى هذا المكان اذا كنت شيحة ومطلوبك جوان فاضرب هذا الشباك بسلاحك فانه مرصود لـك فتدخل وتأخذ خصمك فضرب شيحة الشباك بسلاحه فانكسر الشبـــاك وهجم شيحة على جوان وهو يقول واين تهرب مني وانا وراءك في الطلب فقفز جوان من مكانه واختفى فنظر شيحة الى الفتاة فرآها من خشب مدهون ففتش على جوان فلم يجده وراى غرفة مبلطة ببلاط اسود وابيض فعرف شيحة ان منها مهلك ومنها سليم فصار يفحص البلاط ويجســـه فعرف ان الابيض مهلك فصار يدوس على البلاط الاسود فراى لوحا معلقا على الجدار فأزاحه فراى بابا فدخل منه فوجد ثعبانا فاتحا فمه ومنعه من الوصول الى جوان الذي صار يستهزىء بشيحة فضرب جمال الديـــن الثعبان بسلاحه قطعه نصفين فاذا هو من خشب وكرتون ودخل ليقبض على جوان فلم يجده فصار ينظر في الجدران فراى زرا فحركه فانفتـــح الباب فدخل شيحة الى قاعة كبيرة وجد جوانا جالسا على سرير وهو يغني

كانه لا يهمه شيء فقال له شيحة واخيرا لا ادعك تفلت مني فقال له الحقني وقفز من على السرير واختفى فقد بلعته الارض فتحير شيحة من هـذه الاسرار وسمع صوتا يقول افتح الطاقة التي تحت قدميك فجلس شيحة وصار يجس الارض فرأى حلقة صغيرة فجذبها فتحرك لوح من رخام فرفعه فوجد قاعة ولم يجد جوانا ولكنه سمع الرصد يقول اهلا وسهلا بجمال الدين شيحة اذا كنت تريد تأخذ عدوك جوانا فانا نسلمك اياه على شرط ان لا تقتله هنا الا امام السلطان الظاهر فقال شيحة كما تريدون ثم ان الرصد قال لاعوانه احضروا جوانا فأحضروه وهو مغلول بجنزير وسلموه الى شيحة وفتحوا له الابواب التي دخل منها فطلع الى الكنيسة فبنجه شيحة واخرجه من الكنيسة واخفاه في مكان وكان الوقت ليلا ثم ذهب واعلم اولاده ان جوانا في قبضته فنهض محمد السابق واخوه طويرد واحضر شيحـه صندوقا وبغلا فوضعوا امتعتهم في صندوق ووضعوا جوانا في صندوق له شقوق من أسفله وجوانبه لدخول الهواء اليه وحملوا الصندوقين على بغل وساروا طالبين الاوطان وكانوا يخرجون جوانا في الليل يصحـوه ويطعموه الى ان وصلوا الى مصر وانزلوا جوانا في السرايا وصحوه وهو مقيد ثم ذهب شيحة الى الديوان واعلم السلطان بالقبض على جوان وحكى له ما جرى معه حتى استطاع القبض عليه فقال السلطان بارك الله بك يا سلطان الرجال أحضر لنا جوانا بالحال فذهب شيحة واحضر جوانا مخفورا بين اولاد شيحة وقدموه الى السلطان فقال له وقعت الان فكيف ترى نفسك قال انا مرتاح وضميري مرتاح فقال له السلطان اما تعرف مصيرك والمنية تدنو منك وستنال جزاءك بما اقترفت من الجرائم وازهاق الارواح بسبب اعمالك الخبيثة فقال جوان ان مصيري كمصير اي انسان في هذه الحياة وهو الموت فلا يهمني كيف اموت تنوعت الاسباب والموت واحد ، اما اعمالي فان كانت خبيثة عندكم فهي حسنة عندي لاني قمت بما يمليه علي الواجب وقد انتقمت من اعدائي قبل ان يظفروا بي فقال له الملك غدا اخر ايامك وسوف ترى ثم امر ان يضعوه في السجن ويثقلوا عليه القيـود والاغلال وثاني يوم نزل الملك والوزراء والامراء والمقدمون واعيان الدولة من الديوان الى ساحة القلعة واصطفت العساكر والجنود وسمحوا للاهالي بالفرجة على تقطيع جوان فجاء الناس أفواجا أفواجا وامتلأت الساحة واذ بشيحة مقبل بجوان ورفعه على منصة عالية ليراه جميع الناس وقد احضر شيحة سكينا وموقدا من جمر الفحم ووعاء فيه زيت افرغه في المقلايـة

(الطواية) ووضعها على النار ثم شبح جوانا من يديه ورجليه وبدأ يقطع اصابعه ويضع محل القطع الزيت المغلي حتى لا يصفي دمه ثم قطع كفيه وقدميه وهو يصيح ويستجير فيقول له حتى تتذكر ما فعلت بالناس من الجرائم التي لا تعد ولا تحصى ثم قطع كل اطرافه ولم يبق الا راسه وجسده فقال السلطان لشيحة اقض عليه بالمرة وكفاه ما نال من العقاب فأوقد شيحة النار ورماه فيها فاحترق وصار رمادا .

قال الراوي : ان الملك فرنسيس صاحب مدينة سيس تأثر جدا على قتل جوانا وتقطيعه فأرسل كتاب الى ابرهة ملك توريز قال له فيه ان الملك الظاهر قتل اباك هلاوون اما خطر في بالك ان تأخذ بثار ابيك منه وقد ملكت بلاد العجم فتعال عندي ونتفق انا وانت مع ملوك السواحل ونكون يدا واحدة حتى نهلك السلطان الظاهر فلما قرا ابرهة الكتاب سافر الى مدينة سيس ودخل على فرنسيس واتفقا على حرب السلطان بخطط معينة وعاد ابرهة الى بلده وصار يرسل من عنده رجالا بصفة تجار يسافرون الى حلب ثم يستوطنون فيها حتى اجتمع في حلب مقدار خمسة آلاف عايق ثم عمل ابرهة مائتي صندوق بطبقتين يضع بالطبقة السفلى فدائيا مدربا وفي الطبقة العليا اموالا وهدايا وبضائع وحمل الصناديق على جمال على انها خزنة مال للسلطان وجاء بها ابرهة بالذات متخفيا على هيئة نجاب فلما وصل الى حلب دخل على عماد الدين ابي الخيش وقال له هذه اموال الملك الظاهر فأودعها عندك فصدقه النائب وادخل الصناديق الى القلعة ولما سنحت له الفرصة اخرج الرجال من الصناديق وغدرت بعساكر القلعة تضربهم بالسيوف والحراب ودخل الخمسة آلاف عايق المقيمين في حلب الى القلعة وملكوها وقد هلك كثير من الاهالي وقد اقبل فرنسيس ملك سيس بعساكره في ذلك اليوم الذي ملك ابرهة فيه القلعة فهجم فرنسيس على حلب فهرب من عساكرها من هرب وملك ابرهة البلد وقبض على عماد الدين ابي الخيش وقعد ابرهة على كرسي حلب ، اما المقدم سليمان الجاموس فبلغه خبر ان عباد النار التتر استولوا على حلب فركب واتى الى حلب ، اما ابرهة فقد احضر نائب حلب وامر بضرب عنقه فتقدم سليمان الجاموس وضرب السياف قطع راسه فصاح ابرهة برجاله دونكم واياه فقاتل المقدم سليمان حتى قتل واستشهد هو والنائب رحمهما الله تعالى فلما ملك ابرهة حلب ارسل يطلب العساكر من توريز حتى يزحف بها الى دمشق فيملكها ولا يرجع حتى يهلك ملك العرب وعساكره وكان لابرهة ولد اسمه شرجيل قال لابيه لا تظلم يا ابي وابق موضعا للصلح فقال له واي

صلح بعد قتل والدي الملك هلاوون .

قال الراوي : قد وردت العساكر من توريز فسار بها ابرهة واستولى على حماه وحمص واخذ فرنسيس سرمين والمعرة وتوغلوا في بلاد الاسلام الى ان احتلوا مدينة دمشق ، اما الملك الظاهر فدخل عليه رجلان يصيحان النجدة النجدة يا ملك الاسلام فقال السلطان ما الخبر فقالا نحن من اتباع نائب الشام اقش النجبي والذي نعلمكم به ان ابرهة بن هلاوون ملك حلب وقتل نائبها عماد الداين والمقدم سليمان الجاموس واخذ حماه وحمص واهلك خلقا كثيرا من المسلمين فلما سمع السلطان هذا الخبر صاح الويل لابرهة سأنشره كما نشرت اباه من قبله ثم برز بالعساكر وسار بها الى ارض الشام فلما وصل الى ضواحي الشام والبلاد التي حولها راى الاهالي يتقاتلون مع التتر عباد النار فقال السلطان لبني اسماعيل كل مقدم منكم يأتي برجاله من ناحية وانا والامراء نصدم القلب فتقدم الامير قرغول الى السلطان وقال ائذن لي يا مولاي ان اسير بعسكري لافتح مدينة حلب قال له اذهب نصرك الله على الاعداء فألبس عساكره ملابس عباد النار وسار الى حلب ورفع فوقه علم عباد النار فلما وصل الى حلب دق الطبول اشارة انه عائد منصور وكان في حلب مقدار اربعة آلاف من الاعداء والمقدم عليهم اسمه عبد لهب فلما رأى قرغول ظنه ابرهة عاد منصورا فتقدم ليسلم عليه فضربه بالسيف اطاح رأسه وأمر عسكره بدخول حلب وكانوا فاتحين الباب لاستقبال ابرهة على زعمهم ووضعوا السيوف في اعناق عباد النار وساعدتهم اهالي البلد وكان فرنسيس مقيما في حلب ومعه مقدار الفين فأهلكوهم جميعا ، اما فرنسيس فاختفى عند احد الناس ، اما الملك الظاهر لما وصل الى دمشق رأى القتال قائما على قدم وساق حالا ضرب الاعداء عباد النار وضربت رجاله بالسيف البتار وطعنوا الخصم بالرماح والنبال فلما رأى ابرهة جيش السلطان متفوقا على جيشه قال لرجاله مالكم تأخرتم عن القتال اهجموا معي لتنصركم النار وهجم امامهم لجهة السلطان فتلقاه فداوي بضربة بالدوس بين اكتافه رماه عن الجواد ثم كتفه وقدمه الى السلطان عند ذلك تضعضعت عساكر ابرهة فهجمت عليهم جنود السلطان والاهالي وذبحوهم ذبح الاغنام وما ابقوا منهم احدا ودخل الملك الظاهر الشام ثم سار الى حلب وفي طريقه خلص حمص وحماه وباقي البلاد من الاعداء الى ان وصل الى حلب فاستقبله الامير قرغول وبشره بتخليص حلب من التتر عباد النار فأنعم عليه واثنى على شجاعته وبطولته

ثم جعله نائبا في حلب ثم نادى المنادي بأمر من السلطان ان من يكون عنده فرنسيس ملك سيس ولم يخبر السلطان عنه فدمه مهدور فقال الرجل الذي هو عنده لفرنسيس قم لاسلمك للسلطان لعله يعفو عنك مقابل جزية مال تدفعها له لاني لا استطيع ان اخفيك عندي فيهدر دمي السلطان فقام معه ودخل به على السلطان وقال هذا فرنسيس شريك ابرهة يا مولاي وهو الذي قتل المقدم سليمان الجاموس وكان فهد بن المقدم سليمان واقفا فضرب فرنسيس بالسيف فقتله فقال له السلطان احسنت فقد انتقمت لابيك بارك الله فيك ثم قال هاتوا ابرهة بن هلاوون فأحضروه ومعه مائتا اسير فأمر السلطان بصلبهم على أسوار حلب ثم امر بربط ابرهة من يديه ورجليه بالاخشاب وبنشره من مقعده الى شعر راسه ففعلوا كما امرهم السلطان ، اما شرجيل بن ابرهة فقال للسلطان أنا يا مولاي ليس لي ذنب وقد لمت والدي على هذه الاعمال فما قبل مني واني جئت معه مكرها فأرجو العفو عني اكراما للوزير شاهين وانا استجير بك وبه وان حصل مني ادنى خلل فيكون جزائي مثل جزاء والدي فانحنى الوزير شاهين امام السلطان وتشفع في شرجيل فقبل السلطان شفاعته واطلقه من القيود بعدما فرض عليه المال والغرامات فتعهد شرجيل انه حين وصوله الى بلاده يرسل المال حالا فقبل منه السلطان واوصلوه الى بلده بأمان اما الملك بعدما استقرت البلاد واطمأنت رجع الى مصر وطلع للديوان وقعد على عرش مصر وصار يتعاطى الاحكام.

قال الراوي : ومن اعجب ما وقع ان أسفوط بن جوان اخذ البرتقش وصار يدور على ملوك الافرنج ويحضهم وينخيهم على اخذ ثأر ابيه جوان من السلطان وشيحة الذي قطعه وكان يقول لهم تسمعون بقتل جـوان وتقطيعه ولا تحركون ساكنا فهذا عار عليكم ان تسكتوا على هذه الاهانة فسمع له ثلاثة ملوك كبار وقالوا سنركب على السلطان بالحال ونملك بلاده واتفقوا على ان الاول يغزو الاسكندرية والثاني يغزو دمياط والثالث يغزو انطاكية فأول من ركب ملك جنوا ومعه خمسة ملوك وسار بهم الـــى الاسكندرية والثاني الملك قريطش ملك كريد ومعه خمسة ملوك وسار بهم الى دمياط والثالث ملك الافلاق ومعه اربعة ملوك وقصدوا انطاكية وكانت العساكر التي قصدت انطاكية ثمانين الفا ملكوا انطاكية وزحفوا منها الى حلب فلما علم نائب حلب بذلك اقفل الابواب واقام الحصار وكتب كتابـا للسلطان ارسله مع نجاب فلما دخل على الملك سلمهالكتاب ففتحه وقراه واذ بنجاب اخر معه كتاب من دمياط فقرأ فيه مولانا السلطان الذي نعلمكم به ان ستة ملوك من الافرنج ومعهم ستون الفا من العساكر احتاطـــوا

بدمياط وملكوا البر والبحر ادركنا يا امير المؤمنين فما انتهى السلطان من قراءة الكتاب الثاني الا ونجاب يصيح سبحان هادي الطير وتقدم الى السلطان وناوله كتابا من الاسكندرية واذ فيه انجدنا يا ملك الاسلام فقد احتاطت بنا ستة ملوك من الافرنج واحتلوا الميناء ونحن في اشد الضيق فأدركنا يا امير المؤمنين فقال الملك لأيدمر خذ خمسين الفا من العساكر ومستشارك اخوك بكتمر وتكون وجهتكم الاسكندرية ادفعوا عنها الاعداء ثم قال لابنه السعيد والامير قلاوون واحمد بن أيبك خذوا اربعين الفا من العساكر واذهبوا الى انطاكية وهذا امر سلطاني اعلموا بما فيه نائب الشام ونائب حلب بأن يعلنا النفير العام ويجندا كل من يقدر ان يركب الخيل يضرب بالسيف وادفعوا الاعداء عن البلاد ثم ارسل كتابا للفداوية بني اسماعيل أمرهم ان يسيروا الى انطاكية ويجتمعوا بالملك محمد السعيد ويجلوا عنها الاعداء ثم سار السلطان بجيشه الى دمياط وجد الاعدا ناصبين خيامهم فنصب خيامه واذ بأحد الفلاحين يطلب الاذن بمواجهة الملك فأذن له ودخل وسلم عليه ودعا له بالنصر والظفر ثم قال انا نريد ان نشترك معكم في الجهاد في سبيل الله وقد خطرت لي فكرة تساعد عساكر المسلمين على هلاك عدوهم والنصر عليه فقال السلطان وما هي هذه الفكرة قال يا مولاي انا عمدة في هذه الديار ولي خبرة في ميناء النيل فاذا امر السلطان ان نحصر المياه في هذه الناحية ثم نفتحها على الاعداء فتغرقهم وهذا الامر يحتاج الى ثلاثة ايام فأشغل العدو بالمبارزة في هذه المدة لنقوم بهذا الامر فقال له الملك وهل تريد مساعدة قال ترسل معي يا مولاي بعض الجنود لنجمع الفلاحين والعمال لاجل سد المحلات التي تتسرب منها المياه من الترعة ونحفر المحلات المرتفعة لتجري المياه بسرعة وتغرق جيش العدو بأكمله فأرسل معه السلطان بعض الجنود وقال للعمدة قم بما يمليه عليك الواجب ويرضي رب العالمين وها انا سوف أطاول الاعداء حتى تنهي اعمالك اما الاعداء عندما اصبح الصباح اصطفوا ثم برز الملك قريطش الى الميدان فبرز اليه عز الدين امير الاكراد وتقاتل معه ساعة من الزمان فضربه قريطش بنبلة اصابت فخذه فأدركته الاكراد واخذوه من الميدان واراد السلطان ان ينزل لقريطش فحلف ابراهيم الحوراني قائلا وحياة راسك يا مولاي لا ينزل اليه غيري ثم انحدر الى الميدان وصدم قريطش صدمة جبار وقال له دونك والقتال يا قرنان وتقاتل معه ساعة من الزمان فأتعبه وضايقه ولاصقه وسد عليه طرقه وطرايقه وطبق في خناقه وقاده اسيرا

وسلمه لغلمانه ورجع للميدان فنزل اليه احد الفرسان وهو غاطس في الحديد فتحسب له ابراهيم الا انه صار يطاوله في القتال الى ان استحكم منه فضربه بذي الحيات ازاح راسه عن جثته ونزل اليه فارس اخر فالحقه برفيقه فأرسل الملك يقول لابراهيم تمهل ولا تستعجل بالقتل فعمل ابراهيم بما اشار السلطان وفي المساء قال ابراهيم لاي شيء يا مولاي نطاول الاعداء فحكى له عن قضية المياه وان العمدة سيجمع الفلاحين ويأمرهم بتحويل المياه على الاعداء .

قال الراوي : اما العمدة فأخذ معه جماعة من العساكر وداروا على القرى والمديريات وطلبوا منهم ان يتطوعوا في تحويل المياه على الاعداء المعتدين على بلاد الاسلام فتطوع ما ينوف عن عشرين الف انسان وهم يحملون المعاول والفؤوس والمجارف وبداوا بالاعمال على اتم ما يرام بمدة ثلاثة ايام ولم يبق عليهم الا فتح المياه فذهب العمدة واعلم السلطان بانتهاء المشروع فقال السلطان اعملوا حسابكم على ان تصل المياه الى الاعداء مساء غد بعدما يرجعون من القتال لانهم يكونون منهوكي القوى فيجلسون ليأخذوا راحتهم ويناموا فتغمرهم المياه فلا يستطيعون ان يخرجوا منها فقال العمدة امرك يا مولاي اما الاعداء عندما اصبح الصباح برز منهم فارس وطلب المبارزة فنزل له فارس من جيش السلطان وتقاتلا قتالا شديدا الى ان خرج منهما ضربتان صائبتان كان السابق بالضربة العدو فوقع لسيف على راس الجواد فوقع هو والفارس على الارض واخذوه اسيرا فنزل فارس ثان فقتله عند ذلك نزل ابراهيم الحوراني الى الميدان وصدمه صدمة الابطال فثبت امام ابراهيم ساعة من الزمان الى ان سنحت لابراهيم الفرصة واستحكمه وضربه بذي الحيات على عاتقه اخرجه يلمع من علائقه عند ذلك دق الاعداء طبول الهجوم وزحفوا على عساكر السلطان فتلقاهم المسلمون بالصمصام وما زال السيف يعمل والدم يبذل الى اخر النهار دقت طبول الانفصال فانفصل الفريقان وعادوا الى الخيام ، اما السلطان امر العساكر ان يبتعدوا عن هذا المكان وأن يراقبوا الاعداء من جميع الجهات حتى لا يهرب منهم احد لان المياه سوف تغمرهم وتغرقهم ، اما العمدة حسنين امر الرجل بتحويل المياه ففتحوا لها السدود فسارت المياه مثل السيول الجارفة اما الاعداء بعدما رجعوا من القتال اخذوا راحتهم وداووا مجاريحهم والتهوا بشؤونهم وساسوا خيولهم وغفلوا عما حولهم واذ بالمياه غدرتهم فدب فيهم الذعر والهلع وعلا صياحهم والمياه تجرفهم ولكن اين المفر فمن تمكن منهم من انقاذ نفسه كانت لهم سيوف المسلمين بالمرصاد تقطع رؤوسهم

بسرعة البرق فهلك منهم خلق كثير فما طلعت الشمس الا وقضي على جيش الاعداء اكثرهم مات غرقا وبعضهم قتل بالسيف والباقي اسروه والقليل النادر الذي له عمر طويل فلحق بالمراكب ونفذ بروحه اما السلطان فطلب العمدة حسنين واحضروه بين يديه فاستقبله السلطان ببشاشة واثنى عليه وقال له لك عندي طلب لا يرد فقال يا مولاي انا عملت بما يرضي الله ورسوله وامير المؤمنين عسى الله ان يكتبنا مع المجاهدين الابرار عند ذلك أكرمه السلطان وامره ان يرجع السدود ويمنع تسرب المياه وقد حصل منها المراد ونصرنا الله على الاعداء ثم امر بارسال الاسرى الى مصر وعندما خفت المياه وانقطعت صارت الاهالي تأخذ امتعة الاعداء والغنائم التي لم تتلفها المياه ثم أمر السلطان بالمسير الى الاسكندرية لمساعدة الامير ايدمر والامير بكتمر فساروا الى ان وصلوا الى الاسكندرية فوجدوا العساكر على اخر رمق والاسكندرية محاصرة من كل النواحي فأمر السلطان بالحملة على الاعداء وفك الحصار فحملوا عليهم حملة مذهلة ازاحوهم عن المدينة فتنفس جيش أيدمر الصعداء وحمد الله الذي اتاهم بالفرج بعد الضيق ، ولما اصبح الصباح اصطفت العساكر وبرز من الاعداء فارس بالحديد غاطس فصال وجال وقال ابرزوا لي يا ثعالب السلطان فنزل اليه ابراهيم الحوراني وصدمه صدمة جبار بقلب اقوى من الصوان وتقاتلا في الميدان واتيا من صنوف الحرب ما تتحير به الفرسان وتعتبر به الشجعان الى ان شعر ابراهيم ان جواد خصمه قد تعب وكلّ ، لانه من خيول الافرنج الضخمة الاجسام ، اما فرس ابراهيم فكانت من خيل الاصايل العربية النادرة فصار ابراهيم يحوم حول خصمه مثل العقاب وتارة يضربه بالحسام ومرة يطعنه بالرمح فما كان يؤثر فيه الضرب والطعن لكثرة ما عليه من لحديد المصفح عند ذلك بدأ يسدد ضرباته على الحصان فجاءت ضربة على راسه فهوى الى الارض فانقض عليه غلمان ابراهيم واسروه فلما راى الاعداء ما حل بفارسهم حملوا حملة واحدة فتلقتهم عساكر السلطان بضرب احر من الجمر فثار الغبار وعلا الصياح وعساكر المسلمين يقولون الله اكبر على من طغى وتكبر فرفرف طير المنايا على الاعداء وحام وتزلزلت الارض وتنكست أعلام اللئام وانقضت الابرار على الاعداء انقضاض الصواعق فلله در الملك الظاهر فقد فتك في الاعداء فتكا ذريعا والمقدم ابراهيم الحوراني ابلى بلاء حسنا اما المقدمون والفدائيون من بنى اسماعيل فقد مالوا على الاعداء ميلة واحدة ازاحوهم عن مواقعهم وافنوا منهم خلقا كثيرا اما مراكب

ابو علي البطرلي فقد هاجمت ميناء الاسكندرية وخرجت عساكره الى البر وضربت اقفية الاعداء وكل من سولت له نفسه ان يهرب الى البحر وقد تمكن المجاهدون من فتح ابواب الاسكندرية وخرجت منها العساكر وقاتلت الاعداء واحتاطت بهم مع جيوش السلطان من جميع الجهات وقد وصل الملك الظاهر بهجومه الى علم الاعداء فضرب حامله على عاتقه ازاح راسه عن جثته فانهار العلم اما المقدمون ابراهيم وسعد ومنصور العقاب وصوان الافعى وجيل فانقضوا على الملوك الستة واسروهم فانحلت عزائم الاعداء فولوا الادبار متوجهين نحو الميناء فتلقتهم جيوش ابو علي البطرلي وكبستهم جيوش السلطان فغرق كثير منهم في البحر اما الباقون فقد رموا سلاحهم واستسلموا وما بقي للعدو اثر فأمر السلطان بجمع الاسلاب وفرقها على المجاهدين بعدما رفع الخمس لبيت المال وبعث الاسرى وملوكهم الى مصر وتوجه الى انطاكية لمساعدة ابنه السعيد الذي قدم احمد بن أيبك وجعله قائد الجيش وجعل حوله عشرة مقدمين من بني اسماعيل ومعهم خمسون الف مقاتل وسار احمد بن أيبك الى انطاكية وكان الفرتماكوس واسفوط ابن جوان والبرتقش وباقي الملوك الذين اتوا معهم مالكين البلد ومقيمين فيها فلما رأوا جيوش المسلمين اتت اغلقت الابواب وصاروا يضربونهم من فوق الاسوار فنصب احمد بن أيبك خيامه على حر الرمي وكان الملك السعيد قد وصل بعساكره فنصبوا خيامهم فكتب السعيد كتابا الى الملك الفرتماكوس وأعطاه للمقدم عباس فأخذه وسار به الى انطاكية وقال نجاب ففتحوا له الباب فدخل واوصل المكتوب الى الفرتماكوس ففضه وقراه واذ فيه من الملك السعيد بن السلطان الظاهر الذي نعلمكم به انه على الباغي تدور الدوائر وفرس الباغي عثور وقد تعديتم علينا بقتلكم الاسارى عند دخولكم انطاكية بهذه افعال الانذال الجبناء ونحن سنقتل اسراكم كما قتلتم اسرانا واعلموا ان حملاتكم على الاسكندرية ودمياط قد باءت بالفشل وجميع عساكركم فنيت واضمحلت وملوككم اسرت وذلت وان السلطان الظاهر آت اليكم بجيوشه الجرارة لينتقم منكم اشد الانتقام فاذا اردتم السلامة اطلقوا اسرانا من الاعتقال وسلموا لنا اسفوط بن جوان والبرتقش وارحلوا عن هذه الديار قبل أن يحل بكم البوار فان مصرع الباغي وخيم فلما قرأ الملك الفرتماكوس الكتاب مزقه ورماه فسحب المقدم عباس سيفه بسرعة وضرب به عنق الفرتماكوس ازاح راسه وصاح الله اكبر فانطبق عليه اللئام فقاتلهم حتى استشهد رحمه الله تعالى فقال اسفوط للملوك اقتلوا جميع الاسرى بثأر الفرتماكوس فقالوا اذا قتلناهم يقتلون ملوكنا واسرانا

الذين عندهم ولكن افتحوا الابواب وقاتلوهم وخذوا بثاره ففتحوا الابواب واصطفوا فلما رآهم احمد بن ايبك برز الى الميدان فبرز له فارس فضربه احمد بالسيف رمى راسه فبرز الثاني فالحقه بالاول وهكذا كل ما برز له فارس يقتله حتى قتل عشرين فارسا وعاد وهو مثل شقيقة الارجوان مما سال عليه من دماء الفرسان وفي اليوم الثاني برز الامير احمد الى الميدان وقاتل الاعداء ولم يقدر احد ان يتغلب عليه مدة اسبوع فضجت الاعداء من هذا الحال وقالوا ما العمل حتى نقتل هذا الفارس الشجاع فقال اسفوط كل من نزل الى الميدان اطبقوا عليه واقتلوه وفي الصباح نزل الامير احمد الى الميدان فزحفت عليه الاعداء فتلقاهم وجال فيهم جولة الذئب في الغنم ولكنهم ضربوا حصانه فوقع هو والحصان فتكاثروا علي وقتلوه قبل ان تدركه عساكر المسلمين عند ذلك زحفت العساكر على الاعد يبرون منهم الرقاب واشتعلت نيران الحرب والصدام واذ بغبار علا وث وسد منافس الاقطار وانكشف عن عساكر السلطان وهو يصيح في عسكر البدار البدار يا عصبة النبي المختار خلصوا عساكر المسلمين من ايدي الفجار اللئام فهجمت العساكر والابطال واقتحموا معركة الميدان ودام الحرب الى اخر النهار فدق طبل الانفصال وتراجعت الاعداء وتحصنت وراء الاسوار وحمل المجاهدون جثة الشهيد احمد بن ايبك واعلموا السلطان باستشهاده بعد ان قتل ما ينوف عن ثلاثين فارسا من الاعداء فتأسف عليه السلطان وامر ان يواروه التراب وفي الصباح صاح القتال بالنبال والمنجنيقات اما الاعداء ارادوا ان يطلبوا النجدة من ملوك السواحل فلم يقدروا ان يصلوا اليهم لانهم محاصرون فقال اسفوط بن جوان انا اذهب بنفسي واستنجد لكم بملوك السواحل لينجدوكم فقالوا له اسرع فذهب ليأتي لهم بالعساكر .

قال الراوي : اما جمال الدين شيحة فقال للملك الظاهر انا كنت بين الاعداء فسمعت انهم طلبوا النجدات من ملوك السواحل وقد ذهب اسفوط بنفسه يأتي لهم بالعساكر فقال له السلطان وماذا نعمل حتى نتغلب عليهم فقال شيحة نلبس مقدار الفين من عساكرنا ملابس الاعداء ويرفعون فوق رؤوسهم اعلام الافرنج واكون انا قائدهم فعندما نقرب من البلد نطلب منهم ان يفتحوا لنا الباب لاننا نجدة لهم وعندما يفتحون لنا الباب ندخل ونشغل في الاعداء ضرب الحسام وتكون عساكر مولانا السلطان على حضر فعندما ندخل البلد تهجم العساكر والابطال وتدخل وراءنا فنملك البلد بالحال

فقال السلطان قم بعملك نجح الله مسعاك فانتخب شيحة الفين من الابطال والبسهم ملابس الاعداء بزي عساكر ملوك السواحل وحملهم اعلامهم واخذهم بعيدا عن البلد قبل الفجر بساعتين واتى بغارة الى باب البلد فلما وصل صاح بلغة الافرنج على المحاصرين في الابراج نحن نجدة لكم فافتحوا لنا الباب قبل ان تشعر بنا عساكر السلطان فصدقوهم لانهم كانوا منتظرين النجدات تأتي اليهم وفتحوا لهم الباب فدخل شيحة الى البلد وصاح الله أكبر وشغل الحسام بالاعداء وقال لجنوده ارموا ما عليكم من زي الاعداء حتى تعرفكم عساكر السلطان وقد وصل الخبر الى السلطان بفتح باب انطاكية فصاح بالجيش اهجموا على البلد وانصروا جمال الدين شيحة وأبطاله الاشاوس فهجمت الفرسان على انطاكية وانطبقوا على الاعداء واحتلت جيوش السلطان انطاكية وأسروا الملوك التي فيها وجلس الظاهر على كرسي انطاكية وامر باحضار الوك التي فيها وجلس الظاهر على كرسي انطاكية وأمر باحضار الملوك الاسرى ورماهم في نطع الدم وأمر السياف بضرب رقابهم فصاحوا ولكننا نفدي أرواحنا بالمال فقال هذا لن يكون ولو فديتم انفسكم بملء الارض ذهبا وأشار السياف بانهاء ما طلب منه فرمى رقابهم ثم ان السلطان فرق الغنائم على المجاهدين وعوض على المتضررين من الرعية وأصلح شؤونهم بمدة عشرة ايام ثم سار بجيشه الى مصر المحروسة ودخل الى القاهرة بيوم يعد من الاعمار فكانت الرعية على الصفين تهتف باسمه وتدعو له بدوام العز والنصر وتثني على جيشه الباسل الى ان طلع الملك الظاهر الى قلعة الجبل ودخل الى الديوان وجلس على عرش مصر وبعد ايام أمر باحضار الملوك الاشرار وحكم عليهم بالاعدام بما فيهم الملك قريطش فصاحوا الامان ايها السلطانبعنا ارواحنا بالمال قال لسنا بحاجة الى أموالكم ارم رقابهم ايها السياف فرمى رقابهم الواحد بعد الاخر ثم واروهم الحفر الى جهنم وبئسالمصير ثم امر ان يشغلوا الاسارى على الاعمال لصالح الدولة والرعية وفي ليلة من بعض الليالي رأى السلطان الظاهر في منامه انه واقف في الميدان الاخضر في دمياط والناس مجتمعين على رجل مريض ينظرون اليه بمحبة وشوق وبينهم الملك الصالح فتقدم الظاهر وقبّل يده وقال له يا سيدي من هذا ولاي شيء هؤلاء الناس مجتمعين عليه فقال له هذا صديقك جمال الدين شيحة وهؤلاء من أولياء الله الصالحين فانتبه السلطان من نومه وقال لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ثم انه توضأ وصلى الصبح ولما طلع النهار ذهب الى الديوان وسأل عن جمال الدين شيحة فتقدم شخص وقال له هو في دمياط الحقه

فانه ينتظرك وذهب الشخص لحال سبيله فنزل السلطان من الديوان وامر ابنه السعيد ان يجلس مكانه ويحكم بين الناس ثم ركب جواده وسار الى دمياط فوضع حصانه في خان ومشى في احد الاسواق فوجد اناسا يدخلون الى مكان فدخل معهم فراى جمال الدين مريضا مرض الموت فجلس عند راسه وتذكر ايامه الماضية واياديه البيضاء واخلاصه في الجهاد في سبيل الله واخلاصه للسلطان وللدولة فدمعت عيناه حزنا وشفقة عليه ثم قال لا بأس عليك وزال الشر ان شاء الله فسمعه شيحة وفتح عينيه فراى الملك الظاهر يعوده فتبسم وقال الحمد لله الذي رايتك قبل ان انتقل من هذه الدنيا الفانية واني مشتاق لرؤيتك كثيرا وقد ارسلت ولدي اليك وهو الذي اخبرك اني في دمياط فأرجو ان تنتظر قليلا عندي حتى تخرج روحي بين يديك فتشهد لي بأني مت مسلما مؤمنا بالله وبرسوله واني اقول اشهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسل الله فأمر السلطان ان يوجهوه الى القبلة فداروه اليها وهو ينطق بالشهادتين ثم شهق شهقة ومات عند ذلك اظهر الملك نفسه وكان متخفيا وطلب نائب دمياط فحضر وحضرت الاعيان ثم أحضروا البنائين وبنوا له مقاما ودفنوه واقام الملك ثلاثة ايام في دمياط ثم عاد الى مصر .

قال الراوي : لما عرف اسفوط بن جوان ان شيحة مات قال للبرتقش قم بنا نذهب الى مصر لننتقم من اولاد شيحة ونأخذ بثأر ابي جوان فقال له ان كتاب يونان يدل على ان شيحة يقطع جوانا وابن شيحة يقطع ابن جوان لذلك لا أوافقك على رايك هذا فقال له اسفوط انا لا اصدق ما جاء في كتاب يونان ولا بد لي من الاخذ بالثأر ثم اخذ البرتقش معه وسار الى مصر يفتشان على اولاد شيحة وهما بهيئة درويشين وبينما محمد السابق ابن شيحة مارا في شارع سيدنا الحسين لمح هذين الدرويشين فعرفهما فتبعهما ليرى ما يفعلان الى ان دخلا مسجدا فجلسا فيه فأسرع محمد السابق واحضر اخوته الثلاثة ودخلوا المسجد والقوا القبض على الدرويشين وهما اسفوط بن جوان والبرتقش وكتفوهما وساروا بهما الى ديوان السلطان فسلموا عليه ثم قالوا له هذا اسفوط بن جوان وهذا البرتقش وقد قبضنا عليهما في احد المساجد متنكرين بهيئة الدراويش كما تراهما يا صاحب الجلالة فقال السلطان لاسفوط اما كفانا ما اقترف والدك من الجرائم والآثام فجئت انت تكمل جرائمه واضراره ولكن ليصدق المثل كلب خلف جروا طلع انجس من ابيه ولكننا لن نعفو عنك ولن نتركك تؤذي عباد

الله خذوه ونفذوا به حكم الاعدام فأخذوه ونصبوا له منصة في الرميلة وقطعوه على مراى الناس اما البرتقش فقال له السلطان اما تستحي وتخجل من هذه الاعمال الشائنة كيف يطاوعك ضميرك فتمشي مع المجرمين الظالمين وتساعدهم على اذاهم لعباد الله هذا استاذك جوان ولحقه ابنه اسفوط وبما انك انت تتبع آثارهما وتعمل كما كانا يعملان فمصيرك كمصيرهما خذوه فقطعوه فصاح البرتقش انا استجير بك يا امير المؤمنين وبالمقدم ابراهيم الحوراني ان تعفو عني وها اني اقول اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمدا رسول الله فقال له السلطان هنيئا لك فقد نلت السعادة وانقذت نفسك من النار ثم قال لابراهيم اجعله من رجالك يا ابراهيم فقال البرتقش بل انا خادم له مدة حياتي .

قال الراوي : وفي يوم من الايام شعر الملك بأن الشباب قد ولى وحل محله الشيب وان القوة والصحة قد ذهبتا وحل محلها الضعف وارتخاء الاعضاء والمفاصل فقال لابنه محمد السعيد انا دخلت في سن الشيخوخة وما بقي عندي جلد لاقوم بهذه الاعباء وادافع عن بلاد المسلمين دفاع المجاهدين الابرار فاجلس مكاني على عرش مصر فأنت خليفتي من بعدي ولا تتأخر لحظة واحدة في الدفاع عن المسلمين وعن بلادهم وجاهد في سبيل الله حق الجهاد ثم بايعه الوزراء والامراء والنواب واعيان البلاد وصار ملكا على عرش مصر واندقت العملة باسمه وخطبت الخطباء على المنابر تدعو له بدوام العز والنصر اما محمد السابق بن شيحة جمال الدين فجعله الملك السعيد سلطانا على القلاع والحصون مكان ابيه جمال الدين شيحة فوافق بنو اسماعيل وقدموا له الطاعة .

قال الراوي : بينما كان الملك الظاهر نائما في احدى الليالي راى في منامه سيدي عبد الله المغاوري يقول له اعلم يا محمود ان اخاك البطرلي على وشك السفر ولا بد لك ان تودعه وهو مقيم بالإسكندرية فلما نهض بيبرس من نومه قام فتوضأ وصلى الصبح وجلس يفكر في المنام واذ بابراهيم الحوراني يدخل عليه فترحب به واجلسه ثم حكى له عن المنام فقال ابراهيم خيرا رايت ان شاء الله وربما يكون تفسير منامك ان المقدم البطرلي في اواخر ايامه فعلينا ان نذهب الي الاسكندرية ونودعه فركب السلطان وابراهيم وسارا قليلا واذ بسعد آتيا ليزور السلطان فلما رآهما سلم عليهما فقال له السلطان اذهب معنا الى الاسكندرية لنعود المقدم ابو علي البطرلي فسار معهما الى ان وصلوا الى الاسكندرية فبعث إبراهيم سعدا الى نائب الاسكندرية يعلمه بمجيء السلطان فاتى بالحال وسلم فسأله الملك الظاهر عن

فقال السلطان لا تظلمه يا ابراهيم فانه اقسم معي عند مقام الرسول انه لا يغدرني ولا يخونني لا انا ولا اولادي فقال ابراهيم الله ينتقم من المجرم وبعد سبعة ايام توفي الملك الظاهر ودفنوه بدمشق في باب البريد وضريحه معروف يزار وقد بلغ موته الى ولده الملك محمد السعيد فركب هو واخوته واتوا الى دمشق وعملوا له التعزية ثم عادوا الى مصر وعاد محمد السابق وبنو اسماعيل الى بلادهم اما السعيد فجلس على عرش مصر واطلق من في الحبوس وابطل المظالم والمكوس وانعم على الناس وارضى الرعية الى يوم من الايام مرض السعيد وانقطع عن الديوان فدخل عليه بعض أرباب الدولة مثل الامير بهادر المجنون والامير سنبك الرومي وغيرهما فقال الامير بهادر يا ملك المسلمين لو ذهبت الى بستان الفيحاء تتنزه وتشـــم الهواء النقي لعلك تشفى مما الم بك من المرض فقال هذا قصدي ومرادي فأركبوه على تخت واوصلوه الى بستان الفيحاء وصاروا يخدمونه ويقدمون له ما لذ وطاب من الطعام الى ان وضعوا له السم في شرابه فشربه ولم يعلم انهم اعداؤه ثم عادوا به الى سرايته فشعر السعيد بالسم فقال لوالدته اني اشعر بالسم يسري في جسمي وكان بهادر المجنون وسنبك الرومي يقدمان لي الطعام والشراب ومرادي ان اسير الى الشام فان عشت رجعت الى مصر وان مت ادفن بالقرب من والدي ثم اجلس اخاه احمد شلامش مكانه على عرش مصر واوصى به أرباب الدولة وسافر الى دمشق فطلـــع النائب بالعساكر واستقبله وادخله الى السرايا واحضر له الاطباء وقد بلغ الخبر لابراهيم وبني اسماعيل ان الملك السعيد مريض وهو بدمشق فساروا اليه فقال ابراهيم هذا مسموم والذي دبر له السم قلاوون ثم قال للسعيد مع من كنت ايها السلطان فأراد ان يتكلم فتلجلج لسانه واسلم روحه رحمه الله تعالى فدفنوه عند ابيه ثم سافر ابراهيم وبنو اسماعيل الـــى مصر واعلموا امراء الدولة بوفاة الملك السعيد وانه دفن عند والده فعملوا له التعزية ثلاثة ايام ثم بايعوا احمد شلامش بن الملك الظاهر على السلطنـــة فجلس على عرش مصر ووقفت في خدمته أرباب الدولة وأقام يتعاطـــى الاحكام وأرسل المكاتيب الى النواب في جميع البلاد والى ملوك الـــروم والافرنج والعجم ان يؤدوا الجزية المعتادة عليهم الى السلطان احمد شلامش ابن السلطان الملك الظاهر فأدوها اليه بدون تأخير وفي يوم من الايام دخل السرايا فراى والدته وزوجة اخيه السعيد تبكيان على السعيد فقال لهما ان الدنيا زوال ولا يدوم الا الله المتعال فقالت له امه نحن نبكي اخاك لانه مات مسموما ولم نأخذ بثأره وقد قال لي اخوك قبل ان يسافر الى الشام

ان بهادر المجنون وسنبك الرومي هما اللذان كانا يقدمان لي الطعام والشراب في بستان الفيحاء فقال احمد شلامش لوالدته اطمئني غدا انتقم لك ممن سم اخي السعيد وفي اليوم الثاني احضر بهادر المجنون وقال له اخبرني سنبك الرومي انك انت الذي سممت اخي السعيد لما كان في بستـــان الفيحاء فهل سممته وحدك ام اشترك معك سنبك الرومي فقال بهادر ان قلاوون الوزير هو الذي امرنا به والذي دس له السم سنبك الرومي وقدمه للملك السعيد فأمر الملك بحبس بهادر المجنون ثم احضر سنبك الرومي وقال له ان لم تعلمني بالصحيح والا قطعت اعضاءك عضوا عضوا من الذي دس السم لاخي السعيد فقال يا مولانا انا وبهادر اشتركنا معا والذي اغرانا على ذلك الوزير قلاوون عند ذلك امر الملك احمد شلامش بقطع راس بهادر المجنون وسنبك الرومي لاقرارهما واعترافهما بأنهما قد سمما الملك السعيد ثم وضع راسيهما في صينية وارسلهما الى قلاوون وقال له الرسول خذ راسي بهادر وسنبك اللذين اغريتهما ان يسمما الملك السعيد وعن قريب يكون مصيرك كمصيرهم وتركهما عنده وعاد للديوان فارتعب قلاوون واحضر العلماء وقال لهم ان السلطان اتهمني بقتل اخيه وانا بريء والان يهددنـــي بالقتل فسار العلماء الى الديوان ونصحوا الملك بأن لا يكون ظالما فان الظلم حرام فقال لهم انا لم أظلم احدا فقالوا انك اتهمت قلاوون بقتل اخيـــك السعيد فان كان لديك بينة فهو يقتل شرعا واذا لم يكن عندك دليل فهو بريء فقال لقد ثبت عندي ان قلاوون اغرى الامير بهادر المجنون والامير سنبك الرومي على قتله بالسم وقد اعترفا واقرا ونالا جزاءهما فكيف اترك قلاوون بدو ا اجازيه على عمله فقالوا له اخرجه من مصر ولا تقتله فقال اكراما لكم ليرحل من هذه البلاد ولا يدخل اليها ابدا فذهب العلماء الى قلاوون وقالوا له خذ اهلك وارحل من هذه الديار فأخذ عياله وحمل وخرج من مصر الى الكرك فأجلس السلطان مكانه ايدمر البهلوان وجعله وزيرا اما قلاوون فانغاظ وانقهر لان الملك نفاه فتذكر ان المقدم صوانا ابن الافعى بقي بدون راتب لانه لم يطع محمد السابق بن شيحة فكتب له يطلبه بالحضور عنده فلما حضر قال له انت باق بدون راتب قال نعم واني صرفت كل مـــا املك وانا منتظر الفرج فقال له قلاوون اذا وافقتني ارد لك ما ضاع عليك من راتبك واجعلك سلطان الحصون فقال له بأي شيء اوافقك فقال له تأتيني بالملك احمد شلامش وانا آخذ السلطنة واجعلك سلطان القـــلاع والحصون فقال صوان هذا امر هين وسافر صوان الى مصر ونزل في خان

وفي الليل نزل على الملك فبنجه وحمله ووضعه في مكان وذهب الى الخان اتى بالفرس وحمل الملك على الفرس وركبها وخرج به من مصر ثم انزله عن الفرس وفيقه وعاتبه قائلا الم تعلم انه صار لي مدة طويلة بدون راتب فقال له احمد شلامش انا لم اكن ملكا يوم انقطع راتبك فاتركني الان لارد لك ما ضاع عليك واجعلك في اعلى منزلة فقال له حتى تعيش ويطول عمرك ثم بنجه وسار به الى ان وصل الى العريش جانب البحر ففيقه واطعمه وسقاه ثم ان الملك احمد شلامش نصح صوانا ان يرجع عن هذه الافعال فأتى فقال له الملك سوف ترى نتيجة أعمالك فقال له صوان أتشنقني قال له الملك هو كذلك اما صوان بنجه واضطجع ليستريح فغفل ونام ولما افاق وجد نفسه مع السلطان في مركب مكبلين بالاغلال والحديد اما المركب فكان للافرنج واصحابه قراصنة يأخذون الاسارى يبيعونهم فسار المركب حتى وصل الى مدينة الافلاق فدخل القبطان على ملكها وقال له يا ملك الزمان لقد مررت على ساحل العريش فوجدت هذين الرجلين فأسرتهما احدهما ملك والثاني لص فقال ملك الافلاق ارموهما في نطع الدم واقتلوهما وكان احد الفداوية واقفا متنكرا اسمه ناصر الدين ابو شنب فجرد سيفه وضرب السياف قتله وصاح على اللئام فانطبقت عليه العساكر فقاتل قدر ساعة من الزمان فعرف انه لا يستطيع ان يخلص الملك والفداوي الذي معه فانسل من المعركة بخفة وقصد مصر ليأتي بنجدة تخلصهما فأمر ملك الافـــلاق فرسان الخيل ان تلحقه بجميع الطرقات فركبوا وطاردوه على الخيـــل بجميع الجهات فما وجدوه وعادوا بالخيبة فقال الوزير للملك لا تقتـــل الاسيرين الان لان الفداوي الذي هرب سيعود بنجدة لا نعرف نتائجها اما الامراء في مصر فتفقدوا الملك فلم يجدوه فانغم الناس ولما وصل الخبر الى قلاوون قال ان مات بعيدا عني فمن حسن حظي فلا احد يتهمني بقتله واكون انا الملك وكان الفداوي ناصر الدين قد وصل الى مصر ودخل الديوان وسلم على الخضر ابن الملك الظاهر ثم قال ادركوا الملك احمد شلامش والمقـــدم صوان فهما اسيرين في مدينة الافلاق فلما عرف الخضر ان اخاه مأسور امر الجيش بالخروج الى ظاهر مصر واستعد للحرب وكتب الى محمد السابق ان يأتي بالفداوية الى الشام فلما قراوا الكتاب ساروا حالا الى الشـــام واجتمعوا بجيش السلطان الخضر وساروا جميعا الى مدينة الافلاق ونصبوا الخيام واذ بالابواب فتحت وخرج اللئام للحرب والصدام فالتقتهم عساكر السلطان وغنى الحسام وطارت الرؤوس عن الاجسام ودام القتال طول النهار ثم انفصلوا عن بعضهم وعاد المسلمون الى خيامهم اما محمد السابق

فقد تنكر ودخل البلد مع العساكر وانسل بالليل الى ان نزل على ملك الافلاق فبنجه وخلص احمد شلامش والفداوي صوان من السجن وحمل ملك الافلاق وساروا الى ان وصلوا الى عساكر المسلمين فدلهم محمد السابق على الموضع الذي خرج منه فتسللوا الى المدينة واهلكوا المقاتلين الذين فيها وغنموا الذخائر والاموال وصلبوا ملك الافلاق على الباب ونزلوا الى البحر الى ان وصلوا الى ميناء الاسكندرية ومنها الى مصر فطلع احمد شلامش الى الديوان وقال للقاضي ما جزاء من غدر بالسلطان واراد قتله وكان السبب بتسليمه للاعداء وتسبب في قتل كثير من المسمين وكان راس الفتنة بيننا وبين الاعداء فقال القاضي جزاؤه القتل فقال السلطان خذوا صوان واشنقوه بالرميلة فأخذوه وشنقوه فصعب على الفداوية قتل صوان وقالوا للملك ان والدك لم يقتل احد منا فلماذا قتلته فقال انتم تعلمون ماذا فعل وقد تعهدت له ان تركني ان اعوض عليه كل رواتبه التي ضاعت عليه واجعله في اعلى المراتب فتوعدني بالقتل فهذا لا يرجى منه صلاح وليس فيه خير للسلطان وللاوطان فموته اصلح من حياته اذهبوا وادفنوه ولما انفض الديوان ذهب الملك الى سرايته فاستقبلته والدته وتبسمت في وجهه وقالت له اريد منك ان تقضي لي حاجة فقال لها حاجتك مقضية فما هي قالت له الله يرضى عليك يا ابني ان تعفو عن الوزير قلاوون لان زوجته وبناته ترجينني العفو عنه وبكين امامي فأشفقت عليهن ووعدتهن بالعفو عنه فلا تخيب رجائي يا ولدي فقال كما تريدين يا والدتي عفوت عنه واذنت له بالرجوع الى مصر الى وظيفته وفي اليوم الثاني اعلن السلطان في المجلس العفو عن قلاوون وانه رجع الى رتبته فلما سمع قلاوون بالعفو عنه اقبل الى المجلس وسلم على السلطان واعتذر عما مضى ودعا له بالنصر ودوام العز والنعم فأمر له الملك بخلعة سنية افرغوها على كتفيه ثم منحه رتبة قائد الجيش الاعلى مع رتبته في الوزارة ولما انفض الديوان سار قلاوون الى سرايته فرحا مسرورا وراقت له الايام وبينما كان الملك جالسا على عرشه في الديوان واذ بنجاب وبيده كتاب سلموه الى قارىء الديوان واذ فيه من نائب غزة الى مولانا امير المؤمنين الذي نعلمكم به ان الملك عزقون والملك زعقون قد عمرا عسقلان ورفعا لها اسوارا عالية البنيان وانضم اليهما اللصوص والاشقياء وصاروا يقطعون الطرقات على المسافرين فلما سمع السلطان قراءة الكتاب قال للوزير قلاوون اركب في جيش واهلك هؤلاء الانذال فركب بعشرين اميرا ومعهم عساكرهم الى

ان وصلوا الى عسقلان فركب الاعداء وهجموا على جيش قلاوون وتقاتلوا قتالا شديدا واستشهد خلق كثير من المسلمين في هذه المعركة ولكنهم ثبتوا وظلوا يحاربون مدة خمسة ايام واذ بعساكر السلطان اقبلت فرات القتال قائما فهجموا على الاعداء واشتد ضرب السيف وطعن الرماح وقد استشهد الامير احمد العزيز اما منصور البرتقش تابع المقدم ابراهيم اقبل بالفداوية وهجم على الاعداء وضربهم ضربا شتت شملهم ونصر الله المسلمين فملكوا عسقلان وخربوها كما كانت وقتلوا عزقون وزعقون ودخل منصور وهنأ السلطان بالنصر وبلغه سلام سيده المقدم ابراهيم الحوراني وامر السلطان بجمع الغنائم والاسلاب وفرقها على المجاهدين الابرار واستأذن منصور بالعودة مع رجاله الى حوران فقال لهم السلطان سلموا لنا على المقدم ابراهيم الحوراني فلما وصلوا وجدوا ابراهيم فاقدا بصره فتأسفوا عليه كثيرا لانه صار ضريرا فقال ابراهيم هذا مقدر من الله ونسأله حسن الخاتمة اما السلطان احمد شلامش فانه سار بالجيش الى مصر وأما الوزير قلاوون فجاءه الخبر نا ابراهيم الحوراني صار اعمى فانسر كثيرا لان ابراهيم كان المدافع الاول عن اولاد السلطان الظاهر ثم انه احضر مهندسين وبنائين وحدادين ونجارين فبنوا له سبع قاعات ودهنوا الدهاليز بدهان يضيء كضوء الشمس وجعل جدران القاعة السابعة من حديد لها لوالب اذا تحركت تقع الجدران على ارض القاعة تهرس كل ما تحتها ووضع بها تختا مثل عرش السلطان في الديوان ثم عمل للعمال حفلة الانتهاء ووضع لهم السم في الطعام فهلكوا جميعا ثم اخذ صينية من الذهب مزخرفة بفصوص من الجواهر وقدمها هدية للسلطان ثم قال له عندما كنت في الكرك جاءني مولود ذكر ومرادي الان ان احتفل بطهوره وأعمل له فرحا فأرجو من مولاي السلطان ان يشرفني في داري لتتم الفرحة بوجود السلطان فقال له لك ذلك سنحضر ان شاء الله ولما كانت الليلة المعينة ذهب السلطان ومعه عشرون اميرا ودخلوا بيت الوزير قلاوون ففرح بهم ووقف في خدمتهم وادخلهم الى القاعة وأحضر لهم المائدة وأكل معهم فقال الملك لقد كلفت كثيرا هذه القاعة ولكنها مدهشة تماما فقال الوزير يوجد بداخلها قاعة اعظم منها شرفوا وانظروها فدخلوا اليها وتعجبوا من حسن اتقانها وبديع هندستها ثم دخلوا الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة وكل واحدة احسن من التي قبلها ثم قال اما القاعة السابعة فهي ادهش وأعظم من الكل لانها قد كلفت قدر كلفة القاعات الست فتشوق السلطان لرؤيتها ونهض ليراها ونهض معه الامراء ودخلوا الى القاعة السابعة وجلسوا على الكراسي

نحرك قلاوون اللوالب بسرعة فهوت الحيطان على الجميع فماتوا بلحظـــة واحدة ثم حرك اللوالب فعادت الجدران كما كانت ونظر قلاوون الى ضحاياه وتفقدهم فلم يجد بينهم الامير ايدمر البهلوان والمقدم منصور وسبب هربهما ان ايدمر قال لمنصور قم بنا لنهرب لان قلاوون مكار غدار .

قال الراوي : اما قلاوون فجمع له انصارا من عربان خضر البحيري الذي قتله الملك الظاهر من اوباش الناس وفرق عليهم الاموال والسلاح ورتب لهم المعاشات وجعل البعض منهم في قلعة الجبل والبعض فـــي الشوارع القريبة من القلعة ثم البسهم بصفة المماليك واظهر نفسه انـــه السلطان ونادى المنادي من قبله بالأمان والاطمئنان فتعجب الناس ولـــم يعلموا ما جرى على السلطان احمد شلامش ولما ركب قلاوون بالموكب ورآه الناس تعجبوا من جعل هذا ملكا وأين السلطان احمد شلامش ابن الملك الظاهر وسار به الموكب الى ان طلعالى القلعة فمنعه الحراس فقاتلهم العرب والانصار الذين معه وقالوا لهم ما انتم الا خدم في المملكة لاي ملك يجلس على العرش فسكتوا وقبلوا الخدمة عنده فلما اتى يوم الجمعة ركب فـــي موكب وذهب ليصلي فلما رآه اولاد البلد ضحكوا عليه واسمعوه كلاما بذيئا ولما عاد الى القلعة ارسل مناديه ينادون ان كل من تفوه بكلام غير لائق بحق الملك فجزاؤه القتل فسكت الناس عنه وتركوه فأقام على عرش مصر وجعل دأبه محو دولة الملك الظاهر فقتل منهم وسجن وهرب من هرب وبعد ذلك اراد ان يتزوج الملكة تاج بخت زوجة الملك الظاهر فطلبها للزواج فخافت ان يفتك بها كما فتك بغيرها فأخذت نساء اولادها وانسللن من السرايا متخفيات وتوغن في الازقة الضيقة والحارات القديمة فوجدن بابا مفتوحا فدخلن الى بيت فاذا فيه امرأة فقيرة فاستقبلتهن ببشاشة ولـــم تعرفهن فقالت لها الملكة انا زوجة الملك الظاهر هربت من الملـــك قلاوون وهؤلاء كنايني فاخفينا عندك فقالت لها يا سيدتي انا عندي ست بنات يتيمات ونحن فقراء فمن اين لنا ان نقوم بواجبكن فقالت لها اتكلي على الله فهو يرزق الجميع فقالت المراة مرحبا بكن واعطتهن غرفة اقمن فيها اما قلاوون لما طلب ان يتزوج الملكة ولم يأته منها جواب كبس سرايتها فلـــم يجدها فسأل الجواري عنها فقلن له خرجت من السرايا ولا نعلم اين ذهبت عند ذلك ختم على سرايتها ووضع يده على املاكها وارزاقها وفي احـــدى الليالي راى مناما انه شرب ثلثي البحر الحلو وما روي من شدة العطش فلما افاق احضر العلماء ليفسروا له المنام فقالوا له يا جلالة الملك ان تفسير منامك

يدل على انك تأخذ ولا تعطي ولذلك فانك لا تشبع مهما رزقك الله من المال وعاقبة الطمع وخيمة ونتيجته سيئة في الدنيا والآخرة فيجب عليك ان تكفر عن ذنوبك وسيئاتك بفعل الخيرات وبذل المبرات واعطاء الفقراء والمساكين وعمل المشاريع الخيرية وغير ذلك مما يرضي الله رب العالمين قال تعالى ان الحسنات يذهبن السيئات ولا تنس ان تبني مستشفى للمرضى والضعفاء وترتب لهم اطباء بمعاشات ليداووهم ويضمدوا جراحاتهم فاجتهد في ذلك ترضي ربك وشعبك ويرتاح ضميرك وتكون من اهل الله الصالحين فعندما سمع قلاوون تفسير منامه سر سرورا عظيما وكان غافلا عن ذلك فتنبه له ثم انه اكرم العلماء واذن لهم بالانصراف وبالحال وزع اموالا كثيرة على الفقراء والمحتاجين وعلى الارامل والايتام وأمر ببناء مستشفى ورتب له الاوقاف وكل ما يلزمه من اطباء وممرضين وخدم ثم عمر بجانبه مسجدا سمي بمسجد قلاوون .

قال الراوي : وفي يوم من الايام بينما السلطان قلاوون جالس في الديوان واذ بسيار معه كتاب من نائب حمص فقرأ فيه الذي نعلمكم يا مولانا السلطان انه وردت علينا اخبار ان البرنز ملك طرابلس الشام جهز جيشا من العساكر وتوجه الينا مراده غزو حمص والشام فادركنا يا مولانا السلطان قبل فوات الاوان أعزك الله ونصرك على الاعداء والسلام عليكم فلما قرأ الكتاب وعرف ما يحويه فبالحال أمر بتجهيز العساكر والابطال وخرج من مصر بجيش عرمرم وسار به الى حمص فوجد جيش الاعداء محدقا بها ليفتحها فأمر السلطان قلاوون العساكر بالهجوم على الاعداء وبفك الحصار عن حمص فهجموا عليهم هجوما صاعقا أزاحوهم عن حمص وكسروا شوكتهم وضعضعوا حاميتهم فلما رأى البرنز اندحار جيشه دق طبول الانفصال فافترق الجيشان وبطل القتال فأمر البرنز فلول جيشه بالانسحاب تحت الظلام والرجوع الى طرابلس فبالحال ولوا الادبار وعند الصباح ركب جيش السلطان قلاوون ومراده الحرب والنزال فلم يروا لجيش الاعداء من اثر فعلم الملك قلاوون انهم تراجعوا الى طرابلس الشام فأمر جيشه بالسير الى طرابلس فلما وصلوا اليها وجدوها معلنة العصيان ومستعدة للقتال والعساكر على الابراج فحاصرها جيش قلاوون من جميع الجهات وصار يهاجم أسوارها والابراج شهرا من الزمان فتضايق البرنز وأرسل يفاوض السلطان قلاوون بفك الحصار عن طرابلس مقابل ما يريد من الاموال ويذهب بجيشه عنها بسلام فلما قرأ السلطان رسالة البرنز كتب له اذا كان مرادك السلام سلمني البلد واذهب انت ومن تحب بسلام فأبى

٦ البرنز ملك طرابلس ان يسلم المدينة عند ذلك احضر الملك قلاوون نجارين واخشابا وقال لهم اصنعوا لي ابراجا من هذا الخشب بعلو ابراج البلد وعمل لها جسورا وصار يرميها على الاسوار لتكون ممرا للعساكر فصارت عساكر تحارب وعساكر تمر وتتصل بأسوار البلد الى ان استولوا على الاسوار وفتحوا الابواب فدخلت جيوش السلطان قلاوون الى طرابلس الشام ووضعوا السيف برقاب الاعداء فطلبوا الامان من السلطان فقال لهم لا أمان الا لمن أسلم فمن أسلم سلم عند ذلك أسلمت اهالي طرابلس الشام جميعا اما البرنز فلم يعرف مصيره فأقام السلطان قلاوون يصلح احوال المدينة ويعمر لهم المساجد ويجلب لهم العلماء واقام نائبا يحكم عنه وعززه بالعساكر ثم زحف بجيوشه وفتح قلعة المرقب ثم سار الى دمشق وأقام بها اياما فقال لابنه خليل مرادي ان تكون نائبا عني في دمشق ولكن اياك ان تتفق مع احد من اتباع الملك الظاهر والا فلا تلومن الا نفسك فقال سمعا وطاعة كما تريد يا ابي وسترى اني لا اعصي لك امرا ثم زار الملك قلاوون قبر الملك الظاهر وأمر بعمارة مقامه وعمل قبة عظيمة فوق ضريحه موجودة الى الان ويزار وبعدها عاد قلاوون مع جيشه الى مصر ودخل بموكب عظيم كأحد العظماء الفاتحين الى ان طلع الى قلعة الجبل وجلس على عرش مصر يتعاطى الاحكام .

قال الراوي : اما الملكة تاج بخت زوجة الملك الظاهر فانها احبت ان تزور مقام السيدة زينب رضي الله عنها فقالت لها أم البنات الا تخافين ان يعرفك احد ويوشي بك الى قلاوون فقالت يحميني الله منه ثم انها ارتدت ملابس امراة فقيرة وذهبت وزارت مقام السيدة زينب ولما ارادت العودة رات في طريقها زاوية ورجلا يسقي الناس فدنت منه وشربت كأسا من الماء واعطته دينارا فتعجب من كرم هذه المراة اما هي فعرفته وقالت له ايدمر قال نعم يا سيدتي فمن انت قالت انا تاج بخت زوجة الملك الظاهر فأشار اليها ان تتبعه ودخل الى مكان فدخلت وراءه وقالت له ان قلاوون قتل اولادي وصادر املاكي وارزاقي واخاف ان يقتلني فأرجو منك ان تأخذ لي مكتوبا الى المقدم ابراهيم الحوراني فقال اكتبيه فكتبت مكتوب بينت فيه اعمال قلاوون وظلمه وكيف قتل اولادها وصادر اموالها ثم قالت انت صديق الملك الظاهر فلا تترك زوجته تاج بخت تدور من بيت الى بيت متخفية خائفة على نفسها من بطش قلاوون فادركني ولك الفضل فأخذ ايدمر الكتاب وسار به الى دمشق فوجد ابراهيم عند مقام الملك الظاهر ومعه

البرغلي وتابعه منصور فسلم عليه وقال له معي كتاب من الملكة تاج بخت فقال له اقراه لنا يا ايدمر فقراه ثم حكى لهم عن افعال قلاوون فقال المقدم ابراهيم انا لا اترك قلاوون حتى اسفك دمه واذ بنائب الشام خليل بن قلاوون يدخل ويسلم على ابراهيم فقال له المقدم ابراهيم هل الك حاجة فقال لا ولكن لاراك واطمئن على صحتك فقال له ابراهيم اسمع من الامير ايدمر ما فعل والدك فبعد ان قتل اولاد الملك الظاهر بدأ يلاحق الملكة تاج بخت بعدما صادر سرايتها واموالها فتشردت هي وكنانها وهذا كتاب من الملكة اقراه فقرأ خليل الكتاب فتأثر جدا من اعمال ابيه وظلمه وقال ان الملك الظاهر لم يظلمنا حتى ننتقم منه بقتل اولاده ثم قال هل لك ان تساعدني يا مقدم ابراهيم على والدي حتى نخلعه عن العرش فقال له ابراهيم اذهب الان الى مصر بصفة زيارة وانا ادبر لك هذا الامر وسافر خليل بن قلاوون الى مصر بصفة زيارة اما ابراهيم فانه ارسل منصورا الى قلاع بني اسماعيل واعلمهم ان مراده ان يزيح قلاوون عن العرش ويكون ابنه خليل ملكا على عرش مصر لانه موال لبني اسماعيل فساعدوني على عزل هذا الظالم الباغي فتسللوا انتم الى مصر وساعدوا خليلا على ارتقاء العرش وقد اتفقت مع خليل على هذا الامر فاليوم يومكم يا بني اسماعيل ثم ارسل ابراهيم مثل هذا الكتاب الى جميع المقدمين وعندما وصلت المكاتيب الى المقدمين وافقوا على ذلك لان قلاوون قتل بعض المقدمين وطرد البعض وقد وردت الرسائل على ابراهيم من المقدمين بالموافقة وانهم في طريقهم الى مصر فأخذ ابراهيم ايدمر ومنصورا وركبوا وتوجهوا الى مصر الى ان وصلوا فوجدوا قسما كبيرا من بني اسماعيل قد حضروا ولما دخل خليل على والده قلاوون قال له ما جاء بك الى هنا فقال قد اشتقت لرؤياك ولاكسب رضاك ورضى والدتي فعبس في وجهه وقال له اسرع بالعودة الى الشام والا وضعتك في السجن فقال كما تأمر يا والدي وتقدم من ابيه وقبّل يده ثم تركه وذهب يقابل ابراهيم فلما اجتمع به وحكى له ان والده هدده بالسجن اذا اقام في مصر فقال له ان المهمة اوشكت ان تنتهي وقد اجتمع بعض المقدمين والفداوية وعلينا ان ننتظر ثلاثة ايام حتى اجمع لك الرجال واقول لهم ما يلزم ان يقوموا به من الاعمال اما انت فلا تظهر نفسك الان الى احد وجاءت الاخبار الى ابراهيم ان الرجال قد كمنوا في جميع الجهات ومنتظرين الامر للقيام بما يجب عليهم عمله فأعلمهم ابراهيم انه عندما يحضر قلاوون الى صلاة الجمعة في موكبه فاهجموا عليه واقتلوه واقتلوا كل من يدافع عنه ويكون خليل معكم فارفعوه على الجواد ونادوا

الطاعة للسلطان خليل بن قلاوون ثم اذهبوا به الى قلعة الجبل واجلسوه على عرش مصر وارسل ابراهيم خبرا الى خليل ان يحضر فحضر وسأل ابراهيم عما دبر فقال له قد اتفقنا ان نقوم بهذا العمل يوم الجمعة فتكون انت عندي ويأخذك الفداوية معهم ويقومون بأعمالهم ثم يجلسوك على عرش مصر مكان أبيك فقال له نعم الراي رايك ولما كان يوم الجمعة قبل الصلاة بساعة من الزمان أقبلّ الفداوية واخذوا خليلا وصبروا الى ان خرج موكب السلطان قلاوون وقرب من مسجد الحسين عليه السلام فهجمت عليـــه رجال بني اسماعيل وانقضوا عليه وقتلوه بين رجاله وقتلوا كل من سولت له نفسه الانتقام لقلاوون ورفعوا خليلا على الجواد ورفعوا سيوفهم وصاروا ينادون يعيش السلطان خليل بن قلاوون فاستبشرت الرعية خيرا وفرحت بقتل قلاوون لانه كان ظالما مستبد اما الفداوية اخذوا السلطان خليل الى قلعة الجبل وأجلسوه على عرش مصر وقد وفدت الاهالي وزال عنهم كابوس قلاوون يباركون لخليل ويدعون له بالنصر فأنعم عليهم وارجع زواتب بني اسماعيل واجلسهم على كراسيهم في الديوان اما ابراهيم فأخذه منصور من يده واطلعه الى الديوان وباركا للسلطان بالحكم ثم قال له اصدر عفوا عن املاك وأرزاق الملكة تاج بخت وارسل خلفها وبشرها بنوال حريتهـــا وارجاع سرايتها وأموالها اليها ثم قال المقدم ابراهيم لنخرج اولا جنـــازة السلطان احمد شلامش وذهب ابراهيم وفتح السبع قاعات التي عمرها قلاوون واخرجوا شلامش ودفنوه ودفنوا الامراء الذين قتلوا معه ودفنوا قلاوون في جامعه الذي بناه اما السلطان خليل فبايعه العلمـــاء والوزراء وسموه السلطان خليل الاشرف ولقبوه بصلاح الدين وجعلوا الوزير أيدمر وولى الملك البرغلي نائبا على الشام اما الملكة تاج بخت فسكنت في سرايتها مع كناينها وأحضرت أم البنات الست فأنعمت عليها وعلى بناتها وفي يوم من الايام أقبل نجاب ومعه كتاب من نائب الشام البرغلي فقراه السلطان خليل واذ فيه الذي نعلمكم يا مولانا السلطان ان قوافل التجار المتوجهة من الشام الى مصر كلما مرت على جسر بنات يعقوب تخرج عليها عساكر من الافرنج ويستولون عليها بما فيها من مال ورجال فارسلنا لهم سرية فرسان لتتعقبهم فأسروا منهم البعض فاذا هم من عكا وصور وقد اعترفوا بأنهم مأمورون من ملوكهم بأخذ الاموال وازهاق الارواح فأدركنا يا مولانا السلطان والسلام عليكم فلما قرا السلطان الكتاب سأل عن ملوك السواحل وعـــن البلاد التي يحكمون عليها فقالوا له لم يبق الا عكا وصور وصيدا وكل

مدينة فيها ملك يحكم عليها وهؤلاء دأبهم النهب والسلب وأذى الناس فقال السلطان خليل يجب علينا ان نزيحهم عن هذه البلاد لتستريح من شرهم العباد فأمر بتجهيز الجيش والسير به الى مدينة عكا ولما وصل اليهـــا وجدها محاصرة ومعلنة العصيان فقال ان الافرنج لما احتلوا عكا ودخلوها قتلوا اهلها عن بكرة ابيهم فعلينا الان ان نعاملهم بالمثل فعند ذلك هجـم جيشه هجوما صاعقا وقاتلوا الاعداء قتالا مريرا واعتلوا على الاســـوار والابراج وفتحوا الابواب ودخل الجيش الى عكا وقتلوا كل من فيها واخذوا النساء والاطفال سبايا وغنموا جميع ما في البلد من أموال وارزاق ولم يبق فيها احد من الافرنج بعدما ملكوها وسكنوا فيها مائة وثلاثين عاما اما الافرنج الموجودون في مدينة صور ومدينة صيدا لما سمعوا ما جرى على مدينة عكا ذعروا وخافوا فملؤا مراكبهم بأموالهم وامتعتهم وارتحلوا في البحر وفي رحيلهم كانت انتهاء الحروب الصليبية التي دامت مائتي عام اما السلطان فأعلن الى الملأ ان من يريد السكن في السواحل فليسكن بعكا وصور وصيدا ثم عين لهم النواب وعاد الى مصر وفي احد الايام قرر بعض المماليك ان يغالوا السلطان وسنحت الفرصة لاحدهم فطعنه طعنة نجلاء قضى عليـه فانقض أتباع السلطان على المملوك وقتلوه هو والمتآمرين معه ثم حملـوا السلطان الى سرايته وجهزوه ودفنوه في المقام الذي بناه لنفسه فحزنت عليه الرعية لما له من الانتصارات على الافرنج وازاحتهم عن سواحل الشام وكانت مدة سلطنته سبع سنين ثم تشاور الوزراء والامراء من يكون ملكا على مصر فاستخاروا محمد الناصر بن قلاوون وكان عمره اربعة عشر عاما فعقدوا له المبايعة بالسلطنة وجلس على عرش مصر وعدل في الرعية ودام حكمه ثلاثا وأربعين عاما وفي اثنائها توفي المقدم ابراهيم الحوراني ودفن في تربة الشيخ رسلان بدمشق وقبره مشهور يزار اما محمد الناصر بن قلاوون فقد مرض وأدركه الموت فدفنوه باحتفال عظيم فتولى بعده الحكم ولده محمد بدر الدين ولما ادركته الوفاة تولى الحكم اخوه الملك منصور صلاح الدين وجلس على عرش مصر وكانت المماليك توالي الاجتماعات وتؤسس العصابات السرية ثم اجتمعوا تحت رئاسة الامير بكداش وساروا الى القلعة وحاصروها فأطل الملك من الديوان فرأى المماليك شاهرين السيوف فقالوا للوزير ما الخبر فقال له يا مولانا انها فتنة من المماليك الشراكسة فقـال الملك وما التدبير فقال له الوزير ارسل لهم الحاجب شهاب الدين يسألهم عن هذه الاسباب فذهب الحاجب ووقف امامهم فقابله قائدهم بكداش بجفاء قائلا له ماذا تريد فقال له انا مرسل من قبل السلطان وهو ينصحكم

ان ترجعوا الى اعمالكم وتقدم انت بنفسك ايها الامير امام السلطان وتشرح له مطالبكم وتكون عند من المقربين فقال اذهب الى السلطان وبلغه ان بقاءه على عرش مصر مستحيل فقال له شهاب الدين عد الى صوابك ولا تجعل قلب السلطان يتغير عليك فما كان من بكداش الا ان رفع السيف وضربه على راسه ففلقه ووقع قتيلا فلما علم السلطان انهم قتلوا الحاجب صعب عليه وتكدر فقال له الوزير لا تتأثر ايها الملك وارسل لهم المقدم علام البطل الهمام يحاربهم فأمر السلطان المقدم علام ان يأخذ عساكره يحاربهم ويقطع دابرهم فركب جواده وتبعته الجنود والعساكر الى ساحة الميدان والتقوا بالامير بكداش وجماعته الثائرين فحاربوهم فانهزموا وعاد المقدم علام ظافرا منصورا وبعد ايام توفي السلطان فبايعوا ابنه الملك الاشرف زين الدين شعبان وجلس على كرسي مصر فوجه افكاره الى عصابات الشراكسة فقطع دابرهم من البلاد واستراحت منهم العباد وكان الملك الاشرف عنيدا يقتل كل من سولت له نفسه بالتآمر على الدولة فتألفت عصابة شركسية وجاهرت بالعصيان فأوفد السلطان اليها المقدم علام فسار اليهم بأربعة آلاف فارس ودهمهم في الظلام وأسر الامير بكداش وارسله مقيدا الى الديوان فوضعوه في السجن فهجمت جماعته على السجن وخلصوه اما الملك فأصابه مرض توفي على أثره فبايع الناس علاء الدين بالسلطنة ولقبوه بالملك المنصور وكثرت في زمنه الثورات ومات بعد خمس سنوات ثم تولى بعده زين الدين ولقب بالملك الصالح فبذل جهده في استتباب الامن وقبض على بكداش وعلى بعض الشراكسة وشنقهم فتحزب الباقون في البيوت بتحريض من الامير برقوق وعملوا مؤامرة على السلطان وقتلوه وصار برقوق الشركسي ملكا على مصر والشام ففي اثناء حكمه خرجت الشام من طاعته فجهز الاساطيل والجيوش بقيادة ولده عبد العزيز برقوق وبأثناء تأديبه المتمردين بالشام بلغه موت والده فعاد ليتولى الملك فوجد اخاه الملك الناصر ابا السعادات متوليا على الملك فعزم على معاكسته وقتله فأحاط بسراية اخيه فذعر السلطان واعتزل الحكم وهرب الى الشام ثم عمل مؤامرة على اخيه عبد العزيز فقتله واخذ منه الحكم فلما مات جلس ابنه المظفر على الحكم وبعد سنة من حكمه توفي الى رحمة الله فتولى بعده سيف الدين الظاهر وبعده الملك الصالح ابو النصر ومات مسموما بعد اشهر فتولى الحكم بعده الملك الاشرف برسباي وكان جبارا عنيدا ولما مات تولى بعده الملك العزيز جمال الدين ثم تولى السلطنة الملك الظاهر جقمق سنة ثمانمائة واثنين وخمسين هجرية وحكم بالعدل بين العباد وصان الملك والبلاد وكان

عادلا رؤوفا على الخلق ونشر الامن والراحة في البلاد ثم قضى نحبه ثم تولى بعده الملك المنصور عثمان فلم يمكث على عرش الملك طويلا فخلعوه لفساده وتولى بعده الملك الاشرف اينال في نفس السنة التي تولى فيها الملك السابق فلما جلس سلك مسلـــك العادلين واراح الناس من ضرر الفوضى ورتب المملكة وعمل اصلاحات كبيرة ثم تولى بعده الملك المؤيد بن اينال وجلس على سرير الملك وطمع في فتح العراق بعد ان حارب اليمن واخضعهم ولكنه لم ينتصر عليهم لوقوع المشاحنات بينه وبين أكابر دولته فخلعوه فحكم بعده الملك الظاهر خوش قدم في ذات السنة وقاتل اهل العراق حتى أخضعهم ودخل مدينة بغداد وتملكها ثم سار بجيشه العرمرم حتى وصل بلاد طرابلس الغرب وفتحها وقاتل المتمردين في الشام واليمن حتى وافته المنية فتولى بعده الملك الظاهر يلباي ولكونه سيء التدبـــير والتصرف خلعوه فتولى بعده الملك قايتباي في نفس السنة فقام بالخلافة خير قيام ولم يظلم احدا وحقن دماء الرعية وصان أموالها ونشر الامن فمات بالغا من العمر سبعين سنة قضاها بالعدل والاصلاحات داخل المملكة ثم حكم بعده الملك الناصر ابن قايتباي سنة تسعماية وواحد من الهجرة ومكث في الخلافة ثلاث سنوات بنى فيها القلاع والحصون وغير ذلك من الآثار النفيسة ومن آثاره الباقية برج قايتباي في الاسكندرية على شاطيء البحر ثم تولى بعده الملك الظاهر قانصوه الاشرف ولكنه لم يحكم غير سنة واحدة وتولى بعده السلطان ابو النصر جانبلاط سنة تسعماية وخمس من الهجرة ولم يحكم طويلا لكثرة الفتن والقلاقل وحدوث الثورات في الولايات ثـم تولى بعده الملك العادل طومان باي ولم يحكم الا جزءا يسيرا من سنـــة تسعمائة وست من الهجرة ولم تتوطد أقدامه ثم جلس الملـــك الاشرف قانصوه الغوري وبقي على عرش الخلافة الى ان هاجمه السلطان سليم العثماني وانتصر عليه واحتل منه بلاد الشام ومصر وسائر مملكته واستولى على الخلافة وبايعته العلماء والاشراف واعيان البلاد وامراؤها وسائـــر الرعية بالخلافة وارسل له شريف مكة المبايعة بالخلافة ومفاتيح الحرمين مع وفد من قبله وانتقلت الخلافة الى بني عثمان في القسطنطينية وصاروا يتوارثونها عن بعضهم البعض وكان اخر الخلفاء محمد وحيد الدين وقد الغى الخلافة الثائر مصطفى كمال باشا فسبحان الدائم على الدوام بعد فناء خلقه والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه البررة الميامين آمين .

تمت سيرة الملك الظاهر بيبرس

يسرّ دار الكتب الشعبيّة للطباعة والنشر بأن تقدّم روائع القصص الشعبي التاريخي بحلّةٍ جيّدةٍ وطباعةٍ فاخرةٍ وأسعارٍ زهيدةٍ، وقد صدر منها الكتب التالية:

قصّة عنترة

قصّة الزير سالم

تغريبة بني هلال

سيرة الملك سيف بن ذي يزن

سيرة بني هلال



الناشر
مكتبة الشرق الجديد - بغداد

السعر ٦/٠٠٠ دينار